

البيزنطيون والعرب

(٦٤١ - ١١١٨م / ٢٠ - ١٠٩٣هـ)

عن يحيى محمد



المجلس
الأعلى
للثقافة



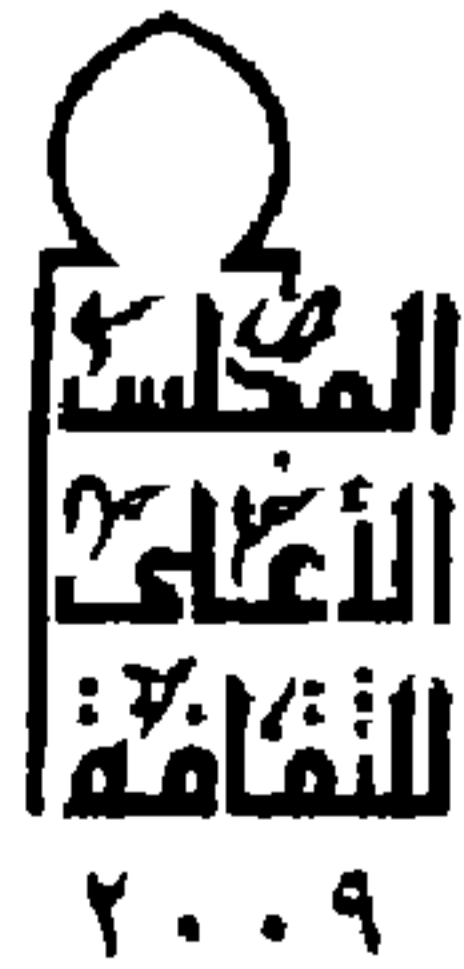
المجلس الأعلى للثقافة

البيزنطيون والعرب

(٦٤١-٧١١م)

(٢٠-٩٣هـ)

عمر يحيى محمد



المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

محمد ، عمر يحيى .

البيزنطيون والعرب (٦٤١-٧١١م) (٢٠-٩٣هـ) /

تأليف : عمر يحيى محمد ؛

ط ١ - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٩

٣٤٤ ص ، ٢٤ سم

١ - الإمبراطورية البيزنطية

٩٤٩,٥٠٢

٢ - العنوان

رقم الإيداع ٤٠١٤ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولي : 9 - 066 - 479 - 977 - 978 - I.S.B.N

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الأفكار التي تتضمنها إصدارات المجلس الأعلى للثقافة هي اجتهادات أصحابها، ولا
تعبر بالضرورة عن رأى المجلس

حقوق النشر محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 27352396 Fax : 27358084.

مقدمة

حكمت الإمبراطورية البيزنطية - والتي تعتبر الوريث الشرعي للإمبراطورية الرومانية القديمة - بنظام حكم ملكي عبر أسر إمبراطورية توالت على العرش. فمنذ انتقال العاصمة من روما، وتأسيس العاصمة الجديدة القسطنطينية وخلال تاريخها الطويل؛ الذي امتد أحد عشر قرناً، توالت على العرش ثلاث عشرة أسرة حاكمة.

كانت الأسرة "الهرقلية" (٦١٠-٧١١م) والتي أسسها الإمبراطور البيزنطي "هرقل" هي إحدى هذه الأسر التي حكمت الإمبراطورية طوال قرن من الزمان، وكان لها دورها الكبير والخطير في تاريخ الإمبراطورية، وفي مسيرتها والتغيرات التي تعرضت لها والأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية التي ألمت بها.

ففي بداية تأسيس هذه الأسرة، استطاع مؤسسها تحقيق انتصار كبير وحاسم على دولة الفرس التي قامت قبيل قيام الأسرة الهرقلية بالاستيلاء على أجزاء كبيرة من أراضي الإمبراطورية البيزنطية في بلاد الشام وآسيا الصغرى ومصر، وتكبيدها هزائم وخسائر فادحة. وكان لهذا الانتصار الكبير أثره في إحياء الإمبراطورية وإنقاذها من هذه الأزمة الخطيرة والإطالة في عمرها، وانتشالها من الخطر الكبير الذي كان يهددها بالفناء. كما كان له أثره في تغيير ميزان القوى بالمنطقة في تلك الفترة التاريخية الحرجة من العصور الوسطى، وتحجيم قوة الدولة الفارسية، العدو اللدود والتقليدي للإمبراطورية الرومانية القديمة ووريثتها الإمبراطورية البيزنطية.

كما أن هذه الأسرة تزامنت مع قيام الدولة الإسلامية وظهور حركة الفتوح الإسلامية حيث وقع الصدام بين الدولتين وكان نتيجته أن خسرت الإمبراطورية البيزنطية معظم تلك الأراضي التي استطاعت استعادتها من الفرس بعد حرب ضروس، لتصبح جزءاً من الممتلكات والأراضي الإسلامية.

لقد استطاعت الدولة الإسلامية التي بنت وجودها وانتصاراتها على حساب القوتين السابقتين اللتين أرهقتهما الحروب والصراعات، أن تصبح قوة جديدة بارزة على مسرح الأحداث، وعندما اختفت الدولة الفارسية حلت مكانها الدولة الإسلامية، ليتركز الصراع بين القوتين العظميين الجديديتين (الإسلامية والبيزنطية) طوال قرون عديدة.

ومن هنا يكتسب القرن السابع الميلادي / الأول الهجري بأحداثه وصراعاته، والأسرة الهرقلية بالدور الذي لعبته خلال هذا الصراع، أهميتها وأحقيتها بالدراسة والبحث.

والبحث الذي بين أيدينا يقوم بدراسة الأوضاع التي كانت عليها الإمبراطورية البيزنطية خلال فترة حكم الإمبراطور هرقل، وما تطورت إليه الأوضاع بعد وفاته سنة (٦٤١م / ٢٠ هـ) حتى نهاية حكم خلفائه من أسرته سنة (٧١١م / ٩٣ هـ)، فقد شهدت الإمبراطورية خلال هذه الفترة تطورات سياسية واقتصادية وعسكرية، تركت آثارها - فيما بعد - على الأوضاع الداخلية للإمبراطورية وعلى علاقتها بالمسلمين وبالقوى الأخرى من لاتين وبلغار وخرز، وكل ذلك تم تناوله بالتفصيل في إطاره التاريخي.

ويركز البحث على دراسة فترة الأباطرة الذين خلفوا الإمبراطور هرقل في حكم الدولة البيزنطية من أبنائه وأحفاده، ومنهم الإمبراطور قنسطانز الثاني الذي استطاع السيطرة على العرش بعد فترة الفوضى التي أعقبت وفاة الإمبراطور هرقل وإصرار زوجته مارتينا على المشاركة في الحكم، رغم عدم اعتراف الكنيسة ورجال السناتو بشرعيتها أو بشرعية زواجها من الإمبراطور هرقل.

وكذلك دراسة الصراع المرير الذي خاضته الإمبراطورية مع المسلمين في عهد هذا الإمبراطور، والذي كاد أن يقع أسيراً في يد المسلمين خلال مشاركته لقواته في القتال أثناء موقعة ذات الصواري البحرية الشهيرة سنة ٦٥٥م / ٣٤ هـ.

ثم فترة الإمبراطور قسطنطين الرابع والذي شهدت الإمبراطورية البيزنطية انتعاشاً في عهده، بعد أن بلغ الصراع مع المسلمين مداه حين قاموا بمحاصرة عاصمة الإمبراطورية القسطنطينية للمرة الأولى وفشل هذا الحصار لعدة أسباب تناولها الباحث بالتفصيل والتحليل من خلال كافة المعطيات التي رافقت هذا الحصار.

وكذلك فترة الإمبراطور جستين الثاني والذي تجدد الصراع مع المسلمين في فترة حكمه الأولى، ولعب العامل الاقتصادي دوراً كبيراً في قيام هذا الصراع وتشعبه، وكانت إحدى نتائجه المباشرة تصميم المسلمين على سك عملة إسلامية خاصة بهم، والتحرر من دائرة الاقتصاد البيزنطي وعملته ونظمه الإدارية.

كما أن فترة الإمبراطور جستين الثاني شهدت حدثاً خطيراً فقد أدت ثورة في العاصمة البيزنطية إلى إقصاء الإمبراطور وعزله وجذع أنفه، ثم قام ثلاثة من القادة البيزنطيين باغتصاب العرش على التوالي، إلا أن جستين الثاني تمكن من الهرب من منفاه، واستطاع بمعونة من البلغار استعادة عرشه، وكانت عودته وما اتخذته من سياسات موعظة في التطرف والانتقام حافزاً لقيام ثورة جديدة عليه ليتم قتله وولى عهده، وإنهاء حكم البيت الهرقلي للإمبراطورية.

والبحث في مجمله يتناول فترة هامة من تاريخ الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، فبالنسبة للإمبراطورية البيزنطية فإن الدراسة تشمل الفترة التي أعقبت وفاة الإمبراطور هرقل، حيث انحسرت الأراضي التي كانت تسيطر عليها الإمبراطورية البيزنطية بفقدانها لأهم أراضيها، من الناحية السياسية والاقتصادية والدينية، وتعرضت فيها الإمبراطورية لهزات سياسية وعسكرية أثرت كثيراً في أوضاعها.

كما أن القرن السابع الميلادي، والذي حكمت خلاله الأسرة الهرقلية، يشكل أهمية خاصة في تاريخ هذه الإمبراطورية، مما جعل كثيراً من المؤرخين يذهبون إلى أن هذا القرن شهد تبلور فكرة الإمبراطورية البيزنطية الإغريقية، وبروزها

بعيدا عن التأثيرات الرومانية واللاتينية والغربية بصفة عامة، حيث ساهمت الفتوحات الإسلامية وما ترتب عليها من انكماش الدولة فيما تبقى لها من أراضٍ في آسيا الصغرى وبلاد اليونان والبلقان في أتباعها لسياسات جديدة وانحيازها إلى ثقافة مغايرة وتفكير سياسى يختلف عما سبق.

أما بالنسبة للدولة الإسلامية فإن فترة البحث لا تقل أهمية عن سابقتها حيث شهدت هذه الفترة توطيد الحكم الإسلامى فى الأراضى المفتوحة والتوسع شمالا وغربا فى أملاك الإمبراطورية البيزنطية وبداية التفكير فى إنشاء البحرية الإسلامية، وبروز الاقتصاد الإسلامى بعيداً عن الارتباط بالعملة البيزنطية ودورة الاقتصاد البيزنطى وتعريب الدواوين.

كما أن تلك الفترة شهدت قيام عدة معاهدات سياسية بين الطرفين، وحدث فيها أول حصار إسلامى بشكل كثيف ومنظم للقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية.

قسّم الباحث دراسته إلى خمسة فصول رئيسية ناقش فيها عدة مواضيع، بادئاً بتمهيد موجز عن أوضاع الإمبراطورية فى خواتيم القرن السادس، وأوائل السابع الميلاديين، مركزاً على تلك الأسباب والعوامل التى ساعدت على بروز الأسرة الهرقلية وظهورها على مسرح الأحداث.

وتناول فى الفصل الأول الدور الذى لعبه الإمبراطور هرقل فى إقامة هذه الأسرة وتثبيتها على العرش البيزنطى من خلال الحروب التى خاضها، والسياسات التى اتبعها، والتغيرات التى أحدثها، والصورة التى ظهرت بها الإمبراطورية فى مختلف أوضاعها السياسية والعسكرية والاقتصادية والدينية فى عهده، وما أثمره كل ذلك من تمهيد العرش البيزنطى أمام أبنائه وأحفاده ليستمر حكم الأسرة الهرقلية للإمبراطورية البيزنطية على مدى قرن من الزمان.

وتناول الفصل الثانى وراثه العرش فى أعقاب موت الإمبراطور هرقل، وتم فيه تتبع موجز لنظام وراثه العرش فى الإمبراطورية البيزنطية منذ تأسيس القسطنطينية، وكيف ظهرت الإرهاصات الأولى لظهور هذا النظام حتى تبلورت فى بروز نظام وراثه العرش فى عهد الأسرة الهرقلية، وترسخه، وما هى الإجراءات والتغييرات التى أحدثها الإمبراطور هرقل لترسيخ هذا النظام، وكيف أدت تلك الإجراءات إلى أن تحكم الإمبراطورية فى أعقاب وفاته بثلاثة أباطرة، وما جره ذلك من صراعات وصدامات قادت فى ختامها إلى إنفراد حفيده الإمبراطور قسطنز الثانى بالعرش البيزنطى.

وتناول الفصل الثالث أوضاع الإمبراطورية البيزنطية تحت حكم الإمبراطور قسطنز الثانى، ابتداء من بروز مجلس السناتو، واستعادته لنفوذه والدور الذى لعب فى وصول قسطنز الثانى إلى العرش، وسياسات الإمبراطور الداخلية والدينية وتأثيراتها على الإمبراطورية. ثم صراعه مع المسلمين، وكانت قمة هذا الصراع فى موقعة ذات الصوارى التى كاد الإمبراطور أن يقع فيها أسيراً فى يد المسلمين، وكيف أن المسلمين لم يستفيدوا من نتائج موقعة ذات الصوارى العسكرية، وإنما دفعتهم الصراعات الداخلية إلى السعى لتوقيع معاهدة مع البيزنطيين صبت فى صالح الدولة البيزنطية، وأتاحت الفرصة للإمبراطور قسطنز الثانى لإجراء بعض التحركات فى الغرب الأوروبى لاستعادة النفوذ البيزنطى هناك، ولكن ما لبثت هذه التحركات، متضامنة مع أحداث حدثت فى العاصمة البيزنطية، أن دفعت إلى قيام مؤامرة لاغتيال الإمبراطور فى سيراكوز عاصمة صقلية.

وتناول الفصل الرابع أوضاع الإمبراطورية البيزنطية تحت حكم قسطنطين الرابع الذى عرف بلقب الـ"ملتقى"، وقد شهدت الإمبراطورية فى عهده تغييرات عديدة، وأحداث كبيرة كان أهمها الحصار الذى تعرضت له العاصمة البيزنطية لمدة سبع سنوات من الجيوش والأساطيل الإسلامية، وفشل هذا الحصار وكان لهذا الفشل أسباب عديدة.

وتناول الفصل الخامس والأخير الإمبراطورية البيزنطية تحت حكم جستنيان الثاني، والذي تم في عهده اتخاذ سياسات داخلية جديدة كما شهدت العلاقات مع الدولة الإسلامية تطورات جديدة كان من بينها تجديد المعاهدة مع المسلمين، إلا أن الأمور ما لبثت أن تطورت إلى الحرب بين الدولتين تحت تأثير العامل الاقتصادي.

وقد تعرض الإمبراطور جستنيان الثاني إلى ثورة أقصته عن الحكم ولكنه بعد عشر سنوات استطاع أن يستعيده، وخلال هذه السنوات العشر حكم الإمبراطورية ثلاثة أباطرة مغتصبين من خارج الأسرة، شهدت الإمبراطورية خلال فترة حكمهم تغيرات وتطورات كثيرة.

وخلال الفترة الثانية من حكم الإمبراطور جستنيان الثاني تسارعت الأحداث والتطورات التي كان سببها الروح الانتقامية التي سيطرت على الإمبراطور، ضد الذين اغتصبوا منه الحكم أو شاركوا في إقصائه سواء رجال دين وأفراد أو قوى سياسية أو عسكرية أو مدن، مما أدى إلى تزايد التذمر الذي تصاعد إلى ثورة عارمة أدت إلى إقتلعه من العرش ومقتله هو وولي عهده، وبالتالي القضاء على البيت الهرقلي، وقد تفاوتت النظرة إلى هذه الفترة الثانية من حكم جستنيان الثاني حتى أن بعض المؤرخين طلب إلغائها من تاريخ الإمبراطورية وإغفالها باعتبارها فترة انتقام إرهابية كان لها أثرها السيئ على أوضاع الإمبراطورية.

ثم جاءت خاتمة هذا البحث وفيها حاول الباحث إبراز أهم النتائج التي توصل إليها من خلال فصول الدراسة الخمسة، وأهم التغييرات التي برزت خلال فترة حكم البيت الهرقلي للإمبراطورية - مع التركيز على مكانة الأسرة الهرقلية في التاريخ البيزنطي، والدور الذي لعبته هذه الأسرة في انتشال الإمبراطورية من أزمتها والمد في عمرها - وكذلك تطورات العلاقة بين الدولتين البيزنطية والإسلامية وأثر هذه العلاقة والاحتكاك على الحضارتين، ونقاط التصادم والتأثر.

المفتدين

كما زود البحث ببعض الخرائط التي أعطت صورة عن أوضاع الإمبراطورية خلال فترة حكم البيت الهرقلي.

اعتمد الباحث في دراسة الأوضاع البيزنطية في عهد خلفاء هرقل، على عدد من المصادر والمراجع التي تناولت هذه الفترة الهامة من تاريخ الإمبراطورية، وأهم مصادر حولية ثيوفانيس Theophanes والتي خصصها للفترة من ٢٨٤ - ٨١٣م، أي منذ وصول دقاليديانوس إلى الحكم وتفكيره في نقل العاصمة من الغرب إلى الشرق، حيث انتقل بها من روما إلى نيوقمديا، ليقوم الإمبراطور قنسطنطين الأول (٣٠٥ - ٣٣٧م) فيما بعد بنقلها إلى القسطنطينية.

ولد ثيوفانيس في الفترة من (٧٥٢ - ٧٦٠م) وقد دخل سلك الرهبنة وكان قريباً من الأسرة الإمبراطورية الحاكمة، وتعتبر حوليته مصدراً هاماً لتاريخي القرن السابع والثامن الميلاديين وترسم إطاراً للشئون البيزنطية في هذين القرنين.

فقد ترجم هذه الحولية من اليونانية إلى اللاتينية أحد أمناء المكتبة البابوية واسمه انستاسيوس Anastasius، وقد قام باحثان إنجليزيان باختيار فترتين من فترات الحولية وترجمها إلى الإنجليزية.

فقد قام (H. Turtledove) بترجمة لتواريخ الفترة ٦٠٢ - ٨١٣م^(١)، وقام (A. R. Santoro) بترجمة لتواريخ الفترة ٧١٧ - ٨٠٣م^(٢). ومن حسن الحظ أنه قد صدر مؤخراً ترجمة كاملة للحولية إلى الإنجليزية، حفلت بالعديد من الهوامش والملاحظات والمقارنات مع مصادر أخرى، وهي الترجمة التي اعتمد عليها الباحث اعتماداً كلياً في هذا البحث^(٣).

(١) The chronicle of Theophanes, trans. By H. Turtladove, Philadelphia, 1982

(٢) The chronicle of Theophanes, trans. By A. R. Santoro, Gorham, Me., 1982

(٣) The chronicle of Theophanes, Confessor, Byzantine and near Eastern History (AD284-813) edited by Cyril Mango, and Roger Scott, Clarendon Press, Oxford, 1997.

ورغم محاولة ثيوفانيس أن تكون حوليته شاملة لأحداث الإمبراطورية البيزنطية وجيرانها وبالذات المسلمين، إلا أنه يلاحظ أن هناك أخطاء كثيرة في التواريخ والمعلومات والأسماء عند تعرضه لتاريخ الدولة الإسلامية. وهو ما حاول مترجما الحولية توضيحه، وما قمنا بتصحيحه عند تناول بعض مروياته وبالذات في الفترة التي تناولت زمن البحث وأحداثه .

وهناك مصدر آخر كتبه أحد نصارى بلاد الشام باللغة العربية هو أغابوس ابن قنسطنطين المنبجي، من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وقد اشتهر كتابه هذا باسم "العنوان" أو "تاريخ المنبجي" وقد قام الدكتور عمر عبد السلام التمرى بتحقيق أجزاء من هذا الكتاب تحت عنوان: (المنتخب من تاريخ المنبجي)^(١).

والمنبجي كان أسقفاً لمدينة منبج، ويستمد الكتاب أهميته من أنه قد اعتمد على مصدر معاصر للأحداث هو توفيل بن وتما النصراني المتوفى في أوائل سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥م، وهو مؤرخ معاصر لسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية^(٢).

والكتاب من المصادر الأولية التي اعتمد عليها كثير من المؤرخين المسلمين كالبلانري والمسعودي وابن العميد وغيرهم^(٣). وقد استفاد الباحث من هذا المصدر في تتبع العلاقات بين الدولتين البيزنطية و الإسلامية في فترة البحث. كما قام بتدارك بعض الأخطاء التي أوردها المحقق في الهوامش.

كما اعتمد الباحث على العديد من المصادر الإسلامية التي تناولت فترة البحث من أمثال كتاب الطبري (تاريخ الرسل والملوك) وكتاب البلاذري (فتوح البلدان) وكتاب ابن الأثير (الكامل في التاريخ).

(١) أغابوس بن قنسطنطين المنبجي، المنتخب من تاريخ المنبجي، انتخبه وحققه أ.د. عمر عبد السلام التمرى، دار المنصور، طرابلس، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م، ص ٥.

(٢) المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص ٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٧.

فكتاب الطبرى أفاد الباحث فى جانب هام وهو تتبع الفتوح والغزوات والحروب التى سادت بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية انطلاقاً من بدايتها منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم فى عهد الخلفاء الراشدين والجزء الذى يتصل بفترة البحث من الدولة الأموية. وقدم الطبرى معلومات وفيرة عن الجيوش الإسلامية وقادتها وربطها بالسنوات التى تمت فيها هذه الحملات، وعن الحالة التى غادر فيها الإمبراطور هرقل بلاد الشام بعد أن تأكدت هزيمة جيوشه، وفشلت محاولاته العديدة فى استعادة زمام الأمور أو السيطرة فى بلاد الشام.

واستفاد الباحث من كتاب البلاذرى (فتوح البلدان) فى إلقاء الضوء على قضية المردة التى شغلت جانباً كبيراً من العلاقات والصراع بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية، حيث انفرد البلاذرى بتقديم عرض تاريخى عن هؤلاء القوم وتأثيرهم فى الأحداث واستخدام الدولة البيزنطية لهم فى التجسس ومناوشة الدولة الإسلامية، وكيفية تخلص الدولة الإسلامية منهم عن طريق الاتفاق مع الدولة البيزنطية على نقلهم من تخوم الشام إلى الأرض الداخلية فى الإمبراطورية نظير مبالغ مالية، وتأثير ذلك على الصراع بين الدولتين.

كما استفاد الباحث من البلاذرى فى قضية النقود الإسلامية وتعريب الدواوين حيث قدم البلاذرى معلومات فى هذا الموضوع.

كما أفاد البلاذرى فى تقديم معلومات كثيرة عن فتح جزيرة قبرص وموقف الفقهاء المسلمين من أهلها حين تمردوا على الدولة الإسلامية وساعدوا البيزنطيين، فصمم المسلمون على إعادة فتحها.

ومن المصادر الإسلامية الهامة التى اعتمد عليها الباحث كتاب "الكامل فى التاريخ لابن الأثير" والذى قدم معلومات وافرة عن الفتوح الإسلامية وعن الصراع مع الدولة البيزنطية، كما قدم معلومات عديدة عن أوضاع الدولة الأموية وعن الأحداث التى ألمت بها فى الخارج والداخل، وأثرت على نشاطها العسكرى فى

التصدى للبيزنطيين. كما استفاد الباحث من كتاب ابن الأثير فى تتبع القادة الذين قادوا الحملات العسكرية ضد البيزنطيين حول مصر، اعتمد الباحث على مصدر هام هو كتاب ابن عبد الحكم (فتوح مصر وأخبارها) والذي قدم معلومات وفيرة فى هذا الجانب وأفاض فى ذكر الأسماء والروايات والأخبار التى أهمتها المصادر الأخرى.

كما اعتمد الباحث على مصادر إسلامية أخرى مثل اليعقوبى (تاريخ اليعقوبى)، خليفة بن خياط (تاريخ خليفة بن خياط) ابن كثير (البداية والنهاية)، الأزدي (فتوح الشام)، ابن الجوزى (المنتظم)، وغير ذلك من المصادر الإسلامية التى قدمت معلومات كثيرة عن أخبار الفتوحات الإسلامية، الصراع والعلاقات مع الدولة البيزنطية.

كما اعتمد الباحث على عدد كبير من المراجع الأجنبية الحديثة التى تناولت تاريخه الإمبراطورية البيزنطية، أمثال مؤلفات: جيبون Gibbon، وفازيلف Vasiliev، وبيورى Bury، واستر وجورسكى Ostrogorosky، وأومان Oman، وشارل ديل Charles Diehl، وموسوعة كامبردج للعصور الوسطى (Camb. Med. Hist.) وعدد من البحوث المنشورة فى مجلة (Byzantion) لعدد من الباحثين فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، وعدد آخر من الدراسات والمؤلفات العربية أو المعربة التى تناولت تاريخ الإمبراطورية البيزنطية والعلاقات مع الدولة الإسلامية.

وعن الدراسات السابقة عاد الباحث إلى رسالة الدكتورة ليلى عبد الحميد بعنوان "الإمبراطورية البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل" ودراسة الدكتورة عائشة أبو الجدائل بعنوان "الإمبراطورية البيزنطية فى القرن السابع الميلادى" والأولى تتناول فترة الإمبراطور هرقل، والثانية التطورات والتغيرات الإدارية والتنظيمية، وقد استفاد منهما الباحث بشكل كبير.

ويرجو الباحث أن يكون قد وفق في إعداد هذا البحث، وتغطية جوانبه المختلفة، باذلا الشكر لمن أعان في جمع معلوماته سواء في مكتبة جامعة الملك عبد العزيز، أو مكتبة جامعة القاهرة، أو دار الكتب في القاهرة، أو الجامعة الأمريكية في بيروت، أو لمن فتح مكتبته الخاصة وسمح باستعارة بعض الكتب والمراجع منها أو مدَّ يد العون في ترجمة بعض النصوص.



تهديد

أوضاع الإمبراطورية البيزنطية في مطلع القرن السابع الميلادي

شهدت الإمبراطورية البيزنطية أواخر القرن السادس ومطلع القرن السابع الميلاديين انهياراً في أوضاعها شمل مختلف نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية. على أن هذا التدرج نحو الانهيار كان قد بدأ مبكراً لتكتمل صورته في مطلع القرن السابع الميلادي.

ففي عهد الإمبراطور جستنيان الأول (Justinian I) (527 - 565م) رغم أن الدولة شهدت انتعاشاً وانتصارات عسكرية استطاعت من خلالها استعادة أجزاء من الأراضي والممالك التي كانت قد فقدتها خلال غزوات الجرمان وسيطرتهم واستقرارهم في هذه الأراضي، وإنشاء دول خاصة بهم بعيداً عن سيطرة وسلطة القسطنطينية، إلا أن هذه الانتصارات قد كلفت ثمناً باهظاً، وتطلبت سياسات أثرت كثيراً على أوضاع الإمبراطورية ومستقبلها⁽¹⁾. فالجيوش التي حركها الإمبراطور جستنيان إلى شمال أفريقيا حيث الوندال، وإلى إيطاليا حيث القوط الشرقيين، وإلى أسبانيا حيث القوط الغربيين، وإلى فارس معقل العدو التقليدي للإمبراطورية البيزنطية، قد تطلبت إنفاقاً باهظاً استنفد جزءاً كبيراً من خزينة الدولة ورصيدها المالي، وأكملت المشروعات المعمارية والحصون والقلاع التي توسع الإمبراطور

Vasiliev, A.A: History of the Byzantine Empir, the University of Wisconsin Press, (1) 1958, Vol. I,P.140.

وعادة يطلق اسم الجرمان على الشعوب المتبربرة التي انتقلت ابتداء من القرن الميلادي على أنحاء الإمبراطورية ومنهم القوط الشرقيون والغربيون والهون والأفار والسلاف وسواهم ولمزيد من التفصيل عنهم انظر: تاكينوس والشعوب الجرمانية، ترجمة د. إبراهيم طرخان، دار الضياء للطباعة، القاهرة 1959م.

جستينيان في إنشائها في بعض من أنحاء الإمبراطورية على الجزء الباقي^(١)، وكل ذلك دفع الإمبراطور إلى التوسع في الضرائب وتبع ذلك انهيار اقتصادي وتدهور في التجارة، وزاد الأمر سوءًا ذلك الخلاف المذهبي الذي أخذ يسود أنحاء الإمبراطورية وخاصة في جزئها الشرقي، وكان نتيجة ذلك أن حدث تباعد وتنافر بينها وبين القسطنطينية، نتيجة للاضطهاد والقمع اللذين تعرضت لهما هذه الأجزاء^(٢).

لقد أظهرت الأحداث فيما بعد أن مخططات جستينيان ومشروعاته قد فشلت فشلًا نريعًا، وتؤكد هذا الفشل بعد وفاته مباشرة حيث دخلت الإمبراطورية في نفق مظلم من الأزمات والصراعات، فقد تسلم من جاء بعده من الأباطرة دولة متداعية ذات اقتصاد ومالية منهارة، وأقاليم متناحرة، وأوضاع متردية، ولذلك فإن المؤرخ بيورى Bury لا يتجرأ على الحقيقة حين يقرر أنه "إذا كان هناك رجل يمكن اعتباره مسئولًا عن تفكك الإمبراطورية الشرقية (البيزنطية) على هذا النحو فإن هذا الرجل هو الإمبراطور - العظيم - جستينيان"^(٣). فقد أثار سخط الشرق بسبب المسائل المذهبية نتيجة لسياسته الدينية، وأودى بموارد الإمبراطورية، لدرجة أن خلفاءه لم يجدوا ما يكفي من الرجال والمال للحفاظ عليها والدفاع عنها.

لقد تلى جستينيان سلسلة من الأباطرة الضعاف الذين لم يستطيعوا النهوض بالإمبراطورية أو معالجة المشاكل التي أحاطت بها، وعجلت بوصولها إلى حافة التراجع والانهيار.

وفي خضم هذا الواقع المرير للإمبراطورية البيزنطية، استهل القرن السابع أحداثه.

(١) Ostrogorosky, G.; History of the Byzantine state, second Edition, Basil Blackwell, London 1968. P.65

(٢) نورمان كانتور: العصور الوسطى الباكورة، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، الطبعة الثانية، (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٦)، ص ٢٢٧.

(٣) Bury, J.B. The History of the later Roman, Empir, from Arcadius to Irene, London, 1989, Vol. I, P. 362

اعتلى الإمبراطور فوكاس Phocas (٦٠٢ - ٦١٠م) العرش بعد أن قاد انقلابًا عسكريًا ضد الإمبراطور موريس Moris (٥٨٢ - ٦٠٢م) وأعدم الإمبراطور السابق مع عدد من أفراد أسرته^(١). ولم يستطع فوكاس مواجهة الأزمات المتتالية التي أحاطت بالإمبراطورية، ففضى أيامه بين اضطرابات داخلية وهزائم خارجية أمام الأعداء التقليديين للإمبراطورية سواء على الجبهة الشرقية في مواجهة الفرس أو على جبهة البلقان في الغرب أمام الصقالبة والآفار^(٢).

ورافق هذه الهزائم أزمة اقتصادية طاحنة تمثلت في زيادة الأموال التي كانت الدولة مضطرة لدفعها للصقالبة لضمان عدم تقدمهم لمهاجمة العاصمة، وفي انتشار المجاعة بسبب تلف محصول القمح لعامي (٦٠٨، ٦٠٩م) بسبب الشتاء القارس، وتوقف إمدادات القمح من إفريقيا ومصر خلال هذين العامين^(٣).

وفشل الإمبراطور فوكاس في التصدي لهذه الأوضاع ومعالجتها وتعاضمت نذر الثورة على حكمه في الداخل، بدأت القسطنطينية تتطلع إلى إمبراطور منقذ يستطيع وقف هذا الانهيار والتصدي لهذه الأوضاع.

ظهر هذا المنقذ في شخص هرقل^(٤)، الذي جاء من شمال إفريقيا، وسرعان ما استطاع السيطرة على الأمور في القسطنطينية ليعلن في الخامس من أكتوبر عام (٦١٠م) بموافقة الشعب ومجلس السناتو والكنيسة إمبراطورًا على الدولة البيزنطية^(٥).

(١) Ostrogorsky, Op. Cit., P 67

(٢) الباز العريني: الدولة البيزنطية، (دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٢م) ص ١١٣.

(٣) محمد محمد مرسى الشيخ: تاريخ مصر البيزنطية، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٦م) ص ٢٤٣.

(٤) هرقل Heraclius هو ابن أرخون (والى) إفريقيا والذي كان يسمى بنفس الاسم، وكان هذا الوالى أحد رجال الإمبراطور موريس، وسبق أن قاتل الفرس معه، ومكافأة له على جهوده أعطى له حكم شمال إفريقيا، وبدأ "الأرخون" مقاتله لفوكاس حين منع تصدير القمح وأوقف إرسال جيشين بقيادة ابنه هرقل وابن أخيه نيكيتاس. وقد ولد هرقل (الذى أصبح فيما بعد إمبراطورًا) سنة ٥٧٥م، وحين تسولى العرش كان عمره خمسة وثلاثين عامًا، وتمثلت أهم مواهبه في القيادة العسكرية والخطابة. وهناك خلاف بين المؤرخين حول أصول أسرة هرقل، فالبعض يرى أنها أرمنية، وتنسب إلى بيت أرمنى مشهور هو بيت الأراشكة Arsacids، فى حين يرى آخرون أنها تنسب إلى أصل قبائوقى، مما جعل البعض يلجأ إلى الصفات الجسمانية لهرقل مثل لون شعره ولون عينيه وبشرته لتحديد أصل أسرته. انظر أيضًا: I.P.235، Vasiliev, Op. Cit.، وأيضًا: Theophanes, the chronicle of the theophanes confessor, Byzantin and near Esrten History (AD 284 – 813) Edited by Cyril Mango and Roger scott, Oxfordm 1997. P. 427

(٥) د. أسد رستم، الروم، الطبعة الثانية، (المكتبة البولسية، بيروت ١٩٨٨م) ج ١، ص ٢٢١.



الفصل الأول

التغيرات التي طرأت على الإمبراطورية
البيزنطية في أواخر عهد الإمبراطور هرقل

- التطورات السياسية والاقتصادية
- تطورات الصراع مع الفرس
- محاولة إصلاح الأوضاع الدينية
- نشأة الصراع مع المسلمين

التطورات السياسية والاقتصادية:

باعتلاء هرقل للعرش في القسطنطينية، بدأت الإمبراطورية البيزنطية طورًا جديدًا من تاريخها وأوضاعها، وبدأت حركة الإصلاح التي شملت مختلف الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية.

ففي الجانب السياسي شرع الإمبراطور هرقل يعمل بطاقة وجه من أجل تثبيت سلطته وسلطة أسرته، وكان أول ما ركز عليه إنهاء نزاعات الأحزاب وصراعاتها والتي كانت تشغل جانبًا كبيرًا من أحداث الفوضى في جميع أنحاء الإمبراطورية حيث استطاع أن يقلم أظافر هذه الأحزاب^(١) وأن يقضى على

(١) تعود حركة الأحزاب في الإمبراطورية إلى فترة مبكرة من انتقالها من الغرب إلى الشرق، فقد ظهرت هذه الأحزاب في بداية تأسيس القسطنطينية على يد الإمبراطور قسطنطين الأول (٣٠٥ - ٣٣٧م) وكانت في بداية أمرها تنحصر في فرق رياضية تمارس الرياضة وبالذات سباق الخيل والعربات ثم ما لبثت هذه الفرق والتي عرفت بالألوان التي اتخذتها شعارًا لها، وهي اللون الأزرق والأخضر والأحمر والأبيض، ولكن الشهرة ذهبت إلى فريق الزرق والخضر لأن أنصارهما كانا مصدرًا للقلق والاضطرابات، وسرعان ما نمت التنافس بين أنصار الفريقين، وتحول إلى تنافس سياسي هام قادر على التأثير على مصير الإمبراطورية، وأصبح على الأباطرة أخذه بعين الاعتبار، ويتضح الدور الشعبي الذي لعبه أهل القسطنطينية من خلال حزبي الزرق والخضر في المشاركة في الحياة السياسية واختيار الأباطرة وعزلهم، وهناك من يعتقد أن حزب الزرق هو حزب الحكام وأبناء الطبقة العليا، وأن حزب الخضر هو حزب المعارضة ممثلًا في عامة الناس، وأن حزب الزرق يمثل مذهب كنيسة القسطنطينية الذي أقره مجمع خلفونية وأن حزب الخضر يمثل المذهب المونوفيزيتي (مذهب الطبيعة الواحدة) الذي أدانته مجمع خلفونية سنة (٤٥١م) على أن هناك من يعتقد أن جموع أنصار وأعضاء حزبي الزرق والخضر كانت تنتمي للطبقة الاجتماعية الدنيا، وأن الاختلاف بين الحزبين يرجع إلى اختلاف قيادة وزعامة كل حزب، فقيادة حزب الزرق كانت في يد أبناء الطبقة العليا من شاغلي المناصب العليا في الحكومة والقصر، أما زعامة حزب الخضر فكانت في أغلب الأحوال في يد كبار التجار وأصحاب البضائع والمحلات الكبيرة، أي في يد الفئات الغنية من الطبقة الوسطى، وعلى هذا فإن جموع أنصار وأعضاء الحزبين كانت تنتمي للطبقة الدنيا، إلا أنها خضعت لقيادة الدوائر العليا في المجتمع. ولا شك أن الخلاف المذهبي قد لعب دورًا كبيرًا في الصراع بين الحزبين وفي تغذية التنافس بينهما.

لمزيد من التفاصيل عن أحزاب في الإمبراطورية البيزنطية راجع الدراسة الموسعة للدكتور وسام فرج بعنوان: أضواء على مجتمع القسطنطينية، دراسة في التاريخ الاجتماعي لمدينة قسطنطين، في كتاب: دراسات في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥م، الصفحات: ٣ - ٥٣.

المنازعات التي كانت تتشب بينها، ويوجه، نشاطها وتنافسها إلى ميادين جديدة تحتاجها الإمبراطورية. ولقد ساعدت الإصلاحات الإدارية التي نهض بها لإصلاح النظام الإداري في الدولة، والسياسة التي انتهجها في التعامل مع هذه الأحزاب في الحد من أثرها وفعاليتها السياسية، فعلى الرغم من أن الخضر ساندوه بكل قوة، ولعبوا دورا كبيرا في تسهيل دخوله وسيطرته على القسطنطينية، إلا أنه لم يذهب بعيدا في محاباتهم أمام الزرق - الذين أظهروا ميلاً لفوكاس - واكتفى بأن أحرق علمهم كعقاب لهم. وأظهر هرقل الحذر في تعامله مع الأحزاب فلم يفضل علانية أحد الحزبين على الآخر، حتى لا يثير استياء وسخط الحزب الآخر^(١). كذلك لا شك أن شخصية الإمبراطور هرقل وعسكريته والدور الذي لعبه في إنقاذ العاصمة، والانتصارات التي حققها فيما بعد أمام الفرس والآفار قد أكدت مكانته وجعلت هذه الأحزاب تعود تدريجيا إلى حجمها الحقيقي ودورها القديم في الاكتفاء بالتنافس في سباقات الخيل في ملعب الهيبودروم Hippodrome وإلى تنظيم الاحتفالات والمهرجانات في المناسبات، وأن تتراجع عن المشاركة في الحياة السياسية وهو الدور الذي اكتسبته في عهود الأباطرة الضعاف^(٢).

إلى جانب ذلك فإن الإمبراطور هرقل قد أوجد عدة إصلاحات إدارية ساعدت في تثبيت حكمه وحكم أسرته، وفي الانتقال بالإمبراطورية إلى مرحلة جديدة، وكان من هذه الإصلاحات، التعيينات الجديدة التي أدخلها في الجيش وفي أجهزة الدولة أصحاب الثقة والخبرة من أسرته وأشقائه وأبنائهم، والمتعاونين معه^(٣). فقد قام بتعيين ابن عمه نيكيتاس Nicetas في منصب أمير إحدى فرق الحرس الإمبراطوري Cont of Excubitors كما منحه لقب بطريق Patrice مع

(١) Theopanes Op.Cit., P.429.

(٢) ستيفن رانسيمان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد (سلسلة الألف كتاب رقم ٣٧٩)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦١م) ص ٧٧.

(٣) Ostrogorsky, Op. Cit., P.89.

احتفاظه بمنصب حاكم مصر^(١)، وعين أخاه ثيودور Theodor في منصب عميد القصر Curopalares وعمل قائداً للجيش البيزنطية في حروبه ضد الفرس والمسلمين^(٢).

وقام الإمبراطور هرقل بإلغاء منصب الوالى البريتورى Praetorio Praeterus، وكان يقيم بجانب الإمبراطور فى القسطنطينية ويليه فى أهميته وفى مكانته، وتتركز مسؤوليته فى إدارة شئون الإمبراطورية من النواحي المدنية والقضائية، ومستولاً أيضاً عن حكام الأقاليم والإدارات التابعة لهم، وكان فى الواقع بمثابة الوزير الأول^(٣). ولذلك يرى استروجورسكى أن الإقدام على إلغاء هذه الوظيفة نقطة تحول لها خطورتها فى النظام الإدارى الإمبراطورى ويعود ذلك إلى أن نظام الثيمات الذى جاء به هرقل حل محل الولايات البريتورية التابعة للوالى البريتورى وتحولت إلى قائد الثيم الكثير من اختصاصه، كما أن الولاية البريتورية وكانت من أهم ما تميزت به النظم الإدارية البيزنطية السابقة قد تقلصت أهميتها عندما حل محلها نظام الثيم كنظام إدارى جديد^(٤).

كذلك قام الإمبراطور هرقل بإنقاذ الإمبراطورية من الحالة الاقتصادية المتردية التى وصلت إليها، فقد واجه عند اعتلائه عرش الإمبراطورية اقتصاداً منهياراً، بلغت ذروته تلك المجاعة الشديدة التى تعرضت لها الإمبراطورية فى السنة الأولى من حكمه "إذ عرض بالروم جوع شديد حتى أكل الناس الجيف وجلود البهائم"^(٥)، وتزامن مع هذه المجاعة هزة أرضية عنيفة دُمرت فيها منازل كثيرة، وانتشر مرض الطاعون^(٦).

(١) رانسيمان، مرجع سابق، ص ٩٢، ١٦٤.

(٢) أسد رستم، الروم / ج ١، ص ٢٤٤.

(٣) د. عائشة أبو الجدايل: الإمبراطورية البيزنطية فى القرن السابع الميلادى (دار المفرد الرياض، ١٤١٥م) ص ٢٢٥.

(٤) Ostrogorsky, Op. Cit., P.100 ولمزيد من التفاصيل عن نظام الثيمات انظر الصفحت (١١ - ١٣).

(٥) اغابوس بن قسطنطين المنبجى: المنتخب من تاريخ المنبجى، انتخبه وحققه د. عمر عبد السلام تدمرى (دار المنصور، طرابلس - لبنان، ١٩٨٦م) ص ٢٦.

(٦) Finally, History of Greece, Vol. I, Oxford, 1977, Vol. I, P. 230

وساهمت التطورات العسكرية في زيادة هذه الأزمة الاقتصادية فالفرس واصلوا تقدمهم في سوريا ومصر، والآفار زادوا ضغطهم على الأراضي البيزنطية، مما أدى إلى توقف حركة التجارة، يضاف إلى كل ذلك أن الإمبراطور هرقل قد تسلم دولة خاوية الخزينة، محملة بأعباء مالية ضخمة وجيش جرار من موظفي البلاط^(١)، وكانت تهدة الفرس والآفار تحتاج إلى مبالغ طائلة من الأموال.

ولهذا سعى الإمبراطور للتعامل مع الأزمة الاقتصادية مبكراً حتى يستطيع إنقاذ اقتصاد الإمبراطورية المنهار واتخذ لمواجهة ذلك عدة إجراءات منها: تحديد عدد الموظفين ورجال الدين في كنيسة آيا صوفيا، وذلك لتوفير رواتبهم^(٢). وقام بإصدار عملة فضية جديدة تزن ستة جرامات وقيمتها المعلنة ضعف قيمتها الحقيقية واستخدمها لدفع مرتبات الجند والموظفين، وتبع ذلك تنظيم دور سك العملة ودمج عدد من الإدارات المالية التي كانت قائمة وتحقيق مزيد من الإشراف المركزي للدولة وتحكمها في كل ما يتصل بدخلها من حيث مواردها ونفقاتها^(٣). وكان أخطر تلك الإجراءات هي قيام الإمبراطور هرقل بفرض ضريبة قدرها ثلاث قطع من الذهب على كل من يكون له الحق في الحصول على الخبز المحلي، ثم تطور الأمر إلى إلغاء توزيع الخبز المجاني^(٤)، وهو الخبز الذي كان يحصل عليه سكان القسطنطينية مجاناً منذ فترة حكم الإمبراطور قنسطنطين الأول، مما أدى إلى حدوث اضطرابات في القسطنطينية وتأثر عدد واسع من قطاعات المجتمع بهذه الخطوة خاصة الخبازون وملاك السفن الذين ينقلون الغلال وأصحاب المصلحة في الحصول على هذا الخبز المجاني^(٥). وهذا دفع الإدارة البيزنطية إلى بذل جهود واسعة لحل الأزمة بالسعى إلى إنتاج محصول القمح بمساعدة المنتجين في تراقيا

(١) مورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، تعريب حسين مؤنس، ومحمود يوسف، القاهرة ١٩٥٠م، ص ١٥٧.

(٢) Stratos, A.N., Byzantium in the seventh century, (602 – 634) Trans by, Marco Ogilvie – Grant, Amaterdam, 1968, Vol. I, P. 123

(٣) د. عائشة أبو الجدائل، مرجع سابق، ص ٢٦٧.

(٤) Finaly, Op. Cit., Vol. I, P.319

(٥) الباز العريني: كتاب والي المدينة، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، م ١٩٠٧ (مايو ١٩٥٧م) ص ١٤٣.

وآسيا الصغرى وعلى ساحل البحر الأسود، وعلى هذا أدت الأزمة إلى ازدهار زراعة القمح فى هذه المناطق^(١).

وأحدث الإمبراطور هرقل تغييرا جذريا فى نظام الطوائف المهنية والتجارية العاملة فى الإمبراطورية، إذ أن النظام الموروث عن الحكومة الرومانية كان ينص على إلزام الابن بممارسة مهنة أبيه، وأن تكون هناك طوائف خاصة خاضعة لسلطان الدولة تضم التجار والحرفيين فى سائر أنحاء الإمبراطورية، فلم تعد عضوية الطوائف وراثية، وأضحى قبول الأعضاء بالطائفة اختياريا بعد أن كان إجباريا، فلا يشغل الوظائف الخالية بالطائفة إلا من يجتاز امتحانا يعقده رؤساء الحرف وموظفون من قبل الدولة، مما أعطى الدولة مزيدا من السيطرة والسلطان على هذه الطوائف^(٢).

كما تم التوسع فى مكاتب التجارة الخارجية بعد أن كانت تجارة الدولة الخارجية تخضع لموظف إمبراطورى واحد يدعى *Commericiarii* وكانت مهمته مراقبة التجارة الخارجية من خلال أسواق دولية خاصة تقام بصفة دورية، وأصبح هناك عدد كبير من المكاتب التجارية فى كل مرفأ أو ميناء هام وكل طريق ينتهى إلى الإمبراطورية^(٣)، لتحقيق الانتعاش التجارى وإحكام الرقابة الجمركية.

ومن أهم الإصلاحات التى تنسب إلى عصر هرقل نظام الثيمات *Themes* وهو نظام عسكري وإدارى استدعته الظروف التى أصبحت عليها الإمبراطورية فى مطلع القرن السابع الميلادى، فقد كانت معظم أراضي الإمبراطورية - وبالذات الغنية منها - خارج سلطة الدولة، وبما أن خزائن الإمبراطورية خاوية لا تستطيع الدفع للجنود المرتزقة مقابل خدماتهم، فقد فكر الإمبراطور هرقل فى نظام إدارى وعسكري جديد يحقق إمكانية الصمود وتوفير الجند الوطنيين الذين يدينون بالولاء

(١) Stratos, Op. Cit., Vol. I. P. 125

(٢) الباز العرينى: كتاب والى المدينة، مرجع سابق، ص ١٣٨، ١٣٩.

(٣) ارشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٠م) ص ٧٤.

لبلادهم، وقرر أن ينزل بعضًا من الفرق العسكرية في الأقاليم المهددة بالخطر، ومنح جنودها قطعًا من الأراضي يستغلونها مقابل أدائهم الخدمة العسكرية، وذلك لترغيبهم في الاستقرار، وتشجيعهم على الاستمارة في الدفاع عنها، وبذلك نشأ نظام الثغور والثيمات^(١).

وقد كثر الجدل حول نشأة نظام الثيمات، وهل ظهر في عهد الإمبراطور هرقل أم قبله أم بعده؟!

فقد قيل إن كلمة "ثيم" تعنى في الأصل حامية أو فرقة عسكرية، وكان الاصطلاح يطلق في الأساس للدلالة على القائمة التي يدرج فيها أسماء أولئك الذين من واجبهم الخدمة في الجيش وبمرور الوقت استخدم للدلالة على جزء من الجيش، يقيم بطريقة دائمة في إقليم ما، ويتولى الدفاع عنه، ثم أخذت الكلمة تستعمل للدلالة ليس فقط على الفرقة العسكرية ولكن أيضا على الإقليم أو المنطقة التي تتمركز بها^(٢).

وهناك من يرى أن أصل كلمة "ثيم" وتاريخها وتفسيرها ظل موضوعًا غامضًا، في حين يرى آخرون أن كلمة "ثيم" كلمة دخيلة تعود إلى الفترة المبكرة من القرن السابع وأنها مشتقة من كلمة Tumen في لغة الخزر التركية وتعنى تشكيلًا مكونًا من عشرة آلاف جندي^(٣).

ويعتمد عدد من المؤرخين على ما ذكره الإمبراطور قنسطنطين السابع بورفير جينتوس (٩٤٤ - ٩٥٩م) في كتابه الثغور Thematibus على أن نظام الثغور يعود إلى عهد الإمبراطور هرقل^(٤) وعلى أن أولى الثيمات أسسها هرقل لمواجهة خطر الفرس، وأن وظيفة قائد الثيمات ما هي إلا تطوير لوظيفة Magister

(١) الباز العريني: أجناد الروم (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٦م) ص ٥، إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون، الطبعة الثانية (الدار القومية للطباعة والنشر) القاهرة ١٩٦٣م، ص ١٥٨.

(٢) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I.P.275

(٣) د. عائشة أبو الجدائل، مرجع سابق، ص ٢٧٥.

(٤) Stratos, Op. Cit., P. 273

Militum (الرئيس العسكرى) التى زود صاحبها بسلطات عسكرية وإدارية واسعة وهى أصل وظيفة الاكسرخونية Axarchatc (الوالى العسكرى) التى استحدثها موريس^(١).

وأيا كان الخلاف بين المؤرخين حول بداية هذا النظام وتشكيلاته، إلا أن الأمر المؤكد أن الإمبراطور هرقل كان عاجزاً عن دفع رواتب الجنود المرتزقة الذين كانت تعتمد عليهم العسكرية البيزنطية، كما أن هرقل من واقع خبرته العسكرية وتجربته كان يعلم أن الجنود المرتزقة هم أردأ العناصر العسكرية، وقد كان نظام توطين المواطنين فى الأرض فى مقابل الخدمة العسكرية نظاماً معروفاً لديه ومعمولاً به فى الولاية التى جاء منها وهى شمال إفريقيا^(٢). كل هذه العناصر دفعت الإمبراطور هرقل إلى تطوير الأنظمة العسكرية التى كانت موجودة والاستفادة منها فى الوصول إلى التنظيم الذى يعينه على تحقيق النهضة العسكرية التى تطلبتها الظروف التى كانت محيطة بالإمبراطورية، وهذا لا يعنى أن النظام ظهر كاملاً ابتداءً من فترة الإمبراطور هرقل ولكن لا مفر من الإقرار أنه قد تم وضع لبنته الرئيسية فى هذه الفترة، ليأتى خلفاء الإمبراطور هرقل من بعده ويسهمون فى تطويره مع ما يتفق مع مستلزمات الأحداث وتطوراتها فى عهودهم^(٣).

ومن المؤرخين من يرى أن هرقل قد استفاد نظام الثغور أو الثيمات من أعدائه وجيرانه الفرس^(٤)، وأن إعادة تنظيم الإمبراطورية فى القرن السابع كان محاكاةً لذلك التنظيم الذى تم فى فارس فى القرن السادس حين قسمت البلاد إلى أربعة أقسام كبيرة تخضع لسلطان أربعة من القادة العسكريين هم الأصهبهذون

(١) Bury, Op. Cit., Vol. 2, P.341.

(٢) Ostrogorsky, Op. Cit., P.97.

(٣) د. لىلى عبد الجواد، الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل (دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٥م) ص ١٨٠، ١٢١.

(٤) ارثر كريستس: إيران فى عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب (بيروت ١٩٥٧م) ص ٥٦٧.

ونوابهم المرابذة^(١). ولا يستبعد أن الإمبراطور هرقل فى محاولة لمواجهة الظروف الإدارية والعسكرية التى أضحت عليها الإمبراطورية قام بدراسة نظم الحكم لدى أعدائه قبل أن تبدأ حملاته على فارس، وحاول أن يستفيد منها حين سعى إلى دمج السلطتين المدنية والعسكرية فى يد قائد عسكرى يقوم على رأس الجيش فى منطقة معينة، مما يعتبر نواة لظهور نظامه الجديد وهو نظام الثيمات^(٢).

على أية حال لقد تمثل النظام الجديد فى دمج جيش الأطراف أو الحدود مع نظام الإرخونيات، وبمقتضى النظام الجديد استقر الجند فى الأراضى مثلما كان شائعا فى الإرخونيات وتغلب العامل العسكرى، وأصبح حاكم الثغر والذى كان يسمى بالاستراتيجوس Strategus ويقابل من كان معروفا بالأرخون؛ هو المسيطر على هذا الثغر أو الإقليم^(٣).

ويعين الاستراتيجوس من قبل الإمبراطور مباشرة، وهو عضو فى البلاط الإمبراطورى، ومسؤول عن جميع شؤون إقليمه العسكرية والإدارية والمالية والاقتصادية والقضائية^(٤)، ويخضع لسلطته عدد من الموظفين العسكريين والمدنيين مهمتهم إدارة هذا المزيج من الواجبات العسكرية والمدنية والقضائية والمالية التى تدخل فى نطاق وظيفتهم، ومن هؤلاء الموظفين الـ Protomandator وهو أكثر الموظفين أهمية، وكان يعمل قاضيا للثغر^(٥) وإلى جانب مسؤوليته عن النواحي المالية والإدارية، له حق مخاطبة الإمبراطور مباشرة. وهناك الـ Chartularius وهو المشرف على التجنيد والمؤن ومرتببات الجند^(٦).

(١) الباز العرينى: الدولة البيزنطية، ص ١٢١. والأصبهبذون هم أصحاب تدبير الملك، وقد عهد لكل واحد منهم بتدبير جزء من أجزاء المملكة، والمرابذة هم أصحاب الثغور، ليلى عبد الجواد، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٢) Baynes and moss, Byzantium, Oxford 1948, P. 285، واسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٧٨.

(٣) Ostrogorsky, Op. Cit., P.87

(٤) Stratos, Op. Cit., P. 276

(٥) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I,P.277

(٦) Baynes and moss, Byzantium, P. 291

وكانت نواة التنظيم العسكرى فى كل ثيم هى الفصيلة Bandon، والتي تعتبر الوحدة الأساسية فى التنظيم ويتولى قيادتها قائد يحمل لقب كوميس Komes، وكانت كل مجموعة من الفصائل (ما بين فصيلتين إلى ثمانية) تشكل كتيبة عسكرية تعرف باسم Tama يتولى قيادتها قائد يعرف باسم تورماخ Tormach^(١) أو طرماخ كما تطلق عليه المصادر العربية^(٢).

وبالإضافة إلى الوحدات العسكرية الكبيرة المعروفة بالثيمات كانت هناك وحدات إدارية عسكرية أصغر تسمى كليزورات Kleisourachia ترابط على الحدود، ولقائدها نفس سلطات وصلاحيات قائد الكتيبة، لأن معظم قادة الكليزورات كانوا قبل ذلك قادة كتائب، ثم انفصلوا عن سلطة الاستراتيجوس فى الثيم الذى كانوا ينتمون إليه أصلاً^(٣).

ولا شك أنه كان لظهور وتطبيق نظام الثغور فى الإمبراطورية فوائد جمّة عادت بالنفع على الإمبراطورية ومنها: توفير جيش مقاتل من داخل الإمبراطورية بدلاً من اللجوء للجند المرتزقة الأجانب الذين اعتمدت عليهم الإمبراطورية لفترة طويلة، حيث قامت الدولة بتقسيم الأراضى التى ينزل بها الجند إلى ضياع ووزعتها عليهم بشرط أداء الخدمة العسكرية، وأصبح الفلاحون المجندون المستقرون فى الثغور عنصراً أساسياً فى القوات المسلحة، وكانت أراضهم تمد الجيش بالتموين اللازم، وأفاد ذلك من ناحيتين هما: وجود جيش جاهز للقتال، وتخفيف الأعباء المالية على خزانة الإمبراطورية^(٤).

(١) د. عبد الرحمن العبد الغنى: الحدود الإسلامية البيزنطية (حوليات كلية الآداب الكويتية رقم (١١)).

الكويت ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م) ص ٢٧.

(٢) ابن حوقل (أبو قاسم النصيبى): صورة الأرض، بيروت ١٩٧٩م، ص ١٧٨.

(٣) عبد الرحمن العبد الغنى، مرجع سابق، ص ٢٩.

(٤) حسنين ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية (دار النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩٠م) ص ٧٧.

وأفاد ذلك أيضا في نمو الفلاحة الحرة، وبروز طبقة الفلاحين الأحرار الذين أوجدوا التوازن في ملكية الأراضي وفي البناء الاقتصادي للدولة، وحدثوا من سيطرة طبقة النبلاء الأقوياء في آسيا الصغرى ومناطق الثغور، وكانت مصالحهم لا تتعارض مع مصالح الإمبراطورية بعكس الطبقة الأرستقراطية القديمة من كبار ملاك الأراضي، واشتهر هؤلاء بالحرص الشديد والغيرة القوية في الدفاع عن ممتلكاتهم، فضلا عما يدفعونه من ضرائب للدولة، وأصبح للجنود المزارعين قيمة اقتصادية واجتماعية تعدل أهميتهم العسكرية، وشدّ من أزرهم قانون الفلاح الذي يرجح أنه يعود إلى هذه الفترة^(١).

كما أن هذا النظام شجع الجنود على الاندماج في الإقليم الذي يقيمون فيه وحدثت التزاوج بينهم وبين السكان المحليين^(٢). على أن أهم ما استفادته الإمبراطورية من هذا التنظيم كان توفير الجند الوطنيين التي كانت في أمس الحاجة إليهم للدفاع عن نفسها أمام الظروف والأعداء الذين أحاطوا بها، وتجديد دماء الإمبراطورية وهي تستهل قرناً جديداً من تاريخها حفل بالكثير من الأحداث والتغيرات.

(١) هس: العالم البيزنطي، ترجمة د. رأفت عبد الحميد (دار المعارف، ط ٣ القاهرة ١٩٨٤م) ص ١٢٢.

(٢) Stratos, Op. Cit., P. 272.

تطورات الصراع مع الفرس:

استفاد الإمبراطور هرقل من هذه التغييرات والإصلاحات في التصدي للخطر الداهم الذي كان يواجهه، وهو الخطر الفارسي^(١)، فقد كان الفرس قد بدأوا هجماتهم على الأراضي البيزنطية قبل أن يستحوذ الإمبراطور هرقل على عرش بيزنطة. ورغم أن هرقل حاول أن يوقف التقدم الفارسي عن طريق الرسائل والهدايا، والتقرب من ملك فارس، وإعلامه بأنه تم الانتقام من قتلة الإمبراطور موريس، إلا أن كل ذلك لم يكن كافياً لتهدئة الفرس، ووقف تقدمهم في الأراضي البيزنطية^(٢).

تركزت خطة الفرس في بداية حكم الإمبراطور هرقل على انتزاع الجناح الشرقي من الإمبراطورية، مستغلة الظروف السيئة التي كانت تمر بها الإمبراطورية، فبادر القائد الفارسي شهرباراز Shrbaraz^(٣) بالتقدم نحو أنطاكية^(٤)، والتي كانت من أجل وأكبر المدن البيزنطية في أعالي بلاد الشام وأكثرها حصانة ولكنها سقطت في يده، وقتل بطيريركها وأخذ الفرس عددًا من الأسرى، ثم واصلوا تقدمهم حيث استولوا على أبامية Apamea وحصص سنة ٦١١م^(٥).

(١) هـ. ايدرسن بل: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح المصري، ترجمة عبد اللطيف أحمد على، ط الثالثة (دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣م) ص ١٩٢.

(٢) Theopanes, Op. Cit., P.431. والمعروف أن موريس هو الإمبراطور البيزنطي للسابق لفوكاس وكان قد أقام علاقات جيدة ومصاهرة مع كسرى الفرس وسيرد عنه في صفحة ٦٥ حاشية ٢ تفاصيل أكثر.

(٣) شهرباراز هو اللقب الذي أطلق على القائد الفارسي رومزان Romizan، وتعني بالفارسية خنزير الملك، وكان الخنزير رمزا للقوة والرجولة في فارس، آرثر كريستس، مرجع سابق ن ص ١٢٧.

(٤) تكتسب أنطاكية أهمية خاصة فهي أول مدينة تقام بها كنيسة نصرانية، وكانت تتمتع بحصانة طبيعية وأسوار منيعة ولكنها سقطت هذه المرة بسهولة لأن هناك موجة من الاضطرابات والشغب شغل المدينة وقادة اليهود في بداية حكم هرقل، تاريخ المنبجي، مصدر سابق، ص ٢٥.

(٥) أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٢٤، وأبامية مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص وتسمى أحيانا فامية انظر: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٢٧.

وفي نهاية عام ٦١٢م كان الفرس قد حققوا انتصارات هامة باستيلائهم على الجزء الأكبر من سوريا مما جعل البيزنطيين يفقدون اتصالهم البرى بولايتهم فى فلسطين ومصر وإفريقيا^(١).

إزاء هذا الوضع الجديد المتدهور فى الجانب البيزنطى بدأ الإمبراطور هرقل فى التحرك، فقرر استدعاء القائد فيليبكوس Philippicus صهر الإمبراطور السابق موريس، والذي كان له سابق خبرة فى قيادة الجيوش البيزنطية، وكان قد ارتدى ثياب الرهبان، وترك خدمة الجيش ليخدم فى الكنيسة، واستطاع الإمبراطور إقناعه بقيادة الجيش الذى قرر إرساله لمحاولة استرداد سوريا^(٢). وقاد الإمبراطور هرقل وابن عمه نيكياس وأخوه ثيودور جيشاً آخر خاض معارك دامية أمام أبواب أنطاكية عام ٦١٣م، إلا أنهم أصيبوا بهزيمة فادحة، مثلما أصيب جيش فيليبكوس، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام الفرس للاستيلاء على باقى سوريا وفلسطين، حيث نجح شهرباراز فى الاستيلاء على دمشق سنة ٦١٣م، ودخل فلسطين واستولى على جميع المدن الساحلية دون مقاومة^(٣).

وتابع القائد الفارسى شهرباراز سيره تجاه بيت المقدس، والتي كان لها وضعها الخاص عند النصارى، فإضافة إلى قداستها ومكانتها، فقد تجمعت فيها ثروات ضخمة أثارت دائماً شهية الفرس، ثم إن سقوطها كان ذا معنى استراتيجياً كبيراً، وأثراً نفسياً وعقدياً مدمراً على الإمبراطورية البيزنطية.

ويذكر فازيليف أن الفرس أرادوا الاستيلاء على المدينة سلماً حتى يتمتعوا بخيراتها، حيث أرسل شهرباراز سنة ٦١٤م من مقره فى قيسارية إلى أهل بيت المقدس يدعوهم إلى الاستسلام والتسليم على أن ينعموا بالسلام والرخاء، وخضع أهل المدينة واستسلموا بعد أن قدموا هدايا كثيرة للقائد الفارسى وللأمراء الفرس، وغادر شهرباراز المدينة بعد أن وضع فيها حامية لحراستها^(٤).

(١) Stratos, Op. Cit., P. 105

(٢) أسد رستم: الروم، ج ١، ٢٢٤.

(٣) Ostrogorsky, Op. Cit., P.85

(٤) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I,P.237

وبعد عدة شهور وثب أهل المدينة وشبابها على الحامية الفارسية وقتلوهم، ثم أغلقوا باب المدينة، وحدث قتال بين النصارى واليهود، وأباد فيه النصارى اليهود الذين كانوا يقفون إلى جانب الفرس^(١).

عاد شهر باراز وشرع في حصار مدينة بيت المقدس، بعد أن فشلت خطة الاستيلاء السلمى عليها، ونصب آلاته ومعداته وأقام المنجنيق وبدأ الحصار، وخلال فترة الحصار التي استمرت عشرين يوما ضرب المدينة دون هوادة، ورغم البسالة التي أبداها أهل المدينة، إلا أن الفرس استطاعوا حفر سراديب أسفل الأسوار، ودعموها بالخشب وأشعلوها بالنيران، فانهارت الأسوار ودخل الفرس المدينة^(٢).

وخلال ثلاثة أيام أباد الفرس عددا كبيرا من أبناء القدس، ولم يتورعوا عن قتل كل من يلقونه من أهلها بحقد شديد، ثم أشعلوا فيها النار، وعملوا على تخريب الكنائس وأشعلوا النار في كنيسة القيامة وسلبوا كنوزها، وقدر عدد القتلى بما يزيد عن ٥٧ ألفا، وعدد الأسرى بـ ٣٥ ألفا^(٣).

كما أسروا بطريرك المدينة " زكريا " وأجبروا عددا من رجال الدين على الإدلاء بمكان صليب الصلبوت وهو أثنى المقدسات النصرانية. وجمعوا الأموال والمجوهرات والأسرى وأرسلوها إلى كسرى^(٤).

وكان لسقوط مدينة بيت المقدس أثره الكبير ليس على الإمبراطورية البيزنطية بل على النصارى بشكل عام، فهذا السقوط أنزل الفرس بالإمبراطورية هزيمة كبيرة ولطمة قاسية، وعم القسطنطينية شعور عميق بالأسى والحزن، كما تسبب ذلك في إضعاف هيئة الإمبراطورية بشكل لم يسبق أن فعلته كل الهزائم السابقة^(٥).

(١) Ostrogorsky, Op. Cit., P.86

(٢) ليلى عبد الجواد: مرجع سابق، ص ٢١٤، نقلا عن سيبيوس Sebeos الذي كتب تاريخ هرقل

Histoired, Heralius, P.68

(٣) أسد رستم: الروم، ج ١، ٢٢٤.

(٤) Theopanes, Op. Cit., P.431

(٥) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I,P.237

وبالاستحواذ على القدس استكمل الفرس استيلائهم على سوريا، وبدأوا يتحركون لموقع آخر من أراضي الإمبراطورية البيزنطية ليطبقوا عليه ويعرضوها لمزيد من الهزائم، وكانت نقطتهم التالية هي مصر أهم أراضي الإمبراطورية من الناحية الاقتصادية والاستراتيجية، حيث انطلقت جيوشهم ابتداء من ٦١٦م عبر غزة والصحراء فاستولوا على العريش (رينو قولورا Rhinokulura) ثم على الفرما وممفيس في طريقهم إلى بابلون حتى وصلوا إلى الإسكندرية^(١).

وبعد حصار طويل استطاعوا الاستيلاء على الإسكندرية عن طريق الخيانة من داخلها، وكان أن عاملوا أهلها بقسوة وعنف، حيث يذكر سايروس ابن المقفع في تاريخه عن بطاركة الإسكندرية أن الوالي الفارسي أمر كل رجل في مدينة الإسكندرية ممن تتراوح أعمارهم بين ١٨ - ٥٠ عاما أن يخرجوا ليأخذوا عشرين دينارا، وعندما اجتمع شباب المدينة ورجالها، كتب أسماءهم وهم يظنون أنهم سيأخذون العطية التي وعدهم بها، ولكن عند خروجهم أمر جيشه أن يحيط بهم ويقتلهم جميعا بالسيف وبلغ عددهم ثمانية آلاف رجل^(٢).

أحدث الاستيلاء على مصر أثرا بالغاً في عالم ذلك العصر، فقد عادت مصر إلى السيطرة الفارسية بعد فترة تزيد على التسعة قرون، وكان ملوك الفرس الساسانيين يطمعون دائماً إلى أن يمدوا حدودهم إلى ما كانت عليه فارس أيام إمبراطورية الأخمينيين^(٣).

(١) الفريد بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد (المركز العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٩م) ص ٥٣. والفرما مدينة على الساحل، وهي مدينة قديمة بين العريش والفسطاط وشرق منيس على ساحل البحر. ياقوت الحموي، ج ٤، ص ٢٥٦.

(٢) سايروس ابن المقفع: تاريخ بطاركة الإسكندرية، سلسلة التراث العربي المسيحي (مطبعة دار العالم العربي، القاهرة، ١٩٧٨م) ص ٢٢١.

(٣) طه باقر وآخرون: تاريخ إيران القديمة (مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٢م) ص ٥١. والأخمينيون Achaemenides هم حكام فارس قبل الأسرة الساسانية ويعودون إلى القرن الثاني قبل الميلاد، لمزيد من التفصيل عن دولتهم انظر: حسن برينيا، تاريخ إيران القديم، ترجمة محمد نور الدين، والسباعي محمد السباعي، القاهرة ١٩٧٩م، ص ٢٢٢.

وقد اعتبروا ذلك انتصاراً وفخراً كبيراً، كما أن خسارة الإمبراطورية البيزنطية كانت كبيرة. فقد كانت مصر مركزاً ثقافياً كبيراً، وذات أهمية إستراتيجية في البحر المتوسط، ومخزن غلال الإمبراطورية، وبضياها توقفت إمدادات القمح المصري، مما كان له أبلغ الأثر في زيادة الأزمة الاقتصادية الطاحنة في بيزنطة^(١).

وفي الوقت نفسه الذي سقطت فيه مصر في يد الفرس، كان جيش فارسي آخر يتقدم في آسيا الصغرى، وينجح في عام ٦١٦م في الوصول إلى كريسبوليس Chrysopolis (سكوتاري حالياً) ويقيم معسكره في خلقدونية التي تقع على بحر مرمرة بالقرب من البوسفور في مواجهة العاصمة البيزنطية التي أصبحت على مرمى النظر من المعسكر الفارسي^(٢).

كان وصول الفرس إلى هذه النقطة الهامة، ونقلهم الصراع إلى مشارف العاصمة البيزنطية، رسالة تحمل كل معاني التهديد للإمبراطورية البيزنطية ولإمبراطورها. وقد عاش شعب بيزنطة أياماً مرعبة وهم يتوقعون الهجوم الفارسي عليهم، خاصة وأن آثار حرائقهم وتدميرهم بدت واضحة على الشاطئ المجاور. لقد أصبحت الإمبراطورية البيزنطية قاب قوسين أو أدنى من الانهيار، فولاياتها الغنية في الشام وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى قد استبيحت للفرس، والآفار والصقالبة يهاجمونها من الغرب، والأزمة الداخلية فيها طاحنة، وما زال حكم هرقل في الداخل يعاني من الاضطراب والصراع رغم مرور عدة سنوات على تسلمه العرش^(٣).

(١) محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨١م) ص ٧١.

(٢) Ostrogorsky, Op. Cit., P.87

(٣) عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، (الهيئة العامة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية ١٩٧٧) ص ٩١.

بدأ الإمبراطور يشعر بالضيق والملل والرعب، وأخذ يفكر في البحث عن وسائل تتقده وتتقد عاصمته. وقبل أن يفعل ذلك فكر في اللجوء إلى الدبلوماسية، وطلب عقد لقاء مع القائد الفارسي شاهين، حيث زوده بالهدايا وعرض عليه عقد معاهدة سلام مع الفرس^(١). وانتهت المفاوضات بأن يقوم وفد بيزنطي بحمل رسالة إلى كسرى للتفاوض معه حول معاهدة سلام، وأعد البيزنطيون سفارة تكونت من البطريرق أوليمبوس Olympius، ووالي المدينة ليونتيوس Leontius والقس أناستاسيوس Anastasius وسنيكلوس Syncellus قِيم كنيسة القديسة صوفيا والمسؤول عنها، وقد حملت السفارة معها خطابًا إلى كسرى من رجال السناتو^(٢).

وسرعان ما انقلب شاهين على السفارة البيزنطية، بعد أن عبرت الأراضي البيزنطية، أصدر أوامره بتقييدهم بالسلاسل، وأرسلهم إلى كسرى حيث أساء كسرى معاملتهم^(٣).

وكان كسرى فارس ينتظر من شاهين أن يرسل إليه هرقل مقيدًا بالسلاسل، بدلاً من إجراء مفاوضات معه، مما أسخطه على شاهين^(٤). ومن ثم أصدر أوامره إلى جنوده المعسكرين في خلقدونية لمهاجمة العاصمة البيزنطية، وكانوا قد جهزوا

(١) تختلف المراجع في ذكر من الذي طلب عقد اللقاء، فبعضها يذكر ذلك والبعض الآخر يذكر أن شاهين هو الذي طلب عقد لقاء مع الإمبراطور وقدم له فروض الطاعة، لتوضيح ذلك انظر: ليلي عيد الجواد، مرجع سابق، ص ٢٢٧.

(٢) اختلف المؤرخون في السبب الذي جعل السناتو (مجلس الشيوخ) وليس الإمبراطور يكتب الرسالة، فيرى البعض أن السبب هو أن السناتو كانت له اليد الطولى على هرقل وعلى الحكم في بيزنطة، وأن هرقل كلن مشغولاً مع المعارضين له، ومنهم من يرى أن كسرى لم يكن يعترف بهرقل، وأنه سبق وأن نفى الاعتراف بشرعية خلفاء موريس، وهناك من يرى أن السناتو قد حمل على عاتقه مهمة إنقاذ العاصمة البيزنطية، كما أن سيطرة السناتو كانت بارزة في بداية حكم هرقل، خاصة وأنهم هم الذين استدعوه وبايعوه على العرش بعد سقوط فوكاس، عن هذه التبريرات انظر: Finely, Op. Cit., Vol. I, P.343

(٣) Ostrogorosky, Op. Cit., P.87

(٤) طه باقر: تاريخ إيران، مرجع سابق، ص ٦٤.

سنة ٦١٩م عددًا كبيرًا من السفن استعدادًا لمهاجمة القسطنطينية^(١)، وقد دارت معركة بحرية بين الطرفين، هُزم فيها الفرس بعد أن تكبدوا آلاف القتلى ودمرت سفنهم^(٢).

وتعود أسباب هذه الهزيمة إلى أن الفرس لم يكونوا بحارة أو مدربين على القتال البحري، على أن نتيجة هذه المعركة فتحت آفاقًا جديدة في الصراع بين الدولتين^(٣). وعلى الرغم من نشوة النصر المحدود الذي حققه البيزنطيون على الفرس في أعقاب حملة سنة ٦١٩م البحرية، إلا أن الإمبراطور هرقل شعر أنه لا يستطيع أن يبقى مكتوف اليدين وهو يشاهد الجموع الفارسية على مد النظر من عاصمته، تهدده من ناحية البحر، وجموع الآفار الذين عبروا تراقيا وبدأوا تهديد العاصمة من ناحية البر^(٤). فأخذ يفكر في أسلوب عملي يستطيع به رد الأعداء والتعامل معهم بنفس وسائلهم، وفي لحظة يأس فكر الإمبراطور هرقل في ترك عاصمته ونقل مقر حكمه إلى شمال إفريقيا، ليستطيع من هناك إعداد جيش كالذي جاء به لتخليص بيزنطة من فوكاس عام ٦١٠م، وصارح الإمبراطور بهذه الفكرة البائسة بطريك القسطنطينية سرجيوس الأول (Sergius I (٦١٠ - ٦٣٨م) وأهل الرأي والمشورة في عاصمته، فصدموا لهذه الفكرة وأخذوا يضغطون عليه وطالبه البطريرك بأن يقسم يمينًا في كنيسة آيا صوفيا بأنه لن يترك عاصمته^(٥).

بدأ الإمبراطور والبطريرك يفكران بشكل عملي للخروج من هذا المأزق، وقرر الإمبراطور أنه لا بد من السعي لبناء جيش قادر على رد الأعداء السنين يحيطون بالعاصمة، وأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بتوفر الأموال اللازمة، واتخذ

(١) Ostrogorsky, Op. Cit., P.104

(٢) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٢٥.

(٣) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.285

(٤) د. وسام فرج: دراسات في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، مطبعة مصنع الإسكندرية للكراس، الإسكندرية ١٩٨٣م، ص ١٥١.

(٥) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٢٥. الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص ١١٦.

البطيريك سرجيوس قراراً كبيراً وخطيراً حين عرض أن تضع كنيسته والكنائس الأخرى ذخائرها وأموالها ومجوهراتها تحت تصرف الإمبراطور، وذلك على سبيل القرض حيث تتعهد الحكومة - ممثلة في الإمبراطور - بإعادة قيمة هذا القرض عقب انتهاء الحرب^(١).

وقد دل هذا الموقف على سعة أفق البطيريك، بعمله للوصول إلى حل موفق لإخراج الإمبراطورية من أزمتها^(٢)، إذ أنه لو سقطت العاصمة بيد الفرس أو الآفار لضاعت هذه الكنوز ولأصبحت نهباً للغزاة، وكانت ثروة هائلة.

وابتداء من عام ٦١٩م بدأت هذه الكنوز تحوّل إلى دار سك العملات حيث لم يضع الإمبراطور وقته وبدأ في إعداد برنامج جديد لإنقاذ الإمبراطورية^(٣)، والذي تفرع إلى اتخاذ خطوات أخرى للحد من النفقات، وكان من أهمها إلغاء توزيع الحصص المجانية من القمح التي يتسلمها سكان العاصمة، كما فرضت ضرائب باهظة على رجال الدين وخفضت رواتب الموظفين بنسبة ٥%^(٤)، وبذلك تكون مشكلة المال قد حلت، وبعد ذلك ركز الإمبراطور هرقل جهوده على المشكلة الأكبر وهي توفير الجيش المقاتل، وهنا تبدأ أهمية إصلاحاته العسكرية، فقد هيأت له هذه الإصلاحات جيشاً مدرباً مالياً، استطاع أن يخوض به غمار حروب مع الفرس.

انسحب الإمبراطور هرقل ابتداء من شتاء ٦٢١م خارج أسوار القسطنطينية، حيث أقام في أحد القصور الملكية على الشاطئ الآسيوي، وتفرغ تماماً لدراسة الخطط العسكرية واحتياجاته وتنظيماته، ووضع كتيباً للإرشادات والخطط الحربية ليسترشد بها ضباطه وجنوده سماه (معلم العلوم العسكرية)، ثم

(١) Stratos, Op. Cit., P. 127

(٢) Theopanes, Op.Cit., P.435

(٣) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I,P.197

(٤) أومان: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى طه بدر، القاهرة ١٩٥١م، ص ١٠٤.

قضى عدة أشهر في التدريب، ورفع الروح المعنوية للجنود، وإجراء مناورات عسكرية بينهم، وكان إشرافه على كل ذلك بنفسه كاملاً^(١). كما قرر قيادة الجيش بنفسه غير مصغٍ إلى المعارضات التي أبدتها مستشاروه والتي كانت تستحسن عدم قيادة الإمبراطور للجيش حفاظاً على سلامته وسلامة الإمبراطورية^(٢).

وقد رأى الإمبراطور هرقل ضرورة التأكيد على احترام معاهدة السلام التي سبق توقيعها مع خاقان الآفار، فأرسل خطاباً إلى الخاقان يذكره بالمعاهدة التي بينهما وأكثر فيه من مدحه، وأنه يعتبره كوصي وأب لابنه الشاب، كما جرت العادة، ووعده بمبلغ كبير من المال إذا هو التزم بالمعاهدة ولم يستغل الظروف القادمة^(٣).

وفي الرابع من أبريل عام ٦٢٢م، عبرت سفن الإمبراطور إلى خلقدونية، ومنها أخذ الطريق الإمبراطوري والذي يؤدي إلى قيصريته حيث اتخذها نقطة للتجمع، واتخذ حصنها كمقر أساسي للإمدادات خلال فترة الحرب، وقضى هناك الصيف كله وهو يجمع الجيوش ويدربها ويحفزها للقتال^(٤).

وقد شعر الفرس بالاستعدادات البيزنطية، فقاموا بحركة مضادة، إذ أحكموا قبضتهم على النصارى في مملكتهم، وفرضوا عليهم ضرائب جديدة، كما قاموا باحتلال وتأكيد سيطرتهم على الطرق التي يتوقعون قدوم الجيش البيزنطي منها^(٥).

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P.90

(٢) المعروف أنه منذ عهد الإمبراطور انستاسيوس الأول (٤٩١ - ٥١٨م) لم يكن هناك إمبراطور يتولى قيادة الجيش بنفسه خاصة وأن بعض الأباطرة قتلوا خلال هذه الحروب مثل جوليان المرتد، وفالنس وغيرهم، وكان الاستثناء الوحيد قبل هرقل هو قيادة الإمبراطور موريس لأحد الجيوش ضد الفرس، قبل أن يعقد اتفاقاً للسلام معهم.

(٣) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.241

(٤) Stratos, Op. Cit., P. 132، وأيضاً: أسد رستم: الروم، ج ٢، ص ٢٢٥. وقيصريته مدينة قديمة في بلاد الروم واتخذت عاصمة في عهد نولة السلاجقة الروم، ياقوت الحموي، ج ٤، ص ٤٢١.

(٥) آرثر كريستنس: مرجع سابق، ص ٤٣١.

رأى الإمبراطور هرقل أنه من الأفضل - بدلا من أن يضيع وقته وجهده ومجهود جيشه في استعادة الأراضي القريبة في مصر وسوريا وفلسطين - أن ينقل مسرح المعركة إلى أراضي الفرس، فيقاتلهم في عقر دارهم^(١)، لذلك نجده يترك قيصريته في خريف سنة ٦٢٢م، ويشق طريقه نحو أرمينية في محاولة منه لإرغام الفرس على ترك آسيا الصغرى والتخلي عن مراكزهم فيها. وما إن دخل أرمينية حتى اصطدمت طليعة جيشه بفرقة من فرسان الفرس، فتصدى لهم البيزنطيون، وقبضوا على قائدهم وأتوا به مكبلاً أمام الإمبراطور، الذي فك قيوده ووعده بالحرية إذا انحاز إليه^(٢).

وعند حلول الشتاء تقابل الجيش الفارسي مع جيش الإمبراطور وجهاً لوجه ولكنه لم يعبأ بهذا الجيش واستمر في زحفه إلى الشرق حيث عرج إلى بونطس Pontus، وتظاهر أنه سوف يقضى الشتاء هناك فانخدع الفرس بذلك وبدأوا في الانسحاب، ليواصل هو طريقه نحو فارس. وقد شعر القائد الفارسي شهرباراز بخطة الإمبراطور، فعاد وبدأت المناوشات بين الطرفين، والتي سرعان ما تطورت إلى حرب عنيفة حيث لقي الفرس هزيمة نكراء، وتكبدوا خسائر فادحة، واحتل البيزنطيون المعسكر الفارسي^(٣).

هكذا حقق البيزنطيون أول انتصار على الفرس، وكان من أهم فوائده كسر حاجز الخوف والرهبة الذي كان عليه الجنود البيزنطيون إزاء الفرس، واستعادة آسيا الصغرى وإجلاء الفرس عنها دون حرب كبيرة وإنما بخدعة عسكرية ماهرة، حيث أجبروا الفرس على أن يقاتلوا في الموقع الذي اختاروه وفي الزمن الذي حدده.

Ostrogorsky, Op. Cit., P.91 (١)

Theopanes, Op.Cit., P.435 (٢)

Ostrogorsky, Op. Cit., P.92 (٣)

ترك الإمبراطور هرقل جيشه المنتصر في أرمينية، بعد أن وصلتته أخبار نقض الآفار للمعاهدة المعقودة معهم^(١)، ومهاجمتهم للعاصمة البيزنطية. ويبدو أن الفرس أعادوا الاتصال بالآفار لتأليبهم على الإمبراطورية وعندما سمع كسرى بأنباء هزيمة جيشه انتابته حالة من القلق ولكنه سرعان ما شعر بالارتياح عندما علم برحيل الإمبراطور، وبدأ يرسل الإمدادات إلى شهر باراز لتقوية جيشه، وأمره بغزو الأراضي البيزنطية، ولكنه لم يستطع تنفيذ الأوامر إلا عام ٦٢٣م، بعد أن استغرق منه إعداد الجيش وقتاً طويلاً^(٢).

استطاع الإمبراطور تسوية الأمور مع الآفار، ورحل مجدداً إلى أرمينية سنة ٦٢٤م، حيث التحق بجيشه الذي بلغ قمة الاستعداد، وواصل عدده إلى ١٢٠,٠٠٠ مقاتل^(٣)، وتوغل بهذا الجيش إلى أرمينية الفارسية، حيث وصل إلى عاصمتها " دوفين Dovin " واستولى عليها بالقوة ثم سلبها وأحرقها، واستمر في تقدمه واستولى على مدينة نشقان Naxcawn بالقوة، وأصبح على مقربة من الأراضي الفارسية، حيث جمع قواته وأخذ يبث فيهم روح الحماس بخطبة التي ألقاها عليهم^(٤).

أذهلت الانتصارات البيزنطية كسرى، فقام على عجل بجمع ٤٠ ألف من رجاله، وسار بهم إلى مدينة كانزاك Canzac عاصمة إقليم أنريجان، وعندما علم الإمبراطور بأمر هذا الجيش سار على عجل إلى كانزاك حيث دارت المعركة التي هزم فيها الفرس، واستسلمت المدينة وهرب كسرى بعد أن تكبد جيشه خسائر فادحة^(٥).

(١) سيد أحمد الناصري: الروم، مرجع سابق، ص ١٧٦.

(٢) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٢٦.

(٣) Theopanes, Op.Cit., P.442

(٤) Stratots, Op. Cit., P. 402، ودوفين بلدة من نواحي فارس في آخر حدود أنريجان بقرب تفليس، ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٤٩١. أما مدينة نشقان، فهي أقدم مدينة في أرمينية، وتقع شمال نهر الكسر ويقال أن مؤسسها سيدنا نوح عليه السلام وبها قبره، انظر: فايز نجيب اسكندر، الفتوحات الإسلامية لأرمينيا، ج ١، ص ٩٧.

(٥) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.294

علم الإمبراطور هرقل أن كسرى هرب إلى مدينة تبريز Thebarmes التي تقع في الجزء الجنوبي من أذربيجان، وأنه أحرق جميع الأعشاب والمحاصيل في طريقه حتى يعاني الجيش البيزنطي من نقص المؤن، وكان هذا هو التكتيك الفارسي المعتاد. ولكن هرقل استمر في مطاردته من مكان إلى آخر في هذه المناطق الوعرة^(١).

وصل كسرى في هروبه إلى إقليم ما بين النهرين، وبدأ في حشد جديد بقيادة شاهين، وعاد شهر باراز إلى نينوى Niniveh على الشاطئ الشمالي لنهر دجلة، بينما قرر الإمبراطور أن يقضي الشتاء في ألبانيا Albania التي تقع في إقليم جورجيا، وهناك أطلق خمسين ألف من الأسرى الفرس الذين كانوا في حالة يرثى لها حتى يخفف العبء عن جيشه^(٢)، وبدأ في مراسلة حكام الأقاليم في بلاد الأبخاز ليمدوه بالمؤن ويشاركوا في مجهوده الحربي^(٣).

أراد كسرى أن يعوض خسائره السابقة، وأن يوقف تقدم هرقل، فلم ينتظر انتهاء فصل الشتاء، بل سارع إلى تكوين ثلاثة جيوش الأول بقيادة شهر باراز، والثاني بقيادة شاهين، والثالث بقيادة شاربلانجا Sarablanga (أى النمر الملكى)^(٤). ورغم إحاطة هذه الجيوش الثلاثة بهرقل، وما تعرض له من خيانة حيث انسحب حلفاؤه من لازيقا والليريا، إلا أنه استطاع التصدي لها وتحقيق الانتصار عليها، بعد أن أعاد توزيع جيشه وبث روح الحماس فيه^(٥)، ثم استطاع أن يستولى على

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P.94

(٢) آرثر كريستس: مرجع سابق، ص ٤٣١.

(٣) Theopanes, Op.Cit., P.446

(٤) آرثر كريستس: مرجع سابق، ص ٤٣٢.

(٥) Finely, Op. Cit., Vol. I, P.395، ولازيقا والليريا هما من المناطق الحدودية التي كان يقطنها

الخرز على البحر الأسود وكانت تقع تحت النفوذ البيزنطي، قبل أن يستولى عليها الفرس.

مدينة Ali، وجمع جيوشه وقضى الشتاء في منطقة بحيرة فان Van، وفي المعسكرات التي كان شهرباراز قد أعدها ليقضى بها فصل الشتاء لعام ٦٢٥م^(١).

بعد ثلاث سنوات من القتال الضاري أصبح هرقل سيذاً على أرمينيا الفارسية، وعلى أنديجان وجزء من فارس، ولكنه وجد أن عاصمته أصبحت في خطر، بعد أن علم بالمفاوضات التي كانت تجري بين الفرس والآفار، وتوجه شهرباراز بجيش إلى آسيا الصغرى، لذلك استدعى هرقل مجلس حربه حيث تقرر أن ينسحب بسرعة، واستمر في انسحابه حتى وصل إلى آمد (ديار بكر) ومن هناك بعث برسالة طمأنة إلى القسطنطينية يقص عليهم ما حدث وما حققه من انتصارات^(٢).

وعند الفرات التقى الإمبراطور بشهرباراز حيث دارت معركة عند أحد الجسور، تكبد فيها الفرس خسائر فادحة^(٣).

وجمع الإمبراطور جيشه وتوجه إلى سيباستيا Sebastya في آسيا الصغرى، أما كسرى فقد غضب لهذه الهزائم وأرسل رجالاً يسلبون كنوز جميع الكنائس الواقعة في تخومه، وأجبر النصارى على اعتناق مذهب النساطرة، نكاية في الإمبراطور هرقل كما فرض عليهم ضرائب جديدة لدفعها إلى حلفائه الآفار^(٤).

لم يستسلم كسرى لهذه الهزيمة الثقيلة، وإنما أصدر أوامره بالتعبئة العامة وكون جيشاً من الأجانب، والغرباء والمواطنين، والخدم والعبيد ومن كل الأجناس والطبقات، إضافة إلى القوات النظامية، وسمى هذا الجيش "كتائب الذهب" وأسند

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.294

(٢) Stratos, Op. Cit., P. 168

(٣) Ostrogorsky, Op. Cit., P.94

(٤) وسام فرج: دراسات في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في العصور الوسطى، السلاف في شبه جزيرة البلقان، ص ٧٥.

قيادته إلى شاهين^(١). أما شهر باراز فتوجه إلى القسطنطينية لينسق مع الآفار^(٢). وفي الجانب البيزنطي قام هرقل بتقسيم جيشه إلى ثلاثة أقسام: أرسل أولها إلى القسطنطينية لحمايتها من الهجوم الآفار الفارسي، والثاني لمهاجمة شاهين بقيادة شقيقه ثيودور، وتولى هو قيادة القسم الثالث^(٣)، حيث توجه إلى منطقة لازيقا، وعقد تحالفاً مع الخرز والشعوب النصرانية في منطقة القوقاز للتعاون معه في شن هجوم ضد الفرس^(٤).

وقد عزم الإمبراطور على السير مباشرة إلى المدائن (طيسفون Ctsiphon)، وذلك سنة ٦٢٧م حيث غادر مدينة تفليس Tivlis عاصمة جورجيا ومعه حلفاؤه من الخزر، وفي أول ديسمبر من السنة نفسها (٦٢٧م) وصل بجيوشه إلى مدينة نينوى حيث عسكر بجوارها، ثم استطاع الاستيلاء عليها بعد معركة طاحنة مع الفرس^(٥). وعندما علم الإمبراطور أن كسرى يعسكر بجيشه في داستاجرد Dastagerd (المقر الصيفي لكسرى) سارع بمهاجمتها حيث استولى عليها في ٤ يناير ٦٢٨م، واضطر كسرى إلى الهرب من داستاجرد إلى المدائن^(٦).

وفي داستاجرد وجد الإمبراطور ثروات هائلة، واضطر البيزنطيون أمام كثرتها وعدم استطاعتهم حملها إلى إحراق الكثير منها، كما اضطروا إلى حرق معسكر كسرى وعدد آخر من القصور الملكية. وكان الهدف من ذلك هو إدخال الرعب في قلب كسرى وجنوده، وللانتقام من حرق الفرس للمدن البيزنطية^(٧).

(١) آرثر كريستس: مرجع سابق، ص ٤٣٠.

(٢) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٢٦.

(٣) Theopanes, Op.Cit., P.448

(٤) سيد الناصري: الروم، مرجع سابق، ص ١٧٧.

(٥) الباز العريني: النولة البيزنطية، ص ١٢٧.

(٦) آرثر كريستس: مرجع سابق، ص ٤٥١.

(٧) ليلي عبد الجواد: مرجع سابق، ص ٢٦٣.

ورغم انتصارات هرقل المتتالية، فإنه عرض الصلح مع كسرى على أساس العودة إلى حدود عام ٦٠٢م، وإطلاق سراح الأسرى، إلا أن كسرى رفض هذا العرض المشرف له^(١). وقد برر بعض المؤرخين سبب إقدام هرقل على هذا العرض - رغم انتصاراته - إلى أن الإمبراطور الذي قضى خمس سنوات في حروب مستمرة مع الفرس عبر آسيا الصغرى، وإقليم القوقاز والأراضي الفارسية، كانت حياته في خطر دائم وجرح فيها عدة مرات، كما أن تكاليف الحرب كانت باهظة، مما دعاه إلى طلب الصلح^(٢)، ولكن كسرى لم يكن مستعداً للتسليم بهذه النهاية، لذلك رفض وقف الحرب، مما كان سبباً في احتقار أتباعه له، ونقمة شعبه وجيشه عليه^(٣).

غادر الإمبراطور هرقل داستاجرد في السابع من يناير ٦٢٨م، ثم عسكر على بُعد اثني عشر ميلاً من قناة النهران Nahr-wan حيث تجمهرت بقايا جيش الفرس، وهو على بعد عدة أميال من عاصمة الفرس (المدائن) التي يشطرها نهر دجلة إلى قسمين^(٤). وانهقد مجلس الحرب البيزنطي، حيث قرر الهجوم على المدائن، إلا أن هناك عدة أسباب حالت دون إقدامه على ذلك منها:

١- أن الفرس قطعوا الجسور، ولا توجد مخاضة أو مكان يمكن منه عبور قناة النهران إلى المدائن^(٥).

٢- الخطر الذي يشكله جيش شهر باراز الموجود في خلقدونية، والذي استدعاه كسرى لمساعدته^(٦).

(١) Theopanes; P.448

(٢) Stratos, Op. Cit., P. 217

(٣) Ostrogorsky, Op. Cit., P.96

(٤) آرثر كريستس: مرجع سابق، ص ٤٥٠.

(٥) Theopanes, Op.Cit., P.453

(٦) ليلي عبد الجواد: مرجع سابق، ص ٢٦٧.

٣- يبدو أن البيزنطيين كانوا يراقبون عن كثب التطورات السياسية في فارس، فأروا أن انتصارهم يكمن في تتبع وتغذية الانقسامات والنزاعات داخل دولة الفرس، وهذا أكثر فائدة من المخاطرة بالهجوم على عاصمتها الآهله بالسكان^(١).

وقد صح ما توقعه البيزنطيون، ذلك أنه في ربيع عام ٦٢٨م وقع ما جعل المضى في الحرب والقتال أمرًا لا داعي له، حيث اندلعت الثورة ضد كسرى، وانتهت بعزله^(٢).

وكانت هناك أسباب كثيرة دعت إلى قيام هذه الثورة ضد كسرى، ومن أهمها استمرار الحرب بين الطرفين (البيزنطي والفرسي) لفترة طويلة، وما ترتب على ذلك من ضياع خيرة قواد وجنود فارس، وما وصل إليه اقتصادها من حالة سيئة، ولجوء كسرى إلى فرض ضرائب باهظة لتغطية نفقات الحرب، وانقلاب النصارى عليه ووقفهم إلى جانب البيزنطيين، ثم أن هروب كسرى من داستاجرد ورفضه مقترحات السلام، وإصراره على مواصلة الحرب، ومعاملته السيئة للضباط الذين فروا أثناء الحرب، كلها أسباب تجمعت وأدت إلى الثورة عليه^(٣).

قاد الثورة ضد كسرى أكبر أبنائه (شيرويه) من ماريّا ابنة الإمبراطور البيزنطي موريس، التي زوجها لكسرى أثناء فترة السلام بينهما. حيث علم شيرويه أن أباه قد عزم على تجاوزه وتنصيب مردانشاه ابنه الأصغر من شيرين^(٤). لذلك

(١) Finely, Op. Cit., Vol. I, P.345

(٢) آرثر كريستنس: مرجع سابق، ص ٤٧٤.

(٣) Stratos, Op. Cit., P. 223، وأيضاً آرثر كريستنس: مرجع سابق، ص ٤٧٥.

(٤) كانت شيرين معشوقة كسرى، ولقبها " روضة الحسن وضره البدر " وقد اعتبرها كثير من المصادر الشرقية والغربية يونانية الأصل لأنها نصرانية، ولكن الاسم الذي عرفت به فارسي هو (السلوة) وأصلها من خوزستان، وكانت قد تزوجت كسرى في أوائل حكمه، واحتفظت بأثرها فيه بالرغم من أنها كانت أقل مرتبة من ماريّا، الأميرة البيزنطية التي تزوجها كسرى لأسباب سياسية. والمعروف أن كسرى كان زير نساء، وكان له عدة زوجات، وتذكر بعض المصادر أن شيرين قد نبت السم لماريّا، ولم يعلم بذلك أحد، وبعد سنة من موتها أعطى كسرى غرفة نومها الذهبية لشيرين، لمعرفة تفاصيل أخرى عن حياة وبذخ كسرى وزوجاته انظر: آرثر كريستنس: مرجع سابق، ص ٤٥٨.

قام شيرويه - دفاعا عن حقوقه في العرش - باستدعاء القائد العام للجيش كشنسب أسباد Gushnasp Aspodhp، ووعده أن يحترمه وسائر قواد الجيش، وأن يرفع رواتب الجند، وأن يسعى لعقد معاهدة سلام مع البيزنطيين، إذا ما قام الجيش وأعلنه ملكاً^(١).

وبدأ قائد الجيش الفارسي يتصل بالبيزنطيين لإطلاعهم على التطورات السياسية في المدائن والتمهيد لإقرار السلام، فطلب هرقل - تأكيداً لهذه الرغبة - بإطلاق سراح الأسرى البيزنطيين الذين لدى الفرس وتسليمهم، ليساعدوه في مهاجمة كسرى، فاستجاب شيرويه وفتح قلعة النسيان وأخرج منها عدداً كبيراً من الأسرى البيزنطيين^(٢).

نفذ شيرويه خطته ودخل المدائن، ومعه القادة والضباط والأسرى الذين أطلق سراحهم وحاول كسرى الهرب ولكنه لم ينجح إذ ألقى عليه القبض، وقيّد بالسلاسل وألقى به في بيت مظلم، وبعد خمسة أيام قتل كسرى بناء على أوامر ابنه شيرويه، وتوج شيرويه ملكاً على الفرس في ٢٥ فبراير ٦٢٨م في حضور كبار رجال الحكم^(٣). وبعد الخلاص من كسرى انشغل بعقد اتفاقية سلام مع البيزنطيين^(٤).

وقد نصت معاهدة الصلح بين الطرفين على إعادة الحدود إلى ما كانت عليه في عام ٥٩١م، والجلء عن جميع الأراضي التي احتلها الفرس، وإطلاق سراح الأسرى، وعودة صليب الصليبوت الذي أخذه شهر باراز من بيت المقدس^(٥).

(١) طه باقر: تاريخ إيران القديم، ص ٢١٠.

(٢) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I, P. 263

(٣) المنبجى: مصدر سابق، ص ٢٧.

(٤) Camb. Med. Hist. Vol. II, P. 299

(٥) المنبجى: مصدر سابق، ص ٢٧. أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٢٨. الناصري: الروم، ص ١٧٧.

وبهذا الانتصار العسكى الكبير الذى حققه الإمبراطور هرقل على الفرس، خطى الإمبراطور أهم خطواته فى إصلاح أوضاع الإمبراطورية، حيث إن هذا الانتصار عاد عليها بالكثير من المكاسب المعنوية والمادية، وأعطى للإمبراطورية شرعية ومكانة كبيرة، ونقل الدولة نقلة جديدة، وأعطى للنظام العسكى (نظام الثيمات) دفعة أخرى من التطور، جعل الإمبراطور ينطلق إلى مجالات جديدة من محاولات الإصلاح والتغيير.

محاولة إصلاح الأوضاع الدينية:

وكانت الأوضاع الدينية إحدى المجالات التي عمل الإمبراطور هرقل على إصلاحها، فقد كان الخلاف المذهبي بين مواطني الإمبراطورية كبيراً ومستشرياً ويهدد بانفصام عرى الإمبراطورية، وبدأ الإمبراطور هرقل عمله في محاولة التصدي لهذا الخلاف مبكراً^(١)، ولكن هذا الدور تركز وأخذ يتبلور في أعقاب الانتصار على الفرس وعودة الأجزاء الشرقية إلى سلطة الإمبراطورية.

فقد كانت الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية تدين بالمذهب المونوفيزتي Monophysitism أو مذهب الطبيعة الواحدة، بينما كانت العاصمة تدين بمذهب الطبيعتين، ويسمى عادة بالمذهب الأرثوذكسي أو الملكاني أو مذهب خلقونية^(٢)، وقد بلغ التناحر بين المذهبين حدًا كبيرًا كان يهدد بفصم عرى الإمبراطورية وعقيدتها، وركز الإمبراطور هرقل جهوده لحصر هذا الخلاف عن طريق صديقه بطريرك القسطنطينية البطريرك سرجيوس^(٣) Sergius الذي اجتهد في الوصول إلى صيغة واحدة تتجاوز الخلاف الذي كان ناشبًا، واهتدى البطريرك إلى مذهب الإرادة الواحدة عرف بالمونوثلستية^(٤) Monothelism، والذي يتلخص في أن للمسيح طبيعتين وهذا ما يدين به أصحاب المذهب الخلقوني، ولكن لهاتين الطبيعتين فعل واحد - وهذا ما يدين به المونوفيزتيون، فالمذهب الجديد التوحيدي يقوم على أن للمسيح طبيعتين، ومشية واحدة^(٥)، وتبنى الإمبراطور هرقل الصيغة الجديدة وأعلنها في مرسوم صدر سنة ٦٣٨م باسم الأكتيسيز Ecthesis، وبدأ

(١) أسد رستم: كنيسة أنطاكية، ج ١، ص ٤٣٣.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P.55 ; Vasiliev, Op. Cit., Vol. I.P.105

(٣) يذكر المؤرخون أن سرجيوس الذي يعود إلى أصول سورية، ينسب إلى أبوين مونوفيزتيين، وهذا

ما سهل له الوصول إلى هذه الصيغة انظر: Theopanes, Op. Cit., P.460

(٤) إيدرسن بل: مرجع سابق، ص ١٩٤.

(٥) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٢٥.

الإمبراطور والبطريرك يروجان لهذه الصيغة ويدعوان لها عبر لقاءات ورسائل متبادلة مع الزعامات الدينية في مختلف أنحاء الإمبراطورية^(١)، وبالذات في الأنحاء الشرقية ومع البابا في روما الذي لم يعترض على الصيغة الجديدة^(٢). وحتى يضمن الإمبراطور هرقل النجاح لصيغته الجديدة في مصر، عين في الإسكندرية بطريركاً وحاكماً أغسطسياً (Praetetus Augustolis) على مصر وفي نفس الوقت أسقفاً يدعى قيرس Cyrus والذي عرف في المصادر العربية باسم المقوقس، وهو من الذين اعتنقوا مذهب الإرادة الواحدة^(٣)، ويبدو أن الإمبراطور لم يكن موفقاً في هذا التعيين، فقد كان رجلاً ضيق الصدر، فلما وجد أنه من العسير استمالة المصريين إلى المذهب الجديد أخذ يضطهدهم اضطهاداً رهيباً، مما نفر منه هؤلاء الذين أوفد ليعمل على استرضائهم^(٤)، وبدأت معارضة شديدة للمذهب الجديد شملت مصر، وأنحاء من سوريا، وانضمت البابوية في عهد البابا الجديد سفيرنيوس Severinus إلى معارضة المذهب الجديد^(٥)، وكانت نهايته حينما أعلن الإمبراطور نفسه تبرأه منه - قبل وفاته - وإنه حين أقره كان خاضعاً لإملاء البطريرك سرجيوس^(٦).

(١) Stratos, Op. Cit., P. 409

(٢) أسد رستم: كنيسة أنطاكية، ج ١، ص ٤٣٩.

(٣) د. محمد مرسى الشيخ: مصر البيزنطية، مرجع سابق، ص ٢٧٨. ويلاحظ أن العرب أطلقوا لقب المقوقس على حكام مصر البيزنطية قبل الفتح الإسلامي لها. وطبيعي أن "المقوقس" هذا ليس هو "المقوقس" الذي أرسل له النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام سنة (٥٦ - ٦٢٧م) انظر: موسوعة تاريخ مصر عبر العصور، تاريخ مصر الإسلامية، ص ٣٢.

(٤) إيدرسن بل: مرجع سابق، ص ١٩٤.

(٥) ليلي عبد الجواد: مرجع سابق، ص ١٩١.

(٦) جون لوريمر: تاريخ الكنيسة (دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٨م) ج ٤، ص ١٩٥، وجاء هذا التبرؤ من خلال الرسالة التي بعثها الإمبراطور هرقل إلى البابا يوحنا الرابع Jean IV. وقد خلف سفيرنيوس الذي لم يمكث في الكرسي البابوي إلا أقل من عام.

نشأة الصراع مع المسلمين:

لم تتح الفرصة للإمبراطور هرقل لأن يتمتع بتلك الانتصارات التي حققها على الفرس، أو على الآفار، أو جنى ثمار إصلاحاته وتغييراته، إذ ما لبث أن انبثق خصم جديد استطاع إحالة هذه الانتصارات إلى هزائم متتالية، ذلك أنه ما لبث أن ظهرت في العام نفسه الذي تحقق فيه الانتصار على الفرس (٦٢٨م) الدعوة الإسلامية، حاملة آمالاً جديدة، وطموحات كبيرة ما لبث أن اصطدمت بالإمبراطورية البيزنطية وخططها للاحتفاظ بتلك الأراضي التي استعادتها من الفرس عبر حروب مريرة استمرت ست سنوات.

بدأ الاحتكاك الإسلامي البيزنطي دبلوماسياً، وذلك عبر الرسالة التي بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإمبراطور هرقل^(١)، ثم لبث الأمر أن تطور إلى احتكاك عسكري عبر الحروب المريرة التي خاضها المسلمون ضد الدولة البيزنطية خلال أكثر من عشر سنوات حتى تم الاستحواذ على تلك الأراضي التي استعادها الإمبراطور هرقل من الفرس في بلاد الشام وفلسطين ومصر.

(١) كانت هذه الرسالة واحدة من الرسائل التي بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ملوك وأمرء البلاد المجاورة يعلمهم بالدعوة الجديدة ويدعوهم للدخول فيها، وكان سفير الرسول إلى هرقل نحية ابن خليفة الكلبي، والذي سلم الرسالة إلى حاكم بصرى من قبل هرقل، والذي سلمها بدوره إلى الإمبراطور، وتتناقض الروايات حول موقف هرقل من هذه الرسالة، وعن أثرها ونصوصها، وهناك من المؤرخين من ينكرون أن هرقل تجاوب مع هذه الرسالة وكاد يسلم، لولا خوفه من انقلاب رعيته عليه، وهناك من يشكك في وجود هذه الرسالة أصلاً وينفي حدوثها.

انظر: ابن الفراء (أبي حسين بن محمد): رسل الملوك، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م، ص ٤. اليعقوبي (أحمد بن يعقوب): تاريخ اليعقوبي، بيروت، ١٩٦٠م، ج ٢، ص ٧٨، عبد الجبار السامرائي: الرسائل التي بعث بها النبي إلى ملوك الدول المجاورة، مجلة الفيصل، العدد ٥٥، الرياض ١٩٨١م، ص ٧٤.

على أن الاحتكاك العسكرى الأول بين المسلمين والبيزنطيين بدأ سنة (٨ هـ / ٦٢٩م) حين بعث الرسول صلى الله عليه وسلم ما سمي بجيش الأمراء، لمحاربة النصارى العرب فى الحدود الجنوبية لبلاد الشام، والذين كانوا تابعين للإمبراطورية البيزنطية، والذين أساؤوا معاملة أتباعه ورسله وقتلوه، وكانت عدة هذا الجيش ثلاثة آلاف مقاتل^(١)، وأمر عليه زيد بن حارثة الكلبى، وفى حالة موته يكون القائد جعفر بن أبى طالب، فإن أصيب يحل محله عبد الله بن رباحة، وقد استشهد هؤلاء القادة الثلاثة فى المعركة التى عرفت باسم "موقعة مؤتة"^(٢) ثم تولى القيادة خالد بن الوليد، والذى استطاع إنقاذ بقايا الجيش الإسلامى وعاد به إلى المدينة^(٣).

واختلف تقييم الطرفين لموقعة مؤتة، فبينما رأى فيها البيزنطيون حملة من حملات العرب القاطنين فى الصحراء التى طالما كانوا يشنونها على الحدود البيزنطية للنهب والسلب^(٤)، رأى فيها المسلمون حملة استطلاع، وقصاصاً لقتلهم، وحافزاً لما سيلبها من حملات^(٥)، حيث بدأت الخطوات العملية لإعداد جيش منظم لفتح بلاد الشام.

كانت أولى إرهابات هذا الإعداد، حملة تبوك^(٦) التى قادها الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه وذلك سنة (٩ هـ / ٦٣٠م)، وإن مرت الحملة دون قتال إلا أنه كان لها فوائد جمة بالنسبة للمسلمين، فقد تم التصالح مع أهل تبوك، ودومة الجندل

(١) ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) السيرة النبوية، تحقيق وتقديم طه عبد الرؤوف، القاهرة ١٩٧٤م، ج ٤، ص ٨.

(٢) الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٩م، ج ٣، ص ٤٠، وابن هشام، ج ٤، ص ١٣.

(٣) ابن هشام، ج ٤، ص ١٤.

(٤) Theopanes, Op.Cit., P.467

(٥) إبراهيم هلال: حديث هرقل، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٨م، ص ٧٠.

(٦) البلائرى، فتوح البلدان، ص ٧٣.

على دفع الجزية^(١). وتأمين طريق تجارتهم، ورفع روح المسلمين المعنوية، وإزالة هيبة البيزنطيين من نفوس المسلمين.

ووضع الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته خطة حملة جديدة إلى بلاد الشام، جهز جيشا بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة^(٢) لغزو الأجزاء الجنوبية من بلاد الشام، ولكن هذه الحملة ما لبثت أن تأجل خروجها بسبب مرض الرسول صلى الله عليه وسلم ثم وفاته^(٣) إلى قرابة الشهر، حيث أصر خليفة رسول الله أبو بكر الصديق على إنقاذ جيش أسامة في أول ربيع الثاني سنة (١١ هـ / ٦٣٢م)، رغم كل المحاذير التي كانت تحيط بالدولة الإسلامية في أعقاب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم^(٤).

ونجح أسامة بن زيد في تحقيق المهمة التي بعث لها، حيث حقق انتصارا سريعا وغنم بعض الغنائم، ولكنه لم يتورط في التقدم في الأراضي البيزنطية، حيث عاد إلى المدينة بعد أن قضى شهرين تقريبا في غزواته.

ويبدو أن الظروف والأحوال السياسية والاقتصادية والدينية في بلاد الشام كانت مهياة لأن يحقق المسلمون انتصارات سريعة، ويحققوا تقاربًا مع العرب القاطنين هناك والذين كانوا يدينون بالولاء للإمبراطورية البيزنطية، فقد كانت أزمة المذهب الديني الموحد الذي أراد الإمبراطور فرضه على الولايات الشرقية متصاعدة^(٥)، وكانت الضرائب قد بدأت تعود بشكل كبير، فلم يجد الإمبراطور حلاً لأزماته المالية - في أعقاب قيامه بتسديد ديون الكنيسة - سوى العمل على فرض

(١) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ١٢٤.

(٢) ابن هشام، مصدر سابق، ج٤، ص ١٩، والمعروف أن أسامة هو ابن أحد القادة الذين قتلوا في الحملة السابقة.

(٣) توفي الرسول صلى الله عليه وسلم في يوم الاثنين ٢ ربيع الأول ١١ هـ / ٢٥ مايو ٦٣٢م.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص ١٣٩.

(٥) ارشيبالد لويس: القوى البحرية، ص ٧٨.

مزيد من الضرائب على الولايات الشرقية والتعسف في جمعها^(١)، كما أن الزعامات في المناطق الحدودية والتي تعودت الحصول على مبالغ مالية من الإمبراطورية البيزنطية نظير ولائها، ودفاعها عن حدود الإمبراطورية، لم تعد تحصل على هذه الأجور، وقطعت عنهم^(٢).

في عهد الخليفة أبي بكر الصديق بدأ التخطيط لمهاجمة الفرس والبيزنطيين يأخذ مدى واسعاً وتركيزاً أشد، حيث اتضح لأبي بكر أن البيزنطيين - وأيضاً الفرس - لن يتركوا الدولة الإسلامية الوليدة تتطلق انطلاقاً طبيعية، ومستفيداً من الاستقرار واستتباب الأمور في الجزيرة العربية بدأ مشروعه للانطلاق خارجها غازياً وحاملاً لواء تبليغ الدعوة الجديدة، انطلاقاً من الأسس التي وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته.

وبدأ أبو بكر مشروعه بأن عقد اجتماعاً في المدينة المنورة شاور فيه كبار الصحابة ووجهاء الأنصار والمهاجرين، وبدأ في إرسال الكتب إلى كافة أرجاء الجزيرة العربية ليمدوه بالمجاهدين والمقاتلين للانطلاق بمشروعه الكبير^(٣).

بنهاية عام (١٢ هـ / ٦٣٢م)، توافر لدى أبا بكر الصديق رضي الله عنه أربعة جيوش^(٤)، وبدأ يدفع بها إلى بلاد الشام، الواحد تلو الآخر، واستطاع أول هذه الجيوش وهو جيش يزيد بن أبي سفيان أن يهزم الجموع البيزنطية التي

(١) موس: ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد (عالم الكتب، القاهرة ١٩٦٧م) ص ٢٤٩.

(٢) Theopanes, Op.Cit., P.469

(٣) الأزدي: تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر (مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٠م) ص ٥، ٨-١١.

(٤) كانت هذه الجيوش هي: جيش بقيادة يزيد بن سفيان ووجهته دمشق، وجيش بقيادة شرحبيل بن حسنة ووجهته الأردن، وجيش بقيادة عمرو بن العاص ووجهته فلسطين، وجيش بقيادة عبيده عامر بن الجراح ووجهته حمص. انظر عن تكوين هذه الجيوش وتعليمات الخليفة لها: الأزدي: فتوح الشام، ص ٤٥، ٤٨. ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ١٢.

تصدت له في وادي عربة - جنوب البحر الميت - بقيادة سرجيوس Sergius حاكم فلسطين، والذي لقي مصرعه بعد هزيمة جيشه^(١).

شعر الإمبراطور هرقل في أعقاب المصير الذي لقيه سرجيوس وجيشه - وكان يتواجد في تلك الأثناء في بلاد الشام - بجدية الأمر، وأن التحركات العربية تتجاوز ما كان يعتقد أنه غزوات للنهب والسلب وبدأ مجددًا يعد جيشًا بعد أن سرح كثيرًا من المقاتلين الذين رافقوه في قتاله مع الفرس، نتيجة للأزمة المالية التي وجد نفسه فيها بعد أن قام بالسداد الفوري لديون الكنيسة^(٢)، واستطاع الإمبراطور هرقل أن يجمع على عجل جيشًا، جعل على قيادته ثيودور Theodorus^(٣) والذي توجه إلى جنوب فلسطين لمواجهة المسلمين.

وكان الجيش الإسلامي الثاني بقيادة عمرو بن العاص قد بدأ تحركه إلى جنوب فلسطين، وعندما شعر عمرو بن العاص باقتراب جيش ثيودور كتب إلى الخليفة يعلمه بتحريك البيزنطيين ويطلب منه المدد^(٤)، فكتب الخليفة إلى خالد بن الوليد الذي كان يقاتل في العراق بأن يتوجه إلى فلسطين لمساعدة عمرو بن العاص والذي سارع بتنفيذ، وفي طريقه إلى فلسطين قام بمساعدة جيش شرحبيل بن حسنة في فتح بصرى والتي تم فتحها سنة (١٣ هـ / ٦٣٤ م)^(٥)، ومن هناك تقدمت الجيوش الإسلامية إلى أجنادين التي كان ثيودور - قائد الجيوش البيزنطية - يعسكر فيها، حيث دارت معركة حاسمة منى فيها البيزنطيون بهزيمة بالغة، وعاد

(١) الازدي: فتوح الشام ص ٢٥، البلاذري: فتوح البلدان ص ١٣٠.

(٢) نورمان كانتور: مرجع سابق، ص ٢٣٠.

(٣) Theodorus باليونانية تعني "عطاء الله" انظر: الناصري، الروم، ص ٢١٦ ويسميه ابن الأثير "تذارق": الكامل، ج ٢، ص ٢٨٦.

(٤) الازدي: فتوح الشام ص ٦٨، الطبري، ج ٣ ص ٣٩٣.

(٥) وكان شرحبيل قد عجز عن فتحها بسبب ضخامة جيش حاكمها رومانوس، الازدي: فتوح الشام ص ٨١، ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ١٧١.

ثيودور إلى شقيقه الإمبراطور في حمص يجر أذيال الهزيمة^(١)، والتي منها انسحب الإمبراطور إلى أنطاكية^(٢).

وشكلت هزيمة البيزنطيين في أجنادين أزمة كبيرة للإمبراطور هرقل، حيث أصبحت فلسطين تحت قبضة المسلمين، بينما شكلت للمسلمين انتصاراً كبيراً قوى عزيمتهم، وأزال هيبة البيزنطيين من نفوسهم^(٣).

وبعد عدة انتصارات في مواقع مختلفة، جاء الدور على دمشق، فبداية من المحرم (١٤ هـ / فبراير ٦٣٥م)، بدأ المسلمون حصارهم الشديد لدمشق، حيث حاصروها من مختلف جهاتها، مما اضطر حاكمها البيزنطى للكتابة إلى الإمبراطور هرقل يطلب منه المدد^(٤). ولكن لتأخر هذا المدد فقد استسلمت المدينة وفتحها المسلمون، وعندما وصل المدد البيزنطى، كان المسلمون قد أحكموا قبضتهم على دمشق^(٥).

أقلقت الانتصارات الإسلامية الإمبراطور هرقل، وأصبح يشعر بهول الكارثة التي تحيط بالتواجد البيزنطى في بلاد الشام وفلسطين، وخروجاً من هذه الأزمة أعد الإمبراطور جيشاً كبيراً للتصدى للمسلمين في معركة فاصلة، ضم خليطاً من شعوب الإمبراطورية من روم وصقالبة وأرمن وعرب نصارى وغيرهم^(٦)، وشعر القادة المسلمون بخطة الإمبراطور هرقل، فاتفقوا على أن

(١) الأزدي: فتوح الشام ص ٩٣، البلاذرى: فتوح البلدان ص ١٣٦، هناك خلاف في المصادر الإسلامية حول تاريخ موقعة أجنادين فالمصدران السابقان يذكران أنها سنة ١٣ هـ، بينما الطبرى (ج ٣، ص ٦٠٥، ٦٠٦) يذكر أنها وقعت سنة ١٥ هـ، ومن تتبع سير الأحداث يتضح أن سنة ١٣ هـ هي الأقرب إلى الدقة، وهو ما يذكره أيضاً ابن الأثير: الكامل ج ٢، ص ٢٨٧.

(٢) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٤٤.

(٣) Camb. Med. Hist. Vol. II.P.342

(٤) الأزدي: فتوح الشام، ص ١٠٦.

(٥) المصدر السابق، ص ١٠٧.

(٦) المصدر السابق، ص ١٥٢.

يتجمعوا في جيش واحد، وفي موقع واحد حتى يسهل التصدي للهجوم البيزنطي، واختاروا أن تكون "اليرموك"^(١) هي نقطة تجمعهم وموقع معركتهم الفاصلة. وعلى ضفاف نهر اليرموك دارت معركة عنيفة، لقي فيها الجيش البيزنطي هزيمة فادحة^(٢) سنة (١٥ هـ / ٦٣٦م) حيث أطبقت الجيوش الإسلامية على البيزنطيين، وقد دارت المعركة على مرحلتين؛ ففي المرحلة الأولى هاجم خالد ابن الوليد الجيش البيزنطي وأحدث فيه مقتلة كبيرة؛ والمرحلة الثانية كانت حين اقتحم المسلمون خنادق الروم، وأغروهم بالخروج منها، ثم قاموا بمهاجمتهم وقتلهم، وبلغ حجم القتلى حدًا جعل أحد المؤرخين يذكر أن هؤلاء القتلى أصبحوا جسرا يمكن العبور من عليه^(٣).

وعندما بلغت الإمبراطور هرقل هزيمة جيوشه في اليرموك وكان في أنطاكية، استبد به اليأس، فهرع إلى البحر واستقل سفنه إلى القسطنطينية بعد أن ودع سوريا وداعا لا لقاء بعده^(٤).

(١) اليرموك، ويكتبها بعضهم "اليرموق" يسمى به الفرع الشرقي لنهر الأردن، والذي ينبع من مرتفعات حوران ويصب في نهر الأردن، ثم يلتقي به بعد خمسة كيلومترات جنوب بحيرة طبرية، وقيل التقائه بنهر الأردن بثلاثين ميلا يسير النهر في شكل قوس، وعند مدخل القوس النهري تقع الواقصة. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٨، ص ٥٠٤. وينكر المؤرخون أن سبب اختيار القادة المسلمين لهذا الموقع، الذي حتم عليهم التراجع عن بعض فتوحاتهم في بلاد الشام، وهو الاقتراب من قاعدتهم في شمال الحجاز / وحتى يسهل عليهم الحصول على المدد من الخليفة، وكان معسكر المسلمين جنوب النهر، وتجمع البيزنطيون شماله. انظر: الطبري، ج ٣، ص ٣٩٢، البلاذري: فتوح البلدان ص ١٦٠.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن معركة اليرموك انظر: ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ١٧٢، الطبري ج ٢ ص ٣٩٧، الأزدي، فتوح الشام، ص ٢١٠.

(٣) المنبجى: المنتخب من تاريخ المنبجى، مصدر سابق، ص ٢٨.

(٤) جاء هذا الوداع في المصانير الإسلامية بصيغ مختلفة، فيذكر الطبري (ج ٣، ص ٦٠٣) أن صيغته كانت "عليك يا سوريا، سلام لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومي أبدا إلا خائفا حتى يولد المولود المشؤوم ويا ليت لا يولد، ما أحلى فعله وأمر عاقبته على الروم" وفي البلاذري (فتوح البلدان، ص ١٦٢): "عليك يا سوريا السلام، ونعم البلد هذا للعدو. وفي الأزدي (فتوح الشام، ص ٢٣٦) السلام عليك يا سورية، سلام مودع، لا يرى أنه يرجع أبدا، وينكر ابن العبري (تاريخ مختصر الدول، ص ١٠٣) أن هرقل قال مودعا: سوزو سورية Sozou Syria أى لتحيى في سلام يا سوريا.

ويرجح المؤرخ جوزيف داهموس أسباب هزيمة البيزنطيين فى موقعة اليرموك - والتي بعدها إحدى سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى^(١) - إلى عدم معرفة عالم البحر المتوسط بشبه الجزيرة تجاههم من ناحية القلة الذى لا يعرفون عنهم شيئاً^(٢). ثم يذكر "أنه بفضل قوة احتمال العربى وشراسته، تمكن من تحقيق الانتصارات الأولى على جيوش بيزنطة، إذ كان العربى من أشرس المقاتلين فى عصره، فمنذ نعومة أظفاره تعلم ركوب الخيل والمبارزة مع أبناء عشيرته فى صد الغارات أو القيام بها"^(٣).

ويذكر أسباباً أخرى فىقول: "وإذ سلمنا بشجاعة العرب وحماستهم كمحاربين، فإن ما يمكن أن يفسر نجاحهم بجدارة يقابله ضعف أعدائهم، إذ لولا أن البيزنطيين والفرس، كانوا قد أنهكوا أنفسهم فى حرب خاصة لسنوات طويلة وبخاصة فى عهد الإمبراطور هرقل لكان قيام الإمبراطورية الإسلامية أمراً لا يخطر على بال بشر، إذ إن الموارد المالية البيزنطية كانت قد استنزفت إلى الحد الذى أجبر القسطنطينية على إلغاء إقامة عدد من القلاع على امتداد الحدود الصحراوية إلى الجنوب، ومنع الإعانات التى كانت تقدمها لحلفائها العرب فى تلك المنطقة"^(٤).

ويعيد المؤرخ موس هذه الهزائم إلى الطبيعة التى أضحت عليها الجيش البيزنطى فى أعقاب انتصاراته على الفرس فىذكر "أن تلك الانتصارات استنفدت موارد الروم بشدة.. وأن هذه الحملات التى استمرت طويلاً أفسدت نظام جنودها، كما أن هرقل الإمبراطور الشيخ الذى انصرف إلى الخصومات الدينية، لم يعد

(١) جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ترجمة د. محمد فتحى الشاعر (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧م) ص ٥٧ - ٧٧.

(٢) داهموس: المرجع السابق، ص ٥٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٦. وهو هنا لا يعترف بأثر العقيدة الجديدة التى وحدت المسلمين وأهدافهم واستبسالهم.

(٤) المرجع السابق، ص ٦٧.

كعهده قديما، نافذ الكلمة فيهم، وكان الجيش يتألف من عدة أخلاط من الجنود، فانخرطت فيه أعداد غفيرة من الجنود الأرمن وسكان جبال القوقاز، وأسهمت هذه العناصر الشاذة في بث الفوضى في صفوف الجيش، على حين لم يكن قاداتهم الذين ينتمى معظمهم إلى النبلاء الإقطاعيين بميلادهم أقل تمردًا، وأدت هذه العيوب إلى إنزال أفدح الأضرار بالقيمة العسكرية للجيش البيزنطية المرابطة في الشام^(١).

وفضلا عن خطورة الموقف العسكري، كان هناك خطر أعظم، هو انتشار السخط بين السكان^(٢).

ويرجع أرشيبالد لويس اليسر والسهولة اللذين رافقا الغزو العربي إلى الإجهاد الذي حاق بالإمبراطورية البيزنطية أثناء كفاحها الطويل والذي استمر قرابة قرن من الزمان مع الفرس، وهو الصراع الذي انتهى حينما بدأ هجوم العرب. وإلى عجز بيزنطة بعد أن صار كل اعتمادها على العنصر البحري في مواجهة غزو برى واسع النطاق^(٣).

على أية حال مهما كانت المبررات التي يسوقها المؤرخون لتبرير انتصار المسلمين وهزيمة البيزنطيين، فقد تقرر مصير سورية في معركة اليرموك حيث غادرها الإمبراطور، وبدأ المسلمون يستعيدون المناطق التي كانوا يسيطرون عليها قبل المعركة، ويحصدون المناطق الأخرى التي لم يكونوا قد فتحوها سابقا، وكان أهم هذه المدن أنطاكية وحلب وبيت المقدس التي فتحت استسلاما بعد حصار طويل^(٤).

(١) موس: ميلاد العصور الوسطى، ص ٢٤٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٩.

(٣) أرشيبالد لويس: القوى البحرية، ص ٨٧.

(٤) هناك خلاف بين المؤرخين على مدة حصار بيت المقدس، وسنة فتحها، فبينما يذكر السبلاندي (فتوح البلدان، ص ١٦٤) أن فتحها تم سنة ١٧ هـ، يذكر الطبري (ج ٣، ص ٦٠٧) أن ذلك تم سنة ١٥ هـ، ولم يحدد الأزدي (فتوح الشام) سنة بعينها، ويذكر Theopanes, Op.Cit., P.471، وقنسطنطين السابع (إدارة الإمبراطورية، ترجمة محمود سعيد عمران، بيروت ١٩٨٠م، ص ٧٧) أن حصارها استمر عامين، وأن فتحها تم سنة ٦٣٧م = ١٦ هـ. بينما يذكر أومان (الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٢٨) وستيفن رانسيمان (الحروب للصليبية، ج ١، ص ٣٤) أن مدة حصارها استمرت اثني عشر شهرا. والمعروف أن بطريك بيت المقدس " صفرونيوس Sophronius: قد أصر ألا يسلم المدينة إلا إلى الخليفة عمر بن الخطاب شخصيا، والذي وصل فعلا، وتسلم مفاتيح المدينة وصلى بها وأعطى الأمان لأهلها، لمزيد من التفاصيل عن رحلة الخليفة لمدينة المقدس انظر: الطبري (ج ٣، ص ٦٠٧) والأزدي (فتوح الشام، ص ٢٤٨) والمنبجي (المنتخب من تاريخ المنبجي) ص ٤٨.

وبذل الإمبراطور هرقل آخر محاولة لاسترجاع بلاد الشام، ولكنها فشلت فشلا ذريعا، وذلك حين أرسل جيشا بقيادة ابنه قسطنطين، والذي أبحر من الإسكندرية بحملة كبيرة حطت رحالها في أنطاكية سنة (١٧ هـ / ٦٣٨ م) واتخذها نقطة للتقدم في بلاد الشام، ولكن المسلمين ما لبثوا أن تصدوا لهذه الحملة ودحروها^(١). وكان أهم نتائج هذه الحملة بالنسبة للمسلمين أن فتحت أعينهم على مصر وأنه لا بد من غزوها حتى يأمنوا على بقائهم في بلاد الشام^(٢).

بهذه الكيفية فتحت بلاد الشام وأصبحت في قبضة المسلمين، وإن كان المؤرخون يذكرون أسبابا عدة لهذا السقوط - ذكرنا بعضها عند الحديث عن موقعة اليرموك - ونعيد هنا رصدنا، مع التركيز على تلك الأسباب المباشرة التي كانت متعلقة بالإمبراطورية البيزنطية وأوضاعها التي أضحت عليها قبيل الفتح الإسلامي، وفي أعقاب انتصارات الإمبراطور هرقل على الفرس.

فالحرب الفارسية البيزنطية - في زمن هرقل - بما استغرقت من وقت طويل - أكثر من ست سنوات - وما سبقها من اجتياح فارسي شامل لعدة أنحاء من أراضي الإمبراطورية البيزنطية - بلاد الشام ومصر وأجزاء كبيرة من آسيا الصغرى - وبما استدعته من جهود عسكرية ومالية ضخمة، وما خلفته من آثار على الجوانب المختلفة - عسكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية - كان لها أثرها الكبير والمباشر في تقرير واقع الإمبراطورية البيزنطية في أعقابها. وبالرغم من الانتصار البيزنطي في هذه الحرب فإن ثمن النصر كان ضخما جدا، ناعت به خزينة الدولة ومؤسستها العسكرية، وجهازها الإداري. فقد خلف الاحتلال العسكري الفارسي لهذه الأنحاء متطلبات وأوضاعا جديدة، لم تحسن الإمبراطورية البيزنطية - بعد استعادة هذه الأراضي - التعامل معها أو التصدي لإشكالاتها.

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٢٢٤، أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٤٦، ويذكر أن الحملة نزلت أولا في اللاتقية أو السويدية وزحفت إلى أنطاكية، وانضمت إلى القبائل النصرانية في الجزيرة - بين الشام والعراق - والتي كانت مازالت على ولائها لبيزنطة، ولم تستسلم للحكم الإسلامي.

(٢) إبراهيم العدي، الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، القاهرة ١٩٥١م، ص ٤٤.

فعلى الجانب العسكرى وجدت الإمبراطورية نفسها مضطرة لتسريح أعداد كبيرة من الجنود الذين حشدتهم على الجبهة مع الفرس لمواجهة نفقاتهم المتزايدة، وللحد من أخطار قياداتهم المتحفزة، وعلى الجانب الاقتصادى والاجتماعى اضطرت الإمبراطورية لفرض ضرائب جديدة على الولايات الشرقية لمواجهة الأعباء المالية التى تعرضت لها إثر قيام الإمبراطور هرقل بالتسديد الفورى لتلك المبالغ التى أمدته بها الكنيسة - على سبيل القرض - لتمويل الحرب ضد الفرس، فأثارت هذه الضرائب سخط السكان، كذلك فإن الإمبراطور قام بقطع الإعانات التى كان يبعث بها للقيادات المحلية من النصارى العرب، من باب استمالتهم، وإعانتهم على الدفاع عن الحدود الجنوبية للإمبراطورية، مما أثار سخط تلك الزعامات وقلل من ولائها للعاهل البيزنطى.

يضاف إلى ذلك أن فكرة التوحيد المذهبى، والعقيدة "المونوتستية" التى اعتمدها الإمبراطور ودعا لها، كحل للخلاف المذهبى بين أنحاء الإمبراطورية وولاياتها، قد قوبلت برفض شديد، وعداء من سكان الولايات الشرقية، مما زاد فى حدة الخلاف ودفع الإدارة البيزنطية إلى مزيد من الضغط والتكيل بهؤلاء السكان الذين زاد سخطهم وتطلعهم إلى الفكاك من السيطرة البيزنطية وجبروتها، ولذلك لم يكن مستغرباً أن نجد قطاعات كبيرة منهم تقوم بمساعدة القوات العربية والترحيب بها، والأهم من ذلك عدم مقاومتها أو التصدى لها بشكل يعرقل تقدمها أو الخضوع لسلطتها.

كما أن من بين الأسباب أيضاً أن البيزنطيين لم يقوموا بإصلاح وإحكام التحصينات التى هدمها الفرس أثناء احتلالهم، وفى الحقيقة أنه لم يتح لهم الفرصة الكافية للقيام بذلك، لأن الغزو العربى سرعان ما تلى توقف القتال بين البيزنطيين والفرس.

علاوة على ذلك فإن الإمبراطورية البيزنطية لم تقوم الهجمات الإسلامية المبكرة تقويمًا واقعيًا وإنما تعاملت معها على أنها هجمات عارضة كنتك التي تعود أن يقوم بها الأعراب للسلب والنهب، فلم تتصد لها مبكرًا بقوة وحزم.

ويذكر أحد المؤرخين أن الإمبراطور هرقل - الذي شاخ - وسئم الحروب، بعد حروبه مع الفرس كان يتعرض بسبب مرضه لنوبات من الخمول والفتور^(١)، مما أثر في جهوده للتصدي للغزو العربي، ويذكر آخر أن تسليح الجيش البيزنطي الثقيل وافتقاره إلى المقدرة على سرعة التحرك، أعاقه في متابعة معارك الصحراء التي خاضها العرب، ولتغطية هذا النقص عقد البيزنطيون اتفاقًا مع القبائل على الحدود الجنوبية مثل سكان أرمينيا والذين استخدموا فرسانًا خفيفي العدة، ومعدات وأساليب حربية مشابهة لما استخدمه الفرسان العرب، ولكن هؤلاء الجنود المرتزقة تخلوا عن ولائهم للإمبراطورية البيزنطية في موقعة اليرموك، وقلبوا ميزان القوة، ولذلك انتهت المعركة الفاصلة إلى ما انتهت إليه^(٢).

على أن كل هذه الأسباب المباشرة، وغير المباشرة، لا تجعلنا نغفل جانبًا مهمًا، وهو التصميم والعزيمة الإسلامية، والعقيدة التي كانت تحرك المقاتلين العرب، والإمدادات التي كانت تدفع بها القيادة السياسية إلى أرض المعركة، والخطط العسكرية التي تفتقت عنها ذهنية القادة المسلمين كخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وغيرهما من القادة الميدانيين الذين كانوا يتعاملون مع كل معركة أو موقعة بما يستدعيه من تخطيط وحنكة.

(١) إيدرسن بل: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، مرجع سابق، ص ١٩٢، ويذكر ثيوفانيس أن هرقل كان يعاني من آلام داء الصرع وداء الاستسقاء.

(٢) جوزيف داهموس، مرجع سابق، ص ٦٩. ويبدو أن ذلك مبالغة منه فإن البيزنطيين أيضًا كانوا يقاتلون الفرس في معارك صحراوية.

كانت الخطوة التالية التي قررها القادة المسلمون بزعامة الخليفة عمر بن الخطاب الذين اجتمعوا في مؤتمر الجابية سنة (١٨ هـ / ٦٣٩م)^(١)، هي الاتجاه إلى فتح مصر لتأمين بقاءهم في بلاد الشام، فمصر كانت القاعدة التي انطلقت منها حملة قنسطنطين بن هرقل، ويمكن أن تلعب دوراً كبيراً في تهديد النفوذ بل والوجود الإسلامي، واستطاع عمرو بن العاص أن يقنع الخليفة بوجوب فتح مصر، وأن فتحها يمثل قوة للمسلمين، وعوناً لهم، وميداناً جديداً لتبليغ الدعوة الإسلامية^(٢).

(١) الجابية هي مرتفعات الجولان الحالية، بالقرب من دمشق، وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد وصلها أثناء زيارته لبلاد الشام لتسليم بيت المقدس، وحضر هذا المؤتمر جميع قادة المسلمين، وكان عمرو بن العاص أكثر المتحدثين في هذا المؤتمر، وينسب إليه إقناع الخليفة بوجوب التقدم لفتح مصر، انظر: الطبري، ج ٣، ص ٦٠٧، أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٤٨.

(٢) ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله): فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦١، ص ٨١، ويدور خلاف كبير بين المصادر الإسلامية حول بداية التفكير في فتح مصر، وطريقته وعدد الجيش الذي شارك فيه، وآخرون يكتبون عن تردد الخليفة عمر بن الخطاب في فتحها خوفاً على الجيش الإسلامي الذي كان موزعاً على عدة جبهات، فيذكر ابن عبد الحكم (فتوح مصر، ص ٧٦) أن عمرو بن العاص هو الذي تولى إقناع الخليفة بذلك، وأخذ يحسن له الأمر ويسهله عليه حتى اقتنع بعد تردد، ويذكر السيوطي (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مصر ١٢٩٩ هـ، ص ٦٣) أن عدة الجيش كانت أربعة آلاف رجل وقيل ثلاثة آلاف، ويذكر آخرون أن الخليفة هو الذي ندب عمر بن العاص لفتح مصر، وكتب إليه وهو بقيصرية يحاصرهما - يأمره - بالشخص إلى مصر (البلدري: فتوح البلدان، ص ٢٤٩)، وهناك آخرون يذكرون أن عمرو بن العاص خرج سراً إلى مصر مع جيش صغير، من تلقاء نفسه، ولما علم الخليفة بعث إليه يوبخه ويعنفه، ويبلغه بالرجوع إذا لم يكن قد دخل مصر، (المصدر السابق، نفس الصفحة)، وهذا ما نستبعده، إذا لا يعقل أن يقدم عمرو بن العاص على خطوة مثل هذه دون استئذان الخليفة.

كانت مصر مهياة لتحقيق نجاحات إسلامية، فقد كان قيرس Cyrus^(١) بطريكها، وحاكمها الإمبراطوري الذين عينه الإمبراطور هرقل، قد أوجد شرخاً كبيراً في العلاقات بين الجهاز الإداري والديني للإمبراطورية وبين السكان المحليين، وفشل فشلاً ذريعاً في تطبيق المذهب الديني الجديد الذي عين خصيصاً لإقناع المصريين "المنوفرتيين" به فاضطر للجوء إلى الاضطهاد، وتعقب رجال الدين السابقين ومطاردتهم^(٢)، وأهمهم البطريرك السابق "بنيامين" الذي كان يتمتع بسمعة طيبة وواسعة الانتشار بين المصريين^(٣). وكانت أحوال البلاد الاقتصادية والسياسية قد ساءت كثيراً؛ فقد أثقلت ضرائب البيزنطيين كاهل المصريين، وحولت حياتهم إلى لون من البؤس والشقاء وجرى اتباع نظام الموظفين غير المأجورين الذين أذاقوا الأهالي الهوان للحصول على الأموال والهبات، وزادوا العبء على الفلاحين وصغار الملاك؛ فهجر كثير منهم أراضيهم؛ فاستولى عليها الإقطاعيون وكبار الملاك، حتى كادت تختفي طبقة صغار الزراع، وأصاب الخلل أيضاً البناء الاجتماعي، واعتبر المصريون الطبقة السفلى من طبقات المجتمع، وترتب على ذلك قيامهم بأشد الالتزامات قسوة، وحرمانهم من حقوقهم الاجتماعية ومعاملتهم معاملة غير إنسانية^(٤).

(١) قيرس بطريك الإسكندرية وحاكمها وكان قبل ذلك قسيساً في افسوس بآسيا الصغرى، والذي عرف في المصادر العربية باسم المقوقس، وقد اشتهر بالعنف والغلظة في مواجهة المصريين، وقيل في معنى المقوقس أنها رتبة أو لقب، ومعناها الأحمق، وقيل أنه اسم مشتق من اسم قطعة صغيرة من العملة البرونزية التي كانت متداولة أيام جستنيان وأطلق عليه هذا الاسم على سبيل السخرية من عمله، وهو مراقبة الأموال.

ويدور خلاف كبير بين المؤرخين عن شخصية المقوقس وحقبة هذه الشخصية والتسمية. وقد أفرد المؤرخ بتلر ملحفاً خاص مطولاً في ختام مؤلفه "فتح العرب لمصر" تعريب محمد فريد أبو حديد، طبعة المركز العربي للنشر والتوزيع، القاهرة (١٩٨٩م) عن شخصية المقوقس وعن أقوال المؤرخين فيه وتناول شخصيته من مختلف النواحي، انظر: الملحق الثالث في شخصية المقوقس، ص ٤٤٩ - ٤٤٦. ويسميه المنبجي (قيرة)، مصدر سابق، ص ٤٨.

(٢) محمد محمود مرسى الشيخ: تاريخ مصر البيزنطية، مرجع سابق، ص ٢٨١.

(٣) محمود الحويرى: مصر في العصور الوسطى (موسسة عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والانسانية، القاهرة ١٩٦٩م) ص ٤٩.

(٤) محمد مرسى الشيخ: الإمبراطورية البيزنطية، مرجع سابق، ص ٨٧.

وكان أكبر العوامل التي أدت إلى سوء الأحوال في مصر هو ذلك الخلاف المذهبي، واهتمام الإمبراطور هرقل بتطبيق مذهبه الجديد، ولو بالقوة، في الوقت الذي أصر المصريون على التمسك بمذهبهم الديني، وكانت النتيجة أن فشلت سياسة هرقل الدينية فشلاً نريعاً، وتسببت في إحداث هذا الخلل الشديد^(١)، الذي سهل نجاح ما تلا ذلك من أحداث.

ويبدو أن عمرو بن العاص كان على اطلاع واسع ودراية تامة بأحوال مصر في ذلك الوقت، وأن تحمسه لفتحها كان يستند إلى فهم واع وإدراك عميق لظروفها^(٢)

كانت مدينة العريش هي أول المدن المصرية التي وصلتها قوات عمرو بن العاص، حيث فتحها دون عناء في ذي الحجة ١٨ هـ / ٦٣٩م^(٣) ومنها انطلق إلى مدينة الفرما، حيث أخذ محاصرتها، واستمر الحصار شهراً لمنعتها، ثم ما لبثت أن سقطت في محرم سنة ١٩ هـ / يناير ٦٤٠م^(٤). وبدأت هنا دلالات الترحيب المصري بقدم العرب، حيث أعلن الأسقف المطارد بنيامين ترحيبه بالعرب، وطلب من القبط بذل المساعدة لهم^(٥). وبالاستيلاء على الفرما اطمأن عمرو بن العاص إلى اتخاذها قاعدة عسكرية لتقدمه، وملجأ في حالة تعرض جنوده لأي معوقات.

(١) Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 223، وأرشيبالد لويس، القوى البحرية، مرجع سابق، ص ٧٨.

(٢) Ostrogorsky, Op. Cit., p. 98

(٣) ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص ٨٣.

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة، مصدر سابق، ص ٦٤، والفرما هي مدينة بلوزيم القديمة Pelusimum على ساحل البحر المتوسط شرقي مدينة بور سعيد الحالية، موسوعة تاريخ مصر عبر العصور، الهيئة المصرية العامة لكتاب، القاهرة ١٩٩٣م، ص ٢٦.

(٥) ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص ٨٦. وينفى بتلر (فتح العرب لمصر، ص ٢١٨) حدوث هذه المساعدة في هذا الوقت، وإنما يعيدها إلى ما بعد فتح العرب للقيوم أو حصن بابليون.

ومنها تقدم إلى بلبيس، حيث التقى هناك بالأرطوبون - قائد البيزنطيين - الذي فر إلى مصر أثناء فتح بيت المقدس، والذي هاجم المعسكر الإسلامي، ولكن الهزيمة ما لبثت أن حلت بجنوده فسقطت المدينة بعد حصار استمر شهراً كاملاً^(١).

ومنها انطلق إلى أم دنين التي تشرف على حصن بابلليون^(٢)، حيث كانت أهم معاركه، وأكثرها ضراوة، فقد تحصن به البيزنطيون وحشدوا قواتهم بشكل لم يسبق له مثيل، وكانت أعداد البيزنطيين تفوق أعداد المسلمين مما اضطر عمرو بن العاص إلى طلب المدد من الخليفة، الذي أمدّه بجيش كبير، كان على رأسه أربعة من كبار الصحابة هم: الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، والمقداد بن الأسود، ومسلمة بن مخلد^(٣). واستدعى ثيودور قائد الجيوش البيزنطية في مصر، كافة الجنود البيزنطيين الموجودين في أرجاء مصر، ليعزز حماية الحصن، وانضم إليه تاودسيوس حاكم الفيوم، وانسطاسيوس حاكم الإسكندرية، والمقوقس، لينظموا أمر الدفاع عن الحصن^(٤).

(١) ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ٨٧، وبلبيس كانت تسمى قديماً فليس أو فلايس وهي مدينة بينها وبين القسطنطينية عشرة فراسخ على طريق الشام، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢، ص ٦٢. وتذكر بعض المصادر الإسلامية مثل الواقدي وابن عبد الحكم رواية مفادها أنه كان في بلبيس عند سقوطها في يد المسلمين أرماتوسة بنت المقوقس، وكانت في طريقها إلى خطيبها قنسطنطين بن هرقل، وهناك علمت بهزيمته في قيسارية ومغادرته إلى القسطنطينية، فلبثت في بلبيس ووقعت أسيرة في يد المسلمين هي وجواربها وأموالها، فأعادها عمرو بن العاص إلى أبيها، وهو ما يذكره أيضاً بتشر في كتابه: تاريخ الأمة القبطية، ترجمة إسكندر تانرس، القاهرة ١٩٠١م، ج٢، ص ١٢٩. وهناك من يذكر أن الأسيرة كانت زوجة المقوقس وليست ابنته. وبطبيعة الحال فكل ذلك خطأ وهم، فقد كان المقوقس بطريركاً، ولم يكن مسموحاً للبطاركة بالزواج.

(٢) أم دنين تقع إلى الشمال من حصن بابلليون وكانت تسمى تندونياس Tendonias، وحصن بابلليون هو الحصن الذي بناه الإمبراطور الروماني تراجان (٩٨ - ١١٧م) وسماه العرب قصر الشمع أو القصر أو الحصن، انظر موسوعة تاريخ مصر الإسلامية، ص ٢٦.

(٣) امتدح الخليفة عمر بن الخطاب هؤلاء القادة بأن كل واحد منهم بألف، وهناك خلاف حول الرابع فبعضهم يذكر اسم خارجة بن حذافة مكان مسلمة بن مخلد. انظر: ابن الحكم، مصدر سابق، ص ٩٠، للبلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥١.

(٤) بتلر، فتح العرب لمصر، ص ٢١٩.

استمر حصار الحصن عدة شهور، تخللتها المناوشات كما تخللها تبادل السفراء^(١) ووضع عمرو بن العاص خطته على إغراء البيزنطيين بالخروج من الحصن وسرعان ما استجاب ثيودور لهذا الإغراء، مدفوعاً بقوته أو بضغط الإمبراطور هرقل الذي أرسل إليه يأمره بمهاجمة العرب بدلاً من الاكتفاء بالتحصن للدفاع^(٢).

واستطاع عمرو أن يعد كميناً لثيودور عند مدينة عين شمس (هليوبوليس)، حيث هزمه هزيمة فادحة وهرب بمن بقي معه إلى الإسكندرية، وعاد بعض الجنود إلى حصن بابليون^(٣).

بدأ عمرو بن العاص يشدد الحصار على الحصن ويضربه بالمنجنيق، وخرج المقوقس من الحصن إلى جزيرة الروضة طالباً مباحثات مع عمرو بن العاص^(٤).

وتشكل وفد المفاوضات الإسلامي برئاسة عبادة بن الصامت، الذي حمل عرضاً يحمل الشروط الإسلامية المعروفة وهي الإسلام أو الجزية أو القتال، وفشلت المفاوضات وعاد كل فريق معسكره، وعاود المسلمون ضرب الحصن بالمنجنيق بشكل أشد، مما جعل البيزنطيين يشعرون بضعفهم وقوة المسلمين وعدم قدرتهم على صددهم^(٥) وبالتالي عادوا مرة أخرى للمفاوضات، حيث تقرر عقد صلح تفرض الجزية بمقتضاه على النصارى في الديار المصرية، وكان عقد هذا

(١) موسوعة مصر الإسلامية، ص ٢٧.

(٢) ليلي عبد الجواد، مرجع سابق، ص ٤٠٤.

(٣) بتلر: فتح العرب لمصر، ص ٢٣١.

(٤) ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص ١٠٠. وجزيرة الروضة بالقرب من القسطنطينية وسميت جزيرة لأن

النيل إذا فاض أحاط بها الماء وحال بينها وبين القسطنطينية وبها أسواق وبساتين وهي من منزهات

مصر، الحموي، ج ٢، ص ١٣٩.

(٥) المصدر السابق، ص ١٠٢.

الصلح سنة ٢٠ هـ / ٦٤١م^(١) ولكنه كان صلحًا مشروطًا حيث اشترط المقوقس أن تترك للروم في مصر حرية الاختيار بين قبول شروط الصلح أو الخروج من أرض مصر، وأن تبقى الكلمة الأخيرة في قبول الصلح أو رفضه للإمبراطور هرقل، فإذا رفضه عادوا إلى القتال^(٢)، ومعنى ذلك أن أمر المصريين في الصلح أصبح محسومًا، وإذا كان هناك مساومات فسوف تكون حول مصير الحامية البيزنطية، أو الوجود البيزنطي في مصر.

وعاد المقوقس إلى الإسكندرية ليعث تقريرًا إلى الإمبراطور هرقل، عما تم الاتفاق عليه ويطلب منه إقرار هذا الصلح، وحاول تبرير إقدامه على عقده شارحًا أوضاع مصر، وأوضاع المقاتلين المسلمين، وهي أوضاع ولا شك - على الجانبين - ساهمت في إنجاح المرحلة الأولى من الفتح الإسلامي والتي تمثلت حتى الآن في الاستيلاء على كل هذه الأراضي، وبلغت نروتها بالاستحواذ على حصن بابليون بالأهمية الدفاعية التي شكلها والموقع الجغرافي الذي كان يحتله.

كما هو متوقع رفض الإمبراطور إقرار اتفاقية الصلح، وطالب باستمرار النضال للتصدي للمسلمين ووعده بمزيد من الدعم، وبدأت الحاميات البيزنطية تتجمع في الإسكندرية^(٣)، وذهب الإمبراطور إلى أكثر من ذلك فقد استدعى المقوقس (قيرس) إلى القسطنطينية، وعندما حضر إليه أخذ يوبخه بعد أن أساء

(١) أورد المؤرخ الطبري نصوص هذه الاتفاقية كاملة، ج٤، ص ٢٢٩، وتتركز أهمية هذه المعاهدة أو الاتفاقية في أنها أكدت سقوط مصر، فقد كانت بابليون بمثابة حاضرتها وقلبها، حتى وإن كانت الإسكندرية هي العاصمة الرسمية لمصر في هذه الفترة، وهي قد حددت مركز المصريين وأنهم أهل نمة يؤدون الجزية للعرب وأقر عمر بن الخطاب هذه الاتفاقية، موسوعة مصر الإسلامية، ص ٢٨.

(٢) ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص ١٠٤، بتلر: مرجع سابق، ص ٢٦٥، ويسميه بتلر عقدًا حربيًا، لا عقد سياسيًا.

(٣) محمد مرسى الشيخ: تاريخ مصر البيزنطية، مرجع سابق، ص ٢٩٦، محمود الحويري، مصر في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص ٦٢، موسوعة مصر الإسلامية، ص ٢٨.

استقباله، ووجه إليه تهمة الخيانة وأنه سلم مصر وثرواتها للعرب، وسلمه لوالى
القسطنطينية ليسى معاملته (١)

وبعد أن استخلص عمرو بن العاص حصن بابليون تقدم بقواته لفتح
الإسكندرية وبعد حصار شديد استطاع عمرو فتحها مستغلاً الظروف الجديدة التى
أضحت عليها الإمبراطورية حيث توفى الإمبراطور قبيل حصار الإسكندرية
ودخول الإمبراطورية فى أزمة وراثته العرش، وكان ذلك سنة ٢٠ هـ / ٦٤١م (٢).
وبسقوط الإسكندرية، وتوقيع معاهدة الاستسلام التى تقرر فيها أن يجلسوا الجنود
البيزنطيون من المدينة حاملين أمتعتهم وأموالهم، وأن لا يعودوا إلى الإسكندرية (٣)،
استكمل فتح مصر.

(١) Theophanis, Op. Cit., P. 470، المنبجى، (مصدر سابق، ص ٤٨) ويذكر ثيوفانيس أن المقوقس
فى سبيل إقناع الإمبراطور بإقرار الصلح اقترح عليه أن يزوج ابنته "أوداكيا" إلى عمرو بن العاص
فيتنصر، ويتغلب على المسلمين، مما زاد فى غضب الإمبراطور، ويستكر بتلر هذه الرواية، إذ كيف
يمكن للمقوقس وهو الذى خبر المسلمين أن يفترض قيام قائدهم عمرو بن العاص بالانقلاب على دينه
وقومه والتنصر من أجل الزواج من ابنة الإمبراطور، ويشن حملة على ارتباك وتتاقض معلومات
المصادر البيزنطية حول هذه الأحداث بصفة عامة، والواقع أن المصادر البيزنطية تبدو مرتبكة
ومتناقضة، وتكثر من الشائعات والأساطير وهى تورد أخبار الفتوح الإسلامية فى الشام ومصر، انظر
بتلر: مرجع سابق، ص ٢٥٦.

(٢) بتلر: فتح العرب لمصر، مرجع سابق، ص ٢٨٤، وهناك خلاف فى اليوم الذى توفى فيه الإمبراطور
هرقل حيث يذكر بتلر أن ذلك فى الحادى عشر من فبراير ٦٤١م، فى حين يذكر المنبجى أن ذلك فى
الأحد ٩ فبراير، ويبدو أن التاريخ الأول هو الأصح لأن يوم ٩ فبراير يوافق يوم الجمعة، بينما هناك
إجماع على أن وفاته كانت يوم أحد. كذلك هناك خلاف على مدة حكمه فبعضهم يذكر أنها إحدى
وثلاثين سنة وآخرون يذكرون أنها ثلاثون سنة، وكان سنة عند وفاته ستة وستون عمّا. انظر:
المنبجى، مصدر سابق، ص ٥٣.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخه، تحقيق د. أكرم ضياء العمرى، ط الثانية (دار طبية، الرياض ١٤٠٥ هـ /
١٩٨٥م) ص ١٥٠، ويذكر أن الفتح تم سنة ٢١ هـ.

وقد مثل فتح مصر أهمية كبيرة، بالإضافة إلى ما تملكه من الأراضي الغنية بالقمح فإنها كانت تتمتع بمركز عظيم الأهمية تجاريًا، كما كانت مركز تهديد لبلاد الشام التي أصبحت إسلامية، وكانت قاعدة بحرية دائمة لكل ما تشنه بيزنطة من هجمات مضادة، وكانت الإسكندرية هي المركز الرئيسي لبناء السفن على البحر المتوسط^(١).

ولا يوجد وصف للكارثة التي حلت بالإمبراطورية البيزنطية من سقوط مصر، أكثر من أنها كانت من الأسباب التي أدت إلى تدهور صحة الإمبراطور هرقل ووفاته.

بعد أن أدرك صعوبة ذلك وأثره على انحسار نفوذ الإمبراطورية ومكانتها وإمكاناتها^(٢).

لقد لعبت عوامل كثيرة في تحقيق هذه الهزيمة الكبيرة التي منيت بها الإمبراطورية البيزنطية، لعل منها أن المسلمين أطبقوا على البيزنطيين، ولم يتركوا لهم فرصة لالتقاط أنفاسهم، فلم يكذب يخرج البيزنطيون من بلاد الشام، حتى توالت الجيوش الإسلامية على مصر، ويبدو أن الإمبراطور هرقل وهو يسودع سوريا أصيب بخيبة أمل، أعقبتها تلك العزلة التي فرضها على نفسه في مدينة

(١) موس، ميلاد العصور الوسطى، مرجع سابق، ص ٢٥٠ وعن أهمية الإسكندرية البحرية والإستراتيجية انظر: د سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، ط الثانية (دار المجمع العلمي، جدة ١٣٩٩هـ) ص ٥٢. ويذكر فيليب حتى أن الإسكندرية كانت عاصمة مصر، وعمرها ٩٠٠ سنة، وكانت أمنع مدينة تحصيناً في الإمبراطورية بعد القسطنطينية فقد اشتهرت أسوارها أن العدو لا يستطيع النفاذ منها إلى المدينة، وكانت حاميتها تعد خمسين ألف مقاتل، وكان ميناءها أسطول قوى لحراستها من جهة البحر، ولم تكن هناك مدينة تضاهيها من حيث أبنيتها العظيمة القيمة، التي تعود عبر البيزنطيين فالرومان فالبطالمة إلى العهد الفرعوني، فيليب حتى (موجز تاريخ الشرق الأوسط) ترجمة د. أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٥م، ص ١٥٠.

(٢) وسام فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٥٩.

خلفيونية^(١)، حيث توالى عليه الأمراض، وعجز عجزاً شديداً عن إدارة أمور الدولة، فضلاً عن مدها بالقوات والإمدادات التي تستطيع الدفاع عن مصر، وإنما اعتمد على الحاميات المحلية التي كانت متواجدة فيها، وهذه كانت في حقيقتها جيشاً أو (مليشياً) من ملاك الأراضى، وهم قوم لا خبرة لهم في شؤون الحرب، على حين كان يشترك في القيادة خمسة قواد أنداد، وهو وضع من اليسير تصور ما ينجم عنه من عواقب^(٢).

وتزامن مع خطورة الموقف العسكرى، خطر أعظم ألا وهو السخط بين السكان، ولو أن الدولة البيزنطية حزمت أمرها واتبعت سياسة اكتساب رضا الناس وخفت عنهم أعباء الضرائب، واتبعت سبل التسامح الدينى، لربما تغيرت صورة الموقف في مصر^(٣) ووصلت حدة السخط على سياسة الإمبراطورية في مصر. أن رجال الدين كانوا يعتقدون أن ما حصل من طرد البيزنطيين من مصر، إنما جلبه الظلم والطغيان الذى أنزله هرقل ونائبه فى مصر (المقوقس) بأصحاب العقيدة الحقة (الأقباط) واعتبروا ذلك آية على الانتقام السماوى من "هراطقة خلفيونية"^(٤).

فى الوقت الذى استطاع المسلمون أن يقتربوا من هؤلاء السكان حين أعلنوا مبدأ التسامح الدينى والضرائب المخفضة^(٥)، فلقوا تعاوناً من السكان المحليين، أو على الأقل تحييداً لهم فى عدم دعم البيزنطيين^(٦).

-
- (١) بتلر: فتح العرب لمصر، مرجع سابق، ص ٢٨٢، ونتج عن هذه العزلة ظهور المؤتمرات على العرش، وكانت إحدى تلك المؤتمرات مؤامرة ابنه "أتالا ريخوس Atala Richus" وابن أخيه ثيودور، وكان جزاؤهما بتر أنفيهما وأيديهما ونفيهما إلى خارج العاصمة، وقتل عدد آخر من المتآمرين، ليلى عبد الجواد: مرجع سابق، ص ٤١٦، نقلاً عن: Niecphorus Breviarium in C. S. H. B. P. 28
- (٢) موس: ميلاد العصور الوسطى، ص ٢٤٨ وأيضاً Vasiliev, Op. Cit., Vol. I, p. 229
- (٣) المرجع السابق، ص ٢٤٩.
- (٤) محمد مرسى الشيخ: مصر البيزنطية، مرجع سابق، ص ٣١٦، وأسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٥٢.
- (٥) داهموس: سبع معارك فى العصور الوسطى، مرجع سابق، ص ٦٧.
- (٦) فيليب حتى، مرجع سابق، ص ١٥١، ويلخص الموقف بقوله "وما ترحم أهل مصر على أسيادهم الروم، وما بكوا حسرة على فراقهم، وهكذا فعل أهل سوريا من قبلهم، وللأسباب ذاتها، فقد كان الأمر لا يتعدى استبدال حاكم ظالم مستبد بحاكم جديد يرجى منه بعض الخير".

ولا حاجة بنا إلى تكرار الأوضاع التي أضحت عليها الإمبراطورية البيزنطية عند بزوغ حركة الفتح الإسلامي، قد ذكرناها عند الحديث عن فتح بلاد الشام، ولكن نؤكد هنا، أن قوى الإمبراطورية البيزنطية العسكرية والاقتصادية قد استنفدت في الحرب مع فارس ثم إن هذه الحرب - وإن انتهت بانتصار البيزنطيين - قد ترتب عليها عدة متطلبات ساهمت في خلق هذه الأوضاع، فإن الإمبراطور هرقل اضطر إلى تسريح أعداد كبيرة من الجنود الذين صنعوا انتصاره على فارس، لمواجهة الأعباء الاقتصادية التي اضطرت إليها قيامه بتسديد الديون التي كانت مترتبة للكنيسة عليه، حيث أصر رجالها أن يقطعوا أول ثمار النصر، وهي الحصول على قروضهم، وتبع ذلك اضطرار الإمبراطور إلى فرض ضرائب جديدة وجدت معارضة شديدة من سكان الولايات الشرقية الذين كانوا أكثر سكان الإمبراطورية تأثرًا بهذه الضرائب^(١).

كما أن هذه الأوضاع المرتبكة، والخلاف الديني الذي كان مسيطرًا، والكراهية المتبادلة وانعدام الثقة، ترتب عليها سوء الإدارة وفساد جهازها العامل في الولايات، وتضاؤل الجيوش وضعفها، وصور فاسيليف الوضع وما آل إليه بأنه لا يعدو سقوط بناء تعفن داخله^(٢).

ولا شك أن هذه الهزائم التي منيت بها الإمبراطورية البيزنطية أمام المسلمين، والأراضي الهامة التي فقدتها، قد عملت على تغيير أوضاع الإمبراطورية، وتقليص مساحتها، والتأثير على إمكاناتها، وحرمانها من مكاسبها التي حققتها في انتصارها على الفرس.

ولا شك أن الإمبراطور هرقل كان واحدًا من أعظم أباطرة الإمبراطورية البيزنطية وأسوأهم حظًا في الوقت نفسه، فقد أنقذ الإمبراطورية من الدمار وبدأ يرتب لإعادة تنظيمها وإحيائها^(٣) وكان قائدًا بارعًا في ميدان القتال وأظهر بسالة

(١) أرشيبالد لوبس، مرجع سابق، ص ٨٨.

(٢) Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 210

(٣) نورمان كانتور: مرجع سابق، ص ٢٢٦.

وإقدامًا في قتاله ضد الفرس، وكان ذا كفاءة إدارية، واستلم إمبراطورية منهارية، وإدارة متهالكة، واستطاع أن يعيد إليها التماسك والانتصار، ولكنه ما لبث أن ترك إمبراطورية مهزومة، انسلخت عنها أهم أقاليمها، ودولة تعصف بها الصراعات والأزمات وهي أزمات متعددة، كان أهمها أزمة وراثية العرش التي ورط فيها هرقل الإمبراطورية قبيل وفاته وذلك حين أوصى بالعرش لاثنتين من أبنائه ومعها زوجته مارتينا وذلك هو محور الفصل الثاني من هذا البحث.



الفصل الثاني

وراثة العرش فى أعقاب وفاة

الإمبراطور هرقل

- نظام وراثة العرش فى الإمبراطورية البيزنطية.
- التغييرات التى أحدثها الإمبراطور هرقل.
- مارتينا ومشاركتها فى الحكم وأثر ذلك.
- الثورة ضد مارتينا وابنها هرقليوناس.
- انفراد قنسطانز الثانى بالعرش البيزنطى.

نظام وراثة العرش في الإمبراطورية البيزنطية:

يعود نظام وراثة العرش في الإمبراطورية البيزنطية إلى فترة مبكرة من تاريخها، ففي أعقاب انهيار نظام الحكم الرباعي الذي جاء به الإمبراطور دقلديانوس Diocletian (٢٨٤ - ٣٠٥م)^(١) - وكان من أهدافه القضاء على ثورات الجند، وإبعاد الجيش عن السياسة، وكذلك منع توارث العرش في أسرة واحدة^(٢) - انفرد الإمبراطور قسطنطين الأول Constantine I (٣٠٦ - ٣٣٧م)^(٣) بالحكم، وعندما حانت ساعة وفاته، قام بتوريث العرش لأبنائه الثلاثة، عن طريق تقسيم الإمبراطورية بينهم^(٤).

(١) يعرف الإمبراطور دقلديانوس بمرمم الإمبراطورية، فهو الذي استطاع وقف الفوضى التي سادت الإمبراطورية في القرن الثالث الميلادي، وأول من فكر في نقل العاصمة من الغرب إلى الشرق، واتخذ عاصمته في نيقوميديا بآسيا الصغرى، وكان من أسبابه في ذلك الاقتراب من الأخطار التي كانت تحيط بالإمبراطورية، وحتى يستطيع التصدي لها، وكان أهمها الخطر الفارسي، وخطر البرابرة الذين تركزوا في هذه الفترة في حوض نهر الدانوب، وهو صاحب فكرة نظام الحكم الرباعي والتي تتلخص في وجود إمبراطورين أحدهما في الغرب والآخر في الشرق ويساعدهما قيصران، وحددت مدة حكم الإمبراطورين بعشرين عامًا، ثم يتنازلان عن الحكم ويرفع القيصران مكانهما، وقد تم مراعاة هذا النظام طوال فترة حكم دقلديانوس والتي استمرت عشرين عامًا، ثم تنازل عن الحكم هو وزميله إمبراطور الغرب ليحل القيصران مكانهما. لمزيد من التفاصيل عن هذه الفترة الهامة من تاريخ الإمبراطورية: انظر: Vasiliev, Op. Cit., Vol. I, P. 60.

وأيضًا الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص ٢٩

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. I, P. 29

(٣) قسطنطين الأول (٣٠٦-٣٣٧م) هو المؤسس الحقيقي للإمبراطورية في الشرق، وهو الذي اتخذ مدينة بيزنطة عاصمة للإمبراطورية، وسميت بالقسطنطينية أو روما الجديدة، واعترف بالنصرانية، ووضع أساس الدولة في الشرق وبه بدأت دولة بيزنطة، وقضى على منافسيه من الأباطرة والقيصرة الذين جاء بهم نظام الحكم الرباعي، وبعد حروب استمرت أكثر من ١٧ عامًا استطاع أن ينفرد بحكم الإمبراطورية.

انظر: هسي: العالم البيزنطي، ص ٩٢، الناصري: الروم، ص ٩

(٤) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I, P. 70

ويعتبر هذا بداية توريث العرش في الإمبراطورية عن طريق تقسيمها بين الأبناء، وقد هدف الإمبراطور قنسطنطين من خلاله أن يقضى على الصراعات بين أبنائه، ولكن الذي حدث كان العكس إذ استمر الصراع بينهم حتى انفرد أحدهم "قنسطانطيوس الثاني Constantine II" بالعرش^(١) وأعاد توحيد الإمبراطورية.

لقد أثبت هذا النظام للتوريث - عن طريق التقسيم - فشله في الحفاظ على وحدة وقوة الإمبراطورية. ولكنه نجح في جعل فكرة توريث العرش قائمة، وماثلة في الإمبراطورية الجديدة، ومحل اهتمام وعناية الأباطرة البيزنطيين.

وكانت هذه الفكرة أن تختفى عندما قام جوليان Julian (٣٦٠ - ٣٦١م) بالاستيلاء على العرش، بعد أن نادى به الجنود وفقاً للنظام الروماني القديم إمبراطوراً، ولكن وفاة الإمبراطور قنسطانطيوس، وعدم وجود وريث شرعي له، منعت الصراع وسهلت وصول ابن عمه جوليان إلى العرش^(٢).

وحقيقة فإنه حتى هذه الفترة لم يكن هناك تقنين لعملية وراثة العرش^(٣)، حتى أن الأباطرة الذين تلوا جوليان وهم: جوفيان Jovian (٣٦٣ - ٣٦٤م)^(٤)، وفالنتيان Walantian مشاركة مع أخيه فالينس Valens (٣٦٤ - ٣٧٨م)^(٥)، وثيودسيوس

(١) الناصري: الروم، ص ٥٣.

(٢) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٧٤

(٣) الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص ١٢٢

(٤) بعد وفاة جوليان - والذي يسمى المرتد لأنه حاول إعادة الوثنية إلى الدولة والتضييق على النصارى - في آخر حروبه مع الفرس، نادى الجند بأحد ضباطهم وهو جوفيان إمبراطوراً، وقام بتوقيع معاهدة مع الفرس تاركاً لهم عدة مدن هامة، ولكنه لم يعمر سوى ٦ أشهر ثم ما لبث أن توفي، Bury. Op. Cit., I, P. 96

(٥) بعد موت جوفيان هتف الجند بقائدهم فالنتيان إمبراطوراً، وكان محارباً قديماً من إقليم بانونيا شمال غرب البلقان، وتحت إلهام الضباط بوجوب اختيار شريك له في الحكم، اختار أخاه الأصغر فالنس إمبراطوراً مشاركاً، واستقر فالنتيان في الغرب وكانت عاصمته ميلان، بينما استقر فالنس في الشرق وعاصمته بيزنطة، وبدأ كلا منهما يعالج المشكلات التي تحيط بالجزء الذي يحكمه، وكانت أهم مشكلات الجزئين هي غزوات الجرمان، وقد قتل فالنس في موقعه أدنة (٣٧٨م) حين كان يتصدى للقوط، Ostrogorosky, Op. Cit., P. 48.

الأول Theodosius I (378 - 395)^(١) جاءوا عن طريق الثكنات العسكرية،
ومناداة الجنود بهم لأن يكونوا أباطرة.

ثم ب وفاة الإمبراطور ثيودسيوس الأول عادت عملية توريث العرش، عن طريق تقسيم الإمبراطورية بين ولديه: أركاديوس Arcadius (إمبراطورًا على الشرق)، وهونوريوس Honorius (إمبراطورًا على الغرب)^(٢).

وبدأ الجزء الشرقي من الإمبراطورية - وهو الذي يهمننا باعتبار أنه يمثل الإمبراطورية البيزنطية - يبلور نظامه الخاص لوراثة العرش، حيث أعقب أركاديوس ابنه ثيودسيوس الثاني^(٣)، ولأنه لم يخلف وريثًا فقد اختير للعرش أحد رجالات الجيش وهو مرقيان Marcian بعد أن تزوج شقيقة الإمبراطور بولكيريا Pulcheria^(٤) حيث دفعت به هذه المصاهرة إلى العرش، ولأنه هو أيضًا لم يعقب

(١) ثيودسيوس الأول، كان ابن قائد كبير من قواد الجزء الغربي للإمبراطورية واسمه أيضًا "ثيودسيوس" وتعني "هبة الله" وكان جراتيانوس بن فالتيان قد أمر بإعدامه بعد أن اتهم بالخيانة العظمى، وعندما قتل فالنس قبل أن تصله نجدة جراتياتوس من الغرب، ووصل جراتياتوس إلى بيزنطة، وجد العرش خاويًا فاستدعى ثيودسيوس من إسبانيا حيث كان معتكفًا احتجاجًا على مقتل والده، وولاه حكم الجزء الشرقي من الإمبراطورية، واستطاع أن يعالج مشكلات الإمبراطورية مع القوط، حيث استطاع تهدنتهم والاستفادة منهم في جيش الإمبراطورية واحتوائهم. انظر: الناصري: الروم، ص ٦١

(٢) رانسيمان: الحضارة البيزنطية، مرجع سابق، ص ٢٨. وكانا صغيرين في السن فعند توليتهما كان هونوريوس يبلغ إحدى عشر عامًا، وأركاديوس ثمانية عشر عامًا، وإبان حكمهما وقعت الإمبراطورية تحت قبضة قائدهما ووزرائهما من القوط.

(٣) تولى ثيودسيوس الثاني العرش وهو في الثامنة من عمره، وكان أطول من تولى الإمبراطورية عمرًا، إذ حكمها اثنتان وأربعين عامًا (٤٠٨-٤٥٠م). الباز العريني: الدولة البيزنطية ص ٤٥. وشهدت الإمبراطورية في عهده توجهًا علميًا وثقافيًا. وتم الاهتمام بالمسائل القانونية، وخرجت أول مجموعة قانونية، وشهدت فترته خلافاً دينياً ومجمعاً. انظر: Vasiliev, Op. Cit., P. 97.

(٤) يذكر سيد أحمد الناصري في مؤلفه "الروم" أن بولكيريا كانت عمّة الإمبراطور ثيودسيوس الثاني وليست شقيقته (ص ٦٨)، وهذا خطأ والصحيح أنها كانت شقيقته الكبرى ولم تكن عمته، وقد تزوجت من مرقيانوس أحد قادة الجيش بعد أن اشترطت أن يكون الزواج اسمياً فقط، وأن تبقى عذراء، وأن تقتصر زيجتها على المشاركة في إدارة الإمبراطورية، وكانت مسيطرة عليها أثناء فترة حكم أخيها ثيودسيوس الثاني، واستمرت سيطرتها بعد زواجها من مرقيانوس، ويبدو أن الذي ألجأها إلى ذلك أن انفراد امرأة بالحكم في بيزنطة، وفي الغرب الأوروبي لم يكن معروفاً حتى هذا الوقت، فكان لا بد لها أن تتخذ لها زوجاً يحكم باسمها. انظر أسد رستم: الروم، ج ١ ص ١٣٠. وأيضاً: Ostrogorsky, Op. Cit., P. 53, Vasiliev, Op. Cit., P. 102، ورانسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ٢٩

ورثاً - لأن زواجه من بولكيريا كان شكلياً فقط - فقد آل العرش بعد وفاته إلى ليو الأول Leo I (٤٥٧ - ٤٧٤م) وكان ضابطاً من ضباط الجيش الأقوياء^(١). وقام ليو الأول بتزويج ابنته الكبرى أريادين Ariadene على زينون Zenon زعيم قبائل الأيسوريين من آسيا الصغرى، بهدف ضرب القوط الشرقيين وقائدهم أسبار Aspar الذين كانوا يسيطرون على دفة الحكم في بيزنطة^(٢). ثم قام ليو الأول بإعلان حفيدة ليو الثاني من ابنته أريادين شريكاً له في الحكم وورثاً له في العرش، وكانت هذه أول مرة يتخذ فيها الإمبراطور شريكاً أو قسماً في العرش أثناء حياته، ويرثه بعد مماته^(٣).

وعندما توفي الإمبراطور ليو الأول سنة ٤٧٤م، تولى الحكم حفيدة ليو الثاني^(٤)، ولكنه ما لبث أن توفي بعد بضعة شهور، وتسلم أبو "زينون" الحكم، ولعلها أول مرة في التاريخ يرث الأب ابنه في العرش!

وكان زينون خلال فترة حكمه يشرك معه أخاه لونجينوس Longenus، وكان يهدف إلى توريثه العرش، ولكنه وجد معارضة من زوجته أريان، وعندما توفي

(١) Vasiliev, Op. Cit., P. 105، رانسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ٢٩، والمعروف أن ليو الأول كان أول إمبراطور بيزنطي يتلقى التتويج بالعرش من بطريرك القسطنطينية، لا من الجيش أو السناتو أو الشعب، كما جرت العادة سابقاً، وهذا التتويج الديني إشارة إلى ما أصبحت تتمتع به كنيسة بيزنطة من نفوذ ومكانة، وأصبحت حفلة التتويج في الكنيسة أهم مراسم تتويج الأباطرة، لمزيد من التفاصيل عن هذه المراسم انظر. Ostrogorsky, Op. Cit., P. 57.

(٢) ويزج الدكتور الناصري هنا أيضاً باسم مارقيان على أساس إنه هو والد أريان، وأنه هو السذي زوج ابنته لزينون، وهذا خطأ، فإن مارقيان، كان قد توفي قبل هذه الفترة، وهو لم يعقب ولم تكن لديه ابنة صغرى أو كبرى، حيث يذكر ابنة أخرى لمارقيان، ولعله خطأ مطبعي فهو يقصد بالتأكيد ليو الأول بهذه الأحداث، كما تذكر المراجع الأخرى. انظر: الناصري، الروم، ص ٧٢

(٣) Browning, R.: The Byzantine Empire. Charles Scribner's, New York, 1980, P. 22.

(٤) رانسيمان: الحضارة البيزنطية، ص ٢٩، وكان عمر ليو الثاني عندما تسلم الحكم ست سنوات وكان والده زينون هو الحاكم الحقيقي للإمبراطورية.

زينون اختارت "إرديان" أنستاسيوس Anastasius، وسلمته عرش الإمبراطورية^(١)، ورغم طول فترة حكم الإمبراطور أنستاسيوس (٤٩١-٥١٨م) إلا أنه لم يخلف وريثاً، خاصة وأنه تسلم الإمبراطورية وقد تجاوز العقد السادس، وعندما حانت وفاته، سادت الفوضى إلى أن آل العرش إلى جستين الأول Justin I قائد الحرس الإمبراطوري^(٢).

والملاحظ هنا أنه رغم مرور فترة طويلة تتجاوز القرنين على بداية ظهور نظام التوريث في عرش الإمبراطورية، ووصول أكثر من أسرة إلى الحكم، إلا أنه حتى هذا الوقت لم يتبلور نظام واضح ومحدد لوراثة العرش، على أنه كان هناك بوادر لتشكل نظام محدد، تتمثل في توريث بعض الأبناء، أو أعضاء من الأسرة الحاكمة، أو اقتسام العرش معهم.

على أية حال استطاع جستين الأول Justin I^(٣) الحصول على العرش، ومنذ أيامه الأولى أعلن أن قسيمه ومساعدته في الحكم هو ابن أخته^(٤) جستيان

(١) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ١٣٥، وكان يعمل في القصر مسئولاً عن التشریفات، وكان يبلغ عند اختياره ليكون إمبراطوراً الحادية والستين من عمره. ويذكر الدكتور الناصري أنه كان قائداً عسكرياً، وأنها اختارته إمبراطوراً وزوجاً أيضاً (الروم، ص ٧٤)، فيما يذكر رانسيمان أنه كان نبيلاً ثرياً وذا ميل فطري إلى الاقتصاد (الحضارة البيزنطية، ص ٢٩)، ويذكر الباز العريني أنه كان أحد كبار موظفي البلاط (الدولة البيزنطية، ص ٥٨)، وهو ما يذكره فاسيليف (Vasiliev, Op. Cit., P. 109).

(٢) Oman, C.W., The Byzantine Empire, T. Fisher Unwin, London 1892, P. 73.

(٣) كان جستين أحد ضباط الجيش، وقد أبلى بلاءً حسناً في الحروب مع الفرس، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولكن مهارته العسكرية دفعت به إلى منصب قائد الحرس الإمبراطوري، ليحصل على عضوية مجلس الشيوخ، وعلى لقب بطريق، انظر لمزيد من التفصيل عن شخصيته: د. محمد فتحي الشاعر: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس، عصر جستيان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٥٩.

(٤) هناك خلاف كبير بين المؤرخين حول قرابة جستيان لجستين، فهل كان عمه أم خاله، أي ابن شقيق جستين أم ابن شقيقته، فمثلاً يذكر أسد رستم، ج ١ ص ١٦٧، وسعيد عاشور: (أوروبا العصور الوسطى، ج ١ ص ٩٥)، ومحمد مرسى الشيخ (الإمبراطورية البيزنطية، ص ٤٠)، وفتحي الشاعر (عصر جستيان، ص ٦١)، وهربرت فيشر (تاريخ أوروبا - العصور الوسطى، ج ١، ص ٤٦)، وغيرهم، أن جستيان كان ابن أخت جستين، إلا أن هناك مؤرخين آخرين ينكرون أن جستيان كان ابن شقيق جستين، أي أنه كان عمه ولم يكن خاله، ومن هؤلاء: جيبون (The Decline and Fall =

Justinian، وكانت موافقه في هذا الإجراء أنه تولى العرش وقد ناهز السادسة والستين من عمره، ولم ينجب من زوجته إيوفيميا Euphemia ولخوفه من أقارب الإمبراطور السابق انستاسيوس الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير، ويطمعون في العرش، فقد أخذ يعد ابن أخته جستينيان ليكون وريثاً له^(١)، ولما مرض جستينيان مرضاً أقعده عن المشي، إذ كان مصاباً في قدمه نتيجة لجرح قديم، وكان قد بلغ السابعة والسبعين، أعطى موافقته لمجلس الشيوخ بأن تتم مراسيم تتويج جستينيان كشريك له في الحكم، حيث وضع البطريك إبيفانيوس Epiphanius (٥٢٠ - ٥٣٥م) بطريك القسطنطينية التاج على رأس جستينيان، ولما توفي الإمبراطور جستين بعد هذا التتويج بأربعة أشهر، تسلم جستينيان العرش بشكل طبيعي^(٢).

وبعد ثمانية وثلاثين عاماً قضاها جستينيان في الحكم (٥٢٧-٥٦٥م) دون أن يختار قسماً أو شريكاً، توفي ولم يترك وريثاً، يرث العرش من بعده، وكان ابن أخته^(٣) جستين (الثاني) محل ثقته ومستشاره في أمور الدولة، ولمس أعضاء مجلس الشيوخ هذه الثقة وأحبوا جستين، وقرروا انتخابه لتولى العرش^(٤).

= (of the Roman, Empire, Vol. II, P. 475) ورائسيان (الحضارة البيزنطية، ص ٣٢)، وسيد الناصري (الروم، ص ٨٠) والباز العريني (الدولة البيزنطية، ص ٦٥) وجوزيف نسيم يوسف (الدولة البيزنطية، ص ٦٩)، فهؤلاء يذكرون أنه كان عمه. ولكن يبدو أن الرأي الأول هو الأصح، خاصة وأن بيوري وهو المتخصص يؤكد ذلك نقلاً عن Procopius و Lebeau المعاصرين انظر: Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 19 وينص على أن جستين عندما أصبح ذا مكانة رفيعة في القسطنطينية استدعى شقيقته الوحيدة ومعها صغيرها بطرس ساباثيوس Petrus Sabatius وابنتها فيجيلانتيا Vigilantia، وتبنى ابن أخته والذي حمل اسماً جديداً هو جستينيان، ويبدو أن سبب الخلط يعود إلى ترجمة كلمة (Uncle) عن الإنجليزية والتي تأتي بمعنى عم وخال.

(١) Gibbon, Op. Cit., Vol. II, P. 477

(٢) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 25

(٣) هناك من المؤرخين من يذكر أنه كان ابن أخيه وليس ابن أخته، وهذا خطأ، فسجتيان لم يكن له أخ وإنما أخت رافقته عند وصوله وأمه إلى القسطنطينية وسبق أن أشرنا إليها.

(٤) Gibbon, Op. Cit., II, P. 479، وأسد رستم: الروم، ج ١، ص ١٩٥

وأثناء فترة حكمه التي امتدت من (٥٦٥-٥٧٨م) أصيب سنة ٥٧٣م بلوثة أفقدته عقله، نتيجة للجهد المضني الذي بذله للتصدي للفرس، ولهجمات اللبارد في إيطاليا، فقامت زوجته صوفيا^(١) Sophia باختيار القائد تيريوس Tiberius ليقوم بإدارة أمور الدولة خلال مرض زوجها الإمبراطور^(٢) واستمر أربع سنوات يقوم بتصريف الأمور، ومرّت لحظة قصيرة صفا فيها عقل الإمبراطور فقام بتبني تيريوس وعينه قيصرًا ومشاركًا في الحكم، وعندما توفي الإمبراطور بعد ثمانية أيام، كان سهلاً على تيريوس أن يحصل على العرش ويصبح الإمبراطور الفعلي^(٣).

واتخذ تيريوس وريثًا له من خلال تزويجه لابنته قسطنطينة لموريس Moris، الذي تدرج في الجهاز الإداري للدولة، حتى وصل إلى منصب قائد الحرس الإمبراطوري، ثم ما لبث أن رفعه الإمبراطور إلى مرتبة القيصر، ليصبح إمبراطورًا عند وفاة تيريوس سنة ٥٨٢م^(٤).

ورغم الإصلاحات الكثيرة التي أدخلها الإمبراطور موريس والانتصارات التي حققها على الجبهتين الشرقية والغربية، وآماله الكبيرة لتوريث العرش لابنيه

(١) وصوفيا هي شقيقة ثيودورا زوجة الإمبراطور جستينان، الذي كان لها دور كبير في فترة حكم زوجها وكذلك لعبت صوفيا دورًا لا يقل أهمية في فترة حكم زوجها جستين الثاني.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 71.

(٣) Gibbon, Op. Cit., Vol. II, P. 477.

(٤) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 25، وكان موريس خبيرًا في الشؤون الإدارية والعسكرية، واستطاع إنقاذ الإمبراطورية، ودخل حروبًا مع الفرس انتهت بتوقيع معاهدة سلام، وكان قد أعان كسرى الثاني (ابرويز) وأمدّه بجيش ساعده على استرداد عرشه في أعقاب الثورة التي قامت عليه وهروبه من المدائن، مما كان دافعًا إلى تحسين العلاقات بين الدولتين وتوطيدها حيث وصلت إلى درجة المصاهرة حين قام بتزويج ابنته ماريا على ملك الفرس كسرى الثاني.

وبهدوء الجبهة مع الفرس قام بالتصدي للآفار. كما استطاع إصلاح مالية الدولة، ولكن هذا أدى إلى الاقتصاد في نفقات الجند مما أسخطهم عليه.

وكان موريس يفكر في توريث العرش لابنيه حيث يقيم ابنه الأكبر في القسطنطينية لأهميتها، ويقوم ابنه الثاني في روما، ولكن الثورة التي تعرض لها، أنهت هذا المشروع لاقتسام العرش من بعده.

انظر: هسي: العالم البيزنطي، مرجع سابق، ص ١٢١ وأيضًا: Camb. Med. Hist. Vol. II, P. 280.

بحيث يحكم سيطرته على الجزأين الغربي والشرقي، إلا أن أعماله وآماله سرعان ما تحطمت عندما تعرض لثورة عارمة سنة ٦٠٢م، قام بها الجند الساخون على الإمبراطور بسبب سياسته النقشفية حيالهم وبسبب إصراره على بقاء جنوده وراء الدانوب طوال فصل الشتاء للتصدي للآفار والصفالبة^(١)، ورأس تمردهم القائد فوكاس Phocas، حيث قاد الجند إلى القسطنطينية، وقضى على المقاومة التي حاول موريس الاحتماء بها، وسرعان ما هُزم الإمبراطور وترك العاصمة، فأرسل فوكاس خلفه من قتله وقتل أفراداً عديدين من أسرته واستولى على العرش، حيث أعلن إمبراطوراً^(٢).

وخلال السنوات الثماني التي حكم فيها الإمبراطور فوكاس، دخلت الدولة في أزمة طاحنة، حيث توالى عليها هجمات الفرس من الشرق، والآفار من الغرب، وتفاقت الأزمة الداخلية، وعمت الفوضى لتبلغ ذروتها حيث استدعى هرقل من شمال أفريقيا لإنقاذ الإمبراطورية، حيث قضى على فوكاس وأعلن إمبراطوراً سنة ٦١٠م، كما سبق وذكرنا.

وهكذا تابعنا قضية وراثته العرش في الإمبراطورية، منذ ظهورها على يد قنسطنطين الأول، حتى وصول هرقل إلى الحكم، وكيف تعاملت معها الأسر الحاكمة في بيزنطة.

وعلى أية حال فرغم أن هذا التوجه - توريث العرش - قد تواجد من قبل في بعض فترات الإمبراطورية الرومانية والتي تعتبر الإمبراطورية البيزنطية امتداداً لها، إلا أنه شهد بعض التغيرات منذ أن انتقلت عاصمة الإمبراطورية إلى القسطنطينية، فقد جرى في العهد البيزنطي تقسيم الإمبراطورية بين ثلاثة من الإخوة (كما حصل في عهد قنسطنطين الأول)، وتوزيع ثلاثة أباطرة، أو تقسيمها بين وريثين (كما حصل في عهد ثيودسيوس الأول) كما جرى توريثها إلى وريث

(١) Ostrogorosky. Op. Cit., P. 76.

(٢) Stephenson (C.). Mediaeval History, New York, P. 116.

واحد (كما حصل في عهد ليو الأول)، ولما كان غير مستساغ توريث العرش للإناث من بنات الأباطرة أو شقيقاتهم، فإن أولئك الإناث كن يتخذن أزواجًا ويتزوجهن فيتمكن من الحكم من خلفهم (كما حدث مع موريقيان وموريس).

على أنه من الملاحظ في حالة عدم وجود وريث للعرش من الأسرة، أو صعوبة تدبير وراثة عن طريق التزاوج، يعود الجنود إلى النظام الروماني القديم حيث يهتفون بأحد قادتهم ويوصلونه إلى العرش (كما حدث في حالة جوليان وجوفيان وفالنتيان).

وكان التوريث يبدأ عادة بالاشتراك في الحكم، الذي أصبح له أهمية خاصة في نظام الوراثة، لأن نظام وراثة الحكم لم يكن يجري وفق قانون معين، فقد لجأ الأباطرة إلى أن يتخذوا من الإجراءات ما يكفل لهم تعيين من يرغبون في أن يتولى الحكم من بعدهم، بأن يجعلوا هذا المرشح قسيمًا لهم أو شريكًا في الحكم أثناء حياتهم^(١).

كما يلاحظ أن هناك وظيفتين هامتين لعبتا دورًا كبيرًا في التمكين من الوصول إلى العرش هما وظيفة القيصر، الذي هو بمثابة النائب والمساعد للإمبراطور^(٢)، ووظيفة قائد الحرس الإمبراطوري، وهو صاحب أكبر نفوذ وسيطرة في بلاط الإمبراطور، وكانتنا مدخلًا للكثيرين للوصول إلى منصب الإمبراطور^(٣).

وكان لهذا القسيم أو الشريك ما للإمبراطور من شارات، فله أن يتخذ التاج واللقب، وأن ينقش اسمه على العملة، وأن يرد اسمه في المراسيم الإمبراطورية^(٤).

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 96.

(٢) Bury, Op. Cit., I, 320، ورائسيان: مرجع سابق، ص ٩٠.

(٣) وحدث ذلك في عدة حالات مثل حالة جستين الأول، وموريس قبل أن يرفع إلى درجة القيصر (انظر الصفحات السابقة)

(٤) الباز العريني: الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٣٢

لقد اجتهد أباطرة بيزنطة في نقل العرش لخلفائهم من بعدهم، وتأمين التعاقب على العرش، وذلك بتعيين الواحد منهم إمبراطورًا مشاركًا له خلال حياته، ورغم ذلك لم تتجح أية أسرة حاكمة في الاحتفاظ بالعرش لفترة طويلة^(١)، فقد جاءت أسر وتوارثت العرش، ومن ثم فقدته إما بسبب عدم وجود الوريث أو لقيام شخص دخيل من خارجها ينجح في اعتلاء العرش، وقد تتاح له الظروف لتأسيس أسرة حاكمة جديدة.

وعندما تولى الإمبراطور هرقل عرش الإمبراطورية سنة ٦١٠م، وعمل على إنقاذها من الأزمة التي كانت تلم بها - كما مر بنا - قام جاهدًا بتأسيس أسرة حاكمة تتوارث العرش من بعده، ومنذ السنة الأولى لحكمه كان الإمبراطور هرقل واضحًا في هذا التوجه، ومنتخذًا كل الوسائل الكفيلة بتحقيقه.

(١) د. وسام عبد العزيز فرج: الأتباع والسادة، دراسة في ظاهرة التبعية الشخصية في العصر البيزنطي الأوسط، بحث منشور ضمن عدة بحوث تحت عنوان: دراسات في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥ م، ص ٢٣٥.

التغييرات التي أحدثها الإمبراطور هرقل:

وكان أول ما قام به الإمبراطور هرقل بعد أن استحوذ على العرش، وقضى على الفوضى، وأحكم سيطرته على الأمور، أن احتفل عشية إعلانه إمبراطورًا بزواجه من خطيبته أفذوكيه^(١) (إيدوسيا أو داكيا Eudocia) وقد أنجبت له سنة ٦١١م ابنته إيبفانيا Epiphania وبعدها بعام أنجبت له ابنه الأول قنسطنطين الصغير - والذي سمي أيضا هرقل الصغير - وقد احتفى به الإمبراطور، وحمله على ذراعيه وألبسه الملابس الإمبراطورية، ووضع التاج على رأسه وأعلنه إمبراطورا منذ ميلاده وشريكاً له في الحكم^(٢).

وعندما بلغ قنسطنطين التاسعة عشرة من عمره ولتأكيد هذه الشراكة وذلك التوريث في العرش، أعلن هرقل تعيين ابنه قنسطنطين قنصلا عاماً، وذلك في أول يناير عام ٦٣٢م^(٣)، وكان لهذا الإعلان وهذا التعيين أهمية دستورية، إذ أصبح من حق الإمبراطور الشريك ممارسة الواجبات والالتزامات الإمبراطورية، كما نقش اسمه على العملة، وبدأ يشارك في الأعمال الإمبراطورية.

فالإمبراطور هرقل، وكخطوة من خطوات إصلاح أحوال الدولة، وحرصاً على بقاء العرش في أسرته سارع مبكراً إلى إعلان ابنه - منذ ولادته - إمبراطوراً شريكاً، وأكد هذا الإعلان عندما كبر هذا الابن، وهو بهذا لم يبتكر جيداً، وإنما عاد إلى الترتيب الذي كان معروفاً في بيزنطة من نظام الاشتراك في الحكم، حيث

(١) كانت تسمى قبل الزواج من هرقل فافيا Favia، وكانت هي وزوجة هرقل الأب - أرخون أفريقيًا - وتسمى إيبفانيا Epiphania، تتواجدان بالصدفة في القسطنطينية وعندما كان هرقل يحاصر القسطنطينية، علم فوكاس بوجودهما في العاصمة فاجتهد في البحث عنهما، حتى وجدتهما وأمر بالقبض عليهما، ووضعهما في أحد الأديرة تحت الحراسة، وكان هدفه أن يتخذ منهما رهينتين لمساومة هرقل. انظر: Theopanis, Op. Cit., P. 783. وأيضا: أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢١١

(٢) Stratos, Op. Cit., P. 264. and Gibbon, Op. Cit., Vol. II, p. 783.

(٣) Ostrogorsky. Op. Cit., P. 100.

يختار الإمبراطور من يرشحه للحكم من بعده، ويجعله شريكاً له أو قسماً في الحكم أثناء حياته، ولكن الجديد، الذي جاء به الإمبراطور هرقل هو فيما حدث بعد ذلك، وجر على الدولة الكثير من الأزمات والمشاكل في أعقاب وفاته.

فالإمبراطور هرقل عندما توفيت زوجته أوداكيا بعد بضعة شهور من ولادة ابنه (قنسطنطين سنة ٦١٢م)^(١)، تزوج مارتينا Martina ابنة شقيقته ماريانا^(٢)، وقوبل هذا الزواج بمعارضة شديدة من الكنيسة ومن أهالي القسطنطينية، ورغم اجتهاد البطريرك سرجيوس في توضيح الخطأ في هذا الزواج، بل ومعارضته، وكذلك معارضة أهل القسطنطينية له، ونقمتهم على الإمبراطور بسببه، إلا أن هرقل كان مصراً على إتمام مراسم الزواج^(٣).

ورغم أن الإمبراطور هرقل - كما سبق وأوضحنا - استطاع أن يكبح جماح الأحزاب السياسية في العاصمة، إلا أن هذه الأحزاب لم تستطع إخفاء معارضتها لهذه الزيجة، وحدث ما يشبه الاتحاد بين هذه الأحزاب في معارضتها وإنكارها، حتى أن حزب الخضر - الذين كانوا قد أيدوا الإمبراطور هرقل وناصروه - راحوا يسخرون منه عندما كان يظهر في ملعب الهيدروم وبصحبة زوجته الجديدة مارتينا، ويوجهون له نداءات بذئنة^(٤).

ورغم معارضة البطريرك سرجيوس واحتجاجه، إلا أنه لم يجد مفرّاً من إتمام مراسم الزواج، حيث قام بمباركته ووضع التاج على رأس مارتينا بنفسه، بل وذهب إلى أبعد من ذلك حين قام بتعميد أبناء مارتينا وغسلهم بالماء، كما جرت عادة النصارى^(٥).

(١) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 280.

(٢) يذكر الدكتور الناصري: (الروم، ص ٢٢٥) خطأ أن مارتينا كانت ابنة شقيقه، ولكن الأصح أنها ابنة شقيقته وكانت بارعة الجمال، انظر: Vasiliev, Op. Cit., Vol. I, P. 193, Ostrogorsky, Op. Cit., P. 112

(٣) Alexander, Heraclius, Byzantin Imperial Idology, in speculum, 1977, P. 230

(٤) Sratons, Op. Cit., P. 95

(٥) Ostrogorsky, Op. Cit., P. 112

ويرى بعض المؤرخين في ذلك تأكيداً على سلطة الإمبراطور على الكنيسة، وأنها كانت مطلقة^(١)، إلا أننا نرى أنه إضافة إلى ذلك فإن الأوضاع السيئة التي كانت تحيط بالإمبراطورية، والهزائم التي كانت تمر بها في الشرق والغرب، واحتياجها إلى جهود الإمبراطور هرقل للتصدي لهذه الأخطار التي تحدد بها، خاصة وأن الإمبراطور وقد بدأ يعلن عن مشروعه لمقاومة الفرس، كل ذلك جعل الكنيسة وأهالي القسطنطينية يرضخون لرغبة الإمبراطور ويسكتون على مضمض حيال هذا الزواج غير الشرعي، إذ ما تلبث أن تظهر معارضتهم - التي كانت كامنة في النفوس - في أعقاب موت الإمبراطور وبروز مارتينا وابنها للسيطرة على العرش، كما سنرى.

لقد ظل هذا الزواج مثار ازدراء الناس والكنيسة، ونظر إليه دائماً على أنه مخالف للقانون الكنسي وقانون الدولة، لذلك فإن كراهية أهل القسطنطينية لمارتينا كانت في ازدياد، غير أن الإمبراطور هرقل لم يحفل برأي الناس، وغمر مارتينا بكل مظاهر الحب^(٢)، ويبدو أن الإمبراطور هرقل كان يشعر بازدراء الناس لمارتينا ولزواجها منه، وخوفاً عليها من أي انتقام يمكن أن تتعرض له أثناء غيابه في حروبه مع فارس، والتي استمرت سنوات، نجد أن الإمبراطور يصطحبها معه، رغم قسوة هذه الرحلة وأهوالها^(٣)، كذلك اصطحبها معه إلى بيت المقدس عندما أراد إرجاع صليب الصلبوت إلى كنيسة القيامة في محاولة لجلب تعاطف القساوسة والرهبان الذين كانوا يعارضون هذا الزواج^(٤).

(١) Gibbon, Op. Cit., Vol. II, P. 408 & Alexander, Op.Cit., P. 231

(٢) الباز العريني: الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٣٦.

(٣) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I, P. 194

(٤) Alexander, Op. Cit., P. 225

ولعل مما زاد في سوء موقف المواطنين ورجال الدين من مارتينا وهرقل بسبب هذا الزواج، هو شعورهم أن الله غير راض عن هذا الزواج فمن بين التسعة أبناء الذين خلفتهم للإمبراطور مات منهم أربعة أثناء الولادة، وعاش اثنان منهم بعاهات وإعاقات جسمية شديدة^(١).

لقد سيطرت مارتينا على الإمبراطور هرقل سيطرة تامة، حتى أنها كانت تحاول أن تجعل وراثة العرش في سلالتها، لا في ابن هرقل من زوجته الأولى، ففي عام ٦٢٦م أنجب الإمبراطور هرقل من مارتينا طفلاً سماه هرقليوناس Heracleonas^(٢)، وسرعان ما جعله - تحت ضغط مارتينا - وريثاً وخليفة له، إذ أشركه معه في الحكم إلى جانب أخيه الأكبر قنسطنطين من أوداكيا، ولعل ما دفعه إلى ذلك - إضافة إلى ضغط مارتينا - رغبته أن يرفع من منزلة هرقليوناس حتى يصبح له الحق في وراثة العرش بعد أخيه الأكبر، خاصة وأنه كان يُنظر إليه على أنه ابن غير شرعي^(٣). ولتحقيق ذلك قام هرقل في يناير ٦٣٢م، بترقيع هرقليوناس إلى مرتبة القيصر وهو ابن ست سنوات، متمتعاً بكل مميزات المنصب الجديد والتي كان منها أن يجلس بجانب الإمبراطور على مقعد أسفل مقعد الإمبراطور، وأن يجلس على المائدة الإمبراطورية، وأن يعيش في القصر الإمبراطوري، وأن يتمتع بحرس خاص^(٤).

ولمزيد من التأكيد على رغبة الإمبراطور في دعم هرقليوناس منحه عام ٦٣٨م لقب «أغسطس» وفي العام التالي حمل ابن الثالثة عشرة شارات القنصلية شأنه شأن أخيه الأكبر قنسطنطين^(٥).

(١) Ostrogorsky, Op. Cit., P. 112

(٢) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 282

(٣) Camb. Med. His. Vol. II, P. 391.

(٤) رانسيمان: الحضارة البيزنطية، مرجع سابق، ص ٩٢.

(٥) Stratos, Op. Cit., P. 124 و لقب (أغسطس) يجعله يلي الإمبراطور في المكانة ويكون بمثابة ولي عهده.

ولهذه الألقاب والمناصب دلالتها فى هذه الفترة الهامة من تاريخ الإمبراطورية، حيث إنها تضع إطاراً أو قاعدة قانونية لتطور نظام وراثته العرش بعد ذلك فى الإمبراطورية البيزنطية.

فالإمبراطور^(١) الذى يأتى على رأس نظام الحكم فى الإمبراطورية البيزنطية وكان يمثله فى هذه الفترة الإمبراطور هرقل، أحدث تغييراً فى مسماه إذ كان هرقل أول إمبراطور بيزنطى يحمل اللقب اليونانى باسيلوس Basileus وذلك انطلاقاً من التوجهات اليونانية التى سادت الإمبراطورية البيزنطية فى أواخر أيام هرقل، وكان اللقب سابقاً هو Imperator caesar Augusta، وكان الأباطرة قبل هرقل يستعملون لقب باسيلوس بصفة غير رسمية مسايرة منهم لعرف محلى كان سائداً^(٢)، وقبل اتخاذ هرقل لقبه الجديد كان يوصف بأنه الملك المتفانى فى الإخلاص للسيد المسيح (Postos en chriso Basileus)، أو تذكر هذه الصفة مختصرة بدون كلمة (Basileus)، وكان هذا إيذاناً بتغيير له دلالاته فى النظرة إلى الإمبراطور داخلياً وخارجياً^(٣).

ولأن هرقل كان حريصاً على أن يؤسس أسرة حاكمة يستمر فيها أبناؤه فى الحكم من بعده، فإنه كان يعمل جاهداً على تثبيت ذلك متخذاً من الوسائل والأفعال ما يضمن له تحقيقه، لذلك ظهرت فكرة الشريك أو القسيم فى الحكم، فهو يرشح هذا القسيم ليكون شريكاً له فى الحكم أثناء حياته، وإمبراطوراً بعد مماته، ولكن هرقل ذهب بعيداً فى هذا النظام فلم يكتف بقسيم أو شريك واحد، وإنما ترك قسيمين أو شريكين بنفس المناصب والصلاحيات، لمزيد من تأكيد بقاء الحكم فى الأسرة.

(١) كلمة إمبراطور هى ترجمة لاتينية للكلمة اليونانية Autokratator. لمزيد من التفصيل عن المناصب

البيزنطية انظر: W. Ensslin, The Government and the Administration of the

Byzantin Empire. Camb. Med. Hist. Vol. IV, Part. II, P.2.

Ensslin, Op. Cit., P. 3 (٢)

(٣) عائشة أبو الجدايل: مرجع سابق، ص ٢١٩.

وحقيقة أن الانتصار الذي حققه الإمبراطور هرقل في حروبه مع الفرس، قد أتاح له مكانة كبيرة، وسيطرة واسعة داخل الإمبراطورية، مكنته من تحقيق الكثير من أهدافه وأفكاره التي كان يسعى إليها، ومنها حل مشكلة وراثة العرش بالشكل الذي يشاء، هذا إضافة إلى المكانة التي حققها خارج الإمبراطورية^(١).

لذلك لم يكن مفاجئاً أن يقوم الإمبراطور هرقل بتتويج ابنه قنسطنطين عند ولادته - كما ذكرنا - إمبراطوراً شريكاً، ثم قام بنفس الإجراء مع ابنه الثاني من مارتينا (هرقليوناس)، بعد أن تدرج به في المناصب، ثم أكد كل ذلك في حفل التتويج الكبير الذي دعا إليه في ٧ يوليو عام ٦٣٨ م، بحضور سرجيوس بطريرك القسطنطينية، ومجلس الشيوخ بكامل أعضائه^(٢)، ولمزيد من إرضاء مارتينا قام بتعيين ابنها الآخر داود David قيصر^(٣).

ولتأكيد هذا التتويج شعبياً، تم الاحتفال به مرة ثانية في نفس العام، حيث برز الإمبراطور مع أبنائه الثلاثة في ميدان Augustaeum المواجه لمدخل القصر الرئيسي، ويوجد به كنيسة أيا صوفيا ومبنى مجلس الشيوخ ومبان أخرى، ودخل إلى الميدان من هم في مرتبة البطارقة، الذين يحملون لقب بطريق Patricus، وجاء بعدهم الموظفون ابتداءً من القناصل Hypates وحتى أولئك الذين من مرتبة Illustrii من أعضاء مجلس الشيوخ وحيوا الإمبراطور وولديه اللذين توجا حديثاً والقيصر الجديد، وتتابع الموظفون العاملون في الخدمة المدنية، والحرس الإمبراطوري Scholae، والأحزاب Demes (حزب الخضر والزرق)، واشترك الجميع في الهتاف للأسرة الإمبراطورية، ثم دخل هرقل مع أولاده إلى كنيسة أيا صوفيا حيث أنشدت الأناشيد، وتلقى الجميع تبريكات البطريرك^(٤).

(١) Theopanes, Op. Cit., P. 459.

(٢) Ostrogorsky, Op. Cit., P. 112.

(٣) Charles Diehl, History of the Byzantine Empire, transe by, George B. Ives, A.m.s. press, New York 1946, p. 47.

(٤) د. عائشة أبو الجدايل: مرجع سابق، ص ٢٢٢، نقلاً عن: Nikephoros, P. 127.

ولتخليد هذه المناسبة، سكّت عملة جديدة على وجهها الأول صورة هرقل مع ابنه قنسطنطين على يمينه وابنه الآخر هرقليوناس على يساره، وعلى رؤوسهم التيجان، وعلى ظهر العملة نقش Victoria Augs (ربة القصر تتوج الأباطرة والصليب في الوسط) وتحمل العملة النقش القديم: (Deus Adjuta Romanis) ليكن الرب في عون الرومان^(١).

لقد بلغت سيطرة مارتينا على الإمبراطور هرقل حدا كبيرا، والعجب أنه كلما زاد سخط الناس والكنيسة على مارتينا وسيطرتها، قابل الإمبراطور ذلك بإعطائها مزيدا من السلطات والمكانة، التي وصلت إلى هذا الحد من إشراك ابنها في وراثة العرش وجعل ابنها الآخر قيصر^(٢).

والواقع أنه في أواخر أيام هرقل وعندما بدأت الشيخوخة والأمراض تداهمه، وبدأ يعتزل الناس، ولا يخرج إليهم، قابعا في قصر هيريا Hieria - الذي يقع خارج القسطنطينية - كانت مارتينا هي صاحبة السيطرة والسلطان، مما أوجد لها حاسدين معارضين من داخل أسرة هرقل نفسها، ووصلت هذه المعارضة إلى حد تدبير مؤامرة لانتزاع العرش من الإمبراطور هرقل، وينفرد المؤرخ نيقفور يوس Neicphorus بخبر هذه المؤامرة. إذ يذكر أنه بلغ الإمبراطور هرقل أن ابنه اتالاريخوس Atalarichus^(٣) وابن أخيه القائد ثيودور Theodorus يتآمران

(١) Warne. T. Greadgold, the Byzantine state Finaces in the eight and ninth Centuries, London, 1982, p. 25.

(٢) Norman H. Baynes, Byzantine state and other essays, Greenwood press, London, 1924, p. 85.

(٣) الواقع أن هناك خلافا بين المؤرخين حول أسماء أبناء الإمبراطور هرقل، والذين بقوا على قيد الحياة. فإذا كان هناك اتفاق على اسمي ابنه وابنته من زوجته الأولى أوداكيا، فهناك خلاف حول أبنائه من مارتينا، والذين بلغوا تسعة، وهذا الاسم الذي ذكره نيقفور يوس لم يرد في القوائم الأخرى، مثل القائمة التي ذكرها جيبون أو تلك التي ذكرت في موسوعة كمبردج للعصور الوسطى، وإذا افترضنا أن هذين المرجعين ذكرا فقط الأسماء التي كان أصحابها على قيد الحياة عشية موت الإمبراطور هرقل، فإن هناك خلافا حول اسمين في القائمتين. ويبدو أن هذا الاسم الذي يذكره نيقفور يوس وأنه كان يتآمر على الإمبراطور ومارتينا، كان ابنا بالتبني، إذ لا يعقل أن يكون أحد أبناء مارتينا ويتآمر عليها.

للاستيلاء على العرش، ولذلك فقد أمر بجدع أنفيهما وقطع أيديهما، ثم نفى ابنه أتالاريخوس إلى جزيرة الأمراء، ونفى ثيودور إلى جزيرة Gaudomeleten وأمر حاكم الجزيرة بقطع رجليه عند وصوله ونفذ حكم الإعدام على باقى المتآمرين معهما^(١).

على أية حال إذا كان هناك أية دلالة لهذه الرواية فإنها تدل على مقدار السخط والغضب الذى كان يشعر به المواطنون والقادة العسكريون لتسط مارتينا وسيطرتها على الإمبراطور.

من جانبها فإن مارتينا كانت تستغل كل الظروف التى تحيط بالإمبراطورية فى التمكين لنفسها ولأبنائها لاكتساب مزيد من السلطة، فعندما توالى الهزائم على جيوش الإمبراطورية فى الشام ومصر، وعاد كثير من القادة البيزنطيين منهزمين من ميادين المعارك، اتهمتهم بالتقصير والعجز وأطاحت بالكبار منهم^(٢)، حتى يسهل الطريق أمامها للانفراد بالسلطة، واكتساب مزيد من السيطرة.

والواضح أنه كلما ازدادت أمراض هرقل، وانصرافه عن الحكم ازدادت سلطة مارتينا وسيطرتها، ورغبتها فى توسيع هذه السلطة والسيطرة، وزاد سخط الناس ورجال السناتو والكنيسة، لينفجر الموقف بعد وفاة الإمبراطور هرقل^(٣)، وقبل أن يتوفى الإمبراطور هرقل فى الحادى عشر من شهر فبراير ٦٤١م^(٤)،

(١) Nicephorus, Breviarium, in C.S. H. B., PP. 28-29 انظر الدكتورة ليلي عبد الجواد: مرجع سابق، ص ٤١٦.

(٢) د. إبراهيم العنوي: الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٣) Charles Diehl, Op. Cit., P. 42.

(٤) ألفرد بتلر: مرجع سابق، ص ٣٨٤، وهو يقدم ردً مفصلاً على التواريخ الأخرى التى حددت لوفاة الإمبراطور فى مصادر أخرى، ويتبعها بعدة حجج، ويحدد المنبجى وفاة هرقل كالتالى: يوم الأحد لتسع خلون من شباط (فبراير) سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة لذى القرنين، وهى سنة تسعة عشر للعرب (هجريّة) وسنة سبع لعمر (أى حكم عمر بن الخطاب) والخطأ الوحيد هنا أن يوم ٩ فبراير يوافق يوم الجمعة بينما وفاته كان يوم أحد، إنن يكون يوم ١١ فبراير هو الأصح، المنبجى: مصدر سابق، ص ٥٣.

حصلت مارتينا على وصية من الإمبراطور، رسمت مستقبل الإمبراطورية، وخطة الإمبراطور هرقل لوراثة العرش من بعده، وكان إعلان هذه الوصية عشية وفاة الإمبراطور سبباً في اندلاع أزمة كبيرة في البلاط البيزنطي وفي الدولة، أعطت مؤشراً واضحاً على موقف الشعب والكنيسة ومجلس السناتو من زواج هرقل بمارتينا وسيطرتها ومحاولاتها الانفراد بالسلطة، وهو موقف استطاع الإمبراطور هرقل أن يحد من خطورته ومعارضته أثناء حياته^(١).

Vasiliev, Op. Cit., p. 194 (١)

مارتينا ومشاركتها في الحكم وأثر ذلك:

بوفاة الإمبراطور هرقل آلت وراثته عرشه إلى: قنسطنطين والذي أعلن قسيماً وشريكاً لوالده منذ سنة ٦١٣ م، إلى جانب أربعة أبناء من مارتينا هم: ثيودوسيوس Theodosius والذي كان أصم أبكم، وهرقليوناس Heraclonas والذي توج بولاية العهد إلى جانب أخيه قنسطنطين في سنة ٦٣٣م، وداوود Dauid الذي كان قيصرًا، ومارتين Martin الذي حصل على منصب (Nobilissimus) وتعنى كبير النبلاء^(١).

وسارعت مارتينا إلى إعلان وصية الإمبراطور هرقل، والتي نصت على أن يشترك ولداه في الحكم - قنسطنطين الذي كان في الثامنة والعشرين، وهرقليوناس الذي كان في الخامسة عشرة - وأن يكون وضعهما وحقوقهما متساوية^(٢). وأن تشترك معهما في الحكم زوجته وأم ابنه الثاني "مارتينا" بأن تكون أمًا (Metera) لكليهما، وإمبراطورة (Basillssa) مشاركة لهما^(٣).

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II, P. 391، ويذكر جيبون قائمة أخرى لأبناء هرقل من مارتينا الذين كانوا موجودين عند مماته وهم: هرقليوناس، وأجوستينا Agustina، وأنوستاسيا Anostasia، وداوود القيصر David Caesar ومارتين. ومن الملاحظ أنها تحوى ابنتين هما (أجوستينا وأنوستاسيا)، وهو ما لم يذكره المؤرخون الآخرون. ويبدو أن هناك خلطاً لدى جيبون في أسماء الأبناء التسعة الذين خلقتهم مارتينا من الإمبراطور هرقل، ومات منهم أربعة عند ولادتهم، والابن الأكبر كانا معاقين جسمانياً، بقى منهم ثيودوسيوس (الأصم والأبكم) عند وفاة والده، ثم القيصر داوود وكبير النبلاء مارتين ويسميه البعض مازينوس وهرقليوناس الذي توج إمبراطوراً مع قنسطنطين. انظر Gibbon, Op. II. p. 783 وأيضاً: Ostrogorsky, Op. Cit., P. 112. وعن وظيفة (Nobilissimus) انظر: رانسيمان: الحضارة البيزنطية، ص ٤٠٢.

(٢) Ostrogorsky, Op. Cit., P. 112. وأيضاً: Camb. Med. Hist. Vol. II, P. 391

(٣) Stratos, Op. Cit., P. 130

وما إن أعلنت مارتينا الوصية، حتى قوبلت بمعارضة شديدة من قبل مجلس السناتو والشعب^(١)، حيث أعلنوا قبولهم بالحكم المشترك لابنى هرقل، ورفض مشاركة مارتينا لهما فى الحكم بحجة أنها كامرأة لا يمكن أن تمثل الإمبراطورية وتقابل السفراء الأجانب^(٢)، أو ترأس الطقوس الدينية التى كان يقوم بها الإمبراطور عادة^(٣)، واضطرت مارتينا للخضوع مؤقتاً لهذا الاعتراض، ولكنها لم تستطع مقاومة شهوة الحكم التى كانت قد تمكنت منها فى الفترة الأخيرة من حياة زوجها الإمبراطور، وأصررت على أن تشارك فى الحكم كما نصت الوصية^(٤)، وبذلك بدأ الانقسام فى بيزنطة والصراعات والتحزبات.

وقبل أن نتابع هذه الصراعات نعود إلى وصية الإمبراطور هرقل، حيث يلاحظ أنه كان حريصاً على أن يبقى الحكم فى أسرته، وظل يعمل جاهداً على تكوين أسرة حاكمة، ترث الحكم من بعده^(٥)، مما يعنى العودة مرة أخرى إلى نظام توريث الحكم الرومانى القديم، وأن حرصه هذا كان مبكراً فمئذ اللحظة الأولى لولادة ابنه قنسطنطين نجده يعلنه قسيماً وشريكاً، له كل صلاحيات الإمبراطور وشاراته، وأكد هرقل هذا التوجه لترسيخ وراثته العرش حينما قام بهذا الدور نفسه مع ابنه هرقليوناس، ويمكن أن يكون هذا واحداً من التغييرات التى شهدتها الإمبراطورية ابتداءً من القرن السابع الميلادى، حيث كانت البداية لتأسيس وتقنين نظام لوراثته العرش الذى ترسخ فيما بعد فى بيزنطة، انطلاقاً من أسرة هرقل وأصبح أحد الملامح البارزة فى الإمبراطورية^(٦).

(١) Thoophanes, Op. Cit., P. 474

(٢) الياز العرينى، مرجع سابق، ص ١٣٨.

(٣) الناصرى، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

(٤) بتلر: مرجع سابق، ص ٢٨٥.

(٥) محمد مرسى الشيخ: تاريخ الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ٩٢.

(٦) Ostrogorsky, Op. Cit., P. 27

إضافة إلى هذا الحرص من قبل الإمبراطور على أن يحفظ العرش في أسرته، فإنه كان حريصاً أيضاً على أن يخلص مارتينا وسلالتها بنصيب من الحكم دون أن يحرم ابنه الأكبر قنسطنطين من حقوقه الإمبراطورية، والواقع أن الإمبراطور كان يعلم أن مارتينا محل حقد الناس وكرهيتهم، وأن الشعب والكنيسة والسنااتو، لم ينسوا له أو لها أن زواجهما تم رغم المعارضة والسخط الشديدين اللذين أبداهما الجميع، وأن زواجهما اعتبر زواجاً محرماً من قبل الكنيسة والشعب، ويعارض قانون الكنيسة والدولة، كان الإمبراطور يشعر بكل ذلك ولذلك اضطر إلى حماية مارتينا من سخطهم والدفاع الدائم عنها، فقد اصطحبها معه أثناء حروبه في فارس حتى يخلصها من العداء المستحکم حولها في القسطنطينية، وكان لابد أن يتخذ من الوسائل ما يحقق لها هذه الحماية بعد وفاته، فاعتقد أنه بإشراكها في وصيته يحقق لها ذلك.

ويرى جيبون أن الدافع لإشراك مارتينا في الوصية يعود إلى أن هرقل كان رجلاً مسناً ومريضاً ولا يستطيع رد طلب لزوجته الشابة^(١). في حين يرى مؤرخ آخر أن حرص هرقل على إشراك ابنه الأصغر جاء نتيجة لاعتلال صحة ابنه الأكبر قنسطنطين وخوفه من موته المبكر وضياع عرش الإمبراطورية من أسرته، وبما أن ابنه هرقليوناس كان ما يزال صغيراً فإنه رأى من الأفضل إشراك أمه معه كوصية عليه^(٢).

على أية حال، وأياً كانت الضغوط التي خضع لها الإمبراطور هرقل سواء ضغط مارتينا عليه، أم حرصه على بقاء العرش في أسرته، فإن إشراك مارتينا أثار المعارضة الشديدة، وأثار مسائل عديدة تتعلق بالوضع الدستوري العام وأغرق الإمبراطورية في نزاع حاد^(٣).

(١) Gibbon, Op. Cit., Vol. II, P. 784.

(٢) Stratos, Op. Cit., P. 136.

(٣) الباز العريني: مرجع سابق، ص ١٣٧.

نخلص من كل ذلك إلى أن وصية الإمبراطور هرقل، كانت محاولة منه للعودة بالإمبراطورية البيزنطية إلى نظام وراثية العرش الذي عرف في فترات سابقة من تاريخ الإمبراطورية، على أن الجديد الذي أدخله هرقل على هذا النظام أنه لم يكتف باتخاذ أحد أبنائه كشریک وولي لعهد في الحكم، بل عين اثنين منهما في المنصب نفسه، فضلاً عن أنه أشركهما منذ ميلادهما^(١)، وهذا يؤكد الحرص الذي أبداه الإمبراطور في تكوين أسرة حاكمة تتوارث العرش من بعده، واتخذ من الوسائل كل ما اعتقد أنه كفيل بتحقيق ذلك.

ما لبثت الأمور أن تازمت في القسطنطينية، ووقع الشقاق بين شطري الأسرة الحاكمة، بين قنسطنتين الثالث من جهة وهرقليوناس ومارتينا من جهة أخرى، وانقسمت الإمبراطورية إلى قسمين: قسم يؤيد قنسطنتين الثالث، ويرى أنه صاحب الحق الشرعي في الحكم منفرداً، وقسم آخر يرى أن لهرقليوناس وأمه الحق في المشاركة في الحكم^(٢). وسرعان ما ساد هذا الصراع الحياة السياسية والحياة العامة في العاصمة البيزنطية، وأنعاء عديدة من الإمبراطورية.

لقد كان من الصعب أن يستمر الحكم في بيزنطة تحت قيادة ثلاثة أباطرة هم: قنسطنتين الثالث، وهرقليوناس، وأمه مارتينا، ولذلك فإن انفراط هذا العقد، وانهيار هذا الائتلاف المصطنع كان وارداً جداً، بل ومؤكدًا.

كان قنسطنتين الثالث يتمتع بأغلبية كبيرة من المؤيدين، وكان على رأس هؤلاء المؤيدين رجال مجلس السناتو، وكبار القادة والضباط العسكريين، ورجال الكنيسة وفي مقدمتهم البطريرك بيروس Phrihus الذي خلف سرجيوس الأول في

(١) ليلي عبد الجواد: مرجع سابق، ص ٨٨.

(٢) الناصري، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

البطيريركية^(١)، وخازن الدول فلاجوريوس Philagrius وقطاعات كبيرة من الشعب البيزنطى^(٢).

ولكن قنسطنطين الثالث - الذى كان يعانى من مرض خطير^(٣) - ما لبث أن توفى بعد أن أكمل الشهر الثالث من حكمه تقريبًا، وكانت وفاته فى ٢٥ مايو ٦٤١م^(٤).

وأرادت مارتينا استباق الجميع، واستغلال هذا الحدث بموت منافسها فى الحكم، واتخذته ذريعة للتسلط على العرش، فأعلنت انفراد ابنها هرقليناس بالعرش البيزنطى، وطالبت مجلس السناتو والجيش بإقرار هذا الانفراد، ولكن يبدو أن السحب الكثيفة التى تجمعت منذ بداية زواجها من الإمبراطور هرقل، مرورا بوصايتها على العرش، ثم رغبتها الآن بالانفراد به، أن لها أن تمطر عصيانا وتمردًا فوق رأسها ورأس ابنها، فقد وقف أمام حكمهم وانفرادهم بالعرش الجميع: الطبقة الأرستقراطية، والقادة العسكريون، وطبقة رجال الدين الأرثوذكس^(٥). وزاد من تعكير الأجواء فى القسطنطينية أن مارتينا - لإكمال مسلسل السيطرة على الحكم - أرسلت بأبرز مؤيدي الإمبراطور قنسطنطين إلى المنفى، أو عزلتهم، وكان من أبرز المنفيين خازن الدولة فلاجوريوس، وعدد من القيادات العسكرية^(٦).

(١) ما لبث بيروس أن انقلب على قنسطنطين وأعطى تأييده لمارتينا وابنها، ويبرر بيورى انقلاب البطيريرك بيروس على قنسطنطين بالرغم من تأييده فى البداية إلى أن البطيريرك كان يدين بالمذهب المونوثولستى الذى جاء به الإمبراطور هرقل، ولأن قنسطنطين كان مخالفًا لهذا المذهب ويرغب فى تجاوزه، غير بيروس تأييده ورأيه، وانضم إلى الحزب المناوى، وهو حزب مارتينا وأصبح له نفوذ كبير فى فترة حكم مارتينا وابنها هرقليناس لدرجة أنه أتهم باشتراكه معهما فى قتل قنسطنطين، وتذكر بعض الروايات أنه نفى معهما وطرد من القسطنطينية فيما بعد. انظر: Bury, Op. Cit., Vol. II, p. 281، وأيضاً ألفرد بتلر: مرجع سابق، ص ٢٨٥.

(٢) Ostrogorsky, Op. Cit., P. 113.

(٣) يذكر البار العرينى أن قنسطنطين كان يعانى من مرض السل (الدولة البيزنطية، ص ١٢٨)، ويذكر بتلر نقلاً عن حنا النقيوسى أن مرض قنسطنطين بدأ عند توليه الحكم، وأن موته كان من قىء دموى، ولعله نشأ عن انفجار عرق، ويوافق نيقفوروريوس على أن مرضه قد طال مدته (بتلر: ص ٢٨٧).

(٤) Ostrogorsky, Op. Cit., P. 113. أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٥٤

(٥) Ostrogorsky, Ibid.

(٦) Theophanes, Op. Cit., p. 475.

الثورة ضد مارتينا وابنها هرقلوناس:

كانت هذه التصرفات دافعا إلى بروز حركة التمرد والعصيان في القوات المسلحة، حيث قام أحد أتباع قنسطنطين وهو الأرمني قائلنتين أرساسيدوس Valantine Aracidus بتحريض الجنود المرابطين في آسيا الصغرى ضد مارتينا وهرقلوناس، وقاد جيشا بلغ به خلقيدونية، حيث كانت تتواجد مارتينا، واحتلها بحجة أن ابن الإمبراطور الراحل (قنسطنطين الثالث) في خطر، وأرسل تعليمات إلى المقاطعات يطالبها بعدم إطاعة أوامر مارتينا^(١)، وقامت مارتينا من جانبها بتوفير جنود مرتزقة لحماية العاصمة من الغاضبين والثائرين^(٢).

ولكى يهدئ من الغضب والاهتياج قام هرقلوناس بإيراز ابن أخيه الأكبر - وكان يسمى هرقل - وكان في العاشرة من عمره، وتعهد بأن يكون له أبا صالحا، وأقسم بأن الصبي لن يواجه أي أذى، واصطحبه معه إلى خلقيدونية، وبذل نفس التعهدات أمام قائلنتين ورجاله^(٣).

وهناك أعلن الجنود مطالبهم، وكان منهما إشراك ابن قنسطنطين الثالث - والذي سيمى باسم قنسطانز Constans^(٤) - في الحكم، والاعتراف به إمبراطورا، وإعادة المنفيين والمعزولين، وكان في مقدمتهم خازن الدولة فلاجوريوس.

(١) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 391

(٢) Theophanes, Op. Cit., P. 457

(٣) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 392

(٤) عرف بهذا الاسم بعد أن أصبح إمبراطورا، وقنسطانز هي تصغير « قنسطنطين » وكان قد أعطى اسم هرقل (جده) عند تعميده، وعند تتويجه اتخذ اسم قنسطنطين ثم أطلق عليه قنسطانز لتمييزه عن والده. وينكر الدكتور الياز العريني (الدولة البيزنطية، ص ١٣٩) أن قنسطانز أطلق عليه لقب الملتحي Pogonatus لاهتمامه كلما كبر في السن بإرسال لحيته، وهذا يبدو أنه خطأ، إذ أن هذا اللقب أطلق على ابن قنسطانز (قنسطنطين الرابع ٦٦٨ - ٦٨٥م) الذي جاء بعده في الحكم، ولم يطلق على قنسطانز، انظر: رانسيمان: الحضارة البيزنطية، ص ٤٠. وينكر فاسيليف أن الدراسات الحديثة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية تعطي هذا اللقب - أي الملتحي = (Pogonatus = The bearded) لابن قنسطنطين الرابع، أكثر من الأب قنسطانز الثاني، وهو يرجح إطلاقه على الابن قنسطنطين الرابع P. 193. Vasileve. وهذا ما درجت عليه معظم المراجع والقوائم التي تذكر عادة عن أباطرة الدولة البيزنطية.

ولم تجد مارتينا وابنها هرقليوناس بدأ من الاستسلام لمطالب الجند الثائرين، والتي كانت أيضاً مطالب لرجال السناتو والشعب، واتخاذ بعض الإجراءات التي تهدئ من ثورة الثائرين الذين كانوا يحيطون بخلقيديونييه، وجاء بعضهم من القسطنطينية.

ورضوخاً لهذه المطالب اصطحب الإمبراطور هرقليوناس ابن أخيه إلى كنيسة "أيا صوفيا" وأمر البطريك بيروس بتتويجه إمبراطوراً مشاركاً، ولكن المواطنين أصروا أن يقوم الإمبراطور شخصياً بتتويج ابن أخيه^(١). وبعد تتويجه إمبراطوراً مشاركاً لعمه هرقليوناس أعطى الاسم الجديد قنسطانز تمييزاً له عن والده. وكان في الحادية عشرة من عمره^(٢).

وشعر هرقليوناس أنه عبر هذه الإجراءات، قد أعاد السلام إلى العاصمة، فقد تم تسوية الأمر مع قائد الثوار قائلنتين، حيث تم تعيينه كرئيس لفرقة من ضباط القصر، كما حصل على تعهدات بعدم المطالبة بالنقود التي سبق وحصل عليها من فلاجوريوس الذي عاد من منفاه، كما حصل جنود قائلنتين على هبة من الإمبراطور، وحتى يتم الخلاص منه، تم إرساله إلى كبادوكيا لمقاتلة المسلمين^(٣)، واستغلالاً للمناسبة قام هرقليوناس بإعلان شقيقه داود - الذي كان في منصب القيصر - إمبراطوراً ثالثاً تحت اسم تييريوس Tiberius^(٤).

(١) Camb. Med. Hist., Vol. II, p. 392، والمعروف أنه منذ عهد الإمبراطور ليو الأول (٤٥٧-٤٧٤م) جرت العادة أن يقوم البطريك بتتويج الأباطرة، وكان ليو الأول هو أول إمبراطور يقوم البطريك بتتويجه، وأصبح دارجاً منذ تلك الفترة (الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص ٥٤) ويبدو أن غضب الجماهير من البطريك بيروس وحقنها عليه هو الذي دفعها إلى رفض تتويجه لابن قنسطانطين الثالث، وإصرارها على أن يقوم هرقليوناس بهذه المهمة.

(٢) أسد رستم: الروم، ج ٢، ص ٢٥٤. ويرجح ألفرد بتلر أن يكون تتويج قنسطانز كان في أوائل شهر سبتمبر ٦٤١م، بتلر: مرجع سابق، ص ٢٨٨

(٣) Kaegi, W.E., Byzantine Military. (471-843), Coronel Books, U.S.A 1981, P. 87

(٤) Gibbon, Op. Cit., Vol. II, P 783

ولكن يبدو أن السلام الذي كان ينشده هرقلوناس، كان مؤقتًا واستمر لفترة بسيطة، إذ ما لبث مسلسل المعارضة لمارتينا وابنها هرقلوناس أن عاد إلى التصاعد مجددًا، فالجنود الذين كانوا في كبادوكيا أعلنوا الثورة بعد أن أبرزوا رسالة من الإمبراطور هرقلوناس تطالب بالهجوم على قائلتين وعزل قنسطانز، وقادهم ثيودور الأرمني Theodore، وتوجه بهم إلى القسطنطينية^(١).

وفي القسطنطينية - ولم يكن قد مضى قرابة الشهر على تتويج قنسطانز - سرت إشاعات تتهم مارتينا وابنها هرقلوناس بقتل شريكهما السابق في الحكم قنسطنين الثالث عن طريق تسميمه والانفراد بالعرش^(٢).

والواقع أن هناك خلافًا كبيرًا بين المؤرخين حول وفاة الإمبراطور قنسطنين الثالث، فهناك من يرى أن وفاته المبكرة تعود إلى مرضه، وأنه كان مصابًا بداء السل، وأن مرضه يعود إلى فترة مبكرة من حياته - كما سبق وذكرنا - في حين يشير آخرون إلى قصة موته بسبب دس السم له^(٣). ويهتمون بذلك مارتينا وابنها هرقلوناس ويشركون معهما البطريرك بيروس، الذي انقلب على قنسطنين الثالث بسبب سياسته الدينية، التي كانت تسعى إلى الابتعاد عن المذهب "التوفيقى" "المونوثولستية"، ويستشهد هؤلاء المؤرخون بأن رواية موته بوضع السم له قد وردت في مصادر بيزنطية معاصرة، فإضافة إلى ثيوفانيس، فإن الرواية ذكرت عند كيدرنيوس Cedrenus وزوناراس Zonaras، وهي مصادر معاصرة^(٤).

(١) Camb. Med. Hist., Vol. II, p. 392

(٢) Ostrogorosky. Op. Cit., p. 113، وهناك من يذكر أن أول من أطلق هذه الإشاعات وابتكرها كان القائد قائلتين واستخدمها لتحقيق أهدافه، وبقيت أصداؤها قائمة في القسطنطينية بعد تركه لها وتوجهه إلى كبادوكيا. انظر: Camb. Med. Hist., Vol. II, p. 393

(٣) Theophanes. Op. Cit., P. 474

(٤) Stratos, Op. Cit., P. 124، ويذكر المنبجى الذي يرجح أنه كان يعتمد على هذه المصادر أيضًا، أن قنسطنين « ملك أربعة أشهر، وقتله بعض نساء أبيه »، ويقصد بذلك مارتينا، المنبجى: مصدر سابق، ص ٥٣.

ويبدو أن هناك مبالغة في هذه الروايات، وأنها لا تعدو أن تكون تابعة من السخط العام الذي كان يواجهه به هرقلوناس وأمه مارتينا في القسطنطينية، فالإمبراطور قسطنطين الثالث كان فعلاً معتل الصحة، ونرجح أن العامة والناقمين من رجال السناتو والجيش قاموا باختلاق هذه الجريمة البشعة وهذا المبرر ليسقطوا مارتينا وابنها عن الحكم، إذ أن هذا الاتهام لم يظهر فور وفاة الإمبراطور قسطنطين الثالث، وإنما تأخر ظهوره فترة من الوقت، وبعد موافقة هرقلوناس على أن يشاركه ابن أخيه قنسطانز في العرش، وتتويجه إمبراطوراً قسيمياً أو مشاركاً، وبعد أن أصاب النفي والعزل قطاعاً كبيراً من القيادات والشخصيات الهامة في القسطنطينية تنفيذاً لأوامر مارتينا وابنها.

زادت المعارضة لمارتينا وابنها، وانضمت جماهير القسطنطينية وزعماء الطوائف والحرف إلى صفوف المعارضين لهما، وتصاعدت المعارضة حين قامت مارتينا باستدعاء كيرس (المقوقس) من منفاه الذي قد كان نفاه إليه الإمبراطور هرقل، وذلك عندما استدعاه ليبرر المعاهدة التي قام بإبرامها مع المسلمين، وتسليمهم حصن نابليون. وكانت مارتينا تشعر أن كيرس سيكون عوناً لها، ومؤيداً لحكمها هي وابنها^(١).

ويرجح ألفرد بتلر أن اجتماعاً قد تم بين الإمبراطورة مارتينا وبين البطريرك كيرس، قبل أن يصبح قنسطانز شريكاً في الحكم، وأن كيرس استطاع إقناعهم بتسليم الإسكندرية للعرب، وأنه سافر من القسطنطينية قاصداً الإسكندرية ليدبر المفاوضات مع المسلمين، وأن يضمن أفضل الشروط للبيزنطيين^(٢).

وهناك من يرى أن التعليمات التي كانت لدى المقوقس تقضى بتسليم مصر للمسلمين مقابل أن يتركوا أرمينيا التي كانوا يستعدون لفتحها^(٣)، وأنه قد زود بقوة عسكرية للاستعانة بها في حالة فشل مفاوضاته مع المسلمين للدفاع عن الإسكندرية^(٤).

(١) بتلر: مرجع سابق، ص ٢٨٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٨.

(٣) الناصري: الروم، مرجع سابق، ص ٢٢٦.

(٤) Finlay. History of Greece, Op. Cit., I, P. 374

انفراد قسطنز الثاني بالعرش البيزنطي:

سرت إشاعة مقتل الإمبراطور الراحل قسطنطين مسموماً بيد الإمبراطورة مارتينا وابنها هرقلوناس في القسطنطينية سريان النار في الهشيم، فاندلعت الثورة مجدداً، وهنا وجد مجلس السناتو - الذي كان يترصد بمارتينا وابنها - فرصته للتدخل وحسم الموضوع. فأصدر قراراً بعزل مارتينا وابنيها - هرقلوناس وتيريوس - ولم يكتف بذلك بل قام بقطع لسانها، وجذع أنفى ابنيها، وكان ذلك في نهاية شهر سبتمبر سنة ٦٤١م / ٥٢١هـ^(١)، ثم تقرر نفيهما إلى جزيرة رودس.^(٢)Rohdes.

ويذكر هولدن أن البطريرك بيروس قد طرد معهما، لأنه كان مشاركاً لهما ومناصرًا لمارتينا^(٣). وبينما تذكر مراجع أخرى أن البطريرك قد قدم استقالته^(٤) تشير مراجع أخرى إلى أنه قد اختفى من المسرح قبل ظهور هذه الأحداث، وأنه عشية تتويج قسطنز في كنيسة أيا صوفيا ورفض الجماهير قيامه بعملية التتويج شعر بمقدار كراهية واحتقار الناس له. فقد بحثت الجماهير عنه في الليلة التالية، ولم تجده، وإنما وجدت العبادة الخاصة به على مذبح الكنيسة على سبيل التوديع، وبعد اختباء لبعض الوقت هرب إلى أفريقيا دون مقاومة، ومع أنه لم يجرّد من رتبته الكنسية، فقد تم تعيين البطريرك بولص Paul خليفة له^(٥).

(١) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 384.

(٢) Ostrogorsky, Op. Cit., P. 113.

(٣) Holdon, J.E, Byzantium in the seventh century, cambridge 1997, P. 50.

(٤) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٥٤.

(٥) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 392.

لقد أثبت قرار مجلس السناتو، الذي أنهى حياة مارتينا وأبنائها على هذه الكيفية مقدار كراهيتهم لهذه المرأة ونسلها، وأن هذه الكراهية تعود إلى قضية زواجها من الإمبراطور هرقل، ثم سيطرتها على مقدرات الإمبراطورية في شيخوخته، لقد كانت عملية الزواج الآثم الذي انتهك العرف والقانون ماثلة دائماً أمام رجال السناتو وأمام الشعب، وتحقق ما كان يخشاه الإمبراطور هرقل، والذي حاول جاهداً أن يمنع حدوثه بعد وفاته من خلال وصيته التي نصت على إشراك مارتينا وابنها في العرش، ولكن الشعب ورجال السناتو لم ينسوا لها ذلك، فأنزلوا بهم أقصى عقوبة عرفت في الإمبراطورية، بل وهناك من يرى أن هذا النوع من العقوبة قد حدث لأول مرة في القسطنطينية، وقد أخذ مما كان معروفاً في الشرق - في فارس - حيث يتم إحداث عاهة أو تشويه في الجسم، كقطع اللسان أو الأنف، والهدف منها أن الشخص الذي يتعرض لهذه العقوبة لن يعود كفوّاً لأن يتولى الأمور أو المناصب^(١).

وإذا كان هناك دلالات أخرى لهذا الحدث الكبير الذي حدث في العاصمة البيزنطية فهو الكشف عن مقدار السلطة التي أصبح يتمتع بها مجلس السناتو (الشيوخ)^(٢)، ودوره في إقرار الأمور، حيث تجلت هذه القوة في اتخاذ قرار عزل مارتينا وابنيها وتنفيذ تلك العقوبة عليهما، وفيهم خارج العاصمة. وهو دور قد أخذ يبرز منذ مطلع القرن السابع، ومنذ بداية أسرة هرقل؛ فالسناتو هو الذي ساهم في وصوله إلى الحكم، وكان له دوره ورأيه في فترة حكمه^(٣)، وازداد هذا الدور بروزاً في عهد خلفائه، بشكل ربما لم يسبق أن لعبه المجلس، إلا في الفترة السابقة على نقل العاصمة إلى الشرق.

(١) Ostrogorsky, Op. Cit., P. 114 وأيضاً: الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص ١٣٩.

(٢) منعرض بالتفصيل في الفصل الثاني لسلطة مجلس الشيوخ وتطورها وبروزها في فترة الإمبراطور قسطنطين وأثر ذلك على الحكم في بيزنطة.

(٣) Holdon, Op. Cit., P. 53.

ومن الدلالات أيضا أن أحداث هذه الفترة قد أكدت على قضية توريث العرش والحرص عليها، والتعامل معها على أنها من الأولويات التي يجب على كل إمبراطور أن يحرص عليها، بل ودفع هذا الحرص هؤلاء الأباطرة إلى التوسع في توريث العرش إلى أكثر من وريث حتى يحافظوا عليه، فالإمبراطور هرقل حرصا منه على بقاء العرش في أسرته، أشرك معه في الحكم اثنين من أبنائه، وأضاف إليهما - بعد مماته - في وصيته زوجته مارتينا. وهرقليوناس اضطر تحت الضغط الشعبي والعسكري إلى تعيين ابن أخيه، وتعيين شقيقه داوود كإمبراطور شريك، من حقه أن يشارك في وراثة العرش، وسيخطوا في هذا الاتجاه أباطرة الأسرة الهرقلية، بشكل واضح وتركيز مقصود، بحيث يصبح ذلك تقليدا في الأسر التي اعتلت العرش بعد ذلك. ومعنى ذلك أن قضية وراثة العرش أخذت مكانها في الإمبراطورية، وأصبحت مقننة وذات وجود شرعي متعارف عليه انطلاقا من هذه الفترة، وهذه الأسرة البيزنطية الحاكمة.

على أية حال فقد شغلت هذه الأوضاع والصراعات شطرا كبيرا من عام ٦٤١م، ورغم الظروف الدقيقة التي كانت تمر بها الإمبراطورية أمام المسلمين الذين كانوا يواصلون تقدمهم في مصر، وفي أعالي بلاد الشام، إلا أن الصراعات على العرش لم تتوقف، حتى انجلى الموقف بالتدخل الحاسم لمجلس السناتو، الذي قرر وضع حد لها، وأعلن انفراد الإمبراطور قنسطانز الذي لم يكن يتجاوز الحادية عشرة من عمره بالعرش ليبدأ حكمه تحت الوصاية والإشراف الكامل لمجلس السناتو، ولتتجلى سيطرة هذا المجلس بشكل لم يسبق من قبل.

ولعل من آخر الدلالات التي يجدر ذكرها في ختام هذا الفصل، أن عنصرا هاما من العناصر التي لعبت أدوارا خطيرة في أحداث الإمبراطورية البيزنطية في فترات السابقة، قد انحسر وتراجع، ونعني بها الأحزاب Demes (حزبي الخضر والزرق)، فإن هذه الأحزاب لم تشارك بشكل واضح وبارز في صراعات هذه الفترة، ولعل مرد ذلك إلى أن الإمبراطور هرقل قد عمل جاهدا على تقليم

أظافرها، مما أدى إلى تراجع دورها وتأثيرها السياسي إذ أدت إصلاحاته - والتي سبق أن ناقشناها - إلى الحكم بالموت على نشاطها السياسي⁽¹⁾، وانحصر تواجدها ودورها في الـ (Hippodromos) حيث سباقات الخيل والعربات والمباريات، وإلا لو كانت هذه الأحزاب قد استمرت في ممارسة أدوارها السابقة نفسها، وتدخلاتها السياسية، لربما كانت قد تغيرت نتائج الصراع المرير في تلك الفترة الهامة.

(1) Holdon, Op. Cit., P. 54

الفصل الثالث

الإمبراطورية البيزنطية تحت حكم

الإمبراطور قنسطانز الثاني

(٦٤١ - ٦٦٨ م / ٢٠ - ٤٨ هـ)

- دور السناتو في وصول قنسطانز الثاني إلى العرش.
- سياسة قنسطانز الثاني الدينية.
- الصراع مع المسلمين في عهد قنسطانز الثاني.
- التحركات في الغرب لاستعادة النفوذ البيزنطي.
- استقراره في الغرب وتفكيره في نقل العاصمة.
- مؤامرة اغتياله في سيراكوز بصقلية.

دور السناتو في وصول قنسطانز الثاني إلى العرش:

أسفرت الأحداث والصراعات التي تلت وفاة الإمبراطور هرقل وتسببت فيها وصيته التي ظهرت في أعقاب وفاته، عن انفراد حفيده قنسطانز الثاني بالعرش. ولعب السناتو (مجلس الشيوخ) الدور الحاسم في وضع نهاية لتلك الصراعات وفي وصول الإمبراطور الجديد إلى العرش وانفراده به.

وهكذا حسمت قضية ولاية العرش ابتداء من أسرة هرقل، ولولا ذلك لرأينا بروز مغتصب جديد للعرش خاصة وأن الظروف جميعها كانت مهيأة لإمكانية قيام هذا المغتصب، ووصوله إلى العرش مستفيداً من تردى الأوضاع، وتفاقم الصراعات التي سادت في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الإمبراطورية.

كما برز أيضاً دور مجلس الشيوخ مجدداً، واشتراكه في إدارة دفعة الأحداث، وملاً الفراغ في السلطة الذي أفرزه ذلك الصراع.

والملاحظ أن مجلس الشيوخ - قبيل ابتداء حكم أسرة هرقل - أخذ يستعيد دوره الذي سلب منه خلال فترة حكم جستينيان الأول، والتي تميزت بقوة الإمبراطور واستبداده، مما جعل سلطات هذا المجلس تتوارى بعض الشيء^(١). وتأكدت هذه السلطة وتعاظمت خلال فترة حكم الإمبراطور هرقل وأسرته من بعده.

لقد كان انتخاب الإمبراطور ووصوله إلى العرش إحدى المهام التي يتولاها مجلس الشيوخ، حين كانت الإمبراطورية تدار بحكومة ثنائية (Dyarchy) طرفيها الإمبراطور ومجلس الشيوخ، ولكن هذه الثنائية ما لبثت أن تراجعت منذ فترة حكم

(١) Ostrogorsky, Op. Cit., P. 115

الإمبراطور ثيودوسيوس الذي كان حريصاً على تحجيم دور مجلس السناتو، وتواري هذا الدور تماماً في عهد سلفه الإمبراطور قنسطنطين الأول، واستمر ذلك إلى عهد الإمبراطور جستنيان حيث حلت الكنيسة محل مجلس الشيوخ في القيام بهذا الدور والمشاركة فيه^(١).

فخلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين، خضعت عملية انتخاب الإمبراطور لتطورات كبيرة. فبينما استعاد المجلس هذا الحق قبيل مجيء جستنيان، عادت سلطاته فأنحسرت انحساراً كبيراً بعد اعتلائه العرش، ومع ذلك فلم تكن لمجلس الشيوخ الكلمة الأخيرة في اختيار الإمبراطور، بل كان يقر المرشح الذي يقع عليه اختيار الجيش^(٢).

وكان البطريرك يشارك في مراسم تعيين الإمبراطور^(٣)، فيتزوج الإمبراطور الجديد. ويمثل ذلك اعترافاً بنفوذ كنيسة القسطنطينية، دون أن يكون لهذه المشاركة دلالة أكثر.

وهكذا نجد أنه حتى أواخر القرن السادس كان لكل من مجلس الشيوخ والبطريرك والجيش والأحزاب أو الشعب دور في انتخاب الإمبراطور^(٤). وكان مجلس السناتو يمثل البيروقراطية وطبقة كبار الملاك والمتنفذين.

إلا أنه ابتداءً من القرن السابع الميلادي استعاد مجلس الشيوخ نفوذه، وسيطرته الكاملة، ولعب الدور الأكبر في قضية اختيار الإمبراطور ووصوله إلى العرش، وتمثل ذلك بشكل صريح وواضح في قضية وصول قنسطانز إلى عرش الإمبراطورية، رغم أنه لم يكن يتجاوز الحادية عشرة، ورغم الصراع الذي كان محتدماً حول العرش^(٥).

(١) Bury, Op. Cit., Vol. I, P. 350

(٢) Enslin, Op. Cit., P.3

(٣) عائشة أبو الجدايل، مرجع سابق، ص ٢٢٠

(٤) Stratos, Op. Cit., P. 4

(٥) Simon Franklin, Jonathan Shepard; Byzantine Diplomacy, London, 1992. P. 143

لقد تجلت قوة السناتو فى ذلك الدور الذى لعبه المجلس فى عزل مارتينا وهرقليوناس، وازدادت وضوحًا حينما صارت له القوامة والوصاية على الإمبراطور الصغير قنسطانز الثانى^(١)، وأكد قنسطانز ذلك فى الخطاب الذى ألقاه حينما تولى العرش؛ فأمام السناتو ورجال الدولة والكنيسة أعلن الإمبراطور الجديد: "إن مارتينا وهرقليوناس؛ تم عزلهما بمقتضى قرار السناتو الذى صدر بتأييد من الله، لأن الشيوخ الذى اشتهروا بالصلاح والتقوى لم يستطيعوا أن يتغاضوا عما يجرى فى إمبراطورية الرومان من الظلم والاستبداد"^(٢). وطلب الإمبراطور من أعضاء المجلس أن يكونوا من الناصحين له، والعاملين على تحقيق مصالح الشعب^(٣).

ويبدو أثر رجال مجلس الشيوخ فى هذه الكلمات، فلا بد أنهم هم الذين لقنوها للإمبراطور الطفل، ولكن دلالتها واضحة فى مقدار مكانة وسلطان مجلس الشيوخ، حيث سيصبح المجلس مستشارًا للإمبراطور، ومحكمة عليا للقضاء، وحاميًا وموجهًا للإمبراطور^(٤).

على أن قنسطانز الثانى، الذى بدأ الحكم تحت حماية ووصاية مجلس السناتو، لن يلبث أن يستعيد سلطاته وسيطرته على الحكم كلما تقدم به السن، والملاحظ أنه كان للوسط الذى نشأ فيه قنسطانز أثر كبير فى السياسة التى اختطها لتصريف شؤون الدولة، والنهوض بها، إذ جعلته الدسائس والمؤامرات التى أحاطت به منذ بداية حكمه، رجالاً نشطاً يقظاً، يميل إلى الاعتماد على نفسه، وبدأت تظهر ما انطوت عليه نفسه من صفات حين أصبح راشداً وقادراً على إدارة دفة الشؤون العامة، وكان توجهه أولاً السعى إلى تطهير الدولة مما علق بها من بقايا الحوادث السابقة، وتأمين العرش^(٥).

(١) الباز العرينى، مرجع سابق، ص ١٣٩.

(٢) Ostrogorsky, Op. Cit., P. 115

(٣) Diehl, Op. Cit., P. 78

(٤) Holdon, Op. Cit., P. 53

(٥) د. إبراهيم العنوي: الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ٥٦.

بدأ قنسطانز بالقضاء على عناصر القلق والاضطراب في دولته، وكانت مستوطنة إذ ذاك في إقليم آسيا الصغرى، إذ غدا هذا الإقليم مقرًا للثائرين على الأباطرة البيزنطيين، ومركز تجمع للمناوئين لسلطاتها، فكانت بعض القوات البيزنطية بآسيا الصغرى خارجة على طاعة قنسطانز بسبب تحريض بعض الحاقدين من رجال العهد الماضي، وتطور الأمر بأن شق الجند عصا الطاعة وتحول تمردهم إلى ثورة سافرة على الإمبراطور، ولكنه قاتلهم ببأس وعزيمة قوية، وبرهن على ما تمتع به من حزم وجلد حين حاصر مناطق القوات الثائرة سنة ٦٤٤م / ٥٢٤هـ، وضيق عليها الحناق حتى سلمت ودخلت صاغرة في التبعية والطاعة مرة أخرى لسلطاته ونفوذه^(١).

لقد كانت أولى الأزمات التي واجهها قنسطانز الثاني هي عودة قائلتيين - والذي كان قد عين قائدًا لقوات ثيم الأوبسيق - إلى القسطنطينية بعد إخفاقه مع المسلمين وبصحبته ثلاثة آلاف من الجند، وأثار بهم المشكلات والفوضى في العاصمة، حيث واجه الإمبراطور، وطالب أن يكون إمبراطورًا مشاركًا ثمناً لمساعدته السابقة^(٢)، أو على الأقل الظفر بلقب القيصر، الذي كان مساوياً لولى العهد في ذلك الوقت، ولكن الموقف التفاوضي لم يجعله يحصل على هذا المنصب، وأقصى ما حصل عليه أن يكون رئيساً للحرس الإمبراطوري في العاصمة، وزواج أخته من الإمبراطور^(٣)، وبعد سنتين من هذه الأحداث قاد استبداد قائلتيين إلى ثورة شعبية ضده، أدت إلى التخلص منه، حيث قبض عليه وقطع رأسه^(٤). وأعطى منصب قائد القوات البيزنطية سنة ٦٤٦م / ٢٦هـ بعد الخلاص من قائلتيين إلى ثيودور Theodor^(٥).

(١) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 287

(٢) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 392

(٣) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 393

(٤) Theophanes, Op. Cit., P. 476

(٥) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 393

وخلال سنوات قليلة استطاع قنسطانز الثاني أن يحكم سيطرته على العرش، وأن يتخلص من المناوئين له، وأن يدخل عدة تطويرات على نظام الثيمات العسكري، جعلت بعض المؤرخين يذهبون إلى أنه هو المؤسس الحقيقي لهذا النظام^(١).

(١) Holdon. Op. Cit., P. 63، ويرى هالدون أن قنسطانز هو مؤسس نظام الثيمات البيزنطي، وسبق أن ذكرنا في الفصل الأول، أن الإمبراطور هرقل هو مؤسس هذا النظام وأن من جاء بعده من الأباطرة أضافوا إليه وطوروا فيه.



سياسة قسطنطين الثاني الدينية:

يندرج تحت سياسة الإمبراطور قسطنطين الداخلية، تلك السياسة التي اتبعتها للتصدي للمشكلة الدينية، فقد كان أزمتهما ما زالت محتدمة في أعقاب طرح المذهب المونوثوليستي (التوفيقى) الذى حاول الإمبراطور هرقل فرضه على جميع رعايا الإمبراطورية، بهدف جمعهم تحت مذهب دينى واحد، وللقضاء على الخلاف المذهبى، وما كان يجره من صراعات امتدت إلى معظم ولايات الإمبراطورية.

والواقع أن هذه المحاولة من الإمبراطور (الراحل) هرقل، جاءت بنتائج عسكرية، فهي لم تقض على الخلاف والصراع، وإنما زادت حدة واحتدامًا، وكانت من الأسباب التي سهلت خروج الولايات الشرقية ومصر من قبضة الإمبراطورية البيزنطية، وأوجدت مجالاً للخلاف مع الغرب الأوروبى، ومع بابوية روما بالأخص، وانتشر الخلاف حول هذا المذهب (التوفيقى) فى العاصمة البيزنطية نفسها. وسبق أن ذكرنا أن موقف البطريرك بيروس - الذى خلف سرجيوس الأول - ودعمه للمونوثليستيه، فى الوقت الذى كان قسطنطين الثالث خليفة هرقل يرغب فى التخلص منها، هو الذى جعله يسحب تأييده للإمبراطور قسطنطين، ويدعم مارتينا وابنها هرقليوناس، وبالتالي عودة البروز للتوجه المونوثوليستى فى فترتهما القصيرة، ثم ما تبع ذلك من معارضة رجال الدين الأرثوذكس للبطريرك بيروس ومارتينا وابنها، وانضمامهم للمعارضين لحكمهم^(١).

ورغم التغيرات السياسية التى حدثت فى القسطنطينية فإن المشكلة الدينية ما زالت قائمة، فهناك كنيسة غير محددة الموقف فى القسطنطينية، وهناك صراع داخلها، وتمرد دينى فى شمال أفريقيا، أعلنه الراهب مكسيموس المعترف Confesus Maximus، إذ أعلن أن مذهب المشيئة الواحدة الذى وضعه هرقل،

(١) انظر الفصل السابق، ص ٣٤.

وتبنته كنيسة القسطنطينية ما هو إلا هرطقة دينية^(١)، واستغل حاكم شمال أفريقيا واسمه جريجوريوس Grejorius هذا التمرد، وأعلن انفصاله عن الإمبراطورية البيزنطية^(٢). كما أن البابوية في روما أعلنت معارضتها لتوجه القسطنطينية الديني^(٣). كذلك فإن الإمبراطور هرقل نفسه لم يكن كثير الحرص على المذهب «المونوثوليستي» خاصة بعد الخسارة التي منيت بها الإمبراطورية وفقدتها للولايات الشرقية والتي كانت كنائسها في بلاد الشام ومصر مختلفة مع كنيسة القسطنطينية.

لكل ذلك فقد شعر الإمبراطور قنسطانز بحاجة إلى التصدي لهذه المشكلة، ومحاولة معالجتها، بما يحفظ له وكنيسة القسطنطينية مكانتها ونفوذها. فأصدر قراراً سنة ٦٤٨ م / ٥٢٨ هـ جاء فيما يبدو استجابة لنداء من البابا ثيودوروس الأول (٦٤٢ - ٦٤٩ م / ٢٢ - ٥٢٩)^(٤) حمل صيغة توفيقية جديدة، عرفت باسم (Typos)، وتقرر إلغاء الأخذ بمرسوم الإيمان، الذي كان يسمى "الإكثيسيس" Ecthesis، والذي جاء به الإمبراطور هرقل^(٥). كما اشتملت الصيغة الجديدة، والتي

(١) أسد رستم، كنيسة أنطاكية ج ٢، ص ٤٣.

(٢) Ostrogorsky, Op. Cit., P. 118 وتسميه المصادر العربية جرجير، وسنتعرض لاحقاً لحروبه مع المسلمين، انظر: الناصري، الروم، ص ٢٣٠.

(٣) أسد رستم: الروم، ج ٢، ص ٢٥٧

(٤) ويبدو أن هذا النداء البابوي، جاء استجابة لكل من بيروس (بطريرك القسطنطينية السابق) ومكسيموس المعترف، اللذين توجهوا من شمال أفريقيا إلى روما والتقى بالبابا وتناقشا معه حول الأمر، والمعروف أن بيروس كان يؤيد المذهب المونوثوليستي بشدة، وقد انقلب على قنسطانز الثالث (والد قنسطانز) بسبب ابتعاده عن المونوثوليستية، ولكن مكسيموس المعترف دخل في جدال طويل معه انتهى باقتناعه سنة ٦٤٥ م بخطأ المونوثوليستية ورجوعه عنها. انظر أسد رستم: كنيسة أنطاكية، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤١.

وفي هذه الرواية نحض لتلك الرواية التي تذكر أن البطريرك بيروس قد لقي المصير نفسه الذي لقيته مارتينا وابنها هرقليوناس، وترجيح للرواية بأن البطريرك قد نقد بجلده قبل أن يصدر قرار السناتو، وغادر إلى شمال إفريقيا، انظر الفصل السابق، ص ٨١.

(٥) Vasilieve, Op. Cit., Vol. I, P. 223، ويذكر الدكتور الناصري (مرجع سابق، ص ٢٣٠) أن قنسطانز الكبير كان هو صاحب هذه الصيغة التي تسمى «الإكثيسيس»، وهذا خطأ فقد صدرت هذه الصيغة في عهد الإمبراطور هرقل.

اعتبرت نموذجية على تحريم النقاش أو الجدل فى مسألة الإرادة الإلهية، وقدره الله ومشيئته^(١). وقد صدرت هذه الصيغة بقائمة من العقوبات للذين يعترضون عليها، تراوحت بين السجن والجلد أو النفى^(٢).

ولكن هذه الصيغة - مثل سابقتها - جرت إلى مزيد من المشكلات والنقاش، ولم يرضى بها المونوثوليستيون أو معارضوهم الأرثوذكس، وأيضاً البابوية فى روما^(٣).

فى روما توفى البابا ثيودور فى مايو ٦٤٦م / ٥٢٦هـ، وكان خليفته البابا مارتين الأول Martin I، والذي تولى البابوية فى الخامس من يوليو ودون أن ينتظر تصديق الإمبراطور دعا فى الحال إلى مجمع دينى فى "اللاتران" (القصر الإمبراطورى) حضره جميع الأساقفة وتقرر فيه رفض الصيغتين؛ الأولى التى جاء بها هرقل، والثانية التى جاء بها حفيده قنسطانز؛ أى الأكتيسيس والتيبوس، كما تقرر شجب كل من يدافع عن الصيغتين، وشمل قرار الإدانة جميع الأساقفة الذين ساهموا فى إصدار أى منهما أو ثبتوهما سابقاً^(٤). وأرسل قرار المجمع إلى رجال الدين وإلى الإمبراطور^(٥). ومثل هذا القرار تحدياً للإمبراطور وجاء جوابه وفق نصيحة بطريك القسطنطينية بولس، بإصدار أمره لأرخون راقنا أوليمبوس Olympius للتوجه إلى روما مزوداً بتعليمات لانتزاع تأكيد الأساقفة الإيطاليين للمرسوم المعروف باسم Typos، وإذا حصل على تأييد الجنود المحليين فيتم القبض على البابا الذى لم يعترف به الإمبراطور^(٦).

(١) الباز العرينى، مرجع سابق، ص.

(٢) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 401

(٣) أسد رستم، الروم، ج ٢، ص ٢٥٧، وأيضاً: Diehl, Op. Cit., P. 45

(٤) شمل قرار الإدانة كلا من البطارقة سرجيوس وبيروس وبولص، والأساقفة قيرس (أسقف الإسكندرية)

وثيودور (أسقف فرانى). انظر Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 401

(٥) Vasiliev, Op. Cit., P. 223

(٦) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 119

غير أن أوليمبوس أراد أن يستغل الظروف التي تمر بها الإمبراطورية لصالحه، حيث بدأ المسلمون تصعيد هجماتهم البحرية، كما أراد استغلال كراهية أهل روما لبيزنطة، ليحصل على مكاسب شخصية فرأى أن يفصل إيطاليا عن الإمبراطورية ويستقل بها كما فعل جريجوريوس في شمال أفريقيا، فعبر بجيشه إلى صقلية وتمركز بها، وبعد أن تفاهم مع البابا خلع ولاءه للإمبراطور. ولم تقاومه الإمبراطورية البيزنطية لانشغالها بالتطورات العسكرية على الجبهة الشرقية مع المسلمين، وما لبث أوليمبوس أن توفي سنة ٦٥٢م / ٣٢ هـ^(١). ولكن أرخون راقنا الجديد ثيودور كاليوباس Theodor Calliopas قام في ١٥ يونية ٦٥٣م / ٣٣ هـ على رأس جيش بدخول روما، وألقى القبض على البابا مارتين يوم ١٧ يونية بتهمة إرسال أموال ورسائل إلى العرب، وازدراء السيدة العذراء، وفي منتصف ليلة الثامن عشر تم نقله من روما، وأرسل بحرًا إلى القسطنطينية التي وصلها يوم ١٧ سبتمبر^(٢)، وأودع السجن إلى يوم ٢٠ ديسمبر حيث مثل أمام السناتو، وكان مريضًا من طول الرحلة والاعتقال، حتى أنه حمل إلى المحاكمة على محفة. وكانت محاكمته سياسية أكثر منها دينية حيث اتهم بالتمرد على الإمبراطور، وتدبير فتنة في الأقاليم الغربية بالتعاون مع أوليمبوس، ولم يسمح له بإثارة القضية الدينية^(٣)، وأخيرًا حكم عليه بالموت، ونظرًا لكبر سنه وسوء حالته الصحية فقد خفف الإمبراطور الحكم إلى السجن، وفي ١٥ مايو تقرر نفيه إلى خرسون Cherson وهي مدينة نائية تقع على الساحل الجنوبي لشبه جزيرة القرم، وظل بها حتى وفاته في سبتمبر عام ٦٥٥م / ٣٥ هـ^(٤)، وقاسى هناك الأمرين، حيث

(١) الباز العريني، مرجع سابق، ص ١٤٥.

(٢) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 402.

(٣) د. حسنين ربيع، مرجع سابق، ص ٨١.

(٤) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 402 ويذكر الباز العريني أن وفاته كانت في أبريل سنة ٦٥٦م

استنادًا إلى فاسيليف، وبالعودة إليه نجد أنه لم يحدد تاريخًا، وإنما ذكر أنه لم يلبث أن مات بعد وصوله

بوقت قصير!

تضمنت الرسائل التي بعث بها من خرسون إلى أصدقائه في روما الشكوى في سوء المعيشة وفقدان الطعام، وخاصة الخبز الذي قال أنه يسمع عنه ولا يراه^(١)!

أما مكسيموس المعترف والذي سبق وأن أشرنا إلى أنه كان يقيم في روما منذ عام ٦٤٥ م / ٥٢٥ هـ، فقد أرسل إليه الإمبراطور قنسطانز الثاني مندوبًا كنسيًا لمحاولة إقناعه، إلا أن شعوره بأنه كان المحرض الرئيسي لمقاومة البابا حال دون تسليمه، لذلك استمر في رفضه، حتى ألقى عليه القبض سنة ٦٥٣ م / ٣٣ هـ^(٢)، وأرسل إلى القسطنطينية كمجرم، وخضع لمحاكمة أمام السناتو بتهمة التآمر مع جريجوريوس أرخون أفريقيًا، ورفض تعاليم الإمبراطور. ورغم كل المحاولات التي بذلت لإقناعه بـ"التيبوس" إلا أنها باءت جميعها بالفشل^(٣). وأمضى حياته ولعدة سنوات في شقاء متقللاً من سجن إلى آخر، وعانى كثيرًا من الأمراض، وصدرت الأوامر الإمبراطورية بقطع لسانه ويده اليمنى^(٤). وكان آخر منفي له في لازيقا على البحر الأسود حيث مات في ١٣ أغسطس سنة ٦٦٢ م / ٤٤٢ هـ، وقد بلغ الثانية والثمانين من العمر^(٥).

وبالنسبة للبطيريك بيروس - والذي تعددت مواقفه الدينية - فإنه أعلن توبته عن موقفه السابق، ووافق على التيبوس الذي جاء به قنسطانز، وسمح له بالعودة إلى القسطنطينية، ونصب بطيريكًا للمرة الثانية بعد وفاة بولص الثاني، ولكنه ما لبث أن توفي بعد خمسة أشهر وذلك سنة ٦٥٢ م / ٥٣٢ هـ^(٦).

(١) Vasiliev, Op. Cit., P. 224

(٢) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 402

(٣) إسحق عبيد، الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية (دار المعارف) القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٩٣.

(٤) أسد رستم، الروم، ج ٢، ص ٢٥٧.

(٥) Ostrogorsky, Op. Cit., P. 120، ويذكر أسد رستم أنه بلغ عند وفاته الرابعة والثمانين، كنيسة

أنطاكية، ج ٢، ص ٤٣

(٦) أسد رستم، الروم، ج ٢، ص ٢٥٧.

والواقع أن هذا النزاع الذي ساد بين الإمبراطور من جهة والبابوية والزعامات الدينية من جهة أخرى يعطى دلالة كبيرة لذلك الصراع والتنافس الذي ساد بين الزعامتين الدينية والسياسية، ونضال الكنيسة فى التخلص من الخضوع للسلطة الإمبراطورية، فالأباطرة كانوا حريصين على فرض سلطة الحكومة على الكنيسة، والتي ثبتها الإمبراطور جستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥م) بشكل واضح حيث رسم فى أحد متجدداته ب "أن المناصب الدينية تخدم الأمور الدينية، والسلطة الإمبراطورية تكون فوقها"^(١). وأما مكسيموس فقد حرص خلال معارضته ورفضه الإعلان بأن الإمبراطور - باعتباره من العلمانيين - لا يجوز له أن يتدخل فى أمر العقيدة، التي هى من اختصاص الكنيسة وحدها^(٢)، ولم تكن هذه الفكرة جديدة، وإنما هى حلقة فى سلسلة الصراع، فقد سبق ونادى بها كثير من آباء الكنيسة فى بداية العصر البيزنطى، غير أن حماس مكسيموس لها فاق الآخرين وجعله يدفع حياته ثمناً لذلك.

ولم يستطع الإمبراطور قنسطانز القضاء على هذا التطلع الكنسى، فإن طموح الكنيسة فى الانعتاق من السيطرة الإمبراطورية سيظل قائماً، وسيجدد فى فترات لاحقة، وسيجر إلى منازعات خطيرة، على أن المؤكد هنا أن الإمبراطور قنسطانز وقد شعر برغبة البابوية فى إبراز سمو مركزها ورغبتها فى تأكيد هذا السمو، جعله ذلك يصر على تقليص أظافرها، وإجبارها على الخضوع لسلطته، ومن سوء حظ البابوية أن البابوات الذين تلوا مارتين فى الكرسي البابوى كانوا ضعافاً، وأظهروا خوفهم من أن يتكرر معهم مصير البابسا مارتين، لذلك خضعوا للإمبراطور^(٣)، الذى ذهب بعيداً فى مخططه للتصدي للبابوية، حتى أنه منح رئيس

(١) عائشة أبو الجدايل، مرجع سابق، ص ٤٣١، نقلاً عن: Justinian Novella VI in R. Schoeled,

Corpus Iuris Civilis Vol. III, Berlin, 1919 P. 35

(٢) Vasiliev, Op. Cit., P. 224.

(٣) سعيد عاشور، أوروبا فى العصور الوسطى، مرجع سابق، ج ١، ص ١٥٣.

أساقفة راقنا حق الاستقلال عن البابوية وعدم الخضوع لسلطاتها، وربطه بكنيسة القسطنطينية، واستمر هذا الانشقاق بين روما وأسقفية راقنا زهاء عشرين عاماً، حتى انتهى الأمر بعودتها إلى حظيرة البابوية^(١).

ترتب على هذه الحوادث أن تقوى مركز الإمبراطور البيزنطي واستطاع أن يفرض سلطته على البابوات الذين تولوا الأمر في روما، وتدخل أرخونه في راقنا في اختيار البابا الجديد الذي نصب عوضاً عن مارتين الأول^(٢)، فاختار إيوجين الأول (Eugenius I) (٦٥٤ - ٦٥٧ م / ٣٤ - ٥٣٧)، والذي لم يستمر طويلاً، ثم جاء بعده فيتاليان (Vitalianus) (٦٥٧ - ٦٧٢ م / ٣٧ - ٥٥٢)، وأجريت مباحثات بين الإمبراطور البيزنطي وبطريك القسطنطينية وبين البابوية، وتم الصلح مع البابا فيتاليان الذي لم يعترض على التيبوس^(٣)، وهدأت حدة النزاع وكان ضعف فيتاليان أحد الأسباب الهامة التي أوصلت إلى هذا الهدوء.

وعندما قام الإمبراطور - فيما بعد - بزيارة روما، قدم له البابا فيتاليان فروض الولاء والتبعية، ولم يتورع الإمبراطور عن نهب كثير من التحف والآثار الثمينة التي وجدها في روما^(٤).

(١) Oman, The Dark Ages, Op. Cit., P. 223

(٢) Camb. Mid. Hist. Vol. II, P. 404.

(٣) أسد رستم، كنيسة أنطاكية، ج ٢، ص ٤٣.

(٤) Oman, The Dark Ages, Op. Cit., P. 227.

الصراع مع المسلمين في عهد الإمبراطور قسطنطين الثاني:

في الفترة البسيطة التي انفردت فيها الإمبراطورة مارتينا وابنها هرقلوناس بالعرش في القسطنطينية، أعطت مارتينا تعليمات بالإفراج عن كيرس (المقوقس)^(١)، وعودته إلى الإسكندرية، ومعه تعليمات بإجراء مفاوضات مع المسلمين لتسليم الإسكندرية، فاتفق كيرس مع عمرو بن العاص على منح الروم مهلة ينسحبون خلالها من الإسكندرية، وتحددت هذه المهلة بأحد عشر شهراً^(٢). ودخل المسلمون الإسكندرية بعد نهاية المهلة هي ٢٩ سبتمبر سنة ٦٤٢م / ٥٢١هـ، بعد أن جلى عنها الروم، وكانوا قد حكموها ما يقرب من سبعة قرون^(٣). وقد اتجه أسطولهم بعد مغادرتها إلى جزيرة «رودس»، وقدر عدد الروم الذين غادروها آنئذ بثلاثين ألفاً حملوا معهم ما استطاعوا حمله من المال والمتاع والأهل، أما من بقي فقد اعتبر أسيراً، وبقي من الأسارى ممن بلغ سن دفع الخراج، فأحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان^(٤).

(١) كان المقوقس في القسطنطينية حيث وصلها لمحاولة تبرير اتفائه مع المسلمين، لتسليم حصن بابليون والحصول على موافقة الإمبراطور هرقل، ولكن الإمبراطور غضب منه، واتهمه بالتخاذل وأمر بسجنه وتعذيبه بتهمة الخيانة (انظر الفصل الأول، ص ٥٣).

(٢) بتلر، مرجع سابق، ص ٣٠٦.

(٣) علية الجنزوري، هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى، (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٢م) ص ٢٧.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، مصدر سابق ص، ١٨٢. ويلاحظ هنا المبالغة التي تعودت مصادر العصور الوسطى سواء البيزنطية أو الإسلامية ذكرها عند الحديث عن أعداد السكان أو الجيوش أو الأسرى. ويسجل ابن عبد الحكم فرحة المسلمين ودهشتهم من استسلام الإسكندرية رغم حاميتها الكبيرة، ودهشة العرب لجمال الإسكندرية وما بها من حدائق وقصور وكنائس وغيرها من المنشآت.

وهكذا استلم الإمبراطور قنسطانز الحكم في القسطنطينية وقد خرجت مصر بكاملها من حكم الإمبراطورية، وشعر الإمبراطور وأركان حكومته بالمهانة الكبيرة التي لحقت بهم، والضرر الكبير من ضياع مصر وأثر ذلك اقتصاديا وسياسيا، ويبدو أنه لم يكن سهلا على الإمبراطور التفريط في مصر وأخذ يعمل بصمت منتظرا الفرصة المناسبة للوثوب عليها ومحاولة استعادتها من المسلمين.

وجاءت الفرصة المناسبة في أواخر سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م^(١) حين استغل الظروف التي قامت في الإسكندرية فأرسل حملة بحرية استطاعت أن تنزل جيشا على أرض مصر وتستعيد الإسكندرية^(٢)، فما الذي حدث ودفع بإرسال هذه الحملة وتسهيل نزولها في الإسكندرية!؟

تتعدد الروايات التاريخية التي تؤرخ لهذا الحدث الهام، وتورد أسبابا عدة لهذه الحملة التي كان الرأس المدبر لها الإمبراطور قنسطانز الثاني، والذي أراد بحملته البحرية أن يعيد قصة جده هرقل مع الفرس، إذا انتهز افتقار المسلمين إلى أسطول بحري وعمد إلى مفاجأتهم في الإسكندرية، والاستيلاء عليها وجعلها قاعدة لإخراجهم من مصر^(٣). ومن هذه الروايات ما ذكر من أن صاحب "إخنا"^(٤) قدم إلى عمرو بن العاص وقال له اخبرنا ما على أحدنا من الجزية فرد عليه عمرو وهو يشير إلى ركن كنيسة "لو أعطيتني من الركن إلى السقف ما أخبرتك، إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم، وإن خفف هنا خففنا عنكم" لذا غضب

(١) يختلف المؤرخون العرب - كعادتهم - في تحديد السنة التي خرج وعاد فيها الروم إلى الإسكندرية بحرا، فينكر البلاذري (فتوح البلدان، ص ٢٢١) يحتمل أن يكون ذلك سنة ٢٣ هـ، وينكر ابن الأثير (الكامل، ج ٣ ص ٤١) أنه كان سنة ٢٥ هـ، ويتفق معه في ذلك قوات الحموي (معجم البلدان، ص ٧٣)، وخليفة بن خياط (تاريخه، ص ١٥٨).

(٢) أسد رستم، الروم، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٣) د. إبراهيم العدوي: قوات البحرية العربية، مرجع سابق، ص ١٣.

(٤) إخنا: بالكسر ثم السكون، وهي وكورة بقرب الإسكندرية، وهي مدينة قديمة، وكان صاحبها - أثناء الفتوح - يسمى طلما. ياقوت الحموي / معجم البلدان، مصدر سابق ج ١، ص ١٢٤.

صاحب إخنأ وخرج إلى الروم وأثارهم ضد المسلمين فقدموا إلى الإسكندرية لمحاربتهم، وبذلك نقضوا العهد الذي كان بينهم^(١).

ويذكر ابن الأثير سببا آخر، وهو أنه في سنة ٦٤٥م / ٢٥ هـ "خالف أهل الإسكندرية، ونقضوا صلحهم وكان سبب ذلك أن الروم عظم عليهم فتح المسلمين للإسكندرية، وظنوا أنهم لا يمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج الإسكندرية عن ملكهم، فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم إلى نقض الصلح"^(٢).

كما يذكر ابن كثير أن أهل الإسكندرية نقضوا العهد سنة ٢٥ هـ "لأن ملك الروم بعث إليهم (معويل) الخصى في مراكب في البحر فطمعوا في النصر ونقضوا ذمتهم"^(٣).

ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن جماعة من زعماء الإسكندرية أنفذوا كتبا إلى الإمبراطور قنسطانز الثاني الذي انفرد بالحكم يسألونه النهوض لمساعدتهم، وشرحوا له أنه ليس بالإسكندرية إلا حامية ضعيفة لا تقوى على دفع

(١) ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص ١٦٧، السيوطي، حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٥٩. ويذكر ابن عبد الحكم أن مجئ الروم إلى الإسكندرية بعد استشارة صاحب "إخنأ" لهم وبعد أن تمت هزيمتهم أسر صاحب "إخنأ" (النبطي) وجئ به إلى عمرو بن العاص فقال له الناس اقتله! فقال: لا بل انطلق فجننا بجيش آخر!

ونحن لا نميل إلى تصديق هذه الرواية، فقبل الحملة البيزنطية كان عمرو بن العاص قد عزل عن حكم مصر في بداية عهد عثمان بن عفان، وكان عثمان قد تولى الخلافة في غرة محرم سنة ٢٤هـ. ثم لا يعقل أن لا يكون عمرو بن العاص قد وضع مقدارا للجزية على أهل مصر، محددا ومعروفا، فذلك كان من بنود الصلح. وقد تصدق هذه الرواية على والي مصر الجديد عبد الله بن سعد ابن أبي سرح الذي جعل أول همه زيادة الضرائب على أهل الإسكندرية.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٨١، وأيضا: ابن الجوزي (أبي الفرج عبد الرحمن) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر عطا، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م) ج ٤، ص ٣٤٣.

(٣) ابن كثير، البداية، والنهاية، ج ٧، ص ٦٥، والمقصود بـ "معويل" هنا "منويل" Manuel وهو القائد البيزنطي الذي سبق وأن دافع عن الإسكندرية عندما حاصرها المسلمون في المرة الأولى، وكان له دراية بمسالك هذا الميناء الهام.

جيش الروم، فأثرت تلك الكتب في الإمبراطور الذي لم ينس ما لحق بدولته من ضرر من ضياع مصر^(١).

في حين يرى مؤرخ آخر أنه بعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب وتولى عثمان بن عفان، عزل عمرو بن العاص عن مصر فانتهزت دولة الروم تلك الفرصة لتقوم بهجوم مضاد ضد مصر^(٢).

ومهما اختلفت الروايات فقد حدثت انتفاضة فعلية من جانب الروم، ومحاولة جادة لاستعادة الإسكندرية^(٣). والواقع أن الروم توخوا السرية التامة في إرسال تلك الحملة، وكانت دولة الروم لا تزال إلى ذلك الحين تفرض سلطانها على البحر، وعلى العكس من ذلك كان المسلمون؛ فلم يكن لهم في ذلك الوقت سفينة واحدة في بحر الروم تأتيهم بأخبار أسطول الروم، الذي بعث به الإمبراطور للاستيلاء على الإسكندرية، فما شعروا إلا وأسطول الروم يدخل الميناء في ثلاثمائة سفينة ولم يكن بالمدينة إلا ألف رجل من المسلمين للدفاع عنها، فتغلب عليهم الروم، وقتلوهم إلا عددا قليلا^(٤). وتم الاستيلاء على الإسكندرية وزحفوا إلى ما يليها من بلاد الدلتا ينهبون ويغتصبون من السكان ما لديهم من قمح ونبيد ومال، وعندئذ تخرج مركز

(١) السيد الباز العريني، مصر البيزنطية، مرجع سابق، ص ٤٣٢، وأيضا: بتلر، مرجع سابق، ص ٤١٥.
(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P.115 وعن قضية عزل عمرو بن العاص عن مصر يذكر ابن عبد الحكم الرواية التالية " كان عمر بن الخطاب قد توفي سنة ٢٣هـ، وخلفه عثمان بن عفان رضي الله عنه، فعزل عمرو بن العاص وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح مكانه، وكان عمر بن الخطاب قد ولى عبد الله بن سعد من الصعيد إلى الفيوم، فلما استخلف عثمان طمع عمرو بن العاص أن يعزل له عثمان عبد الله بن سعد عن الصعيد فرد عليه عثمان بقوله: لقد ولاه عمر بن الخطاب الصعيد وليس بينه وبينه حرمة ولا خاصة، وهو أخى في الرضاة فكيف أعزله عما ولاه غيرى، فغضب عمرو، فعزله عثمان وولى عبد الله بن أبي سرح مصر كلها ". ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٧٣، ١٧٤.

(٣) د. عليّة الجنزوري، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٤) د. سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص ٧٧.

المسلمين في مصر^(١). وتوسع الإمبراطور في خطته البحرية بإرسال حملة أخرى تغير على شواطئ الشام في الوقت نفسه الذي كان فيه مانويل يهاجم الإسكندرية ليحقق أهدافه في سهولة وسرعة، ولم يجد قنسطانز عقبات في إعداد السفن اللازمة، لأنه باذر عقب تخلصه من مشكلاته الداخلية بإصلاح دور صناعة السفن ولا سيما في الجزر القريبة من شواطئ الشام، وبذلك وجدت سلطات الروم كافة الوسائل التي أتاحت لها إرسال أسطول قوى للإغارة على مصر والشام^(٢).

ويذكر بئر أن البيزنطيين كانوا أن يحققوا انتصارا حاسما، ولكن سوء معاملتهم لأهل مصر، وتقاعسهم في الوصول إلى القسطنطينية هو الذي أبعدهم عن هذا الانتصار وعجل بهزيمتهم وفشل محاولتهم^(٣). وفي هذا الوقت كان تصرف المسلمين سريعا وتداركهم للأزمة حاسما، حيث قرر الخليفة عثمان بن عفان^(٤)، استدعاء عمرو بن العاص إلى قيادة قوات التصدي الإسلامي للهجوم البيزنطي، وقد أشار بذلك القادة العرب الذين كانوا موجودين في مصر، من واقع معرفتهم بخبرة عمرو بن العاص في مقاتلة البيزنطيين وحنكته وقدراته العسكرية^(٥).

استطاع عمرو بن العاص أن ينظم أمر مقاومة البيزنطيين سريعا، واقترح خارجة بن حذافة الذي كان يتولى الدفاع عن حصن بابليون أن يبادر إلى العدو قبل أن يأتيه المدد، أو ينضم إليهم مزيد من المصريين، ولكن عمرو رأى خلاف ذلك،

(١) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٥٥.

(٢) د. إبراهيم العدوي: قوات البحرية العربية، ص ١٣. الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ٥١.

(٣) بئر: مرجع سابق، ص ٤١٩.

(٤) يذكر الدكتور إبراهيم العدوي أن الخليفة عمر بن الخطاب هو الذي أعاد عمرو بن العاص إلى مصر (قوات البحرية العربية، ص ١٣) وهذا خطأ فالذي عزله وأمر بعودته هو عثمان بن عفان رضي الله عنه، فعمر بن الخطاب كان قد انتقل إلى رحمة الله قبل هذا الحدث بسنتين. حيث كانت وفاته في أواخر شهر ذي الحجة سنة ٢٣هـ ودفن في أول المحرم سنة ٢٤هـ (٧ نوفمبر ٦٤٤م).

(٥) تختلف المصادر الإسلامية في أين كان عمرو بن العاص عندما هاجم مانويل الإسكندرية، فيذكر الطبري (ج ٤، ص ٢٥٦) أنه كان في مكة وأمره الخليفة بسرعة السفر إلى مصر، بينما يذكر المعريزي (الخط، ج ١، ص ١٦٧) أنه كان في مصر، وينقل ذلك عنه آخرون.

وسار البيزنطيون على مهل حتى استدرجوا إلى نقيوس حيث التقى الجيشان، وكان عدة جيش عمرو بن العاص خمسة عشر ألف مقاتل، وعدة البيزنطيين أكثر من ذلك بكثير^(١)، ودارت هناك معركة عظيمة في البر وفي البحر، انتهت بهزيمة جيش مانويل وفراره إلى الإسكندرية حيث تحصن بها، وبدأت حركة مقاومة حيث طال الحصار وكان حصارا أشق وأضنى من الحصار الأول، ويعود ذلك إلى وجود أسطول البيزنطيين في مياه الإسكندرية يزود المقاتلين بالعدة والعتاد ويقف حارسا وحاميا لظهورهم إلى جانب متانة أسوار الإسكندرية وحصانتها^(٢)، ولم تفتح المدينة إلا بعد أن قام أحد القبط المصريين - وقد أبدوا هذه المرة تعاوناً كبيراً مع المسلمين - بإرشاد عمرو إلى أحد الأبواب التي تفتقر إلى الحراسة الشديدة، فركز عمرو هجومه على المدينة من خلال هذا الباب حتى تمكن من فتحها، ودخولها عنوة، وأعمل السيف في القوة البيزنطية المقيمة هناك^(٣).

أما مانويل فقد اختلفت المصادر في مصيره، فتذكر بعضها أنه قتل^(٤)، بينما يذكر آخرون أنه استطاع الفرار بالأسطول الذي كان ينتظر أمام الساحل، حيث فر هو وبقية البيزنطيين^(٥)، وفتحت المدينة عنوة، وقاد البطريك المنوفيزتي "بنيامين" - الذي كان مطارداً من البيزنطيين - أهالي المدينة في مظاهرة تأييد للمسلمين،

(١) بتلر: مرجع سابق، ص ٤٢٠، وهو يصحح الرقم الذي ورد في البلاذري والذي ذكر أن عدة الجيش كانت (١٥٠٠) مقاتل. أما نقيوس وتسمى أيضا أبشاتي فإنها تسمى حالياً (شبشير) وهي في الشمال الغربي من منوف على النيل، وكان لها اسمان قبلي ويوناني (نيكيو، نيكيون). (بتلر. ص ٥٥) ويعرفها ياقوت الحموي بأنها قرية بين القسطنطينية والإسكندرية، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٠٣.

(٢) Bury, Op. Cit., Vol. II, P.288.

(٣) ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص ١٥٨، ويذكر السيوطي (حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٦٢) أن هذا القبلي كان اسمه "ابن بسامة" وقد آمنه عمرو على نفسه وأهله وأرضه.

(٤) ابن عبد الحكم، ص ١٧٥، البلاذري، ص ٢٢٣، ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٤١، العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص ٥٢، بتلر، فتح العرب لمصر، ص ٤٢١.

(٥) Ostrogorsky, Op. Cit., P.115؛ اللباز العربي، الدولة البيزنطية، ص ١٤١.

وأعلن الإذعان والخضوع لحكمهم^(١). وعمد عمرو بن العاص إلى تخريب أسوار الإسكندرية بعد العنت الذي قاساه وهو يحاصرها^(٢). وكما فشلت محاولة البيزنطيين لاسترداد الإسكندرية، كذلك فشلت محاولة قنسطانز في بلاد الشام، وكان معاوية بن أبي سفيان - والى الشام - هو الذي تصدى لها^(٣).

ورغم فداحة الكارثة على البيزنطيين، فإنهم لم يستسلموا لذلك، بل سنجدهم يبذلون محاولات أخرى، أما بالنسبة للمسلمين فقد شعروا بمدى حاجتهم إلى الاهتمام بالبحر وإقامة أسطول بحري يحمي شواطئهم، وأنهم طالما لم يتوفر لهم هذا الأسطول سيظلون عرضة لهجمات أخرى من البيزنطيين. لقد استفاد المسلمون كثيرا من حملة الإسكندرية، فأخذوا يتمرنون على ركوب البحر وبناء السفن لحماية الثغور، وتشديد الربط، والحصون للمراقبة، ووضعوا نظاما للمرابطة، فكانت ترابط في الإسكندرية قوة دائمة لمدة ستة أشهر متواصلة، حيث أبقى فيها عمرو بن العاص ربع قواته، وخص بقية السواحل في البحر المتوسط بربع ثان واحتفظ بنصف الجيش لباقي البلاد^(٤) على أن يتم تشديد الحراسة والمرابطة في فصل الصيف لملاءمة أحوال البحر المناخية - الذي تكثر فيه الغزوات البحرية - للسفن والأساطيل، ثم تحل محلها مجموعة أخرى في فصل الشتاء، وتتطلق المجموعة الأولى إلى داخل البلاد في مهمات أخرى^(٥).

(١) الياز العريني، المرجع سابق، ص ١٤١.

(٢) أرشيبالد لويس: مرجع سابق، ص ٨٩، ويذكر المؤرخون أن عمرو بن العاص عندما كان يحاصر الإسكندرية أقسم إذا نصره الله على الروم وأجلاهم من الإسكندرية، أن يهدم سورها ويجعلها مثل بيت الزانية يؤتى من كل جانب، ابن عبد الحكم: ص ١٧٥، ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٤٢، هامش رقم (٢). السيوطي، حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٦٠.

(٣) أسد رستم: الروم، ج ٢، ص ٢٥٥. العدوي: قوات البحرية العربية، ص ١٤.

(٤) سعاد ماهر: البحرية العربية، مرجع سابق، ص ٨٠.

(٥) نفس المرجع، ونفس الصفحة.

لقد شعر المسلمون أن وصولهم إلى شواطئ البحر المتوسط، وضع أمامهم مشكلات جديدة تتصل بالطبيعة البحرية، فهم لم يعرفوا حتى هذه اللحظة إنشاء الأساطيل فوقفوا عاجزين عن مواجهة السفن البيزنطية العديدة التي استطاعت بسهولة الوصول إلى الولايات العربية الجديدة على أول شاطئ البحر، وحقيقة أن المسلمين سيطروا على فتوحاتهم في البر إلا أن السيادة في البحر كانت لا تزال في قبضة البيزنطيين^(١).

أما على الجبهة البرية حيث كان التفوق الإسلامي بارزا فقد شهدت الإمبراطورية البيزنطية زمن الإمبراطور قنسطانز الثاني نكسات متوالية، إذ استطاع معاوية بن أبي سفيان - والذي اجتمع له حكم الشام - أن يرسخ أقدام المسلمين في الشام والجزيرة، وبدأوا يتطلعون إلى أرمينيا وآسيا الصغرى؛ في سنة ٦٤٢ م / ٢٢ هـ، وسنة ٦٤٣ م / ٢٣ هـ، شنوا غارات متواصلة على الأراضي الأرمينية^(٢) وحققوا انتصارات كبيرة، وفي سنة ٦٤٧ م / ٢٦ هـ غزا معاوية بن أبي سفيان قبادوقيا، وفتح قيصرية، ومن ثم تحول إلى فريجيا، ورغم أنه لم ينجح في فتح عمورية لمناعتها إلا أنه توغل في هذه الجهات الهامة من الأراضي البيزنطية وعاد إلى دمشق محملا بالغنائم والأسرى^(٣).

وظل الأسطول البحري هو الشغل الشاغل للمسلمين، فإنهم مهما حققوا من انتصارات برية تبقى ناقصة ومهددة بالزوال إذا لم يكن هناك أسطول بحري يحمي الشواطئ، ويمنع غارات البيزنطيين عليها.

(١) د. وسام فرج العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية (الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية) ١٩٨٩م، ص ٣٣.

(٢) ابن الأعمش (أبي محمد أحمد الكوفي): الفتوح، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، ج ١، ص ٣٤١.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٤٦، ابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ٤٤.

وتجمع بعض المصادر والمراجع التاريخية أن معاوية بن أبي سفيان^(١) -والى الشام - قد لعب الدور الكبير في إنشاء الأسطول الإسلامي، فهو من واقع ولايته لبلاد الشام التي تمتلك شاطئاً كبيراً وهاماً، واحتكاكه المباشر بالبيزنطيين، وتعرضه لغاراتهم المفاجئة، ومن واقع تطلعاته وطموحاته لتوسيع رقعة الفتوح الإسلامية، واحتكاكه ومعرفته السابقة ببلاد الشام، فقد أولى إنشاء أسطول بحري إسلامي اهتماماً كبيراً.

وكانت محاولات معاوية لإنشاء هذا الأسطول مبكرة، فقد استفاد من الإمكانيات المتوافرة في بلاد الشام ومن الصناعات الماهرة، ومن السفن التي تركها البيزنطيون لتكون نواة لهذا الأسطول^(٢).

أرسل معاوية بن أبي سفيان إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في فتح جزيرة أرواد^(٣) وكتب إليه محفزاً: "يا أمير المؤمنين إن الشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم، وصياح ديوكهم، وهي تلقاء ساحل من سواحل حمص"^(٤)، ورأى الخليفة أن يستشير ولاته وأصحاب الرأي فيما كتب إليه معاوية، فأرسل إلى عمرو بن العاص - والى مصر - يستشيريه في ركوب المسلمين للبحر والذي رد عليه

(١) المعروف أن معاوية كان يشارك أخاه يزيد بن أبي سفيان في فتوحات مدن الشام، وكان والياً للشام، وعندما توفي يزيد في طاعون "عمواس" الذي ضرب بلاد الشام سنة ١٨ هـ ومات فيه عدد من المسلمين، أمر الخليفة عمر بن الخطاب معاوية على جند الشام وخراجها. انظر الطبري: مصدر سابق، ج ٤، ص ٦٢.

(٢) أرشيبالد لويس: مرجع سابق، ص ٩٠؛ موسوعة تاريخ مصر الإسلامية، مرجع سابق، ص ٧٦؛ د. حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ٨٣.

(٣) يذكر بعض المؤرخين أن هذا الاستئذان كان لفتح جزيرة قبرص، ولكن هذا الوصف بالقرب الشديد لا ينطبق على جزيرة قبرص وإنما ينطبق على جزيرة أرواد التي كانت قريبة من الساحل السوري، والتي كانت تتلقى دعماً مباشراً من الأسطول البيزنطي. عبد العزيز سالم، أحمد العبادي، البحرية الإسلامية، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧. ولمزيد من التفاصيل عن جزيرة أرواد انظر الهامش رقم (٦) ص ١١٦.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٤٨.

بقوله: "إني رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركس خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق"^(١). ولما استلم الخليفة هذا الرد كتب إلى معاوية ينهاه عن ارتياد البحر ويقول: "تالله لمسلم أحب إلى مما حوت الروم"^(٢). ولكنه سمح له بإقامة الدفاعات والاستحكامات اللازمة من ترميم الحصون وترتيب المقاتلة بها وإقامة الحرس واتخاذ المراقبة لها^(٣).

ويتخذ بعض المؤرخين من هذه الروايات مبررا كافيا لاتهام العرب بأنهم لم يكونوا أمة بحرية^(٤)، أو محبين لركوب البحار، وإذا كان هذا الرأي ينطبق على عرب وسط الجزيرة، فإنه لا ينطبق بإطلاق على كل العرب، الذين كان لهم تجاربهم ومعايشتهم مع البحار المحيطة بهم، على أنها تحمل دلالة بأن الخليفة عمر بن الخطاب كان حريصا على القوات الإسلامية، وكان يستهدى المنطق السليم وهو يكبح جماح قواده عن الغزوات التي قد يبدو فيها ولو نزر يسير من المخاطرة بأرواح المسلمين، ولم يكن سلوكه هذا مقصورا على الحروب البحرية، بل كان كذلك بالنسبة للحروب البرية، فكثير ذلك الذي ذكر عن ترده في السماح لعمر بن العاص بفتح مصر، وهو - فيما يبدو - كان يخشى أن يتسع نطاق الفتوح إلى حدود لا يمكن الدفاع عنها^(٥).

(١) الطبرى، ج ٥، ص ٥١، وابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ٤٨.

(٢) المصدران السابقان، نفس الجزء، ونفس الصفحة.

(٣) البلاذرى، فتوح البلدان، ص ١٣٤.

(٤) ابن الخلدون: المقدمة: مصدر سابق، ص ١٩٩.

(٥) سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، مرجع سابق ص ٦٤، ولعل حادثة العلاء بن الخصومي - واليه على البحرين الذى قاد حملة دون استئذان الخليفة لمهاجمة فارس وتحطم السفن وقتل الحملة - هو ما دفع عمر بن الخطاب إلى التردد فى أمر الحملات البحرية، وقد عزل هذا الوالى. ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٧٧، وأيضا: ابن الجوزى، المنتظم، مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٢٤، وعن دلالات هذه الحادثة. انظر: جورج فضلو حورانى: العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى، ترجمة د. السيد يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة (د.ت) ص ١٧٦.

على أية حال اجتهد معاوية بن أبي سفيان في تحصين المدن الساحلية، وإقامة نواة للأسطول الإسلامي تكون فيما بعد قاعدة للانطلاق في غزواته البحرية، ومركزاً لنقل الجنود في البحر إلى أي مكان يشاء، ووضع لهذه المدن نظاماً عرف بالرباط، ويقصد بها الأماكن التي يجتمع بها الجند استعداداً للمقاتلة^(١).

وخطا معاوية خطوة أخرى حين شجع الناس على الإقامة بالمدن الساحلية وحصل على أمر من الخليفة بمنح كل راغب في الإقامة بالمدن الساحلية إقطاعات من الأرض يستغلها ويتمتع بخيراتها، وترتب على ذلك زيادة سكان هذه المدن دون خوف من الهجمات البيزنطية حيث انتقل إليها الناس من كل ناحية^(٢).

وعندما حانت ساعة الغزو البحري، كانت هذه السواحل قد امتلأت بالمقاتلين الذين خبروا السواحل وتأقلموا بخيراتها

كرر معاوية طلب الاستئذان بالغزو البحري في خلافة عثمان بن عفان، وحصل هذه المرة على الإذن بشروط منها: أن لا يكره أحد أحداً على ركوب البحر، وأن يعبئ أساطيله من المتطوعين فقط، وأن تصحبه زوجته معه إذا أراد غزو البحر^(٣). واستهل معاوية نشاطه البحري بغزو جزيرة قبرص وكان ذلك سنة ٦٤٩ م - ٢٨ هـ^(٤). حيث أبحر الأسطول الإسلامي من ميناء عكا. واصطحب معاوية معه - بناء على تعليمات الخليفة - زوجته فاخنة بنت قريظة من بني عبد

(١) العدوى: الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ٨٣. وينكر بعض المؤرخين أن معاوية استفاد هذا النظام من البيزنطيين أنفسهم، وأدخل عليه عدة تحسينات، إذ عرف البيزنطيون نظام الأبرية المسلحة، وهي الأماكن التي انقطع الرهبان فيها للعبادة واجتمعوا فيها سوية لخدمة مطالبهم، وغدا الرباط مجمعا للمتحمسين والمتدينين الذي أوقفوا حياتهم للندود عن الإسلام، ووقد إليها باستمرار المسلمون المتحمسون لشد أزر إخوانهم في الجند النظامي: انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة رباط، ج ١٠، ص ١٩.

(٢) البلاذري، مصدر سابق، ص ١٣٥.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٦٢، البلاذري، مصدر سابق، ص ١٥٧. تاريخ البحرية الإسلامية، مرجع سابق، ج ١، ص ١٩.

(٤) تاريخ خليفة بن خياط، مصدر سابق، ص ١٦٠.

مناف، كما اصطحب عدد من الصحابة زوجاتهم^(١). وعبر الأسطول الإسلامي البحر إلى جزيرة قبرص محققا أول عبور بحري في البحر المتوسط^(٢). وبعد أن أنزل المسلمون عدتهم على الشاطئ أرسلوا إلى أهالي قبرص يخبرونهم أنهم لم يأتوا طمعا في جزيرتهم، وإنما ليتفقوا على ما فيه سلامة المسلمين وبلادهم، وتقدم المسلمون نحو عاصمة قبرص "قنسطنطينا" Constantina، وبعد حصار قصير سقطت المدينة في يد المسلمين، واضطر حاكم المدينة لعقد صلح معهم^(٣). وأخذت هذه الحملة شكل غزوة بحرية، كما كانت في الوقت ذاته عملا دفاعيا، جمع له معاوية عددا كبيرا من السفن من المدن الساحلية في الشام، وفرقا محاربة من مصر، ويرجح أرشيبالد لويس مشاركة غير العرب في هذه الحملة كبحارة أو أدلاء أو محاربين^(٤).

وحالف التوفيق معاوية بن أبي سفيان، وعقد صلحا مع أهالي قبرص على أن يدفعوا للمسلمين جزية سنوية قدرها ٧٢٠٠ دينار، مماثلة لتلك التي كانوا يؤدونها للبيزنطيين^(٥)، مضافا إليها تعهدا من أهالي قبرص بإبلاغ المسلمين عن أية استعدادات يقوم بها البيزنطيون ضدهم، وألا يساعدوا البيزنطيين في أية غارة على بلاد الشام، وألا يطلعوهم على أسرار المسلمين، أي أنهم ألزموا أهالي قبرص بالحياد التام في النزاع بين المسلمين والبيزنطيين^(٦). ولم يلزمهم بأيّة مساعدة

(١) كان ممن اصطحب زوجته الصحابي عبادة بن الصامت، وتسمى أم حرام الأنصارية، وقد استشهدت على أرض قبرص إذ حين رست السفن الإسلامية على الشاطئ وأخذ ينزلون منها تقدمت أم حرام لتركب دابتها، فنفرت الدابة وأوقعت أم حرام التي لقيت حتفها، ودفنت هناك، وعرف قبرها باسم قبر المرأة الصالحة، البلاذري، مصدر سابق، ص ١٥٩.

(٢) العدوى، الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ٩٠ وأيضا: Ostrogorsky, Op. Cit., P.116.

(٣) الطبري، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٦٢.

(٤) أرشيبالد لويس، القوى البحرية، مرجع سابق، ص ٩١.

(٥) البلاذري، مصدر سابق، ص ١٥٨. وابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ٤٨.

(٦) العدوى، قوات البحرية العربية، ص ٣٢.

حربية، وأصبح وضعهم كما ينص البلاذري "فكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم، ولم ينصرهم أهل قبرص، ولم ينتصروا عليهم"^(١).

وشعر المسلمون أن جزيرة أرواد (Aradus)^(٢) القريبة من الساحل السوري تمثل قاعدة متقدمة للبيزنطيين على الأراضي السورية، وسبق أن انطلقت منها عدة غارات لمهاجمة الساحل السوري، وأن تأمين الدفاع عن الساحل السوري يستدعي تطهير هذه الجزيرة من الوجود البيزنطي، وفي طريق عودتهم من غزو قبرص، استطاع الأسطول الشامي أن يسيطر على شواطئ الجزيرة، ولكن الأهالي رفضوا الاستسلام، رغم الوساطة التي بذلها أسقف المدينة ثورماريخوس (Thormarichos)، وأبدوا عنادا شديدا^(٣)، وفي العام التالي (٢٩ هـ) جهز معاوية حملة خاصة استطاعت الاستيلاء على الجزيرة وألزم جميع سكانها على إخلاء جزيرتهم جزاء عنادهم وعدم استجابتهم للصلح في المرة السابقة^(٤).

وأخذ المسلمون يراقبون تطبيق أهالي قبرص لشروط الصلح، ويتأكدون من حيادهم، وفي سنة ٣٢ هـ / ٦٥٣ م شعروا أن أهالي قبرص قد أخلوا بشروط الصلح وأمدوا الروم بسفن ساعدتهم على مهاجمة الشواطئ الشامية^(٥)، فصمم

(١) البلاذري، فتوح البلدان، مصدر سابق، ص ١٥٨.

(٢) عرف جزيرة أرواد والتي تسمى Aratus منذ القدم بأنها قلعة حصينة تخصص سكانها في القرصنة واتخذوها حرفة لهم، وجمعوا من هذا الطريق ثروات ضخمة، وقد ذكر استريون الجغرافي اليوناني الذي زار مدن الشرق سنة ٢٥ ق.م، هذه الحقيقة وأشار إليها، حيث استمر سكان الجزيرة في احتراف القرصنة مدة طويلة من الزمن إلى أن استولى عليها المسلمون. انظر: الدعوى: قوات البحرية، مرجع سابق، ص ٣٧، هامش رقم (٢).

(٣) Bury, Op. Cit., Vol. II, P.289.

(٤) د. إبراهيم طرخان، المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٦٦م، ص ٦٠.

(٥) دار جندل فقهي بين علماء المسلمين حول أمر قبرص، وإقرار مدى التزامها بشروط الصلح من عنده بعد أن تم استشارتهم من قبل الخلافة، ورأى بعضهم أن أهل قبرص لم يفوا بشروط الصلح، ورأى آخرون أن من نقص عهدا فلا نمة له وأشاروا بإنزال أشد العقوبات بهم، بينما رأى آخرون أن أهل قبرص أذلاء مقهورين من قبل الروم، فهم إلى الحماية أولى، واستشهد بعضهم بحوادث حدثت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، عن هذه الآراء انظر: البلاذري، مصدر سابق، ص ١٦٠ - ١٦٢.

معاوية على معاينة الجزيرة وحرمان البيزنطيين منها أو الاستفاداة من موقعها، وفي العام التالي ٣٣ هـ / ٦٥٤ م خرجت حملة بحرية كبيرة، استطاعت بعد معركة عنيفة إتمام الاستيلاء على الجزيرة واتخاذها قاعدة دائمة ومتقدمة للأسطول الإسلامي في البحر المتوسط^(١)، وحرص معاوية على وضع قوات نظامية بها تدافع عن الجزيرة وتحمي ظهر الأسطول الإسلامي، حيث نقل إليها اثني عشر ألفاً من الجند النظامي وأجريت لهم الرواتب، ووطن بها بعض العائلات من الشام^(٢).

وباحتلال قبرص تمكن المسلمون من تكوين قاعدة بحرية متقدمة لهم في بحر الروم، وبدأوا يندمجون في أحداثه العسكرية والاقتصادية بشكل فعال، حيث تطلعوا من قبرص للاستحواذ على الجزر الأخرى الهامة في هذا البحر، لشل حركة الأسطول البيزنطي، وتحقيق السيطرة على البحر الذي كان يسمى حتى تلك الفترة ببحر الروم^(٣).

ومد المسلمون نظرهم بعيداً إلى جزيرة صقلية، التي كانت تبعد كثيراً عن بلاد الشام، لأنهم شعروا أن الروم قد استبدلوا بها قواعدهم في بلاد الشام، والجزر الأخرى، لذلك صمموا على مهاجمتها.

وقد كانت خطة المسلمين هي إقصاء الروم (البيزنطيين) عن أي مكان تتجمع فيه أساطيلهم لمهاجمة أراضي الفتوحات الإسلامية، وانطلاقاً من هذه الخطة فإنهم قاموا سنة ٣٢ هـ / ٦٥٢ م بمهاجمة جزيرة صقلية بقيادة معاوية بن حديج الكندي، وعادوا إلى الشام بعد أن غنموا غنائم كثيرة^(٤).

(١) Vasiliev, Op. Cit., I,P.212.

(٢) البلاذري، مصدر سابق، ص ١٥٨.

(٣) نجبت خماش، الشام في صدر الإسلام (دار طلاس للترجمة والدراسات والنشر، دمشق، ١٩٨٧م) ص ٢٠٢.

(٤) البلاذري، مصدر سابق، ص ٢٣٧.

قاسيليف، العرب والروم، ترجمة د. محمد عبد الهادي شعيرة، (دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت) ص ٣. ويذكر قاسيليف أن الحملة انطلقت من طرابلس، وأن معاوية أقدم عليها لمنافسة والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، الذي حظى عند الخليفة عثمان بما أصاب من نصر في أفريقيا.

ويذكر تقي الدين الدوري (صقلية، علاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية، من الفتح العربي حتى الغزو النورمندي، دار الرشيد، بغداد ١٩٨٠م، ص ٣٢) استناداً إلى رأي بعض المؤرخين الغربيين بأن الحملة على صقلية كانت للفتح ولم تكن للغزو والنهب.

وفى العام نفسه فتح المسلمون تحت قيادة جنادة بن أمية الأزدي^(١)، جزيرة رودس Rhodes وبنوا بها حصنا منيعا، ومنها توجهوا إلى جزيرة كريت (أقريطش) وأضخامتها اكتفى جنادة بن أمية بما أصابه من فوز وعاد بأسطوله إلى الشام^(٢).

ويرى استروجورسكى أن هذه التحركات التي قام بها معاوية فى جزر البحر المتوسط، أظهرت هدفه الرئيسى الذى كان يسعى إليه وهو الاستعداد لمهاجمة العاصمة البيزنطية ذاتها^(٣)، ولم يكن هناك مندوحة من أن تتصدى الإمبراطورية البيزنطية لهذا الهدف الخطير والمبكر، والذى شعرت أن المسلمين يسعون إليه.

وهناك من المؤرخين من يعقد مقارنة بين تفكير معاوية فى مهاجمة القسطنطينية لاختصار وقت وتكاليف الفتوح الإسلامية، بذلك الدور الذى لعبه الإمبراطور هرقل فى حربه مع الفرس حين قام بمهاجمة عاصمتهم لتنتهى المعركة لصالحه^(٤).

على أية حال كان على الإمبراطور قنسطانز الثانى أن يتخذ عدة إجراءات داخلية قبل أن يفكر فى التصدى للخطط الإسلامية ومنها أن يدعم القوة البحرية للإمبراطورية بعد الضعف الذى أصابها، وأن يؤكد السيطرة على إقليم آسيا الصغرى، وهو الإقليم الذى كانت تعتمد عليه الإمبراطورية فى الحصول على السفن والجند المحاربين وأمرأء البحار، فتوجه إلى آسيا الصغرى وقضى على الحركات المناوئة، وضمن لأسطوله مورده التقليدى من السفن والرجال^(٥).

(١) البلاخرى، مصدر سابق، ص ٢٣٧، وينكر أن جنادة كان من رواة الحديث، عن رودس ينكر أنها من أخصب الجزائر.

(٢) العدوى، قوات البحرية العربية، ص ٤٠.

(٣) Ostrogorsky, Op. Cit., P.116.

(٤) Bury, Op. Cit., Vol. II, P.224.

(٥) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.393.

كما قضى على تحرك آخر معاد قام به السلاف القاطنون في بلاد اليونان، حيث قام جماعة منهم بالإغارة على سواحل بحر إيجه، ونشروا الاضطراب بين سكانها، فتصدى لهم الإمبراطور وأعادهم إلى التبعية لسلطانه^(١)، محققا بذلك تعاوننا وتنسيقا بحريا بين بلاد اليونان وآسيا الصغرى، استعدادا للمعركة التي أخذ يعد لها، وكان التنسيق بين أسطولى المنطقتين مفقودا في أعقاب اضطراب الأحوال السياسية في العاصمة البيزنطية. كما نشط الإمبراطور اتصالاته بعملائه في بلاد الشام، والذين كانوا بمثابة عيون له هناك، وفي الوقت نفسه تسند لهم بعض الأدوار لعرقلة الجهود الإسلامية وتعطيلها.

فقد قام اثنان من الجواسيس البيزنطيين بالتسلل إلى سجن مدينة طرابلس واستطاعا أن يفتحوا السجن ويطلقا سراح الأسرى البيزنطيين، وكان يتواجد منهم في هذا السجن عدد كبير، ثم هاجموا دار الحاكم، وقتلوه وعددا من أتباعه، وأحدثوا حرائق ثم فروا إلى آسيا الصغرى^(٢)، ونجت سفن الأسطول الإسلامي من هذه الحرائق لأن معظمها كان في مدينة عكا^(٣)، واستطاع المسلمون تعويض العدة والعتاد الذي أتلّف.

حشد الإمبراطور قنسطانز الثاني كل ما استطاعه من قوة حربية وبحرية، وتصف المصادر الإسلامية هذا الحشد بقولها: ".. وخرج قنسطنطين بن هرقل - قنسطانز الثاني - في جمع لم تجمع الروم مثله منذ كان الإسلام، فخرجوا في

(١) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 293.

(٢) Finalay, Op. Cit., Vol. I, P. 377; Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 290. المصادر العربية التي اطلعت عليها بنكر هذه الحادثة حيث يروى: " وكان بطرابلس أخوان يقال له بقطر، وكانا في خدمة العرب، فلما نظرا ما أعده معاوية أخنتهما الغيرة والحمية، فأتيا السجن ففتحا، وأخرجوا سائر من فيه من الروم، فوثبوا على عامل المدينة فقتلوه، وأحرقوا العدة وركبوا البحر ولحقوا بالروم ". انظر: المنتخب من أخبار المنبجى، مصدر سابق، ص ٦١.

(٣) ابن الأعمش، الفتوح، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٥٥.

خمسمائة مركب أو ستمائة^(١)، وكان الإمبراطور أرادها معركة فاصلة يضع بها حدا للتواجد الإسلامي في البحر المتوسط.

وقد تعددت الآراء حول الأسباب التي دعت الإمبراطور قنسطانز الثاني لتجريد هذه الحملة البحرية الشهيرة، والتي سميت بـ "ذات الصواري" لكثرة السفن التي شاركت بها، فيذكر الطبري أن سبب خروج قنسطانز هو ما أصاب الروم من فتوحات عبد الله بن سعد بن أبي سرح في أفريقيا^(٢).

ويوافق ابن كثير فيما ذهب إليه فيشير إلى أن السبب لما أصاب الروم والبربر ببلاد المغرب فحميت الروم، واجتمعت على قنسطانطين بن هرقل (ويقصد قنسطانز الثاني) وساروا لمحاربة المسلمين^(٣)، وهناك من المؤرخين المحدثين من يذكر أن السبب يعود إلى رغبة البيزنطيين في انتهاز فرصة انشغال عبد الله بن أبي سرح في محاربة جريجوري عند سبيطلة في أرض تونس، وأنهم جاعوا بأسطول كبير لمحاربتة^(٤). وفي حين يذهب آخرون إلى أن السبب المباشر يعود إلى رغبة الإمبراطور قنسطانز الثاني في عرقلة الاستعدادات البحرية الإسلامية التي كان المسلمون يعدونها من موانئ الشام، لشن غارة على العاصمة البيزنطية^(٥).

(١) الطبري، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٩٠، ابن الأثير، الكامل ج ٤، ص ٥٨، وتذكر مصادر أخرى أنه بلغ ألف مركب (الكندي، مصدر سابق، ص ١٣. المقرئ، مصدر سابق، ج ١، ص ٣١٤. السيوطي، حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٦١. ابن أبي عمير، بدائع الزهور، ج ١، ص ١٢). وتذكر هذه المصادر، أيضا أن مراكب المسلمين بلغت مائتي مركب ونيفا. كما يذكر ابن الأعمش (الفتوح، ج ١، ص ٣٥٥) عن شاهد عيان شارك في الحرب قوله " فرأينا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط ."

(٢) الطبري، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٩٠.

(٣) ابن كثير، مصدر سابق، ج ٧، ص ٧٣.

(٤) سعاد ماهر، مرجع سابق، ص ٨١.

(٥) Ostrogorosky, Op. Cit., P.116؛ الحنوي: الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ٣٥. ويبدو أن هذا هو السبب الأكثر ترابطا مع الأحداث.

على أية حال ومهما تناقضت تعددت الآراء حول الأسباب التي أدت إلى تجريد الحملة البيزنطية، فإن هناك حقيقة لا يمكن تجاهلها هي أن خروج مصر من يد البيزنطيين وفقدانهم لها، وفشلهم السابق في استعادتها وهي التي كانت تمثل درة الإمبراطورية، موقعا استراتيجيا، ومركزا حضاريا واقتصاديا، كان لها أبرز الأثر في تجريد هذه الحملة الكبيرة^(١).

ولذا فإن الصدام كان متوقعا وواردا، فالبيزنطيون كانوا يريدون استعادة نفوذهم وسيطرتهم على البحر المتوسط، ووضع حد للتهديدات الإسلامية، بينما المسلمون كانوا يسعون إلى تأمين فتوحاتهم في بلاد الشام ومصر، وتوسيعتها إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ثم - وهو الأهم - كانوا يريدون دخول عالم البحر المتوسط بكل أبعاده العسكرية والاقتصادية والتجارية، خاصة وأنهم شعروا أن نمو دولتهم واقتصادهم مرهون بمقدار النفوذ الذي يحققه تواجدهم في البحر المتوسط، وجزره ومحطاته التجارية^(٢).

من جانبهم استعد المسلمون للهجوم البيزنطي، وأصدر الخليفة عثمان بن عفان تعليماته إلى الأسطول المصري للانضمام إلى أسطول الشام، وانطلق عبد الله بن سعد بن أبي سرح لمساندة أسطول معاوية^(٣).

(١) يذكر السيوطي أنه لما استولى المسلمون على الإسكندرية، جاءت الروم إلى قنسطنطين بن هرقل (وهو يقصد قنسطانز الثاني) وقالوا: أترك الإسكندرية في أيدي العرب، وهي مدينتنا الكبرى، ثم طلبوا منه أن يخرج بهم لاستردادها قائلين: فأخرج على أن نموت، فتباعدوا على ذلك (السيوطي، حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٦٢) وقد تكررت هذه المقولة في المرة السابقة عندما حاول قنسطانز استعادة مصر، وأنزل جيشا في الإسكندرية وتكررت هنا مرة أخرى كسبب لذات الصواري!!

(٢) أرشيبالد لويس، القوى البحرية، مرجع سابق، ص ٨٩.

(٣) ابن الأعمش، الفتوح، مصدر سابق، ص ٣٥٤.

سارع الإمبراطور قنسطانز الثاني بالخروج على رأس قوته البحرية الكبيرة التي تمكن من إعدادها، وكان خروجه عام ٣٤ هـ / ٦٥٥ م^(١)، حيث التقى الجيشان البيزنطي والإسلامي في البحر، وكانت الرياح غير ملائمة، ففضى الطرفان ليلتهما انتظارا لما يسفر عنه الصباح وكان لقاؤهما عند فونيكس Phonix غرب شاطئ ليكيا بآسيا الصغرى^(٢). وبدأ كل فريق ببث الحماسة في جنوده، فالمسلمون أخذوا يهللون ويكبرون، والبيزنطيون يقرعون النواقيس والطبول لإثارة الحماس في المعسكرين العائمين على الماء.

(١) تختلف المصادر والمراجع الإسلامية في تحديد تاريخ معركة ذات الصواري، فالبعض يذكر أنها كانت سنة ٣١ هـ (الطبري، ج ٤، ص ٢٨٨، ابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ٥٨، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ١٧١. على إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٤٤) والبعض الآخر يذكر أنها كانت سنة ٣٤ هـ (الطبري)، نفس الجزء والصفحة، الكندي: الولاة والقضاة، ص ١٣، ابن الأثير، نفس الجزء والصفحة، ابن كثير: نفس الجزء والصفحة، د. سيدة الكاشف: العرب والبحار، ص ٨٣، العدوي: قوات البحرية العربية، ص ٤٤، وسعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص ٨٠، والبعض الآخر يذكر أنها كانت سنة ٣٥ هـ (ابن الأثير) نفس المصدر والجزء والصفحة) المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢١٥، السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٦٢) وقيل قبل مقتل عثمان بن عفان، وقد قتل عثمان في ليلة الجمعة لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ (المسعودي، مروج الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م، ج ٢، ص ٣٥٥).

ويذكر المنبجي أن ذلك كان في السنة التاسعة لخلافة عثمان والرابعة والثلاثين للعرب (الهجرة) والثالثة عشرة لقسطوس (قنسطانز) (تاريخ المنبجي) مصدر سابق، ص ٦٠، ويذكر سيدو أن ذلك كان سنة ٣٦ هـ (سيدو، خلاصة تاريخ العرب) الطبعة الثانية، دار الآداب، بيروت ١٤٠٠ هـ، ص ٨٧.

(٢) هناك خلاف أيضا على المكان الذي دارت به المعركة فهناك من يذكر أنها وقعت غرب شاطئ ليكيا بآسيا الصغرى (Ostrogorosky, Op. Cit., P.116) الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص ١٤٣، العدوي، الإمبراطورية البيزنطية، ص ٥٢، سيدو، خلاصة تاريخ العرب، ص ٨٧. ويذكر أنها حدثت في خليج ابصالوق بساحل إقليم ليسييا Lycere من أناضول في سفح جبل فينكس، وهناك من يذكر أنها حدثت بالقرب من ثغر فونيكس غرب الإسكندرية (د. سعاد ماهر، البحرية الإسلامية في مصر، ص ٨٤. على إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٤٤) ويذكر أرشيبالد لويس أنه وقعت قرب موضع يقال لها فونكس Phoenix بآسيا الصغرى (العدوي البحرية، ص ٢٩١)، وهناك من يتوكلها دون تحديد مكثفين بالإشارة إلى أنها حدثت بالقرب من الإسكندرية أو آسيا الصغرى (د. سيدة الكاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ٨٥. للمؤلفة أيضا، العرب والبحار، ص ٥٤).

ونحن نميل إلى الموقع الذي أثبتناه في المتن لأن الدلالات والروايات التي أوردها الطبري لشهود عيان شاركوا في المعركة (الطبري: ج ٤، ص ٢٩١)، الروايات عن خروج الأسطول المصري ومشاركته في المعركة وعودته مؤيدا (ابن كثير البداية والنهاية، ج ٧، ص ١٧٣) تؤكد ذلك، ثم أن طبيعة الصراع وتمركزه على بلاد الشام وموانئها وجزر البحر المتوسط تشير إلى ذلك أيضا.

كان الإمبراطور قنسطانز يقود العمليات الحربية ويشارك فيها من خلال سفينة القيادة^(١)، بينما قاد الأسطول الإسلامي عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعدد آخر من القادة المسلمين^(٢)، وبدأ المسلمون القتال باستخدام الأقواس والسهام، وأدرك الإمبراطور تفوق جنوده عليهم لأن المسلمين يجيدون القتال بهذا السلاح في الحروب البرية فقط، المعركة الآن بحرية وليست برية، وأن ذخيرتهم سوف تنفذ سريعاً، وتحقق ما توقعه الإمبراطور واضطر المسلمون إلى استخدام الحجارة، وأخذوا يضربون بها سفن الأعداء، ثم ما لبثوا أن غيروا خطتهم بعد أن رأوا أن سهامهم وحجارتهم لم تؤثر في سفن الأعداء، التي كانت تماطل في الالتحام، حتى تنفذ ذخيرة المسلمين، حيث قاموا بربط سفنهم إلى بعض ومدوا منها خطاطيف جذبوا بها سفن البيزنطيين إليهم، وبهذا حولوا المعركة إلى معركة برية واتخذوا من ظهور السفن المتلاحمة ساحة قتال أشبه بالساحات البرية^(٣). ووثبوا على البيزنطيين وأعملوا فيهم السيوف والخناجر، وتحول لون البحر إلى اللون الأحمر من هول الدماء التي سفكت، وحملت الأمواج جثث القتلى من الجانبين إلى الساحل،

(١) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 291.

(٢) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ص ٥٨.

(٣) الطبري، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٩٠. ويذكر العدوي (قوات البحرية العربية ص ١٨٦) أن المسلمين استفادوا من هذا الأسلوب الذي أثبت أنه سلاح قوى، حيث تعمد السفن الحربية إلى الاقتراب من مراكب الأعداء، وجذبها إليها بواسطة الكلاب، ثم وضع ألواح بين جوانب السفن أشبه بالجسم من المعارك الحربية القديمة التي كانت تخوضها روما، فقد حدث أن اصطدم الرومان مع أعدائهم في قرطاجنة سنة ٢٦٠ ق.م وتخلوا عن طريقة دق أو قطم مجانيب الأعداء، والاستعاضة عن ذلك باتخاذ نوع من الكبارى الطويلة تسمى Corvus القابلة للرفع تشدها بكرة إلى سارية المركب وبنهايتها خطاطيف تثبت بواسطتها في سفن الأعداء حيث تقترب منها، ثم ينتقل منها، ثم ينتقل الجند عليها إلى سفن العدو. ولكن هل حقيقة كان العرب يعلمون باستخدام الرومان لهذا الأسلوب، أم أن الحاجة والأزمة التي وجدوا أنفسهم فيها تحيط بهم سفن الأعداء، هي التي هدتهم إلى ابتكار هذا الأسلوب، أم هي أفكار أولئك القبط والسوريين الذين ثبت أنهم كانوا يشاركونهم المعركة؟ وعن مشاركة القبط انظر: ابن الأعمش، مصدر سابق، ص ٣٥٦.

وأصبحت ركاما وتلالاً^(١)، وحاول الإمبراطور أن يتدارك الموقف، وعمل على إثارة الفوضى في السفن الإسلامية، وأمر جنوده بالتركيز على سفينة القيادة الإسلامية، وألقوا أحد خطاطيفهم على هذه السفينة، وحاولوا جذبها إلى سفنهم، ولكن استبسال المسلمين في الدفاع عن قيادتهم أفسد هذه الخطة، التي كان من شأنها لو نجحت أن تؤثر في المعسكر الإسلامي^(٢)، ثم ما لبثت أن دارت الدائرة على البيزنطيين، وهزموا هزيمة نكراء، وكاد الإمبراطور أن يقع أسيراً في يد المسلمين لولا الاستبسال الذي أبداه الجنود البيزنطيون في الدفاع عن سفينة قيادتهم، ولكن ذخيرتهم تنفذ سريعاً، وتحقق ما توقعه الإمبراطور واضطر المسلمون إلى استخدام الحجارة، وأخذوا يضربون بها سفن الأعداء، ثم ما لبثوا أن غيروا خطتهم بعد أن رأوا أن سهامهم وحجارتهم لم تؤثر في سفن الأعداء، التي كانت تماطل في الالتحام، حتى تنفذ الإمبراطور الذي أصيب بعدة جروح^(٣) من الهرب من سفينته إلى سفينة أخرى^(٤). وتفرق المعسكر البيزنطي وتشتت سفنه في البحر، واستطاع الإمبراطور أن يفر هارباً إلى صقلية^(٥).

(١) ابن الأعمش، مصدر سابق، ص ٣٥٥، ابن الجوزي المنتظم، ج ٥، ص ١٢.

(٢) يذكر ابن عبد الحكم أن الروم كانوا ينجحوا في أسر مركب القيادة الإسلامي لولا شجاعة أحد الجنود العرب، وبدعى علقمة بن يزيد الغطيفي، إذ قفز على السلسلة وأخذ يعمل فيها القطع برغم ما تعرض له من ضربات العدو وسهامه، وكلل عمله بالنجاح وتمكن من قطع السلسلة. ويذكر ابن عبد الحكم أيضاً أن ابن أبي سرح سأل زوجته بثينة - أو بسيسة - بنت حمزة بن ليشرح - أو ابن عبد كلال - وكان الناس يغزون بنسائهم: من رأيت أشد قتلاً؟ قالت علقمة صاحب السلسلة. وشاء الله أن يظفر علقمة بزواجه من بثينة بعد وفاة زوجها. ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص ١٦١.

(٣) ابن الأعمش، مصدر سابق، ص ٢٥٦، الكامل، ابن الأثير، ج ٣، ص ٥٨.

(٤) ينكر مؤرخون غربيون، أن الإمبراطور تنكر باستبدال زيه الإمبراطوري بملابس ابن أحد ضاربي الطبول على سفينة، وهرب من المعركة على ظهر مركب آخر. انظر: Bury, Op. Cit., Vol. ١، وكذلك: Kremer, Orient under the Caliphs, London 1958, P. 354., Ostrogorosky, Op. Cit., P. 116

(٥) ويلخص الطبري نتيجة المعركة بقوله: والراجح أن قتلى الروم فاق عدد قتلى المسلمين ولم ينج من الروم إلا الشريد، الطبري، ج ٤، ص ٢٩٢ وتخلط المصادر الإسلامية بين نهاية هذه المعركة وهرب الإمبراطور إلى صقلية، ومقتله فيها، حيث يذكرون أنه بعد هربه إلى صقلية مباشرة سأله أهلها عن=

واكتسبت موقعة ذات الصواري بالنتائج التي انتهت إليها أهمية كبيرة في الصراع بين المسلمين والبيزنطيين فقد عملت على تدعيم السيادة الإسلامية على الشواطئ الشرقية لبحر الروم، إذ أدرك الإمبراطور قنسطانز ومن جاء بعده من الأباطرة أن الأسطول الإسلامي صار قوة عظيمة في هذا البحر، وأنهم لن يستطيعوا إخراج المسلمين من المواقع التي أقاموا فيها على شواطئه، وترك أباطرة الدولة البيزنطية فكرة استرداد تلك البلاد، وفضلوا الاعتراف بالأمر الواقع^(١). كما ترتب عليها أن تداعت سيادة بيزنطية في البحر المتوسط^(٢). والحقيقة أن تلك الموقعة كانت حدًا فاصلاً في السياسة البيزنطية تجاه المسلمين، فقد أفساق الإمبراطور بعدها إلى نفسه، وأدرك أن إعداد أية حملات بحرية أو برية لاسترداد مصر أو الشام يعتبر مجهوداً فاشلاً، ومحاولات فات أوانها^(٣). ويصف المؤرخ البيزنطي ثيوفانيس ذات الصواري بأنها كانت "يرموك" ثانية على الروم^(٤)، ويعتبرها بعضهم أعظم موقعة شهدتها البحر المتوسط منذ موقعة أكتيوم البحرية سنة ٣١ ق. م^(٥). فكما أن معركة أكتيوم جعلت البحر المتوسط، بحيرة رومانية،

=أمره فاخبرهم بما حدث له ولقواته، فقالوا له لقد أفنيت من بقي من عسكر الروم وشتت النصرانية، وجئت إلينا، فلو دخلت العرب إلى بلادنا لما وجدوا من يردهم، فأدخلوه الحمام وقتلوه (!! انظر: ابن الأثير الكامل، ج ٣، ص ٥٩، المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٣١٥، السيوطي، ج ١، ص ١٦٢ ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ١٢. وهذا خطأ فالإمبراطور قنسطانز الثاني لم يقتل في صقلية بعد هربه من ذات الصواري، وإنما قتل بعد ذلك سنة ٥٤٨ / ٦٦٨م في صقلية أي بعد ثلاثة عشر عاماً نتيجة مؤامرة دبرت ضده وشارك فيها نبلاء القسطنطينية كما سيرد. وانظر أيضاً عن هروب الإمبراطور: Theopanes, Op.Cit., P.482.

(١) العدي، قوات البحرية العربية، مرجع سابق، ص ٥١.

(٢) الباز العريني، مصر البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٤٣؛ Ostrogorsky, Op. Cit., P.117.

(٣) د. علي الجنزوري، هجمات الروم البحرية، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٤) Theopanes, Op.Cit., P.482.

(٥) أكتيوم: اسم قديم لأحد الرؤوس الأرضية الممتدة جنوب اليونان في البحر المتوسط، اشتهرت هذه البقعة بعد الموقعة البحرية الهامة التي جرت قربها سنة ٣١ ق.م بين أساطيل البطالمة حكام مصر، والقائد الروماني أكتافيوس، وترجع أهمية هذه المعركة إلى أنها جلبت النصر للرومان، وقضت على =

فإن ذات الصواري جعلت للمسلمين اليد الطولى فى البحر المتوسط، ودفعتهم إلى تحقيق المزيد من طموحاتهم فى هذا البحر^(١). على أن النتيجة المباشرة لذات الصواري، أن المسلمين استولوا على عدد كبير من السفن البيزنطية، والتي كانت نواة الأسطول الإسلامى الكبير الذى اعتمد عليه الأمويون فيما بعد فى نضالهم ضد البيزنطيين^(٢).

كذلك فإن أهم النتائج المترتبة على هذا الانتصار للمسلمين فى ذات الصواري، كان كسر الحاجز النفسى البحرى لدى المسلمين، وإعطائهم الثقة فى إمكانياتهم البحرية، وإمكان تحقيق انتصارات بحرية على سيدة القوة فى البحر المتوسط فى تلك الفترة، والمتحكمة فيه. وهو حاجز نفسى احتاج جهودا كبيرة، وسنوات طويلة لكسره وتجاوزه. وكان نتيجة مباشرة لتلك الجهود التى بذلت لإقامة أسطول بحرئ إسلامى، فى الشام ومصر، وإمكانية تحقيق الانسجام والتكامل بينهما لدخول معارك مشتركة ضد الأسطول البيزنطى، وتحقيق انتصارات كبيرة.

ولكن الظروف التى أحاطت بالدولة الإسلامىة فى أعقاب هذا الانتصار الكبير، ما لبثت أن عطلت الاستفادة الحقيقية والكبرى منه، فلم يستفد المسلمون من انكسار البيزنطيين البحرئ، كما سبق وأن انكسروا برياً. والذى حدث هو أن الدولة الإسلامىة تعرضت لهزة سياسىة خطيرة حين قتل الخليفة عثمان بن عفان (٣٥ هـ / ٦٥٦م)^(٣) فاضطربت أمور الدولة، ونودى بعلئ بن أبئ طالب خليفة للمسلمين،

:

=البطالمة الذين كانوا آخر قوة تنافس الرمان على سىادة البحر المتوسط، وتلا سقوط مصر فى أيديهم تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة رومانىة. عن أحداث هذه الفترة انظر: د. حسين الشئخ، الرومان، (دار المعرفة الجامعىة، الإسكندرىة ١٩٩٦م) ص ٦٦، أىضا د. محمود إىراهم السعدنى، تاريخ روما القدىم، (مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٩١م) ص ١١٩.

(١) عبد الرحمن الرافعى، سعبد عبد الفتاح عاشور، مصر فى العصور الوسطى (مكتبة النهضة المصرىة، القاهرة، ١٩٧٠م) ص ٧٢.

(٢) د. علىة الجنزورى، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٣) الطبرى، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٦٠، ابن الأئبر، الكامل، ج ٣، ص ٩٠. وكان مقتله رضى الله عنه فى يوم الجمعة الثامن عشر من شهر ذئ الحجة سنة ٣٥هـ، ابن الجوزئ: المنتظم ج ٥، ص ٥٥ =

ولكن معاوية بن أبي سفيان اعترض على خلافته وبدأت أزمة سياسية تطورت إلى حروب داخلية، كانت في صالح الدولة البيزنطية، وصالح إمبراطورها قنسطانز الثاني. وقد اضطر معاوية بن أبي سفيان - الذي حمل لواء المعارضة لعلي بن أبي طالب - إلى مهادنة البيزنطيين، ولم يتردد في دفع إتاوة للبيزنطيين حتى يحصل على هذه الهدنة. والواقع أن هذه الهدنة^(١)، وإن أتاحت لمعاوية أن يتفرغ لمعركته مع علي بن أبي طالب، فإنها جاءت بردا وسلاما على الإمبراطور قنسطانز بعد هزائمه العسكرية في مختلف الجبهات البرية والبحرية، ودخول الإمبراطورية في بؤس أزمة سياسية على العرش.

وتذكر بعض المصادر أن عمرو بن العاص هو الذي أشار على معاوية بطلب الهدنة، بعد أن قام الإمبراطور البيزنطي بتحرك جيش بري فور أن بلغته أنباء الصراع في الدولة الإسلامية^(٢). ويذكر اليعقوبي أن معاوية قد بلغه في عام

ويذكر ابن الأثير تواريخ أخرى لقتل عثمان بن عفان منها أنه كان سنة ٣٦ هـ. وأن عمره حين مقتله كان اثنين وثمانين سنة وقيل ثمانية وثمانين وقيل تسعين وقيل خمسا وسبعين، وقيل ستا وثمانين (ابن الأثير، الكامل ج ٣، ص ٩٠. على أية حال فيبدو أن التاريخ المذكور في المتن، هو محل إجماع أكثر المؤرخين، وعن التاريخ الميلادي انظر: Camb. Med. Hist. Vol. II, P.394

(١) تشير المصادر البيزنطية إلى معاهدة أو هدنة سابقة لهذه الهدنة التي حدثت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان، حيث يذكر ثيوفانيس أن الإمبراطور قنسطانز أرسل رسولا يدعى بروكوبيوس Prokopios لعرض رغبة الإمبراطور في عقد اتفاقية سلام بينهما، وأن معاهدة قد أبرمت لمدة عامين، وأن معاوية احتجز بعض الرهائن البيزنطيين في دمشق ومنهم جريجوري Gregory ابن ثيودور شقيق الإمبراطور (Theophonos, Op. Cit., P.479) ولا تشير المصادر الإسلامية إلى هذه الهدنة.

ويورد المنبجي رواية أخرى فيذكر أنه في السنة الثالثة لخلافة عثمان وجه قسطنطين (قنسطانز الثاني) ملك الروم رسلا إلى معاوية يسأله الصلح - وكان بدمشق - والرسول " منويل " الذي كان بمصر، في عدة من الروم، فأجاب معاوية إلى ذلك، على أن يخلف عنده عدة من أهل بيته رهائن. المنبجي، مصدر سابق، ص ٥٧. ويخلط محقق هذا الكتاب الدكتور عمر عبد السلام التدمري بين هذه المهادنة التي حدثت في السنة الثالثة لخلافة عثمان، - كما يذكر المنبجي - أي سنة ٢٦ هـ وبين المهادنة التي حصلت بعد مقتل عثمان والصراع بين علي ومعاوية أي سنة ٣٧ هـ فيورد في تعليقه على رواية المنبجي أحداثا وتفاصيل هذه المهادنة التي حصلت بعد ذلك بعدة سنوات. انظر هامش (٥)، ص ٥٧.

(٢) الدينوري (أبو حنيفة أحمد بن داود): كتاب الأخبار الطوال (المطبعة الشرقية، بغداد، ١٩٥٩م، ص ١٥٧. تاريخ خليفة بن خياط، مصدر سابق، ص ٢٠٥.

٣٦ هـ / ٦٥٦ م أن طاغية الروم قد زحف في جموع كثيرة وخلق عظيم، فخاف أن يشغله عما يحتاج إلى تدبره وإحكامه فوجه إليه فصالحه على مائة ألف دينار^(١). بينما يذكر ابن كثير رواية مخالفة يشير فيها إلى أن الإمبراطور البيزنطي هو الذي طلب المهادنة، فيذكر أن ملك الروم - قنسطانز الثاني - قد طمع في معاوية بعد أن كان يخشاه، فزحف بجيش كبير لمحاربة المسلمين، فأرسل إليه معاوية كتابا يتوعده، فبعث يطلب الهدنة، وكان ذلك قبل قيام التحكيم بن علي ومعاوية^(٢).

وتعطي المصادر البيزنطية تفاصيل أكثر عن هذه المعاهدة، فيذكر ثيوفانيس أن معاوية أرسل إلى قنسطانز لعقد اتفاقية للهدنة مع البيزنطيين، وتتص الاتفاقية على قيام المسلمين بدفع ألف صولدي Solidi سنويا، وحصانا، وإطلاق أسير بيزنطي كل يوم^(٣).

على أية حال أتاحت الاضطرابات التي ألمت بالدولة الإسلامية، - وسيكون دأب الدولتين الاستفادة من الاضطرابات التي تحدث في الدولة الأخرى - للإمبراطور قنسطانز الثاني الحصول على فترة سلام وهدنة عسكرية، استغلها في تدبير بعض الأمور الداخلية في الإمبراطورية، وحل مشكلاتها القائمة. وكان من هذه المشكلات تلك الاضطرابات التي ألمت بالإمبراطورية في أراضيها ببلاد البلقان، والتي أصبحت مرتعا لهجمات وتحركات السلاف (Slav) والذين يعرفون بالصقالبة.

(١) اليعقوبي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢١٧.

(٢) ابن كثير، مصدر سابق، ج ٨، ص ١١٩. وهو ما نرجحه ليكون سببا لقيام هذه المعاهدة.

(٣) Theopanes, Op. Cit., P.484; Oman, the Byzanten Empire. Op. Cit., P. 169.

والصولدي عملة بيزنطية تساوي $\frac{1}{72}$ من الرطل ذهباً، وكانت من العملات المتداولة في الدولة الإسلامية. انظر: قنسطنطين السابع بورفير جينتيوس: إدارة الإمبراطورية، ترجمة وتحليل د. محمود سعيد عمران (بيروت ١٩٨٠م) ص ٨٥.

تحركات الإمبراطور قنسطانز الثاني في الغرب لاستعادة النفوذ البيزنطي:

يعود تواجد السلاف^(١) في منطقة البلقان إلى منتصف القرن الخامس الميلادي عندما بدأت تحركاتهم على الضفة الشمالية لنهر الدانوب، وبدأوا يغيرون على الأقاليم البيزنطية في شبه جزيرة البلقان، مستغلين الظروف التي كانت تمر بها الإمبراطورية البيزنطية خلال حروبها مع الفرس في تكثيف غاراتهم على مدن البلقان، ولم تسلم من غاراتهم معظم مدن ومناطق الإقليم^(٢).

وإذا كان السلاف والآفار قد اكتفوا خلال هذه الفترة الطويلة بالغزو والإغارة، إلا أنهم في مطلع القرن السابع تطلعوا إلى الاستقرار في شبه جزيرة البلقان، وجنوب الدانوب مباشرة^(٣)، وذلك خلال العهد المضطرب للإمبراطور فوكاس (٦٠٢ - ٦١٠م) والسنوات الأولى لحكم الإمبراطور هرقل، حيث شهدت الدولة ضعفا وعجزا شديدين، وتركزت جهودها في مواجهة العدوان الأكبر الذي تمثل في الفرس واجتياحهم الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية^(٤).

(١) كان السلاف إحدى القوميات الواقعة تحت حكم الهون (Huns)، وعندما انهارت الدولة الضخمة التي أقامها الهون، بوفاة ملكهم اتيلا Attila سنة ٤٥٢م، أدى ذلك إلى حدوث تغيرات في ميزان القوى في الأقاليم الواقعة إلى الشمال من حدود الإمبراطورية البيزنطية في البلقان، وأدى هذا الأتجار إلى بروز قبائل عديدة كانت تخضع لحكم الهون، ومنها القبائل السلافية. ولا يعرف على وجه الدقة موطن السلاف الأول، ولا أسباب هجرتهم جنوبا، ولا الظروف التي صاحبت ظهورهم المفاجئ على طول الضفة الشمالية لنهر الدانوب في مطلع القرن السادس الميلادي. ومن المحتمل. أنه في أعقاب وفاة أتيلا واضمحلال دولته تحركت الأقوام التي كانت خاضعة له سعيًا وراء المراعي، وأخذت تضغط على غيرها من الأقوام، مما دفع بالسلاف إلى الاتجاه شطر الدانوب. انظر: د. وسام فرج، السلاف في شبه جزيرة البلقان وجهود الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد سيادتها، (المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، ١٩٨٣م، العدد ٣٠) ص ١٤١.

(٢) وسام فرج، المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٣) هس، العالم البيزنطي، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٤) سبق أن استعرضنا اجتياح الفرس للأراضي البيزنطية وتصدي الإمبراطور هرقل لهم، في الفصل الأول، انظر ص ١٧.

وخلال نصف قرن كان السلاف قد ثبتوا أقدامهم في البلقان، وأصبح الوقت متأخرا لمحاولة وقف تغلغلهم، أو التصدي لهم، وعوضا عن ذلك أملت الدولة في احتوائهم، ونشر الثقافة الإغريقية بينهم، وصولا إلى صهرهم في البوتقة البيزنطية^(١). ولكن التحركات السكانية التي كانت تزدهم بها المنطقة والهجرات الجديدة، جعل هذا الأمل يتراجع في مرات كثيرة^(٢).

وشعرت الدولة أنه لا بد من إقرار وتأكيد سلطتها في البلقان، والمحافظة على بقايا جهازها الإداري، بعد التزايد الذي شهدته المنطقة لهجرات البرابرة، وهجماتهم العنيفة على المدن البيزنطية الهامة، وخاصة مدينة سالونيك.

واستغلالا للهدنة العسكرية التي عقدها الإمبراطور قنسطانز الثاني مع المسلمين، قام الإمبراطور سنة ٦٥٨ / ٣٨ هـ بقيادة حملة ناجحة ضد السلاف في شبه جزيرة البلقان^(٣)، ومثلت هذه الحملة أول مجهود عسكري بيزنطي ضد السلاف منذ عهد الإمبراطور موريس، الذي سبق قيام الأسرة الهرقلية.

وفي هذه الحملة الكبيرة هاجم الإمبراطور قنسطانز السلاف الذين استقروا في إقليم مقدونيا، وأولئك الذين استقروا في الإقليم المحيط بسالونيك، إلا أن قنسطانز لم يقم بطردهم وإنما أخضعهم للسيادة البيزنطية^(٤)، ولنظام "المعاهد" الذي كان سائدا^(٥).

(١) Norman, Bayznes, The Byzantien Empir, A. N. S Press, U. S. A. 1986. p. 167.

(٢) وسام فرج، دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ج١، ص ١٦٨.

(٣) Theopones, Op. Cit., P.485.

(٤) Ostrogorosky, Op. Cit., P.117.

(٥) يأتي اصطلاح " المعاهد " من الكلمة اللاتينية Foedus (معاهدة) إذ كانت الدولة البيزنطية تعقد معاهدات مع العناصر التي ترغب في النزول بممتلكاتها مقابل تعهدا بتنفيذ ما تطلبه الدولة منها.

وذهب الإمبراطور بعيدا في إخضاعهم، فقرر تهجير أعداد كبيرة منهم إلى آسيا الصغرى حيث تم استقرارهم، وتجنيد أعداد أخرى كبيرة منهم في الجيش البيزنطي^(١). والواقع أن قنسطانز الثاني كان أول إمبراطور بيزنطي يهتم بنقل السلاف إلى مناطق الأناضول، لإمدادهم بقوة هؤلاء الرجال، لتجنيدهم من جهة، واستعمالهم في تعمير الأراضي المهجورة من جهة أخرى، ولمواجهة التهديدات الإسلامية^(٢).

وكانت هذه الحملة التي قام بها الإمبراطور تمثل الحد الأدنى من اهتمام الحكومة البيزنطية الضروري لمواجهة تفاقم مشكلة السلاف، وتمت هذه الحملة بنجاح، وبدون نفقات باهظة، وكانت نتيجتها المباشرة تأمين مدينة سالونيك من خطر السقوط في أيدي السلاف، وذلك بإخضاع العناصر السلافية المستقرة في الإقليم المحيط بالمدينة وفرض الإتاوة عليهم، وتأكيد ولائها للإمبراطورية البيزنطية^(٣).

والواقع أن عملية إخضاع السلاف ونقلهم، استدعتها أسباب سياسية وأخرى عسكرية. فالسبب السياسي هو رغبة الأباطرة في التخفيف من الضغط الذي مارسه السلاف على شبه جزيرة البلقان، وخصوصا في المناطق حول سالونيك، والسبب العسكري استخدام السلاف في الجيش البيزنطي، وتعويض النقص الحاصل في القوات البيزنطية نتيجة للحروب مع الفرس ثم المسلمين.

(١) Ostrogorowsky, Op. Cit., P.117 ؛ Bury, Op. Cit., Vol. II, P.292 وينكر استروجورسكى أنه في سنة ٦٦٥م، قامت عسكرية من السلاف المقيمين في آسيا الصغرى تتكون من خمسة آلاف مقاتل، بانتهاك الولاء للإمبراطورية البيزنطية، والانضمام للمسلمين الذين سمحوا لهم بالاستقرار في سوريا.

(٢) وسام فرج، السلاف في شبه جزيرة البلقان، مرجع سابق، ص ١٥٣.

(٣) Holdon, Op. Cit., P. 63.

وكانت منطقة البلقان قد تأثرت جزئياً بالتغيرات السكانية، أو العرقية للسكان، إذا أن السلاف انتشروا في كل رقعة من البلقان وتركوا تأثيراتهم حتى على أسماء المواقع التي استقروا بها^(١).

على أن الجدير بالملاحظة أن استقرار السلاف في شبه جزيرة البلقان لا يعنى القضاء على السكان الأصليين، وبالرغم من الفيض السلافي فإن الأغلبية اليونانية ظلت هي المسيطرة على شرق البلوبونيز ووسط اليونان بما في ذلك أتيكا التي كانت مقرا - فيما بعد - لما عرف بثيم هيلاس، ابتداءً من سنة ٦٩٥ م / ٧٦ هـ كما حافظوا على بقائهم في الجزر^(٢)، وتركزت القبضة البيزنطية في عدة مناطق كان أهمها منومفيسيا Monemvassio، وكورنثا وأثينا وتسالونيكيا، وهذه المناطق استفيد منها كمراكز مصالحة وامتصاص وهلنية للسلاف في بلاد البلقان، أما سالونيكيا، بصفة خاصة فيمكن أن يطلق عليها صفة المنقذ والمخلص لليونان من السلاف لأنها هي الموقع الذي تعرض وتحمل هجوم السلاف المتكرر خلال القرنين السادس والسابع، ولولا صمودها ومقاومتها فلربما وقعت بلاد اليونان برمتها في أيدي السلاف^(٣).

وهناك من المؤرخين من يعتبر أن التعامل مع قضية السلاف في بلاد البلقان، من أخطر التطورات التي طرأت على الإمبراطورية البيزنطية في القرن السابع، ويعتبر أن هذه القضية أهم من التحولات التي حدثت في الأنظمة الإدارية واستحداث نظام التيمات^(٤).

(١) استناداً إلى أسماء الأماكن ذات الأصل السلافي، وجد أن الغالبية العظمى من السلاف قد استقرت في كل من إبيروس Epirus، وغرب اليونان، حيث وجد (٥٥٨) أسماء، ووسط وغرب البلوبونيز ووجد (٣٨٧) أسماء، وفي تساليا Thessaly وجد (٢٣) أسماء، وفي أتيكا Attica وجد (١٨)، وحول أثينا وأرجوليس Argolis وجد (١٨) أسماء، وفي بواتيا Boetia (٢٢) أسماء، وفي كورنثا (٢٤) أسماء، وفوكس Phokis (٤٥) أسماء انظر: د. عائشة أبو الجدايل، مرجع سابق، ص ٣٣١، نقلاً عن: Charanis. Ethnic changes, P. 40.

(٢) Ensslin, Op. Cit., P.210.

(٣) د. عائشة أبو الجدايل، المرجع السابق، ص ٣٣٢.

(٤) Finaly, Op. Cit., Vol. I.P. 383.

فقد كان تحرك السلاف بموجات كثيفة، ونقلهم بأعداد غفيرة إلى آسيا الصغرى، وإعادة إعمار مناطق الإمبراطورية التي أفرغت من سكانها، ثورة ديموغرافية (سكانية) ترتب عليها نتائج بعيدة المدى على الإمبراطورية.

وهناك من المؤرخين من يرى أن الإمبراطور خلال هجومه على مناطق تواجد السلاف في البلقان، ربما يكون قد فكر، وبدأ في تأسيس ثيم هيلاس Hilas^(١) ليكون أساساً للإدارة البيزنطية في هذا الإقليم، حيث إن الإدارة البيزنطية كانت تعتمد في إدارتها لولاياتها على نظام الثيمات.

(١) Stratos, Op. Cit., P. 149.



استقرار الإمبراطور قنسطانز في الغرب وتفكيره في نقل العاصمة:

أتاحت فرصة السلام مع المسلمين للإمبراطور قنسطانز الثاني التصدي للأزمة الدينية، حيث عاد الحديث عن الخلاف المذهبي بين أصحاب المشيئة الواحدة للمسيح والمشيين، كما تفاقم الخلاف مع بابا روما. وكان حل الإمبراطور قنسطانز الثاني لهذه المشكلة أن ألغى الصيغ الدينية السابقة، وجاء بصيغة دينية جديدة، عرفت باسم التيوس "Typos" ودخل في صراع مع البابا مارتن الأول، انتهى بإلقاء القبض على البابا، ووفاته منفيًا سنة ٦٥٦ م / ٣٦ بعد أن تعرض للسجن والمحاكمة^(١). وترك هذا التصرف من الإمبراطور ضد البابا وكنيسة روما ظلًا من الحقد والكراهية للإمبراطور حتى داخل القسطنطينية ذاتها^(٢).

وكان الإمبراطور قنسطانز الثاني قد رغب في إحداث تغييرات في من يخلفه على عرش الإمبراطورية، خاصة وأن شقيقه ثيودوسيوس Theodosius أخذ يطالبه بالاعتراف به ليكون إمبراطورًا مساعدًا أو قيصرًا. Princeps في الوقت الذي كان هو يسعى إلى حرمان شقيقه من هذا المنصب، ويخطط لإعطاء العرش لولده من بعده^(٣).

والواقع أن ذلك لم يكن بدعة جديدة أراد الإمبراطور ابتداعها، وإنما هو شيء مألوف في تلك الأيام أن يسعى الإمبراطور لخص أبنائه بالعرش بدلًا من إخوته، وحتى يقطع الإمبراطور قنسطانز الطريق على شقيقه قام سنة ٦٥٤ م / ٥٣٥ هـ بإعلان ابنه الأكبر قنسطانطين Constantine إمبراطورًا مساعدًا، وأتبع ذلك سنة ٦٥٩ م / ٣٩ هـ بتعيين ابنه الآخرين هرقلوس Heraclius تيريوس Tiberius في ذات المنصب^(٤).

(١) سبق أن تناولنا هذه الأحداث بالتفصيل عند الحديث عن الأوضاع الدينية في فترة الإمبراطور قنسطانز الثاني، انظر ص (٩٨)

(٢) Ostrogorsky, Op. Cit., P.121.

(٣) Ibid

(٤) Holdon, Op. Cit., P. 67.

ويبدو أن ذلك أغضب شقيقه ثيودسيوس، فأساء الإمبراطور الظن به فسأمر بإدخاله سلك الرهينة، وأودعه أحد الأديرة^(١)، ليتبع ذلك باتهامه بالتآمر سنة ٦٦٠ م / ٤٠ هـ، ويأمر بإعدامه^(٢).

وأثارت هذه الأزمة، والتي انتهت بمقتل شقيقه، العاصمة البيزنطية، وبدأت الكراهية تزداد للإمبراطور، وبدأ يشعر بها ويتدهور شعبيته بين الناس الذين أخذوا يطلقون عليه اسم "قابيل"^(٣)، وأثرت هذه الحالة على مشاعره وهو أجسه وأقضت منامه^(٤).

وكنتيجة مباشرة لهذه التطورات وبالإضافة إلى فشل معظم مشاريع الإمبراطور قنسطانز الثاني في التصدي للمسلمين، ومحاولة استخلاص الأراضي البيزنطية منهم، وخاصة هزيمته الكبيرة في موقعة ذات الصواري، إلى جانب هزائمه البرية التي تعرضت لها جيوش الإمبراطورية أمام المسلمين^(٥)، وفشله في مواجهة الأوضاع الداخلية التي أحاطت به من عدااء محكم من قبل الأرثوذكس الذين كرهوا الاستسلام للتسوية الدينية التي جاء بها، وقيامه بمصادرة الكثير من ممتلكاتهم والتضييق عليهم^(٦)، وكذلك الآثار التي تركها المصير الذي انتهى إليه البابا مارتين وغضب الناس لهذا المصير - رغم الخلاف المذهبي - حيث انتهت

(١) أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٥٧.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P.121 وينكر جيبون أن امر الإعدام تم سنة ٦٦١م، Gibbon, Op. Cit., Vol. II, P.783 بينما تذكر موسوعة كمبردج للعصور الوسطى، أن ذلك تم سنة ٦٥٩م، Camb. Med. Hist. Vol. II, P.349، ويبدو أن التاريخ الذي ذكرناه في المتن هو الأقرب للدقة حسب تسلسل الأحداث.

(٣) Theopones, Op. Cit., P.490.

(٤) يذكر الدكتور أسد رستم أن الإمبراطور قنسطانز ثار ضميره، وأصبح يتراءى له في منامه أخاه حاملاً كأمًا من دمه ويقول له: يا أخي اشرب. الروم، ج ١، ص ٢٥٧.

(٥) عائشة أبو الجدايل، المرجع السابق، ص ١٨١.

(٦) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I, P.224.

حياته في المنفى وسط الأسر والجوع^(١)، وجاءت العملية الأخيرة بقتل شقيقة ثيودسيوس^(٢)، كل هذا دفع بالإمبراطور قنسطانز الثاني لاتخاذ قراره بمغادرة العاصمة بعد أن أصبحت شعبيته أمام المواطنين والجنود في الحضيض، ولم تعد القسطنطينية مكانا آمنا لحياته^(٣).

وتم تبرير مغادرة قنسطانز للعاصمة، تحت غطاء دبلوماسي، هو رغبة الإمبراطور في زيارة الأماكن الأكثر أهمية في ممتلكات الإمبراطورية في الغرب^(٤)، وإذا كان هروب الإمبراطور من عاصمته جاء كحل للأوضاع الداخلية المتأزمة إلا أنه حمل دلالة أخرى هامة، وهي تمسك الإمبراطورية بأملها في الغرب، وأن الوحدة بين جزئي الإمبراطورية الشرقي والغربي لا زالت قائمة ومستمرة، رغم الأوضاع المتغيرة في الغرب، وأن البيزنطيين إلى هذا الوقت لم يكونوا يفكرون بالاكتهاء بالشرق وتركيز جهودهم عليه^(٥). على أن ذلك كله لا يجعلنا نغفل أن هناك فعلا تحركات حدثت في الغرب، استدعت تحركا من الشرق، للمحافظة على بقية الممتلكات البيزنطية في أوروبا، فقد أعلنت صقلية عصيانها على الإمبراطورية البيزنطية، نتيجة للخلاف المذهبي^(٦)، وفي إيطاليا تحرك اللمبارد^(٧) Lombards بالثورة في وجه بيزنطية واستولى على جنوة ومعظم إقليم

(١) الناصري، الروم، ص ٢٣١، Camb. Med. Hist. Vol. II, P. 394.

(٢) المنبجي، مصدر سابق، ص ٧٠.

(٣) Camb. Med. Hist. Vol. II, P. 394.

(٤) Ostrogorsky, Op. Cit., P. 122.

(٥) Oman, Op. Cit., P. 169.

(٦) أرشيبالد لويس، القوى البحرية، مرجع سابق، ص ٩٣.

(٧) اللمبارد أو Longbeard، أي أصحاب اللحي الطويلة، لأنهم كانوا يتركون لحاهم على سجيتهما ولا يحلقونها، أو أصحاب الفؤوس الطويلة، إحدى القوميات المتبربرة التي بدأت تحركاتها من شمال أوروبا منذ فترة مبكرة من تاريخ الإمبراطورية الرومانية، وعندما قام الإمبراطور جستنيان في أعقاب انتصاراته في إيطاليا بإجلاء القوط الشرقيين منها، أصبحت إيطاليا خالية من أي قوة مدافعة عنها، وبعد ثلاث سنوات من وفاة الإمبراطور جستنيان الأول سنة ٥٦٥م، تعرضت إيطاليا لهجمة عنيفة من اللمبارد الذين استقروا بها وبدأوا يسيطرون عليها، ودخلوا النصرانية على المذهب الأريوسي. لمزيد من التفاصيل عن تحركات وحروب اللمبارد انظر: د. محمود محمد الحويري: اللمبارديون في التاريخ والحضارة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٦م، عدة صفحات.

ليجوريا البيزنطى فى جنوب شرق إيطاليا^(١)، كذلك هاجم نوق بنفنتيوم Beneventum اللباردى ممتلكات الإمبراطورية فى جنوب إيطاليا^(٢).

فتوقيع معاهدة سلام مع المسلمين، وتردى الأوضاع الداخلية فى القسطنطينية، والمخاطر التى أمت بالأجزاء الغربية مع الإمبراطورية تضافرت جميعها لدفع الإمبراطور قنسطانز الثانى لاتخاذ قراره بمغادرة عاصمته، والتوجه نحو الغرب.

وهناك خلاف بين المؤرخين حول حقيقة هدف الإمبراطور من ترك العاصمة والانتقال منها إلى الغرب: هل هو انتقال استراتيجى وكامل للعاصمة البيزنطية؟! وبالتالى إحداث نقلة كبيرة فى سياسة الإمبراطورية وتوجهها^(٣)؟ أم هو العمل على إنشاء مركز ثان للإمبراطورية فى الغرب كما كان الحال فى القرن الرابع الميلادى، أملا فى إيقاف المد الإسلامى البحرى، والتصدى لتوسعات اللباردى فى إيطاليا^(٤)، وأن يكون هذا المركز الثانى رديفا للعاصمة القسطنطينية، ونقطة أخرى من نقاط تمركزها وحفاظها على أجزائها المستهدفة؟

على أية حال ومهما كان الهدف الذى استقر عليه تفكير الإمبراطور، فقد توالى الاستعدادات لانتقال قنسطانز وتحقيق هذه الخطوة الجريئة التى لم تتخذ من قبل.

وفى عام ٦٦٢ م / ٤٢ هـ غادر الإمبراطور قنسطانز الثانى العاصمة البيزنطية على رأس جيش كبير قوامه عشرون ألفا من قوات آسيا الصغرى وجزء كبير من الأسطول البيزنطى^(٥).

(١) الحويرى، المرجع السابق، ص ١٠٦.

(٢) أرشيبالد لويس، القوى البحرية، مرجع سابق، ص ٩٤.

(٣) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I, P. 223.

(٤) حسنين ربيع، الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ٨٨، رانسيمان، مرجع سابق، ص ٤٠.

(٥) أرشيبالد لويس، القوى البحرية، ص ٩٤.

وكانت مدينة تسالونيك Thessalonica في بلاد البلقان هي أول مدينة توقف فيها الإمبراطور، ومنها توجه إلى أثينا Athens حيث استقر بها فترة أطول ليوالى فيها استعداداته لمهاجمة اللمبارد. ثم انتقل عام ٦٦٣ م / ٤٣ هـ إلى مدينة تارنيتوم Tarentum والتي اتخذها قاعدة لشن هجماته على اللمبارد^(١).

في تلك الأثناء كان اللمبارد قد استطاعوا توحيد صفوفهم في أعقاب الصراع الذي ساد في مملكتهم بعد وفاة ملكهم اريبرت الأول Aripert (٦٥٣ - ٦٦٢ م / ٣٣ - ٤٢ هـ) والذي أوصى قبل موته أن يخلفه على العرش ولداه جودبرت Godebret وبركتارت Perctarit، وهو أمر لم يحدث من قبل في مملكة اللومبارديين^(٢). وما لبث الصراع بعد وفاة أريبرت الأول أن نشب بين الأخوين وتطورت الأمور إلى قيام الحرب بينهما، واستغل الأمر جريمولد Grimwald دوق بنفنتيوم القوى، والذي حاول كلا الأخوين اكتسابه إلى جانبه، وانتهى الأمر بقيام جويمولد بقيادة حملة إلى بافيا Pavia التي كان يتحصن بها جودبرت، حيث تغلب عليه وقام بقتله، وانتزع العرش منه^(٣). وعندما سمع الأخ الثاني بركتارت بذلك لاذ بالفرار إلى منطقة الدانوب حيث لجأ إلى الآفار. ولم يلبث جريمولد أن تزوج من أخت جودبرت ونادى بنفسه ملكا على اللمبارديين في بافيا سنة ٦٦٢ م / ٤٢ هـ. وعهد لابنه روموالد Romuald بحكم دوقية بنفنتيوم نيابة عنه^(٤).

في ظل هذه الأوضاع العسكرية والسياسية قاد الإمبراطور جيشه لمحاربة اللمبارد في إيطاليا. ومنذ تحركه من تارنيتوم استطاع تحقيق انتصارات سريعة حيث استسلمت له عدة مدن وحصون دون شروط، إلى أن ظهر أخيرا أمام بنفنتيوم وبدأ حصاره الطويل لها^(٥).

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.394 ; Ostrogorsky, Op. Cit., P.122

(٢) Oman, Op. Cit., P. 205 ويذكر أومان أن عادة تقسيم المملكة بين أبناء الملك المتوفى كانت من الحقائق الأساسية في تقاليد الشعوب الجرمانية، وعلى وجه الخصوص الفرنجة ولكنها بالنسبة للومبارديين كانت أمرا غريبا لم يألفوه، وكانت هذه هي المرة الأولى.

(٣) الحويرى، اللمبارديون، مرجع سابق، ص ١٠٧.

(٤) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.294

(٥) Ostrogorsky, Op. Cit., P.122

وكان رموالد - دوق بنفنتيوم - قد أدرك صعوبة موقفه، وعجز قواته عن التصدي للأسطول والجيش البيزنطي، لذلك سارع بإرسال رسالة عاجلة إلى والده في بافيا، حملها أهم شخصيات الدوقية معلم روموالد وأستاذه، سيزوالد Seswald والذي قدم تقريراً عن المخاطر التي تتعرض لها المملكة جراء هذا الهجوم البيزنطي^(١).

وسارع الملك جريموالد لإنقاذ دوقيته، دون أن يعبأ بترتيب الأمور في بافيا، حيث غادرها مسرعاً على رأس جيشه لإنقاذها من الحصار البيزنطي، وأضر به ذلك حيث أخذ العديد من جنده ينفذون من حوله، بعد أن راجت الشائعات عن عدم عودته إلى بافيا مرة أخرى، ولكنه لم يكثر لذلك^(٢).

وسارع جريموالد بإعادة سيزوالد إلى ابنه في بنفنتيوم ليخبره بأنه في الطريق لنجدته، ويحثه على الثبات في وجه الإمبراطور وعدم الاستسلام للحصار البيزنطي، ولكن لسوء الحظ وقع المبعوث أسيراً في يد الإمبراطور فنسطانز، وبعد التعذيب كشف عن مهمته، وطلب منه أن يرسل إلى دوق بنفنتيوم بأنه ليس في وسع والده مساعدته ويحثه على الاستسلام، ولكن سيزوالد رفض القيام بهذا الدور، فصدرت تعليمات الإمبراطور بقتله وإلقاء رأسه من آلة منجنيق إلى داخل أسوار بنفنتيوم، حيث استقبلها روموالد بالدموع والقبلات، إلا أنه رفض الاستسلام^(٣) واستمر في صموده حتى بعد أن علم أن أخته جيسا Gaisa قد وقعت أيضاً رهينة في يد الإمبراطور^(٤).

(١) Stephenson, medieval History Op. Cit., P.183

(٢) الحويري، اللبارديون، المرجع السابق، ص ١٠٨.

(٣) Oman, Dark Ages, Op. Cit., P. 208

(٤) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.394

والواقع أن الإمبراطور قنسطانز شعر أن الوسائل العسكرية المتاحة له لم تكن تعينه على القيام بعملية حصار طويلة الأمد، كما شعر أن متطلبات ذلك ستكونه كثيرا من الموارد المالية، التي كانت تمثل له عبئا كبيرا وتثقل كاهل شعبه وخزائنه، وكان قد بدأ يلمس نقص هذه الموارد، ووصل إلى قرار بصعوبة البقاء تحت أسوار بنفنتيوم، وزاد تحسبه من وصول جريمولد إلى بنفنتيوم بجيشه، لذلك رفع الحصار^(١)، وعند عودته وفي محاولة لمهاجمة كابو Capua تعرض لهزيمة دفعت به إلى العودة إلى نابولي Naples لقضاء الشتاء^(٢).

وفي ربيع ٦٦٣ م / ٤٣ هـ أرسل الإمبراطور قائده الفارسي سابور Sapor في غزوة سريعة، ولكن سابور استطاع أن ينجو بعد أن واجه رومالده وهزم هزيمة فادحة في منطقة تدعى فورنيوم^(٣) Forinum.

ويبدو أن الإمبراطور قنسطانز الثاني قد شعر أن أثر تواجده في الجزء الغربي من الإمبراطورية لن يكتمل إلا بزيارة العاصمة القديمة روما، وأن هذه الزيارة ستعالج تلك الآثار التي تركها الخلاف الديني بين كنيسة روما والقسطنطينية، وما نتج عنه من وفاة بابا روما مارتن الأول منفيًا سجينًا في خرسون، واتهام الإمبراطور قنسطانز بأنه تسبب في هذه النهاية المأساوية للبابا. لذلك سرعان ما غادر الإمبراطور نابولي ليصل إلى روما في ٥ يوليو ٦٦٣ م / ٤٣ هـ، وهناك استقبل من قبل البابا فيتاليان (٦٥٧ - ٦٧٢ م / ٣٧ - ٥٢ هـ)، والذي سبق وأن جرت المصالحة بينه وبين الإمبراطور وكنيسة القسطنطينية^(٤). وشارك في الاستقبال عدد كبير من رجال الكنيسة في روما، الذين قدموا للإمبراطور فروض الولاء والطاعة، وتم الاستقبال على بعد ستة أميال من أسوار روما، حيث رافقوه إلى العاصمة القديمة التي أصبحت أطلالا^(٥).

(١) Ostrogorsky, Op. Cit., P.122.

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.394.

(٣) Ibid

(٤) سبق أن ناقشنا تفاصيل ذلك عند الحديث عن الأوضاع الدينية في عهد قنسطانز الثاني، ص (١٠٤).

(٥) Ostrogorsky, Op. Cit., P.122.

واعتبر قنسطانز أول إمبراطور بيزنطى يزور العاصمة القديمة للإمبراطورية بعد سقوط الجزء الغربى فى يد البرابرة سنة ٤٧٦ م وزوال سيطرة بيزنطية على روما وأحاء مختلفة من الممتلكات الغربية^(١).

وقد استغرقت زيارة الإمبراطور قنسطانز لروما اثنى عشر يوما، أمضاها فى المشاركة فى الاحتفالات والطقوس الدينية^(٢). ورغم الأهداف التى سعى إليها الإمبراطور من هذه الزيارة، والأجواء الطيبة التى حاول أن يبثها خلال أيامها إلا إنه حدث ما عكر أجوائها وانتقص من أهدافها، ذلك أن الإمبراطور قنسطانز لم يتورع عن نهب كثير من التحف والآثار الثمينة والزخارف البرونزية التى وجدها فى روما، وأرسلها إلى القسطنطينية^(٣). وهكذا انتزع الإمبراطور الطمانينة من روما^(٤) فى الوقت الذى لم يغفر له الإيطاليون ما فعله بالبابا مارتن، الذى اعتبروه شهيدا. ويبدو أن الإمبراطور شعر خلال هذه الزيارة بخطورة ازدياد نفوذ البابوية، وعمل على قمع هذا النفوذ، وفى محاولة لتقليل أظافر البابوية، منح رئيس أساقفه راقنا حق الاستقلال والانفصال عن كنيسة روما، وعدم الخضوع لسلطانها الروحى، وقد استمر هذا الانفصال بين روما واسقفية راقنا - وكانت عاصمة الإمبراطورية البيزنطية فى الغرب ومقر ممثليها - زهاء عشرين عاما، حتى انتهى بعودة راقنا إلى حظيرة البابوية^(٥).

(١) تختلف المراجع فى تحديد المدة التى لم تشهد فيها روما إمبراطورا من أباطرة بيزنطة، فيقدرها أومان على سبيل المجاز بمائتى سنة (Oman, The Byzantien Empir, Op. Cit., P. 169)، بينما تقدرها موسوعة كامبردج للعصور الوسطى بأنها ١٩٠ سنة. وإذا أرجعناها لسنة سقوط روما فى يد القوط الشرقيين فإنها تكون بالتحديد (١٨٧) عاما. كما أن أومان يذكر تاريخا مختلفا للزيارة إذ يجعلها عام ٦٦٤م وهو ما تخالفه فيه معظم المراجع التى تعيدها إلى عام ٦٦٣م.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 122.

(٣) Oman, The Byzantien Empir, P. 169.

(٤) Camb. Med. Hist. Vol. II, P. 394.

(٥) د. سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، مرجع سابق، ج ١، ص ١٥٣، الحويرى، للمبارديون، مرجع سابق، ص ١٠٨.

والواقع أن البابوية في فترة ولاية البابا فيتاليان، وحكم قنسطانز قد شهدت ضعفا كبيرا وتراجعا في نفوذها، على عكس ما كان متوقعا أن تكون عليه الحال نتيجة للظروف العصيبة التي كانت تمر بها الإمبراطورية أواخر عهد الإمبراطور قنسطانز. فلو كان هناك رجل قوى على رأس الكنيسة الغربية، يستطيع استغلال فترة الانكسارات التي مرت بها الإمبراطورية، ويستفيد من القوى المحلية التي ظهرت في إيطاليا، لوقف من الإمبراطور قنسطانز موقفا صلبا وعنيدا، ولربما أدى الأمر إلى التبكير في ظهور النزاع الخطير الذي نشب بين البابوية والإمبراطورية بعد ذلك بوقت قصير^(١). ولكن البابا فيتاليان كان ضعيفا ويخشى أن يتعرض للمصير الذي تعرض له سلفه مارتن من قبل، فأثر الاستسلام والخضوع الأمر الذي أجل وقوع الصدام بين روما والقسطنطينية إلى فترة لاحقة.

على أية حال استغرقت الزيارة الإمبراطورية لروما اثني عشر يوما، وفي السابع عشر من يوليو ٦٦٣ م الرابع من ربيع الثاني ٤٣ هـ غادرها الإمبراطور متوجها إلى نابولي، وسرعان ما غادرها بحرا إلى جزيرة صقلية Sicily التي كانت بحاجة إلى تقوية دفاعاتها ضد الهجمات الإسلامية التي كانت تتعرض لها. وهناك اتخذ من عاصمتها سيراكوز Syracuse^(٢) مركزا لدولته في الغرب^(٣). ويذكر أحد المؤرخين أن الإمبراطور عندما استقر به المقام في سيراكوز فكر في أن يتخذها عاصمة للإمبراطورية، وهي خطوة لو تمت لربما تغير وجه التاريخ الأوروبي بشكل أساسي^(٤).

(١) Oman, The Dark Ages, P. 227.

(٢) وسماها المسلمون فيما بعد عندما فتحوها باسم سرقوسة.

(٣) Ostrogorosky, Op. Cit., P.122.

(٤) وسام فرج الإمبراطورية البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٦١.

ويمكن القول أنه ليس هناك من المعطيات ما يؤكد أن الإمبراطور - باستقراره في صقلية، وإرساله في طلب زوجته وأبنائه من القسطنطينية إلى مقره الجديد^(١) - كان يهدف إلى نقل عاصمة الإمبراطورية من القسطنطينية إلى سيراكوز، إذا أن الأمر لا يعدو أن الإمبراطور كان يشعر بحاجة هذه المناطق التي أصبحت عرضة للهجمات اللباردية، والإسلامية إلى الدفاع عنها، ومحاولة تركيز هذا الدفاع بتواجده هناك حتى لا تصبح معبرا جديدا للهجمات الإسلامية إلى جوف الإمبراطورية من جانبها الجنوبي أو الغربي، ثم أن الإمبراطور ولو أراد فعلا أن ينتقل بالعاصمة إلى الغرب انتقالاً نهائياً، فربما كان من الأجدى والأكثر واقعية أن يختار روما، العاصمة القديمة والتاريخية للإمبراطورية.

كما أن تفكير الإمبراطور قنسطانز للانتقال إلى صقلية لم يكن عملاً لا سابق له، فقد فكر في هذا الانتقال (التكتيكي) أو المؤقت الإمبراطور هرقل، ومن قبله الإمبراطور موريس، عندما تعرضت الإمبراطورية وبالتحديد عاصمتها لأزمات أمام الفرس والآفار^(٢).

كذلك فالواقع الجديد الذي أضحت عليه الإمبراطورية ابتداء من القرن السابع الميلادي، بتحولها بشكل تدريجي إلى الهلينية (أى اليونانية) لغة وثقافة، وإلى الشرق عسكريا واقتصاديا^(٣). والخلاف مذهبياً مع الجزء الغربي، كل ذلك يضعف من الجزم بأن الإمبراطور قنسطانز كان يفكر فعلاً في إحداث انتقال نهائي وحاسم للعاصمة من الشرق إلى الغرب. وأن الأمر لا يعدو أن يكون بحثاً عن مركز دفاع ثان للإمبراطورية أو بالأحرى تقوية الجبهة الغربية من الإمبراطورية البيزنطية، ضد هجمات أعدائها^(٤)، والتي شهدت تركزا في ذلك الوقت من الجانب الغربي والجنوبي - كما هو الحال في الجانب الشرقي - وكذلك محاولة للتصدي

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.395.

(٢) الباز العريني، الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٤٧.

(٣) هسي، العالم البيزنطي، مرجع، ص ١٢٥. والجدير بالذكر أن التحول إلى الهلينة ونعني بها التحول إلى الحضارة الهلينية أو اليونانية الإغريقية قد بدأ في أواخر عهد الإمبراطور هرقل كما ذكرنا في ص ٧.

(٤) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I, P.224.

لانتفاص اللبارد للإمبراطورية ومحاولة التوسع على حسابها استغلالا للفراغ العسكري البيزنطي هناك، ومحاولات البابوية الحثيثة للانفراد بحكم الجزء الغربي وإحكام السيطرة عليه.

لقد كان واضحا ابتداء من القرن السابع الميلادي أن الروابط بين الشرق والغرب قد أخذت تضعف ويزداد التباعد بين الجزأين.

ويرى أحد المؤرخين أن العرب وتسربهم إلى بحر الروم وتفوذهم فيه وبالذات في المنطقة الوسطى من هذا البحر، هو السبب الرئيسي في ضعف تلك الروابط^(١)، بينما يرى آخرون أن التواجد السلافي في البلقان هو الذي صنع هذا الحاجز بين الشرق والغرب والقضاء على العلاقات الطبيعية بين الشطرين^(٢)، على أننا نرجح أن التباعد بين الشطرين كانت بذوره قد بدأت منذ فترة مبكرة وبالتحديد منذ السيطرة الفعلية للبرابرة على الجزء الغربي من الإمبراطورية ومحاولاتهم إقامة حكومات مستقلة بهم بعيدا عن حكم وسيطرة بيزنطة، وبروز الخلافات الدينية التي كانت تجذر هذا التباعد وتوسعه على أرض الواقع، وعندما أقبل القرن السابع أصبحت هذه القطيعة وذلك التباعد أمرا واقعا وملموسا في مختلف نواحي الحياة وأهمها اللغة والثقافة، فهل يعقل والحال كذلك أن يفكر الإمبراطور البيزنطي في الانتقال بعاصمته إلى وسط أصبح غريبا عنه، ولا يحمل له نفس الدرجة من التعلق والولاء؟!؟

ثم إن العاصمة البيزنطية - وهو الأهم - لم تكن تتعرض في تلك الأثناء لأخطار محدقة، تدفع إلى البحث عن موقع آخر يقوم مقام العاصمة، فلم تكن محاصرة بأعداء، كما حدث أيام هرقل، عندما كان الفرس على الضفة الأخرى من المضيق، واقعة تحت هجمات الآفار وحصارهم، والمسلمون لم يصلوا بعد في

(١) Henri Pirenne, Economic and social History of Medieval Europe. London 1961, P. 37.

(٢) على الغمراوي: مدخل إلى دراسة التاريخ الأوروبي الوسيط، ج٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٢٩٤.

هجماتهم على البيزنطيين إلى محاصرة العاصمة - كما سيحدث بعد فترة بسيطة - وإنما كانت العاصمة بمأمن تام، وأوضاع خارجية آمنة، فالمشكلة تعود إلى الإمبراطور قنسطانز نفسه، وعلاقاته بأركان الدولة والكنيسة وشعب بيزنطة.

ورغم كل ذلك فإن أهالي القسطنطينية والفعاليات السياسية والدينية في المدينة، خشيت من خطوة الإمبراطور هذه، وتأثيرها المستقبلي على عاصمتهم فحاولوا عرقلة طلب الإمبراطور، ومنعوا خروج أسرته من القسطنطينية وترأس هذه المعارضة أمين الخزانة أندريو Andrew والبطريرك ثيودور Theodore^(١).

ويبدو أن التوفيق قد حالف الإمبراطور قنسطانز في اختيار سيراكوز مركزا لحكمه في الغرب، فمنها استطاع أن يحكم سيطرته على جنوب إيطاليا ويوقف تهديدات اللمبارد، وكذلك تصدى للهجمات الإسلامية التي كانت تتطلق من مصر وجزر البحر المتوسط، كما أعاد السيطرة البيزنطية على شمال أفريقيا^(٢). إذ سرعان ما عادت إلى الطاعة البيزنطية بفضل ولاء بطريقها نيقفور، على حين فر جناديوس، خليفة جريجوري^(٣) (الذي يسميه العرب جرجير) الذي اغتصب الحكم في شمال أفريقيا، لاجئا إلى الغرب^(٤).

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.395; Oman, Op. Cit., P. 169; Theopanes, Op. Cit., P.489. أسد رستم، الروم، ج، ص ٢٥٧.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P.122.

(٣) المعروف أن جويجوري الذي كان قد أعلن انفصاله عن الدولة البيزنطية قُتل أمام المسلمين سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩م، وذلك أن المسلمين في أعقاب تدعيم حكمهم في مصر قد خرجوا في حملة بقيادة واليها عبد الله ابن سعد بن أبي سرح، واشترك فيها جماعة من الصحابة وأبناءهم، والكثيرون منهم يسمون عبد الله من أشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير ولهذا سمي هذا الجيش جيش العبالدة، وعند عاصمة ولاية إفريقيا والتي تسمى Sufeltula (سبيطلة) - وهي جنوب غرب المكان الذي سينشئ فيه المسلمون فيما بعد عاصمتهم القيروان - قتل جريجوري، وقام المسلمون بغزو العاصمة، وقرروا على السكان إتاحة كبيرة ثم انسحبوا إلى قواعدهم في مصر، ووقف المسلمون على حالة تلك البلاد، وأنه لم يعد للدولة البيزنطية قوة كبيرة بها. انظر عن هذه الحملة وأثارها، الطبري، ج ٤، ص ٢٥٤، ابن الحكم ١٨٥.

(٤) أرشيبالد لويس، القوى البحرية، مرجع سابق، ص ٩٤.

وظل قنسطانز خمس سنوات^(١)، ومنذ أن اتخذ سيراكوز مركزا له، يعمل على إعادة بسط سلطانه على الغرب. وعلى الرغم من أنه لم يحسم النزاع الديني بين الأرثوذكسية والمونوثولستية، فإنه أحرز بعض النجاح هناك، حيث ساد السلام في صقلية، وسائر الجزر التابعة لبيزنطة، لا سيما سردينيا، وتوقفت الهجمات اللمباردية، ورغم أنه لم يتم استعادة كل الأراضي البيزنطية منهم. إلا أن الإيطاليين لمسوا ما لبيزنطة من قوة بحرية وبرية^(٢).

ولا شك أن موقع سيراكوز، الذي يحتل مركزا متوسطا بين الأملاك البيزنطية في إيطاليا المهددة من قبل اللمباردين، وبين شمال أفريقيا الذي تعرض لغزوات المسلمين، ساعده على تحقيق هذا النجاح^(٣).

ولكن يبدو أن هذا النجاح كانت ضريبته كبيرة على بيزنطة، وعلى ولاياتها في الغرب، إذا أن تكاليف البلاط، والاهتمام بالجيش ودخوله عددا من المواجهات قد تطلبت مبالغ كبيرة أرهقت ميزانية الدولة، وأقاليمها في الغرب^(٤).

على أن الجدير بالذكر هنا أن قنسطانز الثاني، وهو منهمك في الجانب الغربي من إمبراطوريته، لم يهمل الجانب الشرقي منها، وحاول أن يكون على صلة بالأحداث، وتطورات الأمور في المعسكر المناوئ له وهم المسلمون، والاضطلاع بكل ما يمكن أن يفيد في نزاعه معهم. وشعر سنة ٦٦٦ م / ٤٦ هـ بأمن كافٍ في البر والبحر، سمح له بمعاودة النزاع مع معاوية؛ ففي ذلك العام

(١) يحدد الدكتور الباز العريني الفترة التي قضاها الإمبراطور قنسطانز الثاني في الغرب بعشر سنوات (الدولة البيزنطية، ص ١٤٧)، ويحدد أرشيبالد لويس (القوى البحرية، ص ٩٤) بأنها قرابة عشر سنوات. والواقع أننا لو حسبناها منذ استقرار الإمبراطور في سيراكوز إلى حين مقتله بها فسنجد أنها لا تتجاوز خمس سنوات.

(٢) أرشيبالد لويس، القوى البحرية، ص ٩٤.

(٣) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I, P.224.

(٤) Ostrogorosky, Op. Cit., P.123.

أرسل إلى الأراضى الداخلية فى سوريا رجالا وصلوا حتى فلسطين، وعرف هؤلاء باسم الجراجمة أو المردة Mardites^(١).

وجاء نزولهم إلى بلاد الشام وإمدادهم عن طريق البحر^(٢)، وبدأوا فى مشاغله الدولة الإسلامية وإثارة الاضطراب بها.

وكان معاوية بن أبى سفيان قد اصطدم بالجراجمة مبكرا، وذلك حين اتجه إلى تحصين العواصم والثغور بشمال الشام المتاخمة لأراضى الدولة البيزنطية، ووجد فيهم جماعة خارجة عن طاعة الدولة الإسلامية عرقلت تقدم مشروعاته فترة من الزمن^(٣). وكان استقرارهم فى جبال اللكام (Amanes) وكانوا تابعين قبل الفتح الإسلامى لبطريك أنطاكية وواليتها^(٤). وعندما فتح أبو عبيدة عامر بن الجراح أنطاكية سنة (١٧ هـ / ٦٣٨م) اعتصم أولئك السكان بجبال اللكام دون أن ينتبه المسلمون لخطورتهم، وأخذوا يحيون حياة مستقلة حياة شبه مستقلة فى صياصى

(١) سماوا الجراجمة نسبة إلى عاصمتهم الجرجومة، ويسمىهم العرب المردة لكثرة تمردهم وعصيانهم وقطعهم للطرق، ويطلق عليهم السوريون اسم الوقحين، والكلمة الفارسية التى سماوا بها merd تعنى الرجل الشجاع. وكانوا يسكنون فى الأصل منطقة جبال اللكام فى إقليم الثغور الشامية. وكانوا كثيرى التواطؤ مع الروم ضد المسلمين. وجندتهم بيزنطة وأطلقت عليهم حائط آسيا الصغرى النحاسى. ودخلوا فيما بعد فى عهد عبد الملك بن مروان فى بنود الاتفاقية التى أجراها مع الإمبراطور البيزنطى جستينان الثانى، وستعرض لهذه الاتفاقية فى حينه. والمعروف أن الباقين منهم تجمعوا فى جبل لبنان وهم أحد جنود المجتمع المارونى فى لبنان. انظر: عبد العزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة أمين توفيق الطيبى، الدار العربية للكتاب، بيروت ١٩٨٠م، ص ١٢٦، Vasiliev, Op. Cit., P.140، Bary, Op. Cit., Vol. II.P.317

(٢) أرشيبالد لويس، مرجع سابق، ص ٩٥.

(٣) العدوى، الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ١١٦. والعواصم جمع عاصم وهو المانع، والعواصم حصون موانع، و كان المسلمون يعتصمون بها من العدو، إذ انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر. وهى تعصم الثغور وتمدها فى أوقات النفير (يلى عبد المجيد، الثغور البرية الإسلامية، ص ٨)

(٤) البلائرى، مصدر سابق، ص ١٦٣.

الجبّال ولهم مدينة أشبه بالحاضرة وتسمى "الرجومة"^(١). واشتهر هؤلاء بأنهم كانوا عصاة لكل سلطة حاكمة في بلاد الشام، حتى منذ أيام نولة الرومان، وبأنهم أعداء شديداً للبأس^(٢).

وفي الفتح الثاني لأنطاكية الذي قاده حبيب بن مسلمة الفهري، آثر الجراجمة الهدوء مؤقتاً، وتجنبوا الصدام مع حبيب الفهري، وصالحوه على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وأن يؤخذوا بالجزية^(٣)، وبذلك أعفوا من الجزية واحتفظوا باستقلالهم الذاتي.

واستطاعت الدولة البيزنطية أن تجتذبهم إليها، بإغداق المنح المالية عليهم ووجهتهم لعرقلة جهود المسلمين، وغدوا وكلاءها في الأراضي الإسلامية.

ويبدو أن البيزنطيين شعروا بالتحرك الذي قام به معاوية بن أبي سفيان سنة ٤٣ هـ / ٦٦٣ م؛ حين قام بنقل أعداد كبيرة من الفرس من ديارهم وأقامهم في مدن سوريا وفلسطين الساحلية مثل صيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وعكا، وبعض المدن الأخرى^(٤)، لتعمير المدن الساحلية، وإحكام السيطرة عليها. فقاموا بتحريك أعوانهم المردة وبثهم في مدن سوريا لمشاغلة الدولة الإسلامية في عقر دارها، بعد أن كانوا يشاغلون على الحدود.

ويبدو أن هذا الإجراء البيزنطي، قد أزعج الدولة الإسلامية كثيراً واستغرق جهداً كبيراً من نشاطها للتعامل معه ولم تستطع التصدي له أو وقفه، إلا عن طريق الاتفاق السياسي، حين وقع الخليفة عبد الملك بن مروان اتفاقية مع الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني، كان من بين بنودها مغادرة المردة لمواقعهم الجديدة في بلاد الشام، وستعرض لهذه الاتفاقية في حينه.

(١) المصدر السابق، ص ١٦٦. أسد رستم، كنيسة أنطاكية، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٢.

(٢) فيليب حتى، تاريخ الشرق الأدنى، مرجع سابق، ص ١٤٩.

(٣) البلاغري، مصدر سابق، ص ١٦٦.

(٤) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج ٣، ص ٧٢.

اغتيال الإمبراطور في سيراكوز بصقلية:

وعودة إلى الإمبراطور قنسطانز الثاني، نجد أن مشروعاته وتحركاته قد أوجدت له أعداء في القسطنطينية وخارجها، وفي ابتعاد كثير من المواطنين عن تأييده وكان بقاءه في سيراكوز بعيداً عن عاصمته الرئيسية سبباً في تندي شعبيته. ففي ١٥ سبتمبر من عام ٦٦٨ م / ٢ شعبان ٤٨ هـ^(١)، دبرت مؤامرة لاغتيال الإمبراطور شارك فيها كثير من العائلات البيزنطية والأرمينية النبيلة، ونفذها واحد من أولئك الوصفاء الذين كانوا يحيطون بالإمبراطور، وهو ابن أندريو أحد وجهاء القسطنطينية إذ قام بوضع كمية كبيرة من الصابون على وجه الإمبراطور وهو يغتسل بقصد أن يعميه أو يحجب عنه الرؤية، ثم قتله بضربه بإبريق فضى على رأسه^(٢).

(١) يذكر استروجوسكى أن ذلك تم يوم ١٥ سبتمبر (Ostrogorosky, Op. Cit., P.123) بينما تذكر موسوعة كمبردج أن ذلك تم يوم ١٥ يوليو (Camb. Med. Hist. Vol. II, P.395). ويذكر الدكتور العدوي أن ذلك تم يوم ١٢ يوليو عام ٦٦٨ م. (العدوي، قوات البحرية العربية، ص ٨٠).

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.395. ويذكر أومان (Oman, Op. Cit., P. 169) أن قاتله كان اسمه دافن أندرياس Daphne, Andreas، وأنه ضربه بصندوق الصابون ثم فر هارباً، وكانت الضربة مميتة. ولا يذكر الدكتور أسد رستم الاسم ولكنه يذكر أنه كان خادم حمامه وأنه ضربه بصندوق من الصابون (أسد رستم، الروم، ج ٢، ص ٢٥٧). ويذكر المنبجي (مصدر سابق، ص ٧٠) "أن قنسطانز (ويسميه قسطوس) دخل الحمام، وأخذ بعض خدمه سطلا فضرب خطيماً مع صابون، وجعله على رأسه. فلما امتلأت (عيناه) غشاء من الخطمي والصابون لم يقدر على فتحهما. فتناول الخادم السطل فضرب رأسه فقتله، وبانر وخرج من الحمام هارباً ولم يدر به أحد، وليت الخدم ينتظرون خروج الملك، فلما طال جلوسهم وجاز الوقت ولم يخرجوا الحمام فوجدوه مغشياً عليه، فأخرجوه وعاش يومين ومات بعد أن ملك تسعا وعشرين سنة، ثم اجتمع الروم فملكوا عليهم بربريا جنسه من أرمينيا، وكان حكيماً ذا نجدة وبأس".

ونادى الجنود بأحد ضباط الأمن ويدعى ميزيزيوس Mezezius^(١) إمبراطورا، والذي لم يكن يتمتع بأى مواصفات سوى وسامته وأناقته، ولم يكن راغبا في هذا المنصب الرفيع^(٢)، ورغم ذلك فإن وصوله إلى العرش لم يكن مرحبا به في أى مكان آخر من الإمبراطورية.

واندلعت الفوضى في الإمبراطورية البيزنطية، حيث أصبح هناك إمبراطوران: مغتصب للعرش في صقلية، وابن الإمبراطور قنسطانز، (قنسطنتين) الذي كان في القسطنطينية وكان يطالب بالعرش، وبالانتقام من قتلة والده الإمبراطور.

وتختلف المصادر هنا في التصرف الذي تم لمواجهة الموقف، فبعضهم يذكر أن قنسطنتين - ابن قنسطانز - جرد حملة من القسطنطينية استطاعت الوصول إلى صقلية وقتل هذا المغتصب وأعوانه واسترداد الحكم^(٣). بينما يذكر آخرون أن جنود إيطاليا وبالذات أرخون رافنا، وسردينيا وأفريقيا، قد اتحدوا لإسقاط هذا المغتصب، حيث انهارت ثورته في فبراير ٦٦٩ م / محرم ٤٩ هـ. وواجه القاتل أندريو، وميزيزيوس نفسه، والمشايخين الرئيسيين لهما الموت، ومن بينهم البطريق جستيان الذي جدد أنفه^(٤). كما تم نقل جثمان الإمبراطور قنسطانز الثانى من صقلية إلى القسطنطينية حيث دفن في كنيسة أيا صوفيا^(٥).

وكان للمبارديون أكثر المستفيدين من فترة الفوضى التى دخلتها الإمبراطورية في أعقاب اغتيال الإمبراطور قنسطانز الثانى. فقد استغل ملك اللومبارد "روموالد" ذلك وخرج على رأس قواته للقضاء على القوات التى خلفها

(١) هكذا أورد الاسم استروجورسكى، وتورده موسوعة كمبردج بصيغة أخرى هي: Mzhezsh، وتورده الدكتورة عائشة أبو الجدايل بصورة أخرى هي: Nizizios نيزيزيوس.

(٢) Bury, Op. Cit., Vol. II, P.302

(٣) Theopanes, Op. Cit., P.491، وأيضا المنبجى، مصدر سابق، ص ٧١.

(٤) Ostrogorosky, Op. Cit., P.123، Camb. Med. Hist. Vol. II, P.395

(٥) Ibid

قنسطانز وراءه، فعجزت عن الصمود وولت هاربة، مما مكنه من النجاح فى الاستيلاء على مدن: تارنت وبرنديزى وكالابريا البيزنطية^(١). وكانت هذه المدن تشكل أهم ممتلكات الإمبراطورية فى إيطاليا.

كما أتاحت له هذه الأوضاع أن يعود إلى عاصمته «باثيا» التى غادرها لمواجهة هجوم قنسطانز على بنفنتيوم، وقام بالانتقام من أولئك الأمراء والأدواق الذين تخلوا عنه أو انقلبوا عليه أثناء صراعه مع الإمبراطور البيزنطى، كما كافأ أولئك الذين ساندوه، ووقفوا معه فى هذا الصراع، ومن هؤلاء "ترانساموند" دوق كابو، حيث زوجه من ابنته وأسند إليه دوقية سبوليتو^(٢).

والواقع أن هذه التحركات اللمباردية فى هذه الفترة، هى التى مكنت اللمباردين من التوسع والسيطرة ليصبحوا إحدى القوى الثلاث المسيطرة على إيطاليا، حيث كانت القوتان الأخريان: الإمبراطورية البيزنطية والبابوية.

ولا شك أن مؤامرة اغتيال الإمبراطور قنسطانز فى صقلية قد رسمت وأعدت أدوارها فى القسطنطينية، حيث كان العداء يتزايد تجاه الإمبراطور، فابتداء من الأزمة الداخلية التى ترك فيها القسطنطينية، حيث قتل أخاه وأعاد ترتيب أمور وراثته على العرش، إلى توجهاته الدينية ومعارضة الكثيرين لها، إلى هزائمه المتتالية أمام المسلمين وتصرفه المشين فى مواجهة بابا روما، إلى خروجه عن سيطرة رجال السناتو، وهم الذين لعبوا الدور الأهم فى وصوله وانفراده بالعرش، ثم ما لبث أن تنكر لهم، وحد من نفوذهم وسيطرتهم، ثم جاءت الطامة الكبرى حين أشيع أنه يفكر فى نقل العاصمة إلى الغرب واستشعار وجهاء وأعيان القسطنطينية لخطورة ذلك، وزيادة نفقات بلاطه فى سيراكوز، والمبالغ الكبيرة التى تكبدتها الخزينة الإمبراطورية نتيجة ذلك، ثم ما أخذ يتردد فى العاصمة عن سوء سلوك الإمبراطور فى الغرب.. كل ذلك أدى إلى النفور منه، وجعل عددا من العائلات الكبيرة البيزنطية والأرمينية تتصافر فيما بينها لتدبير وتنفيذ عملية اغتياله.

(١) Oman, Dark Ages, P. 274.

(٢) الحويرى، اللمباريون، المرجع السابق، ص ١٠٩

كذلك فإن سرعة مناداة الجنود البيزنطيين وبالذات الأرمن الذين كانوا يرافقون الإمبراطور في صقلية، بواحد منهم، لم يكن راغباً في العرش، دون انتظار للتعليمات من القسطنطينية، أو إقامة أى وزن للورثة الشرعيين للإمبراطور الذين كانوا يحكمون باسمه في العاصمة، تؤكد أنه حتى الجنود الذين كانوا يرافقون الإمبراطور كانوا ساخطين عليه وعلى استمرار الحكم في أسرته للقسوة التي تعرضوا لها أثناء المعارك في الغرب^(١)، لذلك عادوا إلى العادة القديمة بالمناداة بأحدهم ليكون إمبراطوراً.

وكاد العرش البيزنطي أن يخرج من أحفاد هرقل، لولا ذلك التصرف السريع الذي قاده أرخون رافنا الذي كان موالياً للإمبراطور قنسطانز، والذي تمتع بنفوذ كبير ومكاسب كبيرة أثناء فترة حكم قنسطانز، وجاء الوقت ليرد دينه للإمبراطور ولورثته من بعده، فعمل على توحيد القوات الأخرى في سردينيا وأفريقيا، واستطاع أن يجهض المحاولة الانقلابية التي استمرت عدة أشهر قبل أن يتمكن من القبض على المتآمرين والإمبراطور الدعوى وأعوانه.

وهكذا كما تسلم قنسطانز الثاني الإمبراطورية وهي على فوهة بركان وصراعات مع عمه هرقليوناس وأمه مارتينا، ولم يصفو له الحكم إلا بعد أن تم له الخلاص منهما، كذلك سلم الإمبراطورية إلى وريثه قنسطانطين الرابع، وهي واقعة تحت سيطرة إمبراطور مغتصب في الجزء الغربي من الإمبراطورية، وأعداء جدد يتهددونها ويتربصون بها.

لقد ورث الإمبراطور الجديد عن أبيه صراعه مع المسلمين الذي سيزداد وتزيد مخاطره، كما ورث منه الصراع مع البابوية الذي سيتفاقم وتتفاقم حدته، وليشهد أطواراً جديدة.

وستتعرض الإمبراطورية في عهدها الجديد لخطر جديد وداهم، هو خطر البلغار الذين سيقومون دولة لهم ستكون شوكة في خاصرة الإمبراطورية البيزنطية لقرون عديدة.

وهذا ما سيركز عليه الفصل التالي من هذه الدراسة.

(١) العدوى، قوات البحرية العربية، مرجع سابق، ص ٨٠.

الفصل الرابع

الإمبراطورية البيزنطية تحت حكم

قنسطنطين الرابع (المتحى)

(٦٦٨ - ٦٨٥ م / ٤٨ - ٦٥ هـ)

- إخماد الثورات التي نشبت بعد مقتل والده.
- الصراع مع المسلمين وحصار القسطنطينية، وأسباب فشله.
- الصراع البيزنطى / البلغارى.
- الإصلاحات الداخلية والدينية.
- مشكلة ولاية العهد، ونهاية حكم قنسطنطين الرابع.

إخماد الثورة التي نشبت بعد مقتل والده:

استطاع قنسطنطين الرابع، رغم صغر سنه، والذي لم يكن يتجاوز السادسة عشر من عمره^(١) أن يستعيد العرش من ثوار صقلية وأن ينفرد به، بعد أن جرد حملة عسكرية^(٢) أبحرت من القسطنطينية إلى صقلية استطاعت إلقاء القبض على الثائرين والمؤيدين لهم وإجهاض حركتهم. لقد استطاعت هذه الحملة التي قادها قنسطنطين، ابن الملك القتل، وولى عهده، أن تتكاتف مع الجهود المحلية والتي قادها أرخون راقنا للتصدي للثوار - كما سبق وأوضحنا - حيث تمكنت من إلقاء القبض على قاتل الإمبراطور قنساطنز الثاني، والإمبراطور المغتصب والحفاظ على العرش للوريث الشرعي، والذي سيعرف بقنسطنطين الرابع، كما سيعرف بصفة أخرى هي الملتحي (Pogonotus)، وذلك أنه عند عودته إلى القسطنطينية من صقلية لاحظ الناس أنه كان مرخيًا لحبته، والتي لم يحلقها منذ أن خرج من القسطنطينية مطالبًا بعرشه، فسماه الناس بالإمبراطور الملتحي^(٣)

(١) استطعنا أن نصل إلى هذا التحديد الزمني لسن الإمبراطور عند استلامه للعرش من مقارنة تاريخ وفاته والتي كانت سنة ٦٨٥م وبداية توليه الحكم سنة ٦٦٨م، والفترة التي قضاها في الحكم وكانت ١٧ عامًا، وعمره عند وفاته والذي بلغ ٣٣ عامًا، فبذلك يكون عمره عند اعتلائه العرش ستة عشر عامًا.

(٢) سبق أن وضحنا أن هناك خلافًا بين المؤرخين حول حقيقة استعادة الإمبراطور قنسطنطين للعرش، وهل كان نتيجة حملة عسكرية جردها قنسطنطين أم نتيجة لقيام أرخون راقنا متضامنًا مع جنود أفريقيا وسردينيا، وأشرنا إلى هذا الجهد، كما أشرنا إلى حملة الإمبراطور. والواقع. أن خروج الإمبراطور قنسطنطين من القسطنطينية على رأس حملة عسكرية، وعودته إلى عاصمته بعد عدة شهور مرخيًا لحبته حتى أنه سمي بالإمبراطور الملتحي تؤكد على قيام الحملة العسكرية، ولا يعنى ذلك استبعاد التنسيق بين الإمبراطور وبين أرخون راقنا لإجهاض المؤامرة. انظر. Ostrogorsky. Op. Cit., Vol. II, P. 123; Bury, Op. Cit., 123; والمنجى، مصدر سابق، ص ٧١.

(٣) أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٥٨. رانسيمان، الحضارة البيزنطية ص ٤٠.

والواقع أن قنسطنطينيين الرابع كان قد تمرن مبكرًا على إدارة أمور الحكم، منذ أن أعلن والده قنسطانز الثاني اختياره إمبراطورًا مساعدًا ووليًا للعهد عام ٦٥٤م/٥٣٩هـ^(١)، أخذ يشارك في الإدارة، وتأكدت هذه المشاركة حين غادر الإمبراطور قنسطانز الثاني سنة ٦٦٢م / ٤٢هـ، وترك لابنه الأكبر قنسطنطين أمر إدارة الدولة في العاصمة البيزنطية^(٢). وأتاحت هذه الفترة الطويلة لقنسطنطينيين الرابع أن يلم بأمور البلاط، وشؤون الدولة. ثم جاءت مبادرته السريعة للتعامل مع التأثيرين في صقلية الذين حاولوا انتزاع العرش وإعلان إمبراطور جديد من هناك، ومسارعتة لإعداد حملة عسكرية رغم الأوضاع المتردية في الشرق الأوسط، دليلًا على شجاعته وسرعة تعامله مع الأحداث، ولم تكن ثورة صقلية هي الثورة الوحيدة التي تصدى لها قنسطنطينيين الرابع، بل سبقها عصيان أو تمرد عسكري بقيادة سابوريوس Saborios قائد أرمينيا العسكرية، والذي استعان بالمسلمين لدعمه^(٣)، ففي سنة ٦٦٨م / ٤٨هـ اشتعلت ثورة سابوريوس، قائد أرمينيا لتضيق مزيد من الأخطار على الإمبراطورية البيزنطية، وأرسل سابوريوس سرجيوس Sergiuo أحد الخاضعين له إلى معاوية بن أبي سفيان خليفة المسلمين في دمشق، يطلب دعم الخلافة لعصيانه وتمرده^(٤)، وعندما سمع قنسطنطينيين - الذي لم يكن وقد انفرد بالعرش - بذلك أرسل أندريو Andrew حاملاً الهدايا إلى خليفة المسلمين، وملتمسًا منه دعم هذا العصيان، والتقى المبعوثان - البيزنطيان - في بلاط الخلفية بدمشق، وقرر الخليفة، انطلاقًا من مصلحته، الاستجابة لسرجيوس - مندوب سابوريوس - الذي حقر أندريو بأن دعاه خصيًا، وليس رجلًا^(٥) وعاد أندريو يجر أذيال الهزيمة إلى الإمبراطور.

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., Vol. II, p.121; Gibbon p. 783.

(٢) Vasiliev, op. Cit., Vol.I, p. 223، أسد رستم، مرجع سابق، ج١، ص ٢٥٨.

(٣) Theophanes, op. Cit., P. 488، أسد رستم، الروم، ج١، ص ٢٦١، كنيسة أنطاكية، ج٢، ص ٤٥.

(٤) Camb. Med. Hist. Vol. II, P. 396

Theophanes, op. Cit., P. 489(٥)

وكان قنسطنطين قد أعطى تعليمات إلى رجاله بإلقاء القبض على سرجيوس في طريق عودته إلى أمنيسيا Amnesia والتي كانت تقع في طريق يسيطر عليه رجال قنسطنطين، حيث تم إلقاء على سرجيوس، وأحضر كسجين وانتم منه أندريو بأنه جذع أنفه، وأخيراً تم شنقه^(١)

أما سابريوس فقد تقدم إلى هادريانوبوليس Hudrianopolis في إقليم بيثينيا - أحد أقاليم آسيا الصغرى - وأرسل معاوية بن أبي سفيان قائده فضالة بن عبيد الأنصاري لمساندته^(٢)، ولدراسة خطوط الدفاع البيزنطية، وقام قنسطنطين بإرسال قائده نيقفور يوس nicephorus للتصدي له. ولكن حدث أن سابريوس عندما كان يعتلى فرسه عند أحد الأسوار، أن جمح به وارتطم رأسه بإحدى البوابات مما تسبب في موته^(٣). وعاد رجاله إلى ولائهم للإمبراطورية البيزنطية^(٤).

أما فضالة والذي كان قد وصل إلى هكسابوليس Hexapolis فقد اضطر إلى طلب المدد من الخليفة، الذي أرسل إليه مدداً تحت قيادة يزيد بن معاوية في حين تحرك أسطول بحري بقيادة فضالة لدعم هذا الجيش^(٥).

واستطاع فضالة أن يكتسح المعقل البيزنطية التي اعترضت طريقه حتى وصل إلى مدينة خليقدونية Chalecdon، وكانت ضاحية من ضواحي القسطنطينية على الشاطئ الآسيوي، ومعقلاً لفيلق من الجيش البيزنطي مكون من الحرس الإمبراطوري الخاص، فأقام فيها فصل الشتاء الذي حل عليه بها^(٦).

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II, P. 347

(٢) الطبري، مصدر سابق، ج ٦، ص ١٣٠.

(٣) Theophanes, Op. Cit., P. 490

(٤) Camb. Med. Hist. Vol. II, P. 497

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٢٢٧.

(٦) العدوي، الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ١٦٣.

وخلال هذه الظروف المحيطة أعلن قنسطنطين الرابع إمبراطورًا على الدولة البيزنطية، بعد أن استطاع المحافظة على العرش، والقضاء على المتمردين والطامحين.

ويرى أحد المؤرخين أن صغر سن الإمبراطور، وقلة تجاربه، والفوضى التي سادت الإمبراطورية عند توليه العرش، سواء في الغرب أو في الشرق، هي التي شجعت المسلمين على استئناف قتالهم للبيزنطيين، والزحف على الولايات الشرقية للإمبراطورية^(١). ولكن رغم ذلك فإننا نجد أن الإمبراطور قنسطنطين الرابع تمكن من إخماد هذه الثورات، وبدأ يسرع في إعداد العدة للتصدي للمسلمين، دفاعًا عن عاصمته التي ولي عرشها، وسفن المسلمين تهدد بالوصول إليها.

(١) محمد محمد مرسى الشيخ، الإمبراطورية البيزنطية، مرجع سابق، ص ٩٨.

الصراع مع المسلمين، وحصار القسطنطينية وأسباب فشله:

يستدعى الأمر أن نلقى نظرة سريعة على الأوضاع في الدولة الإسلامية، فقد أسفر الصراع الذي نشب في أعقاب وفاة الخليفة عثمان بن عفان، وتولى بن أبي طالب رضى الله عنه الخلافة إلى تراجع المسلمين في صراعهم مع البيزنطيين واضطرار معاوية - الذى أعلن تمرده ومطالبته بالعرش - إلى طلب الصلح مع الإمبراطور قنسطانز الثانى - كما مر بنا - وخلال فترة تتجاوز العشر سنوات، سادت الدولة الإسلامية صراعات سياسية وعسكرية، تمخضت فى النهاية عن الدولة الأموية وعلى رأسها معاوية بن أبى سفيان سنة ٤١هـ / ٦٦٢م خليفة للمسلمين، وأصبحت دمشق القريبة من منطقة الصراع مع البيزنطيين عاصمة للدولة الجديدة. وكان ذلك مؤشراً إلى استتباب الأوضاع فى الدولة الإسلامية، وإيداناً باهتتاف الصراع مع الدولة البيزنطية.

والواقع أن المسلمين استغلوا انشغال الإمبراطور البيزنطى الثانى فى الغرب فى معالجة أوضاعهم وترتيب البيت الأموى، وعندما تم ذلك بدأ معاوية بن أبى سفيان يعمل على تصفية الموقف المعلق بين دولته والإمبراطورية البيزنطية، فمذ موقعة ذات الصوارى واستقرار أقدام المسلمين فى الشام ومصر دخل النزاع بين الطرفين مرحلة جديدة، فقد تخلت الإمبراطورية بعد هزيمتها فى ذات الصوارى عن محاولتها القديمة فى استعادة مصر والشام، وأصبح الموقف الجديد يحتم عليها تعديل سياستها بما يتلائم مع ظهور المسلمين كقوة عظمى على شواطئ بحر الروم الشرقية، ومن ثم كانت مسألة السيادة على البحر المتوسط هى شغل معاوية الشاغل، وحجر الزاوية فى سياسته إزاء القسطنطينية، والتي بدورها جهدت على منع المسلمين من التوسع البحرى^(١).

(١) العدوى، الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ١٦٢.

وقد تبلورت سياسة معاوية بن أبي سفيان البحرية منذ فترة مبكرة، فعندما كان واليًا على الشام، انهمك في وضع خطة للهجوم على الأراضي البيزنطية القريبة، فقد استولى المسلمون على قبرص ورودوس وكوس، وعندما أصبح خليفة أكمل من النقطة التي وصل إليها بالاستيلاء على جزيرة خيوس، ليحكم إحاطته بالعاصمة البيزنطية^(١).

وبدأ معاوية يستغل الظروف السياسية التي أضحت عليها الإمبراطورية البيزنطية في أعقاب انتقال قسطنطين الثاني إلى الغرب، ومقتله هناك، في تحقيق طموحاته ومشروعاته التي عمل جاهدًا على تحقيقها، ووفر لها جميع سبل النجاح، والتي كان منها الاهتمام بقيام صناعة السفن، وبناء أسطول إسلامي، وتحقيق التكامل والتنسيق بين أسطول الشام ومصر، وكذلك التنسيق بين الجيوش البرية والأساطيل البحرية^(٢).

وبدأ معاوية بن أبي سفيان جولته الجديدة من الصراع مع البيزنطيين بعدة حملات استطلاع، كان أولها حملة فضالة بن عبيد الأنصاري^(٣)، والتي وصلت إلى مدينة خلقيدونية واستولت عليها، حيث عسكر بها المسلمون واستطاعوا أن يتعرفوا عن كثب على تحصينات العاصمة البيزنطية.

وكانت الحملة الثانية بقيادة ابنه يزيد بن معاوية^(٤) والتي تم إعدادها إعدادًا يفوق ما سبقها من حملات، بحيث وفرت لها إمكانيات أكبر من الرجال والعتاد، بل

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 123.

(٢) نجدت خماش، بلاد الشام في صدر الإسلام، مرجع سابق ص ٢٠٦.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، مصدر سابق ج ٥، ص ٢٤١.

(٤) هناك من المؤرخين من يرى أن إرسال معاوية لابنه يزيد على رأس هذه الحملة لإعطاء ابنه الفرصة لكي يعلى مركزه واسمه في ميدان الجهاد ضد البيزنطيين، وليرد على الأشخاص الذين أبدوا انتقادهم وامتعاضهم من المحاولات التي بذلها معاوية لأخذ البيعة لابنه بالخلافة من بعده، إذ صورته الدعاية المعارضة بأنه أميل للمجون والخلاعة وعدم أهليته لتصرف شؤون المسلمين، وشعر معاوية أن ميدان الصراع مع البيزنطيين هو أفضل فرصة لابنه ليثبت عكس ذلك، ويحسن صورته لدى المعارضين. انظر: الطبري ج ٥، ص ٣٠٢. ويذكر ابن الأثير رواية أخرى لمشاركة يزيد بن معاوية في الحرب، فيقول: إن معاوية أمر ابنه يزيد بالمشاركة في الغزو فتناقل واعتل فأمسك عنه أبوه فأصاب الناس في غزوتهم جوع ومرض شديد فأنشد يزيد يقول:

وصحبها عدد من كبار الصحابة ومنهم ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب النصارى^(١).

وكان الهدف من مشاركة هؤلاء الصحابة إكساب الحملة طابع الجهاد المقدس، وتقوية روح الجند وبث الثقة والتفاؤل الطيب فى نفوسهم^(٢).

وانضم يزيد إلى قوات فضالة ومن هناك انطلقوا إلى الشاطئ الأوروبى حيث قابلتهم القسطنطينية بأسوارها العالية والحصينة^(٣).

ويذكر المؤرخون أنه أضاف إلى الحصانة الطبيعية التى تمتعت بها القسطنطينية لإحاطتها بالمياه من ثلاث جهات فإن أباطرة الدولة البيزنطية قد بالغوا فى تشييد الأسوار الضخمة حولها^(٤)، وكان السور الذى يحيط بالقسطنطينية عبارة عن ثلاثة أسوار وخذق. السور الداخلى منه حوالى ثمانية عشر متراً فوق سطح الأرض وعليه مجموعة من الأبراج الضخمة منها المربع والمثلث أو بشكل آخر، يصل ارتفاعها إلى حوالى ثلاثين متراً، وكانت المسافة بين كل برج وآخر تصل إلى أربعة وخمسين متراً، أما السور الثانى فكان يبعد عن السور الأول الداخلى بمسافة ثمانية عشر متراً، وهو أقل ارتفاعاً من السور الداخلى، ارتفاعه حوالى عشرة أمتار، وكانت عليه مجموعة من الأبراج ذات الأشكال المختلفة، وكانت

بالفرقدونة من حمى ومن موم

بدير مران عسدى أم كلثوم

ما أنا أبالى بما لاقت جموعهم

إذا اتكأت على الأنماط مرتفعاً

وأم كلثوم امرأته، فبلغ معاوية شعره فأقسم ليلحق بالمسلمين فى أرض الروم ليصيبه ما أصابهم، فسار ومعه جمع كثير أضافهم إليه أبوه. وتذهب هذه الرواية إلى أن مشاركة يزيد جاءت بإجبار من والده التى كان يهدف منها أهداف سياسية بعيدة المدى. أنظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٢٧.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨ ص ٣٢.

(٢) العدوى، الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ١٦٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٢٢٨.

(٤) Michael whiby, The long walls of constantionople, Byzantion, Tome IV, (٤) Bruxells, 1985, P. 561.

المسافة بين كل برج وآخر حوالى أربعة وخمسين مترًا، والسور الثالث أو الخارجى يبعد عن السور الثانى أو الوسط بحوالى اثنا عشر مترًا، وفى النهاية يوجد الخندق الذى تبعد نهايته عن السور الثالث بحوالى عشرين مترًا، ويمكن أن يملأ هذا الخندق بالمياه عند الضرورة^(١).

وفوجئ المسلمون بهذا التحصين الكبير الذى يحيط بالقسطنطينية ولكن ذلك لم يفت من عضدهم، فأخذوا فى محاصرة العاصمة البيزنطية بصبر وجلد، وأخذوا فى التضيق على سكانها، ومناوشة الجند وتبادل القتال معهم، وسقط عدد كبير من الشهداء المسلمين، كان فى مقدمتهم أبو أيوب الأنصارى، ودفن بالقرب من أسوارها^(٢)

وبعد سنة من الحصار، رفع المسلمون حصارهم عن القسطنطينية سنة ٥٤٩ / ٦٦٩م^(٣)، بعد أن حققوا عدة نتائج كان أهمها: التعامل عن قرب مع تحصينات القسطنطينية، وتقدير القوات والمعدات اللازمة لاختراق هذه التحصينات. وعاد الجيش الإسلامى إلى دمشق انتظارًا لجولة جديدة يكون المسلمون فيها أكثر استعدادًا فى الرجال والعتاد والخطط الحربية.

(١) د. محمود سعيد عمران، تحصينات مدينة القسطنطينية فى مواجهة الغزوات الخارجية، الحضارة الإسلامية وعالم البحار، (بحوث ودراسات) اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م، ص ٣١١

(٢) ابن كثير، ج ١، ص ٣٢. زهو يذكر رواية أخرى تحمل تاريخًا آخر لوفاة أبى أيوب الأنصارى، حيث يذكر أنه قيل أن أبا أيوب لم يمت فى هذه الغزوة بل بعدها سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث وخمسين، ويفرد ابن كثير بهذه الرواية، إلا أن هناك إجماعًا أن وفاته كانت فى حملة يزيد بن معاوية، وهو مدفون عند أسوار القسطنطينية وعلى قبره مزار ومسجد، معظم لدى المسلمين والبيزنطيين، وكان دفنه هناك بناء على وصيته حيث أوصى: "إذا مت فأدخلونى فى أرض العدو، فادفنونى تحت أقدامهم حيث تلقون العدو". ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨ ص ٥٩.

(٣) فتحى عثمان، الحدود، ج ١، ص ٣٦٠ وهو بعد الحصار الأول للقسطنطينية، وهو يعدد ثلاثة حصارات قام بها المسلمون للعاصمة البيزنطية.

لقد كان لعامل نقص الأغذية، والبرودة الشديدة، أثرها المباشر في جعل المسلمين يرفعون حصارهم عن القسطنطينية ويعودون أدرجهم إلى دمشق. وفي طريق عودتهم استولوا على عمورية Amorium، والتي كانت موقع عسكري هام ولم يتمكن المسلمون من الدفاع عنها، فما لبث البيزنطيون أن قاموا باستعادتها، حيث استغلوا الظلام والجليد الكثيف في مباغثة المسلمين وأحدثوا فيها مقتلة كبيرة دفعت المسلمين إلى مغادرتها^(١).

وكما كان لهذه الحملة، وحصار المسلمين للقسطنطينية نتائج هامة بالنسبة للجانب الإسلامي فكذلك كان لها نتائج أخرى على البيزنطيين. فقد انتابهم الخوف والقلق، وجعلهم يعيدون حساباتهم لمواجهة المسلمين، الذين اقتربوا هذه المرة من قلب الإمبراطورية وعاصمتها. وبدأوا يرسمون سياسة للتصدي للمسلمين، والتركيز على مزيد من التحصينات للعاصمة البيزنطية، ومحاولة عرقلة أي جهد إسلامي قبل أن يصل إلى أسوارها^(٢).

وقام البيزنطيون بتطوير نظام الثيمات الذي وضعه الإمبراطور هرقل عند بداية وصوله إلى الحكم في بيزنطة، وكان هذا النظام النواة لجيش وطني يدافع عن الإمبراطورية. وفي بداية حكم الإمبراطور قنسطنطين الرابع تم تكوين ثيمين جديدين هما: ثيم الأناضول Anatolie، وThim كبيرهايوت Cibraiots^(٣)، وضمهما إلى الثيمين أرمينيا، "الأرمينياك Armeniaakos"^(٤).

وكذلك اهتم الإمبراطور قنسطنطين الرابع بتخزين المواد الغذائية والمياه داخل أسوار القسطنطينية، لشعوره بأن الحصار الذي استمر طوال العام الأول من حكمه لن يكون آخر محاولات المسلمين لتهديد عاصمته^(٥).

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II, P. 393.

(٢) Michael whiby, op. Cit., P. 579.

(٣) Bury. op. Cit., Vol. II, P. 342.

(٤) Holdon. op. Cit., P. 194.

(٥) Oman, op. Cit., P. 171.

كما اهتم بوسائل الإنذار التي كانت تحتوى عليها أبراج أسوار القسطنطينية، وكذلك الاهتمام بتطوير وزيادة فاعليتها، وكانت عبارة عن نيران توقد على تلة أبراج مرتفعة للتحذير والإرشاد^(١) ووفرت هذه الوسائل للعاصمة البيزنطية نظام إنذار مبكر أمام الخطر، وكانت تعتمد على إرشادات خاصة يستطيع المتلقون والمراقبون من خلالها إيصال رسائل مفهومة وواضحة إلى العاصمة في أسرع وقت، وذات مدلولات متفق عليها.

وقد أنشأ هذا النظام مبكرًا في الإمبراطورية البيزنطية، وتم تطويره في فترة الصراع مع المسلمين، خاصة أثناء عمليات الحصار الطويلة التي تعرضت لها العاصمة من قبل^(٢).

كما قامت بتطوير أسلحتها للتصدي للمسلمين، ومنها سلاح "النار البحرية" والذي سيكون له أثره الفعال في حسم الصراع في هذه المرحلة، وسيأتي التفصيل عن هذا السلاح الخطير في حينه.

من جانب آخر فإن المسلمين واصلوا استعداداتهم الحربية على جبهتين، الجبهة البرية عبر آسيا الصغرى، والبحرية في البحر الأبيض المتوسط، وتكررت غزواتهم البرية والبحرية والتي تسمى بالشواتي والصوائف، وشارك فيها عدد كبير من القادة المسلمين، منهم بسر بن أرطاة، وفضالة بن عبيد الأنصاري، ومحمد بن مالك، ومعن بن يزيد السلمى، وجنادة بن أمية، وعبد الرحمن بن خالد، وسفيان بن عوف الأزدي، وغيرهم من القادة^(٣).

(١) مزيد من التفصيل عن هذا النظام وتطويره انظر البحث المفصل لـ:

Philip Patrenden, The Byzantine Early Warning System, Byzantium, Tome LIII, Bruxelles 1983, P.261.

Ibid, P. 263 (٢)

(٣) هناك خلاف بين المصادر الإسلامية عن السنوات التي قاد فيها هؤلاء القادة حملاتهم وأيهم كان أسبق للآخر، انظر الطبري، ج ٥ ص ٢٩٣، ٢٩٩، ٣٠٩، وأيضا ابن كثير، ج ٨ ص ٥٨، ٦١، ٦٦.

ففي سنة ٥٥٤ / ٦٧٣م^(١) فتح المسلمون شبه جزيرة قريبة من القسطنطينية تسمى "أرواد" على يد جنادة ابن أمية، ويسمونها البيزنطيون باسم "جزيرة كزيكوس Cyzicus".

والواقع أن فتح هذه الجزيرة القريبة من العاصمة البيزنطية، جاء في أعقاب حملة برية يؤازرها أسطول بحري، انطلقت لمهاجمة الأراضي البيزنطية، وعندما حل فصل الشتاء والقوات الإسلامية في طريق زحفها عبر آسيا الصغرى، ألقت السفن مراسيها على شاطئ قليقيا واستولت عليه، كما أقام أسطول آخر بالاستيلاء على سميرنا Smyrna (أزمير الحالية)^(٢)، وفي الربيع واصلت القوات البحرية تقدمها وتعزز الأسطول البحري بأسطول آخر، حيث استأنفت القوات جميعها زحفها نحو القسطنطينية^(٣).

وفي طريق عودة الأسطول من مهاجمة القسطنطينية، تم الاستيلاء على جزيرة كزيكوس، حيث قرر المسلمون اتخاذها مقراً لإدارة الحملات الإسلامية على القسطنطينية، مستفيدين من القرب الشديد لها من القسطنطينية، وما يمكن أن تمثله من قاعدة استراتيجية لتجهيز وراحة المقاتلين بعد حملاتهم على العاصمة البيزنطية.

(١) هكذا تذكر المصادر الإسلامية تاريخ فتح جزيرة أرواد "كزيكوس" وهي غير جزيرة أرواد القريبة من الساحل السوري، بينما تذكر المراجع الأوربية أن فتحها تم سنة ٦٧٠ م وهي تعادل سنة ٥٥٠. انظر: الطبري، ج ٥، ص ٢٩٣ وأيضاً: Ostrogorsky, Op. Cit., P. 124

Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 310; Camb. Med. Hist. Vol. II, P. 397.

وهناك من يذكر إن الذي فتح جزيرة كزيكوس هو عبد الرحمن بن خالد: العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص ١٧٢.

ويبدو أن سنة ٦٧٣م ٥٤ هـ هي الأنسب لتكون سنة فتح جزيرة كزيكوس حسب تسلسل الأحداث والهجمات على القسطنطينية، فمنذ تلك الفترة كانت الأساطيل تتطلق من هذه الجزيرة ثم تعود لتعسكر بها خلال فترة الشتاء، ولم نلاحظ قبل هذه الفترة أنه كان لها مستقر أو قاعدة تعسكر بها بجوار القسطنطينية، وإنما كانت تعود إلى السواحل السورية..

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.397; Ostrogorsky, Op. Cit., P124

ويذكر كلا المرجعين أن الاستيلاء على شاطئ قليقيا، وسميرنا تم في عام ٦٧٢م، وهو يؤكد ما ذهبنا إليه من ترجيح الاستيلاء على جزيرة كزيكوس سنة ٦٧٣م / ٥٤، بعد هذين العمليتين.

(٣) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 310

وابتداء من سنة ٥٤ هـ / ٦٧٣م أخذ المسلمون يركزون هجماتهم على القسطنطينية، مستفيدين من الإمكانيات التي وفرتها لهم جزيرة كزيكوس، وبذلك بدأ ما عرف تاريخياً بحرب السنوات السبع لحصار القسطنطينية، حيث كانوا يقضون فصلي الربيع والصيف في محاصرة القسطنطينية ومهاجمتها وفي الخريف والشتاء يعودون إلى كزيكوس^(١).

ويبدو أن البيزنطيون قد أزعجهم خروج جزيرة كزيكوس عن سيطرتهم، وتصميم المسلمين على مهاجمة عاصمتهم، وقاموا كرد فعل لكل ذلك ورغبة في الانتقام وشغل المسلمين عن مهاجمة عاصمتهم، بتجريد حملة في أواخر سنة ٦٧٣م / ٥٤ هـ هاجمت الشواطئ المصرية ونزلت بمدينة البرلس^(٢)، واستطاع والي مصر في تلك الفترة مسلمة بن مخلد، التصدي لهذه الحملة حيث خرج المسلمون إليهم في البر والبحر، واستشهد منهم جمع كثير^(٣)، ورغم كثرة الذين استشهدوا إلا أن هذه الحملة فشلت ولم يكن لها سوى تأثير ضئيل^(٤)، بل ربما كان لها تأثير

(١) أرشيبالد لويس، القوات البحرية، مرجع سابق، ص ٩٦ وهناك خلاف بين المؤرخين حول هذه الحروب، بعضهم يسميها حروب السنوات السبع (العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ١٢). (الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص ١٥٠)، (محمد مرسى الشيخ، الدولة البيزنطية، ص ٩٨) وبعضهم يحددها بخمس سنوات (د. وسام فرج، النار الإغريقية طبيعة تركيبها وأثرها في نشاط المسلمين الحربي، الحضارة الإسلامية وعالم البحار، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤م، ص ٢٨٧). وهناك من يحددها بأربع سنوات فقط (أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٦٢) ويعود السبب إلى أن البعض يحددها قبل الاستيلاء على كزيكوس، وبعضهم بعد الاستيلاء على جزيرة كزيكوس، والبعض الآخر يحددها منذ اشتدادها سنة ٦٧٤م إلى نهايتها سنة ٦٧٨م فلذلك يسمونها حرب الأربع سنوات فقط.

ولمزيد من التفاصيل عن هذا الخلاف أنظر الهامش رقم (٣) في تعليق مترجمي "حوليات ثيوفانيس":

Theophanes, Op, Cit., P. 444, not(3)

(٢) د. علية الجنزري، هجمات الروم البحرية، مرجع سابق، ص ٤٧ والبرلس بلدة على شاطئ النيل قرب البحر من جهة الإسكندرية. ياقوت الحموي، مصدر سابق ج ١، ص ٤٠٢.

(٣) الكندي الولاة والقضاة، مصدر سابق، ص ٢٨ ومن استشهد في ذلك اليوم وردان مولى عمرو بن العاص.

(٤) أرشيبالد لويس، مرجع سابق، ص ٩٦. الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص ١٤٩.

معاكس حيث جعلت المسلمين يصرون على التعامل مع القسطنطينية بشكل أكثر حدة، كما دفعت معاوية بن أبي سفيان إلى بناء أول دار لصناعة السفن بمصر، في جزيرة الروضة حيث تخصصت في بناء السفن الحربية. بوصول الصراع بين الدولتين إلى هذا الحد، اتضحت أهداف المسلمين في قتال البيزنطيين في آسيا الصغرى، وبرزت هذه الأهداف في تأمين الحدود ومحاولة التوسع داخل آسيا الصغرى والوصول إلى القسطنطينية وإسقاطها، وهذا ما حدث فعلاً، إذ أن المسلمين درجوا على عبور الممرات الجبلية من جبال طوروس الداخلية لتدمير القواعد والتحصينات البيزنطية، ثم أخذت شدة الإغارات تتطور إلى حملات عسكرية واسعة النطاق تجتاح معظم أقاليم آسيا الصغرى^(١)، في حين كانت استراتيجية الإمبراطورية البيزنطية في الشرق تستهدف إقامة منطقة حاجزة غير أهلة بالسكان بين أقاليم الإمبراطورية الشرقية والحدود الشمالية للدولة الإسلامية، ومن أجل تحقيق ذلك لجأت الإدارة البيزنطية إلى تدمير الحصون والقلاع الواقعة على الحدود الشرقية والجنوبية لآسيا الصغرى بدلاً من وضع حاميات فيها، وسرعان ما بدأ المسلمون من جانبهم ينشؤون التحصينات التي عرفت باسم "الثغور" في أطراف دولتهم لمواجهة للأقاليم البيزنطية لتكون حصناً يحمي دار الإسلام من جهة، ولتكون قواعد لشن الغارات^(٢)

وظهر في هذه الفترة، وفي ظل تكرار الهجمات الإسلامية أن هناك عجزاً من الدولة البيزنطية في وقف هذه الهجمات فضلاً عن التصدي لها أو الرد عليها، والواقع أن هناك أسباباً كثيرة أدت إلى هذا الموقف لعل منها:

(١) د. عبد الرحمن عبد الغنى، الحدود الإسلامية البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٣.
(٢) وسام فرج، الدولة البيزنطية مرجع سابق، ص ١٦٤ وأشار البلاذري كذلك (فتوح البلدان، ص ١٧٠) إلى سياسة الإخلاء التي اتبعتها بيزنطة في الأقاليم الحدودية، حيث لم يكن المسلمون يجدون أي أثر للبيزنطيين أو لمقاومتهم.

١- أن إعادة تنظيم أقاليم آسيا الصغرى، وتوزيع الفرق العسكرية البيزنطية بها - وهو تنظيم بدأه الإمبراطور هرقل في أعقاب هزائمه المبكرة أمام المسلمين وواصله خلفاؤه من بعده - كان لا يزال في مرحلة التكوين، ولم يكتمل إلا بعد فترة طويلة، وبالتحديد في عهد الأسرة التي تلت حكم الأسرة الهرقلية، ونتيجة لذلك فإن الإدارة البيزنطية اتبعت سياسة مغايرة في هذه الفترة المليئة بالصراع والتي تمتد من ٦٥٠ - ٦٩٠ /ض ٣٠ - ٧١ هـ كي تتجاوز محنة الغزو الإسلامي، وتتخلص هذه السياسة في العمل على تجنب الصدام المباشر بالجيوش الإسلامية تقادياً للهزائم التي لا بد وأن يتبعها استسلام المدن وضياعها من الإمبراطورية، خاصة وأن الغزوات الإسلامية كانت تتكرر كل عام وربما أكثر من مرة في العام الواحد، وكان معنى ذلك مزيداً من الهزائم وانهيار الروح المعنوية للجنود^(١).

٢- كما أن الفرق العسكرية التي أعدتها الإمبراطورية البيزنطية منذ منتصف القرن السابع الميلادي، لم تعتمد على الاحتفاظ بطابعها كجيوش قتال ميدانية تعسكر في منطقة حصينة وتستطيع التحرك بسرعة لمواجهة الخطر الذي يهدد منطقة أخرى، وسبب ذلك أن الظروف التي أحاطت بالإمبراطورية وقت الغزوات الإسلامية حتمت على الإدارة البيزنطية أن تقتصد في نفقاتها، وأصبح على الفرق العسكرية في كل إقليم أن تعتمد على ما يقدمه لها سكان الإقليم المحليين من مال أو عطايا عينية^(٢).

٣- ففي مواجهة كل ذلك، لجأت الإمبراطورية البيزنطية إلى نظام الإنذار المبكر، فالقوات العسكرية كانت موزعة على أقاليم آسيا الصغرى في القلاع والقرى والمدن، ومن الصعب تركيزها في مكان واحد، وأصبح الواجب على جنود كل منطقة إنذار السكان المحليين المعرضين للخطر والعمل على نقلهم بعيداً عن

(١) Holdon, Op. Cit., P.170.

(٢) Kaegi, Byzantine Miletary, Op. Cit., P. 103.

طرق الغارات الإسلامية^(١)، ومن ثم استخدم أسلوب حرب العصابات مع المغيرين، والتربص لهم في الممرات الجبلية أثناء عودتهم محملين بالغنائم ثم مهاجمتهم، وظلت هذه السياسة هي الأساس في خطة الدفاع البيزنطية لمواجهة غارات المسلمين، وهي سياسة فرضتها أوضاع وظروف الإمبراطورية البيزنطية وضرورة الاعتماد على الإمكانيات البشرية المحلية، وطبيعة الغارات الإسلامية، التي تتكرر كل عام، وهي سياسة أفادت إلى حد ما في التعامل مع الغزوات الإسلامية، وإن لم تستطع التصدي لها أو وقفها^(٢).

وانطلاقاً من هذه الأوضاع، استكملت الدولة الإسلامية خطتها لضرب الإمبراطورية البيزنطية في العمق، حيث أبحرت الأساطيل الإسلامية من مصر والشام، منضمة إلى تلك التي كانت تعسكر في جزيرة كزيكوس، لتشكل في مجموعها حملة عسكرية كبيرة جعلت كثيراً من المؤرخين يطلقون عليها "عمارة" بحرية كبيرة^(٣).

ولا يوجد حصر لعدد أو حجم السفن والقوات المشاركة في هذه الحملة، إلا أن هذا الوصف يجعلنا نجزم بأنها كانت حملة ضخمة، أثارت القلق في القسطنطينية.. على أن الإصلاحات التي أدخلها الإمبراطور قنسطنطين الرابع على أسوار العاصمة، وعدم استكمال الحصار حولها، حيث كانت ما تزال متصلة بالبحر الأسود، وكذلك بقيت الطرق البرية المؤدية إليها مفتوحة، مما مكنها من الحصول على كل ما تحتاج إليه من المؤن والإمداد^(٤). وكذلك الاستعداد المبكر لخرن المؤن والعتاد في العاصمة. كذلك كان له أكبر الأثر في كسر حلقة الحصار الإسلامي لها. ثم أن المسلمين عادوا لخطتهم القديمة التي كانوا مجبرين عليها

(١) Pattenden, Op. Cit., P. 266.

(٢) وسام فرج، الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٦٧.

(٣) أمدرستم، الروم، ج ١، ص ٢٦٢، P.124, Ostrogorosky, Op. Cit.

(٤) أرشيبالد لويس، مرجع سابق، ص ٩٦.

بسبب الظروف المناخية وشدة البرودة، حيث واصلوا حصارهم وقتالهم للبيزنطيين في فصلي الربيع والصيف، وعودتهم في الشتاء والخريف إلى قاعدتهم في كزيكوس، فكان هذا يعطى للبيزنطيين الفرصة لإصلاح ما أفسدته المناوشات خلال الهجوم والحصار، وتجديد الاستعدادات لجولة قادمة. ولا شك أن الظروف المناخية إضافة إلى عوامل أخرى قد عملت على الوصول إلى النتيجة التي انتهى إليها هذا الحصار الطويل والمضني.

وكانت الأساطيل الإسلامية تنقل الجنود من جزيرة كزيكوس إلى البر الملاصق للقسطنطينية لمحاصرة أسوارها، في حين يكمل الأسطول حلقة الحصار بأن تقف سفينة بين رأس هبومون Hebdomon الذي يبعد سبعة أميال عن الأسوار، وبين رأس كيكليوبوس Kyklobios الواقع بالقرب من باب القرن الذهبي^(١)

وبدأت الحملات تأخذ وتيرة سنوية، ففي كل عام تعود الأساطيل حاملة الجنود المسلمين لمحاصرة القسطنطينية، ثم تعود في نهاية فصلي الربيع والصيف إلى قواعدها في جزيرة كزيكوس. وفي العام الذي يليه تعود مرة أخرى، مضافاً إليها المدد الذي أرسله الخليفة من بلاد الشام أو من مصر^(٢)

وقد توالى على قيادة هذه الحملات عدد من القادة المسلمين من بينهم سفيان بن عوف، ومالك بن عبد الله، وفضالة بن عبيد الأنصاري، وبسر بن أرطاة، وعبد الله بن مسعدة الفزاري، وعبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي، وعمرو بن محرز، وجنادة بن أمية، ويزيد بن شجرة، وغيرهم من القادة^(٣)

ورغم ضراوة الهجمات الإسلامية وتكرارها، الأمر الذي جعل الجند المسلمين في حالة تأهب دائم واستعداد للحرب^(٤)، إلا أن القسطنطينية استعصت

(١) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 310.

(٢) الطبري، مصدر سابق ج ٥، ص ٣١٥.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٣ عدة صفحات، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨ عدة صفحات.

(٤) فيليب حتى، الشرق الأدنى، مرجع سابق، ص ١٦٣.

على الفتح الإسلامي، وذلك لعدة أسباب لعل منها الحصانة التي كانت تتمتع بها، وصعوبة الظروف المناخية التي كانت تمر بالمقاتلين فتضطرهم إلى قطع حصارهم طوال فصلين من العام، وعندما يعاودون القتال يبدأون من نقطة جديدة، ثم التوفيق الذي حالف البيزنطيين في الوصول إلى سلاح فعال ومؤثر، قلب موازين المعارك، وأفقد الحصار فعاليته، وقت في عضد المسلمين. ذلك هو سلاح "النار البحرية" الذي اخترعه البيزنطيون واستخدموه في المعركة.

وغير معروف بالتحديد متى توصل البيزنطيون إلى هذا السلاح، واستخدموه في المعركة، إلا أن أحد المؤرخين يذكر أن ذلك تم في السنة الرابعة من الحصار^(١).

ويرجع اختراع هذا السلاح الفتاك إلى مهندس سوري كان له اهتمام بالكيمياء والهندسة، وكان قد فر من بلاد الشام أثناء الفتح الإسلامي لها، وغادر إلى العاصمة البيزنطية، وهناك استطاع مواصلة تجاربه حتى وصل إلى هذا السلاح الفتاك في وقت مناسب.

وهذا المهندس السوري والذي يسمى كاليينكوس Kallinikos فر هو وأسرته من مدينة بعلبك Heliopolis، واستفادت الإمبراطورية البيزنطية من ولائه لها.

وعرف البيزنطيون هذا السلاح باسم "النار المصنعة المركبة سريعة الالتصاق" To skeuaston kai Kollutikon pur أو النار السائلة Hygron pur أو النار البحرية Thalassion pur^(٢)، وكانت عبارة عن خليط كيميائي يدخل النفط Aptha كعنصر أساسي في تركيبه، مضافاً إليه القار والكبريت والراتينج والجير

(١) أسد رستم، الرن، ج ١، ص ٢٦١.

(٢) د. وسام فرج، النار الإغريقية، مرجع سابق، ص ٢٨٨

قنسطنطين السابع، إدارة الإمبراطورية البيزنطية، مصدر سابق، ص ٦٨.

هكذا كان اسمها، أما الذين أطلقوا عليها "النار الإغريقية" فهم الصليبيون عندما استخدموها في القرن الحادي عشر الميلادي.

الحى، حيث يغمس هذا الخليط فى نسيج الكتان، ويوضع فى أنبوبة ضيقة تقذف فى الهواء وهى مشتعلة بواسطة المنجنيق فيسمع لها انفجار مدوى يصحبه دخان كثيف مسبوق بلهب حارق^(١).

واستخدم البيزنطيون هذه النار الحارقة بوسيلتين فكانوا يقذفونها من على الأسوار على محاصريهم، أو من السفن التى كانت من طراز درمون Drmon، حيث كانت كل سفينة تشتمل على صفين من المجاديف، فضلاً عن خمسين مقعداً خشبياً طويلاً يسمح الواحد بجلوس اثنين من المجدفين^(٢)، وكان جهاز قذف النار يوضع فى مقدمة السفينة ويتولى توجيهها المجدف الأمامى بينما يتولى زميله إلقاء ورفع المرساة الأمامية^(٣). وكانت توضع على مقدمات السفن تماثيل تصور مناظر الأسود وغيرها من الحيوانات الضارية - لإرهاب العدو - ينبعث من أفواهها النار التى تلقى على سفن الأعداء^(٤) ولم يكن العرب لهم سابق معرفة بهذا السلاح الفتاك، ورغم تأثيره البالغ على سفنهم وجنودهم إلا أن ذلك لم يمنعهم من مواصلة حصارهم للعاصمة البيزنطية. وكان من مزايا هذه النار البحرية، أن اشتعالها يستمر حتى فى الماء، ولم يستطع المسلمون التوصل إلى كيفية انطفائها، أو التعامل معها. ويذكر أحد المؤرخين أن الرمل والخل فقط هما القادران على إطفائها وهو السر الذى لم يتوصل إليه المسلمون فى ذلك الحين^(٥).

على أية حال عملت هذه العوامل المباشرة، وهى التيارات البحرية التى كانت تتعرض لها سفن المسلمين، فتعيق تقدمهم فى اقتحام أسوار القسطنطينية^(٦)، إلى جانب الظروف المناخية التى لم يتعودها العرب فى بلادهم، والمجاعات التى

(١) Oman, Art of war, Op. Cit., P. 46

(٢) رانسيمان: الحضارة البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٨٠.

(٣) Ostrogorsky, Op. Cit., P.124

(٤) Gibbon, Op. Cit., Vol. II, P. 797.

(٥) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 319.

(٦) العدوى، الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ١٧٦.

كان يتعرض لها المعسكر الإسلامي^(١). وحصانة القسطنطينية ومناعة أسوارها وافتقار المسلمين إلى المعدات والآلات التي تعينهم على التعامل مع هذه الحصانة، وكذلك عدم استكمال حلقة الحصار حول القسطنطينية، وقد كانت الجهات الشمالية والغربية للعاصمة بعيدة عن تأثير الحصار الإسلامي^(٢). يضاف إلى كل ذلك توصل البيزنطيين إلى اختراع النار البحرية، وإدخال هذا السلاح في المعركة، وعجز المسلمين عن التوصل إلى وسائل فعالة للتصدي لهذا السلاح أو التعامل معه، وكذلك تحريك البيزنطيين لأعوانهم من المردة لإحداث القلاقل على حدود الدولة الإسلامية وفي داخلها^(٣) كل ذلك مثل عوامل مباشرة جعلت المسلمين يفكرون في رفع حصارهم عن القسطنطينية والدخول - للمرة الثانية - في مفاوضات لتوقيع معاهدة سلام مع البيزنطيين.

يضاف إلى ذلك أن هناك عاملاً غير مباشر، دفع إلى ذلك التراجع، وهو طول فترة الحصار، واحتياج معاوية للقوات للمحافظة على الأمن الداخلي في الدولة الإسلامية، حيث كان يخطط لإعلان ابنه يزيد خليفة من بعده، وهو ما يمثل توجهاً جديداً في الدولة الإسلامية^(٤)؟! وقد توقع أن يكون له معارضون في بعض

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.398.

(٢) Stewart, Byzantine legacy, Op. Cit., P. 96.

(٣) المنبجي، مصدر سابق، ص ٧٢، ٧٣ وكذلك: د. إحسان عباس، العرب والمردة في تاريخ قسطنطين. (مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة الأولى، العدد الثالث، بيروت ١٩٧٩ م) ص ٦.

(٤) تذكر المصادر الإسلامية كالطبري وابن الأثير وابن كثير، أن هناك معارضات قد ظهرت عندما بدأ معاوية يستمزع آراء الولاة والزعامات في تعيين ابنه يزيد خليفة للمسلمين من بعده. وسبق أن أشرنا إلى بعضها والمعروف أن معاوية بن سفيان قد اتجه إلى أخذ البيعة لابنه يزيد بتحريض من المغيرة بن شعبه، وفي سنة ٥٥١ خرج معاوية إلى الحجاز، وجهد على أخذ البيعة لابنه من أهل الحجاز بعد أن ضمن موافقة أهل الشام والعراق، وقد بايع أهل الحجاز تحت تهديد معاوية، ولكن الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر، وغيرهم رفضوا المبيعة ليزيد ولذلك كان الموقف الذي ينتظر تولى يزيد الخلافة بعد أبيه قلقاً. أنظر: الطبري، مصدر سابق، ج ٥ ص ٣٠١. ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٢٤٩، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨ ص ١٤٦. الذهبي، تاريخ الإسلام، مصدر سابق، (حوادث سنة ٤٠ - ٦٠)، ص ٢٢. ابن الجوزي، المنتظم، مصدر سابق، ج ٥، ص ٢٨٥.

الولايات. كما أنه لم يستبعد قيام فوضى في البيت الأموي، وفضل أن يستعد لها مبكراً قبل وفاته وقبل أن تتدلع الاضطرابات في الدولة الإسلامية، لذلك رأى أن ينهي حالة الصراع مع الدولة البيزنطية^(١).

ولأن الإمبراطورية البيزنطية كانت أشد حاجة إلى وقف الحرب، والدخول في مفاوضات سلام مع المسلمين، فسرعان ما استجابت للعرض الإسلامي، وبدأ السفراء يتنقلون بين البلاطين الأموي والبيزنطي لإقرار اتفاقية السلام وشروطها^(٢).

وكانت هذه هي المرة الثانية التي يضطر فيها معاوية بن أبي سفيان لطلب الصلح، والدخول في مفاوضات سلام مع البيزنطيين، فقد كانت المرة الأولى أثناء ولايته لبلاد الشام، وقبل أن يصبح خليفة للمسلمين، ليكرس جهوده في صراعه مع علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) على الخلافة.

ولأنه في كلا الحالتين كان طلب الصلح من الجانب الإسلامي، فقد اضطر معاوية أن يقدم بعض التنازلات والأموال، والخضوع لبعض الشروط، لشراء السلام.

وقامت سفارة بيزنطة برئاسة يوحنا Jhon، والذي يتميز بالدبلوماسية والذكاء والفتنة، بالتوجه إلى دمشق، وإجراء مفاوضات مباشرة مع الخليفة، حيث عقدت عدة جلسات، حضرها نخبة من أبناء البيت الأموي وقياداته، وقد أبدى المبعوث البيزنطي إجلاله وإكباره للدولة الإسلامية، ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه، وسهل مهمته في الوصول إلى شروط الصلح^(٣).

(١) محمد مرسى الشيخ، تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٩٩.

(٢) صلاح الدين المنجد، رسل الملوك ومن يصلح للسفارة (وهو الجزء الثاني والذي وضعه الدكتور المنجد استكمالاً لكتاب ابن الفراء الذي قام بتحقيقه)، ص ١٥٢.

(٣) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 312.

وقد تمخض عن هذه المفاوضات عقد معاهدة سلام بين الدولتين مدتها ثلاثين عامًا، وتم توقيع واعتماد هذه المعاهدة عام ٥٥٨ / ٦٧٨م، من الجانبين البيزنطى والإسلامى وبعد أداء اليمين احتفظ كل جانب بنسخة من المعاهدة، وعاد المبعوث الإمبراطورى إلى موطنه محملاً بالكثير من الهدايا النفيسة^(١)

وقد نصت بنود الاتفاقية بين الدولتين على وقف الأعمال الحربية، وأن يتعهد معاوية بن أبى سفيان بدفع إتاوة للبيزنطيين عبارة عن ثلاثة آلاف نوميسماتا (قطعة ذهبية) وخمسين حصاناً أصيلاً وإطلاق سراح خمسين أسيراً من الأسرى البيزنطيين كل عام^(٢)

ثم أعقب هذا الفشل الأموى، وهذا الصلح أن تم تجميع بقايا السفن الإسلامية التى نجت من النار البحرية ومن العواصف ومن التيارات استعداداً للعودة إلى السواحل الشامية، ولكن لسوء حظها فقد تعرضت لعواصف شديدة أثناء سيرها نحو الجنوب تجاه ساحل بامفيليا Pamphylia، ولم يصل من ذلك الأسطول الضخم الذى كان يملأ شواطئ القسطنطينية، سوى عدد قليل من السفن والرجال^(٣)

(١) المسعودى، مروج الذهب، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٢٩.

(٢) الكندى: الولاة والقضاة، مصدر سابق، ص ٣٩. Vasiliev, Op. Cit., P. 215

Ostrogorosky, Op. Cit., P.125 ويذكر الدكتور إبراهيم سلامة أن هناك مصدرًا بيزنطيًا هو موناخوس همرتولوس Monachus Hamartlus ذكر أن الجياد المتفق عليها كان مائة من الجياد الأصيلة وليس خمسين كما تذكر المصادر والمراجع الأخرى (د. إبراهيم خميس سلام: معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، المجلد (٤١) الإسكندرية، ١٩٩٤م، ص ٢٧١). ويذكر الباز العرينى (الدولة البيزنطية، ص ١٥١) بدلاً من الخمسين أسير، خمسين عبدًا. والواقع أنهم كانوا خمسين أسيرًا لا عبدًا، فالمنطقة الإسلامية لم تكن منطقة تجمع عبيد، وإنما كانت تعج بالأسرى البيزنطيين، الذين يحتفظ بهم لمثل هذه المواقف، وفيما بعد استفيد منهم عندما ظهرت عملية فداء الأسرى أو تبادلهم بين الدولتين Camb. Med. Hist. Vol. II, P.397

(٣) أرشيبالد لويس، القوى البحرية، ص ٩٧. سديو، خلاصة تاريخ العرب، مرجع سابق، ص ٧٨

وترتب على ذلك أن سقطت القواعد التي أقامها المسلمون في زدوس. كما أن عددًا من الحصون والمواقع التي سيطر عليها المسلمون في بعض جزر البحر المتوسط، أو في آسيا الصغرى ما لبث أن عادت إلى السيطرة البيزنطية^(١). وكذلك فإن جزيرة قبرص التي مضى على الوجود الإسلامي بها ثلاثون عامًا، ما لبثت يزيد - الذي خلف أباه معاوية - أن اضطر إلى سحب الحامية الإسلامية منها، تحت الضغط البيزنطي^(٢).

على الرغم من أن أهم الآثار التي ترتبت على هذا الفشل، وهذه المعاهدة، أن توقف الزحف الإسلامي إلى أوروبا عن طريق الشرق، مما أعطى قيمة جديدة للعاصمة البيزنطية، بأنها حامية أوروبا والسد الواقى لها من الهجمات الإسلامية^(٣). ولو أن هذا الزحف لن يلبث أن يتواصل في بداية عهد الأسرة التالية الهرقلية، وهي الأسرة الإيسورية^(٤).

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.397.

(٢) البلاذري، مصدر سابق، ص ١٥٨. وينكر البلاذري رواية أخرى عن انسحاب المسلمين في قبرص، فيروي "بلغنا أن يزيد بن معاوية رثا مالا عظيماً ذا قدر حتى قفل جند قبرص، فلما قفلوا هدم أهل قبرص مدينتهم ومساجدهم" والجدير بالذكر أن انسحاب الحامية الإسلامية من قبرص لم يسقط الجزية عنها، حيث كان الاتفاق منذ البداية أن يتم اقتسام خراج قبرص بين المسلمين والبيزنطيين. انظر: البلاذري، ص ١٥٩، وأيضاً: Camb. Med. Hist. Vol. II, P.398.

ويصف أرشيبالد لويس هذا الانسحاب بأنه مبالغة في إذلال يزيد بن معاوية (المرجع السابق ص ٩٧)
(٣) Oman, The Byzantine Empire, Op. Cit., P. 171، ولم يخف ايتروجوريكي تقديره لنجاح بيزنطة في حمل العرب على الانسحاب بل ويروي أن قنسطنطين الرابع لم ينقذ القسطنطينية معقل النصرانية فحسب، بل أنقذ الحضارة الأوروبية من الطوفان الإسلامي والكفرة العرب على حد تعبيره، وقارن بين عمله وبين عمل ليو الثالث بعد ذلك، وانتصار شارل مارتل على العرب الأندلس في موقعة بلاط الشهداء سنة ٧٣٢م، حيث رأى أن انتصار قنسطنطين الرابع كان أهم وأبعد أثراً. انظر: Ostrogorosky, Op. Cit., P.125

(٤) تم ذلك في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ / ٧١٥ - ٧١٧م) وقاد مسلمة بن عبد الملك - شقيق الخليفة الأموي - أساطيل وجنود المسلمين والذين حاصروا القسطنطينية لمدة عام واحد، ولكن الإمبراطور ليو الثالث الإيسوري (٧١٧ - ٧٤٠م / ٩٩ - ١٢٣هـ) استطاع أن يدبر أمر الدفاع عنها، والتصدي للحملة الإسلامية، وتكبيدها أقصى الخسائر، وقد تكررت العوامل ذاتها التي أفشلت الحضارة زمن معاوية بن أبي سفيان، يضاف إليها عوامل جديدة، ليتوقف المسلمون عن مهاجمة القسطنطينية مباشرة، لأكثر من سبعة قرون، حتى تمكنوا أخيراً من إسقاطها سنة ١٤٥٣م / ٨٥٧هـ على يد السلطان محمد الفاتح العثماني.

على الجانب الآخر، فإنه كان لهذه النهاية، والفشل في حصار القسطنطينية، والصلح الذي ترتب عليه، أثر كبير على الإمبراطورية البيزنطية وعلى الإمبراطور قسطنطين الرابع شخصيًا.

فقد حظيت الإمبراطورية بفترة سلام وهدوء، كانت في أشد الحاجة إليهما^(١). كما أعيد الاعتبار والمهابة لها لدى الأعداء المتربصين بها، أو الذين خرجوا عن سلطاتها في فترات ضعفها، كما حصل في البلقان. فقد تسابق الآفار ورؤساء القبائل الصقلبية في البلقان على إرسال السفراء والمبعوثين، وأعلنوا ولاءهم وإخلاصهم للإمبراطور البيزنطي، والتمسوا إقامة علاقات مودة وسلام، معترفين بالسيادة البيزنطية^(٢). ورأت الدولة الأخرى في غرب أوروبا أن روما الجديدة لا تقل في عظمتها وأهميتها عن روما القديمة^(٣).

وانعكس هذا الانتصار على شخصية الإمبراطور البيزنطي وشعبيته داخل دولته، وفي أوروبا، وفي كنيسة روما، مما ساعده على القيام بمشروعات عدة في الجانب الديني.

وعلى أرض الواقع استفادت بيزنطة من هذا الموقف، وعاودت الظهور مرة أخرى في شرق البحر المتوسط، وفي جزره، مما مكنها من استعادة مكانتها البحرية وإلى حد بعيد أجزاء من مواقعها السابقة^(٤).

ووصلت نتائج فشل الحملة الإسلامية أمام القسطنطينية إلى جهات أخرى من جبهات الصراع الإسلامي البيزنطي، فخلال محاصرة القسطنطينية كانت هناك تحركات إسلامية في شمال أفريقيا، فقد واصل المسلمون غزواتهم داخل شمال

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 496.

(٢) Oman, Op. Cit., P. 171; Ostrogorosky, Op. Cit., P. 125;

Camb. Med. Hist. Vol. II, P. 398.

(٣) أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٦٢.

(٤) لويس، القوى البحرية، ص ٩٧.

أفريقيا، حيث صمم عقبة بن نافع بعد أن تولى حكم القيروان للمرة الثانية سنة ٥٦٢ هـ / ٦٨١م على مواصلة الجهاد. ووصل جنوده إلى مدينة باغية^(١)، حيث اصطدم هناك مع الحامية البيزنطية، وحقق انتصارًا كبيرًا عليها، أخضع قبائل البربر، ونشر الإسلام بينهم.

ولما كان المسلمون لا يملكون قوة بحرية هناك فإنهم تركوا المدن والحصون التي في أيدي البيزنطيين على الساحل دون أن يتعرضوا لها. وواصل عقبة بن نافع تقدمه نحو الغرب، إلى طنجة والمحيط الأطلنطي، دون أن يلتفت إلى انتعاش قوة البيزنطيين في البحر، نتيجة لفشل حصار القسطنطينية، مما أدى إلى نكبته، فقد ظهرت تجمعات معادية من قبائل البربر بزعامة شخص يدعى كسيلة^(٢) وانضم إليه البيزنطيون المقيمون في المعازل الساحلية، بعد أن ضمنوا وصول المدد إليهم عن طريق البحر الأحمر، في الوقت الذي انقطعت فيه خطوط إمداد المسلمين البعيدة، وأبىد عقبة وجيشه في تهوذة بالجزائر، وزحف البيزنطيون فاستولوا على القيروان، ولم ينج من المسلمين إلا القليل^(٣)

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٠٨. وباغية مدينة كبيرة بأفريقيا بين مجانة وقسطنطينية بالجزائر.
(٢) هو كسيلة بن كبرم البربري كان قد أسلم لما ولى أبو المهاجر أفريقية، وحسن إسلامه وهو من أكابر البربر ولكن عقبة استخف به وأهمله، وكان داخل المعسكر الإسلامي وعرف خطته، ثم انحاز إلى أهله وجماعته والروم، وانقلب على عقبة بن نافع، وقتله وحكم القيروان. ابن الأثير، الكامل، ج ١ ص ٣٠٩.

(٣) ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص ١٩٨. أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٦٣. لويس، القوى البحرية، ص ٩٨. حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب (مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة د.ت) ص ١٩٩.

الصراع البيزنطي / البلغاري:

أتاحت الهدنة التي تم توقيعها مع المسلمين الفرصة أمام الإمبراطور قسطنطين الرابع ليتفرغ لمشكلات أخرى تحيط بالإمبراطورية. وكان أهم هذه المشكلات مشكلة البلغار، والذين بدأوا يهددون الإمبراطورية الشمالية، ويمثلون خطراً جديداً من الأخطار التي طالما تعرضت لها الإمبراطورية.

والبلغار Bulgars هم إحدى الجماعات المتبربرة التي انثالت على الإمبراطورية منذ فترة مبكرة، ويعيد ثيوفانيس تحركهم إلى الفترة التي شهدت فيها الإمبراطورية هجمات الهون تحت قيادة أتيل (1). وقد برزوا خلال الآفار ضد الإمبراطورية البيزنطية، وكانوا إحدى الجماعات التي انضمت إليهم خلال حصارهم للعاصمة البيزنطية سنة ٦٢٦م أثناء حكم الإمبراطور هرقل وحروبه مع الفرس وقد عقد الفرس معهم معاهدة مشتركة لمهاجمة الدولة البيزنطية، وتشديد الضغط عليها من جهة الغرب، حيث، وصلوا في زحفهم إلى العاصمة القسطنطينية (2).

لقد انضوى تحت لواء الآفار خليط من القبائل المتبربرة، استطاع الآفار أن يرضوا عليهم سلطانهم، وكان البلغار أحد العناصر التركية التي انضوت تحت لواء الآفار.

وعندما استطاع البيزنطيون القضاء على حصار الآفار وانسحبوا من أمام القسطنطينية، اندلعت الثورة بين الأقاليم السلاوية والتركية الخاضعة لسيطرة الآفار، ونجحوا في التخلص من حكمهم، وكان البلغار من بين هذه القبائل النائرة (3).

(١) Theophanes. Op. Cit., P. 497.

(٢) وسام فرج، الإمبراطورية البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٦٧.

(٣) Theophanes. Op. Cit., P. 498.

وقد استقر البلغار في البداية في المنطقة الواقعة إلى الشمال من البحر الأسود وبحر قزوين عندما كانوا يخضعون لسلطان الآفار، وبعد زوال هذا السلطان طلب قائدهم كوفرات Kuvrat من الإمبراطور هرقل تأييده، حيث رحب الإمبراطور بولائه ومنحه لقب بطريق Patticins، وتم تعميده في القسطنطينية، وكان ذلك طريقاً لدخول البلغار إلى النصرانية بالتدريج^(١) والواقع أن الإمبراطورية البيزنطية كانت ترحب بمثل هذه الولاءات بين الشعوب المتبربرة التي استقرت في أراضيها، وكانت تشجعها، وتعمل على الاستفادة منها في تأكيد سلطتها ونفوذها، حتى وإن لم تتخذ هذه السلطة وذلك النفوذ شكلاً حقيقياً وإنما إسمياً فقط.

ولأن منطقة البلقان كانت تموج دائماً بالصراعات والهجرات الجديدة، فقد شهدت فترة الإمبراطور قنسطانز الثاني تحركاً جديداً للبلغار، فقد قام أسباروخ Asbaruch ابن كوفرات بقيادة جموع البلغار غرباً، حيث انطلقوا من مناطق الاستبس المجاور لبحر آزوف Azov شمال البحر الأسود، واستقروا عند مصب نهر الدانوب، ثم تحركوا جنوباً، ليصلوا سنة ٦٧٠م / ٥٥٠ إلى نهر الدانوب^(٢) ويبدو أن تحركهم هذا جاء نتيجة لعاملين:

١ - للهرب من مخاطر ضغط العناصر المتبربرة الأخرى التي تقدمت غرباً بسبب هجرة الخزر^(٣).

٢ - رغبتهم في السيطرة على الأراضي الزراعية جنوب غرب الدانوب، لغناها وخصوبتها^(٤).

(١) وسام فرج، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٢) Theophanes, Op. Cit., P. 498; Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 220.

(٣) حسين ربيع، مرجع سابق، ص ٩٢.

(٤) Ostrogorsky, Op. Cit., p. 125.

والواقع أن البلغار في هذه المرحلة، بدأوا في تحقيق كيان حضارى مستقل قادر على الأقل في نظر العناصر السلافية المستقرة في البلقان أن يكون بديلاً عن الإمبراطورية البيزنطية^(١).

ومما زاد من مصاعب الإمبراطورية أن البلغار كانت لهم تطلعاتهم التي تفوق تطلعات تلك العناصر السلافية، التي سبق وتعاملت معها الإدارة البيزنطية. ولأن الظروف لم تكن مناسبة للتصدي للبلغار بسبب الصراع البيزنطى مع المسلمين، فقد ترك لهم المجال مؤقتاً، ولكن ما إن تم توقيع معاهدة السلام مع المسلمين، حتى بدأ الإمبراطور قنسطنطين الرابع يستعد للتعامل مع البلغار، ويعد العدة للقيام بحملة عسكرية ضدهم، بعد أن شعر بالخطر الذي تمثله تحركاتهم على الحدود الشمالية للإمبراطورية. وقرر الإمبراطور أن يكون على رأس الحملة العسكرية^(٢).

وفى سنة ٦٧٩م / ٦٠هـ أبحر أسطول كبير مجتازاً البحر الأسود إلى شمال مصب نهر الدانوب، وسارت فرق من الخيالة البيزنطية من آسيا الصغرى، واجتازت تراقيا إلى الضفة الشمالية من النهر^(٣). وفى مطلع عام ٦٨٠م / ٦١هـ التقى الفريقان، البيزنطيون بقيادة الإمبراطور نفسه، فى محاولة لطرد البلغار، والبلغار بقيادة أسباروخ، والذين كانوا يطمحون إلى المحافظة على ما تحت أيديهم من أراضٍ.

وشعر البلغار بقوة الحملة البيزنطية وكثافتها، فبدأوا بالمرأوغة وتأخير الالتحام المباشر، الذى لن يكون فى مصلحتهم، واستفادوا من جغرافية المكان فى عرقلة تقدم البيزنطيين حيث أعاقت المستنقعات الجيش البيزنطى فى القيام بحرب ناجحة^(٤).

(١) وسام فرج، السلاف فى شبه جزيرة البلقان، مرجع سابق، المجلة التاريخية المصرية، العدد ٣٠ ص ١٤٩.

(٢) Theophanes, Op. Cit, P. 498.

(٣) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 332; Ostrogorsky, Op. Cit., P.220

(٤) حسنين ربيع، مرجع سابق، ص ٩٢.

وفي هذه اللحظات الحرجة أصيب الجيش البيزنطي بنكسة كبيرة، حين تعرض الإمبراطور لنوبة حادة من النقرس الذي كان يعاني منه ^(١). وقرر ترك المعسكر البيزنطي بعد أن اصطحب معه حاشيته وخمسة من العدائين وتوجه إلى مدينة ميزمبريا Mesambiria ^(٢)، بعد أن زود نوابه من القادة بتعليمات أمرهم فيها بالتظاهر بالهجوم لإجبار البلغار على الخروج من معقلهم وتحصيناتهم، وقتالهم، إذا تصادف خروجهم، وأن يستمروا في محاصرتهم ومراقبة دفاعاتهم إن ظلوا في معقلهم. ولكن الخيالة البيزنطيين أسأؤوا تفسير مغادرة الإمبراطور للمعسكر، حيث أشاعوا بين الجنود أن الإمبراطور قد فر من المعركة، مما أثر على روحهم المعنوية وأدى إلى انهيارها، وكانت النتيجة أن سارعوا إلى الفرار..

وعندما رأى البلغار ذلك بدأوا في مطاردتهم، وقتلوا كثيرًا منهم، وجرحوا عددًا آخر، واستمروا في مطاردة قلوبهم حتى نهر الدانوب، حيث عبروه متجهين إلى قارنا Varna، التي تقع بجوار أوديسوس، وهناك عسكر الجنود الفارين حيث شعروا بالأمان، لأن هذا المكان كان محروسًا من الخلف بنهر الدانوب ومن الجوانب بممرات جبلية تؤدي إلى البحر الأسود.

ونتيجة لهذه الهزيمة الفادحة اضطر الإمبراطور قنسطنطين الرابع لتوقيع معاهدة سلام مع البلغار، وهي المعاهدة التي جعلت البيزنطيين يشعرون بالخجل والمهانة ^(٣)

نصت معاهدة السلام التي وقعتها الإمبراطور قنسطنطين الرابع سنة ٦٨١م / ٦٢٢هـ على أن يقوم البيزنطيون بدفع إتاوة سنوية للبلغار، وأن تترك لهم الأقاليم الواقعة بين الدانوب وجبال البلقان، وهي المعروفة قديمًا باسم مؤيسيا وسيزيا

(١) وسام فرج، السلاف في شبه جزيرة البلقان، مرجع سابق، ص ١٤٩. رانسيمان، مرجع سابق، ص ٤٠.

(٢) Op. Cit, P. 499.

(٣) Theophanes, Ibid

الصغرى^(١). وأن يبقى مصب نهر الدانوب، وجزءاً من شاطئ البحر الأسود في أيديهم، حيث أقاموا لهم دولة، شكلت خطراً كبيراً على الإمبراطورية البيزنطية طوال سنوات عديدة^(٢).

لقد كانت هذه الهزيمة التي تعرض لها الإمبراطور الشاب، والإمبراطورية المنتشية بانتصارها الذي حققته على المسلمين، هزيمة فادحة ومكلفة كثيراً، فقد أصبح هناك دولة مستقلة باعتراف الإدارة البيزنطية، إذا أنه لأول مرة في تاريخ الإمبراطورية تضطر الإدارة البيزنطية إلى التنازل رسمياً عن سيادتها على جزء هام من شبه جزيرة البلقان، ولم يسبق أن سجلت هذه الإدارة تنازلاً رسمياً عن أى منطقة خسرتها فى أى من حروبها، بل وتحصل هذه الدولة على إتاحة سنوية من الخزينة الإمبراطورية، وتؤكد خطر هذه الدولة وحجم تلك الكارثة، عندما بدأت التوسع على حساب القوميات الأخرى السلافية التي كانت تقطن فى منطقة البلقان، وتقوى بهم ويزداد نفوذها وخطرها على الإمبراطورية البيزنطية، مما مثل خطراً وتهديداً متزايداً للسلام الرومانى الذى كانت تمثله الإمبراطورية البيزنطية، وتحرص عليه فى هذه المنطقة^(٣).

شعر الإمبراطور قنسطنطين الرابع بفداحة هذه الهزيمة رغم الإعداد الجيد لها حيث كان قد حشد لها جميع جند الثيمات^(٤)، الذين عبروا تراقيا للقضاء على البلغار، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح، واستطاع البلغار أن يؤكدوا سيطرتهم على القبائل السلافية السبع التي كانت تستقر فى المنطقة، إضافة إلى قبائل سيفرين Severi، وأن يستثمروا هذا التحالف فى الوصول إلى دولة مستقلة عن الإمبراطورية البيزنطية.

(١) الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ١٥٣. وتعرف هذه المنطقة حالياً باسم ديوجا Debrudja.

(٢) Ostrogorsky, Op. Cit., p. 127.

(٣) هسى، مرجع سابق، ص ١٢٦. محمد مرسى الشيخ، مرجع سابق، ص ١٠١. الناصرى، الروم، مرجع سابق، ص ٢٢٣.

(٤) عائشة أبو الجدايل، مرجع سابق، ص ١٨٣.

وكان من آثار هذه الهزيمة أيضا أن سعت قوميات سلافية أخرى، للاستقلال عن الدولة البيزنطية، بعد أن شجعها انتصار البلغار وحصولهم على تنازل رسمي من الإمبراطورية البيزنطية. ومن هذه القوميات الصرب Cerbs والكروات Croat، الذين سبق وأن استقروا بموافقة من الإدارة البيزنطية.

واعتقت هذه الجماعات النصرانية على يد بعثات تبشيرية جاءت إليهم من روما بناء على أوامر من الإمبراطور البيزنطي^(١).

لقد استفاد الصرب والكروات من الصراع البيزنطي / البلغاري، فاستطاعوا تكوين دويلات شبه مستقلة تمكنت بالتدريج من أن تسيطر على قرارها بعيدا عن تحكم الدولة البيزنطية وسيطرتها^(٢)

(١) Ostrogorsky, Op. Cit., p. 105.

(٢) عادل حمزة، الصرب بين البيزنطيين والبلغار، (مجلة المؤرخ العربي، العدد، المجلد الأول، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة ١٩٩٧م)، ص ٣٤٣.

الإصلاحات الدينية:

عاد الإمبراطور قنسطنطين الرابع إلى عاصمته، ليفكر في مشروع جديد، وهو التصدي لإصلاح الأوضاع الدينية في إمبراطوريته، ومحاولة رآب الصدع والخلاف الديني، الذي تخلف عن قرارات والده قنسطانز الثاني مع كنيسة روما.

والمعروف أن أباطرة الأسرة الهرقلية ابتداءً من هرقل وابنه هرقلوناس وحفيده قنسطانز الثاني، قد تصدروا للمشكلة الدينية، وعمل كل منهم من جانبه على عقد المجالس والمجامع الدينية وإصدار القرارات التي يعتقد أن فيها الحل لتهدئة الصراع والخلاف حول المسألة الدينية في أرجاء الإمبراطورية.

ولما جاء الإمبراطور قنسطنطين الرابع للحكم في بيزنطة كانت الأوضاع الدينية متأزمة والمشكلات حولها بين الشرق والغرب محتدمة، خاصة بعد القرار الذي أصدره والده قنسطانز الثاني والذي عرف بـ "التيبوس"^(١) وكان هذا القرار أو التوجه بدلاً من أن يطفىء المشكلات الدينية ويضع حدًا للجدل حولها قد زاد الأمور تعقيدًا والصراع احتدامًا، خاصة بعد تطرف الإمبراطور قنسطانز الثاني في التعامل مع البابا ماثين الأول الذي دفع حياته ثمنًا لموقفه من قرار الإمبراطور، وغيره من رجال كنيسة روما. وكانت محاولات الإمبراطور قنسطانز الثاني في استرضاء نصارى الجزء الشرقي السابق من الإمبراطورية (الشام وفلسطين ومصر) اعتقادًا منه أن هذا الاسترضاء سيكون سبيلًا لعودة تلك المناطق إلى سيادة الإمبراطورية هو الذي دفعه لمحاولة التوفيق بين المذهبين الدينيين الموندفيزيّة والمونولستية، فكان قراره أو برنامجه الذي عرف بـ "التيبوس"، ولكن الغريب أن القرار لم ينل رضا أتباع أي من المذهبين وإنما سخطهم، ونقمتهم على الإمبراطور قنسطانز وموقفه الديني.

(١) انظر الفصل السابق، ص (٩٨) حول المسائل الدينية في عهد قنسطانز الثاني.

ولما وصل الإمبراطور قنسطنطين الرابع إلى العرش وتأكد انسلاخ ولايات الشرق (مصر وفلسطين والشام وأرمينيا)، وفشل الإدارات البيزنطية المتتالية في استعادة هذه الأراضي، وتركيز الوجود الإسلامي فيها، واستحالة خروجهم منها، وابتعادها عن سلطة وسيطرة الإدارة البيزنطية، وتبعيتهم للدولة الإسلامية^(١)، وجد أنه لم يعد من الضروري أخذ توجههم الديني في الحسبان، أو في تقرير السياسة الإمبراطورية التي يحكمها أو يمتد إليها نفوذه، فقد بدأت سياسته تتبلور في هذا الاتجاه.

فكان أهم توجهاته محاولة استرضاء الغرب واستعادة العلاقات والتواصل معه، من خلال حل المشكلة الدينية العالقة بينهما، خاصة وأن أجزاء كثيرة من أملاك الإمبراطورية وولايتها، تقع في هذا الجزء، والأهم من كل ذلك أن الأباطرة البيزنطيين - حتى هذه الفترة - كانوا لا يزالون يعتبرون الجزء الغربي، جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية.

كما أن الإمبراطور قنسطنطين الرابع هدف من وراء ذلك إلى تدعيم إمبراطوريته^(٢)، والمحافظة على أجزائها فحدث أن شنتها، وانتقصت منها التطورات الأخيرة.

وبدأ الإمبراطور برنامجه بأن أجرى تعديلات في كنيسة القسطنطينية، تم بموجبها عزل بطريك القسطنطينية ثيودوروس الأول (Theodorus ٦٧٧ - ٦٧٩ م / ٥٨ - ٦٠ هـ) والذي كان مقرباً منه^(٣)

(١) Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 225

أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٥٨. الناصري، مرجع سابق، ص ٢٣٣.

(٢) أرشيبالد لويس، مرجع سابق، ص ٩٨.

(٣) أسد رستم، الروم ج ١، ص ٢٥٨.

وكان البطريق المعزول قد اتخذ موقفاً استاء منه بابا روما، حيث طالب بحذف اسم الباب فيتاليان من الدبتيخة^(١)، والذي يعنى عدم اعترافه ببابويته، مما كان كفيلاً بتجدد الصراع بين الكنيستين^(٢)

وكذلك قام الإمبراطور فى سبيل إنجاح مشروعه ولفقت انتباه بابا روما، بإعطاء البابا سلطة على بطريركية رافنا^(٣)، بعد أن كانت خاضعة بالكامل لسلطة كنيسة القسطنطينية. كما صرح بأن موافقة النائب الإمبراطورى (Exarch) فى رافنا كافية للموافقة على انتخاب بابا جديد، بعد أن كانت من اختصاصات الإمبراطور^(٤).

وبعد أن أجرى الإمبراطور كل الاستعدادات التى تصور أنها ستساعد فى تسهيل مهمته لحل الخلاف الدينى بين الشرق والغرب وضع حد للصراع المذهبى، بين قطبى النصرانية، أعلن عن رغبته فى عقد مجمع دينى فى القسطنطينية، وأنه سيكون برعايته الشخصية، وأرسل دعوة إلى بابا روما، حيث وصلت الدعوة إلى البابا أجاثيوس Agathius، الذى كان قد تسلم كرسي البابوية خلفاً لدونوس Donus. وطالبت رسالة الإمبراطور البابا بأنه يرسل اثنى عشر أسقفاً إيطالياً إلى مؤتمر ينظر فى الخلاف القائم فى العقيدة^(٥). كما كتب الإمبراطور خطاباً إلى أرخون رافنا، يأمره بتسهيل سفر هؤلاء الأساقفة وإبحارهم إلى القسطنطينية^(٦). ويقدم

(١) Diptych، وهى لوحة رسم أو نقر ذات طيتين بينهما رابط، وكانت السجل الرسمى لكنيسة القسطنطينية، وتسجل فيها أسماء البابوات والبطاركة الذين يتم الاعتراف بهم من قبل كنيسة القسطنطينية، رانسيمان، مرجع سابق، ص ٤٠٠، ويعتبرها تيموثى وير بأنها عبارة عن لوائح يحتفظ بها كل بطريك وقد سجلت عليها أسماء البطاركة الآخرين الأحياء منهم والأموات، تيموثى، الكنيسة الأرثوذكسية فى الماضى والحاضر، ترجمة هاشم الحسينى، (دار النور، بيروت، ١٩٨٢م)، ص ٨٠.

(٢) أسد رستم، كنيسة أنطاكية، ج ٢، ص ٤٦. ويرجع أسد رستم ذلك إلى أن ثيودوروس كان ضعيف الرأى، شديد الاصغاء إلى زميله مكاريوس بطريك أنطاكية الذى كان يقيم فى القسطنطينية.

(٣) أسد رستم، الروم ج ١، ص ٢٥٨.

(٤) رانسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ١٤٠.

(٥) أسد رستم، كنيسة أنطاكية، ج ٢، ص ٤٧.

(٦) Oman. Op. Cit., P. 172.

الدكتور أسد رستم في كتابه "كنيسة مدينة أنطاكية العظمى" وغيره من الكتب التي تناولت تفاصيل الخلاف الديني بين الكنيستين^(١)، تفاصيل كثيرة عن هذا المجمع الديني الذي دعا إليه الإمبراطور، والذي سيعرف بالمجمع السادس.

جاء رد بابوية روما، بأن أرسلت وفداً إلى القسطنطينية مؤلفاً من ثلاثة أساقفة وقسيسين وشماس وإيبونياكون Epithiacon (أحد أعضاء الكنيسة)، وحمل الوفد رسالة من البابا أجاثيوس إلى الإمبراطور، تهرف بالوفد، وباستعداد أعضائه لتأييد قرارات المجامع المسكونية، وحمل الوفد بياناً بالإيمان موقعاً من الباب ومئة وخمسة وعشرين أسقفاً غربياً يؤكدون فيه نبذ التعليم بالمشيئة الواحدة^(٢) وطلب الإمبراطور بعد أن استقبل الوفد البابوي إلى كل من البطريرك جاورجيوس بطريك القسطنطينية، ومكاربيوس بطريك أنطاكية (الذي كان يقيم في العاصمة) دعوة الأساقفة الخاضعين لسلطتهما إلى القسطنطينية للاجتماع بزملائهم الغربيين. فلبى الدعوة أولاً ثلاثة وأربعون أسقفاً، ثم تكاثروا حتى أصبح مجموعهم مئة وأربعة وسبعين^(٣). ومثل كنيسة الإسكندرية القس بطرس وكنيسة القدس جاورجيوس، وبدأت أعمال المجمع في السابع من نوفمبر سنة ٦٧٠م، وانتهت في السادس عشر من ديسمبر سنة ٦٨١م^(٤) وبلغ عدد الجلسات الرسمية ثمانى عشرة جلسة، وقد رأس الإمبراطور الإحدى عشرة جلسة الأولى، وهى الأهم، كما حضر الجلسة الختامية، حيث تولى إدارة الجلسات والنقاش^(٥).

(١) من هذه الكتب: حرب الكنائس، ط ٢ (المكتبة البولسية، بيروت ١٩٩١، نحن ورومة والاتيكان، ط ٢ (المكتبة البولسية، بيروت ١٩٩١) وغيرها.

(٢) أسد رستم، كنيسة أنطاكية ج ٢، ص ٤٧.

(٣) يذكر ثيوفانيس أن حضور المجمع كانوا (٢٨٩) أسقفاً دينس. Theophanes, Op. Cit., P.501. ويذكر المنبجى أن عددهم كان مائة وتسعة وثمانون أسقفاً (المنبجى، مصدر سابق، ص ٧٤)

(٤) الغريب أن ثيوفانيس يدرج أحداث المجمع في حوليته تحت سنة ٦٧٨م،، وهذا خطأ ويخالف المصادر والمراجع الأخرى، وهو ما يستدركه عليه مترجمًا حوليته حيث يذكر أن التاريخ المدون أعلاه، ويذكر أيضاً أنه تم في السنة الثانية عشر من حكم قسطنطين، انظر Theophanes, Op. Cit., P. 501، والهامش رقم (٣) في الصفحة ٥٠٢، ويبدو أن ثيوفانيس اعتبر بداية تحركات الإمبراطور وتفكيره في عقد المجمع منذ سنة ٦٧٨م، هي انعقاد للمجمع.

(٥) Vasiliev, Op. Cit., Vol.II, p. 225.

وعقد المجمع جلسته في قاعة القبة Trullo، وجلس الإمبراطور قسطنطين الرابع في حفل الافتتاح في صدر المجلس وعن جانبه قضاة الدولة، ثم جلس عن يساره وفد البابا ونائب بطريك القدس، وجلس عن يمينه جاورجيوس بطريك القسطنطينية ثم مكاروريوس بطريك أنطاكية، ثم نائب الإسكندرية، فسائر الأساقفة بعضهم عن اليمين وبعضهم عن اليسار، وجعل الإنجيل في الوسط.

وطلب نواب البابا في الجلسة الأولى إلى إكليروس (رجال الدين) القسطنطينية أن يشرحوا القول بالفعل الواحد والمشية الواحدة، وطلب الإمبراطور إلى البطريركين جاورجيوس ومكاروريوس أن يجيبا. فقال بطريك أنطاكية: إنه موجود في مجامع أشهر الآباء وبطاركة القسطنطينية، ومعتقدات كيروس الإسكندري وأونوريوس بابا روما. فطلب المجتمعون البيئة على ذلك. فأحضرت أعمال المجمع وقرئت في الجلسات الأربع التالية.

وتبين أن الرسالة التي نسبها سرجيوس بطريك القسطنطينية إلى سلفه في الكرسي هيتاس لم تتفق في الخط والترقيم وما بعدها من أعمال المجمع الخامس. ولدى التفتيش في مخطوطات بطريركية القسطنطينية وجدت نسخة أخرى من أعمال هذا المجمع نفسه وتبين أنها خالية من نص الرسالة موضوع البحث.

وفي الجلستين الخامسة والسادسة في السابع من ديسمبر سنة ٦٨٠م، والثاني عشر من فبراير سنة ٦٨١م، قدم مكاروريوس البطريرك الأنطاكي ثلاثة مجلدات ضمنها نصوصا ادعى أنها تؤيد القول بالمشية الواحدة. وفي الجلسة السابعة في الثالث عشر من فبراير قدم الوفد البابوي مقتطفات من أقوال الآباء في تأييد القول بالمشيئتين.

وفي الجلسة الثامنة في السابع من مارس سنة ٦٨١م طلب الإمبراطور إلى البطريركين جاورجيوس ومكاروريوس أن يبديا رأيهما في بيان البابا أجاتيوس، فعاد جاورجيوس إلى نصوص الآباء ودرسها على ضوء ما جاء في بيان زميله

الرومانى، فتبين له وجه الصواب وقال بالمشيئتين، ووافق في ذلك جميع الأساقفة الخاضعين لسلطته. ثم مكاريوس والأساقفة الأنطاكيون عن رأيهم، فوافق هؤلاء الأساقفة على القول بالمشيئتين، ولكن مكاريوس أبى مقررًا أن القول بالمشيئتين يعرضهما إلى الاختلاف والتناقض، فأعاد الإمبراطور الطلب، فأنكر البطريرك - مفضلًا الموت مقطوعًا - على القول بالفعلين والمشيئتين.

وانصرف المجتمعون في الجلسة التاسعة إلى التدقيق في المجلدات الثلاثة التي وضعها مكاريوس لتأييد القول بالفعل الواحد والمشيئة الواحدة. وقابلوا بعض ما أخذه عن السابقين فظهر التبديل والتحريف. فاقترح المجتمعون قطع مكاريوس وتلميذه اسطفانوس، وخصصت الجلسة العاشرة للتدقيق في ما قدمه الوفد البابوي ومقابلته بالأصول.

والتأم الجمع للمرة الحادية عشر والثانية عشر في العشرين والثاني والعشرين من مارس لدرس جميع ما صنف مكاريوس، فتأيت جميعها، وسئل مكاريوس عنها فاعترف بصحة نسبتها إليه. فسأل القضاة المجمع ماذا يكون مصير مكاريوس بعد الندامة والتوبة وهل يظل بطريركًا على أنطاكية، فلم يرض الأعضاء المجتمعون، خلع مكاريوس، وأعلن ثيوفانيس^(١) خلفًا له.

وفي الجلسة الثالثة عشر حكم بالحرمان والقطع على سرجيوس وبيروس وبطرس بطاركة القسطنطينية، وعلى كيروس بطريرك الإسكندرية وعلى أونوريوس بابا روما، وثيودوروس أسقف فارانة^(٢).

(١) بالطبع هو غير ثيوفانيس المؤرخ الرئيسى لهذه الفترة، والذي اعتمدنا على حوليته كثيرًا في هذا البحث، فيثوفانيس المؤرخ والذي كان راهبًا أيضًا توفي سنة ٨١٨م.

(٢) سرجيوس هو بطريرك القسطنطينية في عهد هرقل، وبيروس هو بطريرك القسطنطينية في عهد هرقليناس ومارتينا، وكيروس هو المقوقس بطريرك الإسكندرية وحاكمها في عهد هرقل وهرقليوناس ومارتينا، وأونوريوس الأول هو بابا روما للفترة (٦٢٥ - ٦٣٨م) وقد وافق على قرارات هرقل الدينية، انظر الفصول السابقة لمعرفة مواقف هذه الشخصيات الدينية، والتي بسببها استحقوا قرار الحرمان من هذا المجمع.

وفي الجلسة السابعة عشر صدق المجمع أعماله السابقة، وحرم المعتقدين بالمشيئة الواحدة والفعل الواحد، وفي الجلسة الثامنة عشر وهي الأخيرة والتي انعقدت في السادس عشر من سبتمبر ٦٨١ م / محرم ٦٢ هـ أعلنت قرارات المجمع واعترف بمشيئتين وفعلين طبيعيين للمسيح بلا انقسام ولا تجزؤ ولا تضاد^(١). واختتم المجمع بالدعاء بالسنين الكثيرة لأجاثيوس بابا روما سنة ٦٨١ م إلا أنه مات قبل أن تصله قرارات المجمع ودعائه - وجاور جيوس بطريرك القسطنطينية، وثيوفانيس - الذي تم إقراره بطريركاً على أنطاكية - ولكل المجتمعين. كما اختتم المجمع بالهتاف للإمبراطور قسطنطين الرابع تصير الأرثوذكسية، وعمود الكنيسة وحارس الإيمان^(٢) وبالغوا في تقدير الإمبراطور حتى أنهم اعتبروه محطماً للهراطقة^(٣)

وأقر الإمبراطور جميع أعمال المجمع وأوجب القول والعمل بها، بمرسومين إمبراطوريين الأول صدر بتاريخ السادس عشر من سبتمبر ٦٨١ م، والثاني بتاريخ الثالث والعشرين من ديسمبر سنة ٦٨١ م^(٤)

ولقيت هذه القرارات موافقة جميع النصارى ما عدا المكيانيين (اليعاقبة)، الذين رفضوا هذا التوجه، وأظهروا الاشمئزاز منه، واتهموا قسطنطين الرابع بالخيانة، وادعوا أنه باع ضميره لقاء مئة وسبعين قنطاراً من الذهب دفعها إليه بابا روما^(٥)

(١) حاشى لله من كان يزعمون، فعيسى صلى الله عليه وسلم بشر ورسول كريم، وصدق الله العظيم القائل في محكم تنزيله: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنَ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ
"المائدة من ١١٥ - ١١٨"

(٢) أسد رستم، كنيسة أنطاكية، ج ٢، ص ٤٧ - ٥٠، نحن ورومة والفاثيكان، ص ٢٤.

(٣) Theophanes, Op. Cit. P. 500

(٤) Camb. Med. Hist. Vol. II, P 404

(٥) أسد رستم، كنيسة أنطاكية، ج ٢، ص ٥٦.

كانت النتائج المباشرة لهذا المجمع وللقرارات التي تم التوصل إليها هو عودة السلام والوثام مع الغرب وبالذات مع كنيسة روما، حيث نعمت الإمبراطورية بسلام ديني، قضى على ذلك الاختلاف والتناحر الذي كان سائداً، فقد غسلت القسطنطينية يدها من المونوفيزيتية، والمونوثلستية، وتوجهت إلى الأرثوذكسية، وبعد أن شعرت أنه لا جدوى أو فائدة من أخذ أولئك النصارى الذين أصبحوا تحت السيادة الإسلامية بعين الاعتبار في قرارها الديني، وأن الأفضل أن تؤكد ارتباطها بالغرب وأهله وكنيستهم. كما أن هذا القرار أفادها في كسب تأييد بعض النصارى الذين كانوا خاضعين لسلطة الدولة الإسلامية، إلا أنهم كانوا معارضيين أشد المعارضة للمونوفيزيتية، مما قوى نفوذ بيزنطة على تلك الطائفة في الدولة الأموية^(١)

في الوقت الذي عمل فيه هذا القرار على زيادة الترابط والتعاون بين البعض الآخر من نصارى مصر والشام والدولة الإسلامية، حيث اندفع عدد كبير منهم للعمل في الأساطيل الإسلامية للقضاء على هذه الإمبراطورية المهرطقة في نظرهم^(٢)

لقد شعر الإمبراطور قسطنطين الرابع أن تفاهمه مع روما، وتحسين العلاقة معها هو أجدى للإمبراطورية من محاولة استرضاء أو تسوية النزاع الديني في أقاليم لم تعد تابعة لها^(٣) ولا شك أن هذه القرارات التي توصل لها الإمبراطور قسطنطين قد ساعدت على تحسين صورته ومركز الإمبراطورية في نظر الأكثرية النصرانية، وبالذات تلك التي ما زالت تحت السلطة البيزنطية في الغرب وفي شمال أفريقيا، فقد كان البربر من المخالفين لعقيدة بيزنطة الدينية ويضمرون

(١) المنجى، مصدر سابق، ص ٧٤. أرشيبالد لويس، مرجع سابق، ص ٩٨.

(٢) الناصري، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

(٣) الباز العريني، الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٥٤. ويلاحظ أيضاً أن كنائس الشرق لم يشارك

بطاركتها في المجمع، وإنما شاركت بنواب عنهم أو ممثلين لهم. انظر: حسين ربيع، مرجع سابق، ص

لها الكراهية والبغضاء، ويتمنون زوال سيادتها عنهم. ولكن هذا التحول العقائدي، ساعد على تهدئة البربر، وعودتهم إلى حظيرة الدولة البيزنطية، وجعلهم يتعاونون مع قواتها في صراعاها ضد المسلمين، ويحققون مجتمعين عدة انتصارات على المسلمين في شمال أفريقيا^(١).

لقد مثل هذا المجتمع الديني، وكان ثالث المجامع الدينية التي عقدت في العاصمة البيزنطية^(٢)، أهمية كبيرة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، والولايات التابعة لها، وفي تاريخ الإمبراطور قنسطنطين الرابع شخصيًا، فبالنسبة للإمبراطورية البيزنطية أعطاها فترة سلام ديني مع ولايتها ومع الغرب الأوروبي، وأما بالنسبة للإمبراطور البيزنطي فقد أضيف هذا المكسب الهام إلى انتصاره على المسلمين، حتى أن المجتمعين في هذا المجمع دعوه بجسنتيان الجديد، ومحطم المهرطقين^(٣) وهذا أطلق يده في القسطنطينية ومختلف ولايات الإمبراطورية، وأعطاه شعبية كبيرة، ومكانة على المستوى الشعبي والديني. وجعله يصدر عملة جديدة عليها صورته، وصورة أخويه اللذين كانا يشاركانه الحكم^(٤). كما قرر إنشاء ثيم جديد في ثغرتراقيا (Thrace) لمنع خطر البلغار الذين فشل في التصدي لهم، واضطر إلى مسالمتهم^(٥)، وتمتعت الإمبراطورية البيزنطية في عهده بمركز قوى، زاده بروزًا تلك الخلافات والصراعات التي دخلتها الدولة الأموية في أعقاب موت معاوية بن أبي سفيان.

(١) العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص ٢٤٠.

(٢) عقد المجمع الأول في القسطنطينية في عهد الإمبراطور ثيودسيوس الأول سنة ٣٨١ م، والثاني في عهد ثيودسيوس الثاني سنة ٤٤٨ م، والثالث في عهد قنسطنطين الرابع سنة ٦٨٠ م، أما المجمع الأخرى فقد عقدت خارج القسطنطينية مثل نيقية وخلقيدونية وغيرهما.

(٣) Ostrogorsky, Op. Cit., P.228.

(٤) Holdon, Op. Cit., P. 103.

(٥) البازالعريني، مرجع سابق، ص ١٦١.

مشكلة ولاية العهد ونهاية حكم قسطنطين الرابع:

يبدو أن المكانة التي تمتع بها الإمبراطور قسطنطين الرابع، جعلته يفكر في إجراء تغيير في ولاية العهد، فقد ورث العرش على أن يكون أخويه الصغيرين هرقل Herakleios وتيريوس Tiberius، شريكاه في الحكم ووريثاه من بعده، وقد تم تتوجيهما في حياة أبيهما قسطنطين الثاني، وقبل أن يغادر القسطنطينية إلى صقلية، ولكن قسطنطين الرابع أراد أن يكرر ما فعله أبوه مع أخيه ثيودسيوس حتى ينفرد بالعرش، ثم ينفرد ابنه من بعده بوراثته^(١).

أراد قسطنطين الرابع من هذا التصرف الذي كاد أن يحدث شرخاً في الأسرة الإمبراطورية الحاكمة، أن تكون له السيطرة كاملة وغير منقوصة، وأن تكون له الحرية في تولية العرش من يشاء، دون إملاءات سابقة^(٢)، والواقع أن قسطنطين الرابع لم يكن نشازاً في ذلك، وإنما درج على العرف الذي كان متوارثاً في أسرة هرقل، والذي سيصبح بعد ذلك قاعدة مطبقة اكتسب الثبات والاستمرارية.

عندما بلغ ابنه جستين الثانية عشر من عمره، قام قسطنطين سنة ٦٨١م/٦٢ هـ، بحرمان أخويه من لقبهما الإمبراطوري، وعين ابنه ولياً للعهد ووريثاً للعرش^(٣).

ولم يمر تصرف الإمبراطور قسطنطين الرابع دون معارضة، فقد اعترض رجال السناتو، ورجال الجيش، على هذا التغيير، بل وذهب عساكر ثغر الأناطوليك (الناطليق) في معارضتهم بعيداً حين أعلنوا التمرد على الإمبراطور، واحتجوا على

(١) Brooks, The Brother of Emperor Constantine IV, English Historical Review, 30 (1915) P. 43

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. II. P.405.

(٣) Theophanes, Op. Cit., P. 502.

تصرفه^(١). وأكسب هؤلاء المتمردين معارضتهم صبغة دينية، حين قالوا إننا نؤمن بالتثليث، ونرغب أن يشمل التثليث أيضاً الحكام^(٢) ! ولكن الإمبراطور قنسطنطين الرابع لم يعر أى اهتمام لمعارضة مجلس السناتو، فقد سبق للمجلس أن فقد فعاليته ودوره فى أواخر عهد قنسطانز الثانى، بعد أن اكتمل نضجه، وزاد انحسار هذا الدور فى عهد قنسطنطين الرابع الذى أعانته إنتصاراته العسكرية على تحقيق مكانة كبيرة بعيداً عن سيطرة رجال السناتو^(٣). وكذلك أضمر الشر لزعماء ثغر الأناثوليك الذين تزعموا هذه المعارضة. وحتى يقضى على هذه المعارضة قام فى ذلك العام بجذع أنفى شقيقه هرقل وتيبريوس، حتى يصبحا غير صالحين للمطالبة بالعرش، وكذلك أمر بإعدام زعماء ثغر الأناثوليك الذين تزعموا المعارضة^(٤).

ولكن ما هو موقف رجال الدين من هذا التغيير؟! ينفرد المؤرخ أجاببيوس المنبجى بذكر رواية تلقى الضوء على الموقف فيذكر "أن قنسطنطين عزل أخويه عن الملك وانفرد هو به، ورخص له بطارقة الروم فى ذلك لأنه أَرْضاهم، سوى بطريق واحد منهم يقال له "لاون" فإنه لم يرخص له فى ذلك ولا رضى به. وقال: إنه لا يحل أن تعزل قومًا ملكوا علينا طوال هذا الزمان. فأمر قنسطنطين أن يقطع لسانه ويدها ورجلاه، وأن ينفى أخوته إلى جزيرة من جزائر البحر"^(٥).

إلا أن الجدير بالملاحظة هنا أن الخطوات التى أقدم عليها الإمبراطور قنسطنطين الرابع سيكون لها آثار بعيدة المدى فى تثبيت نظام وراثية العرش فى الدولة البيزنطية، حيث استقر مبدأ جعل السيادة لإمبراطور واحد، وقصر ولاية العرش على الابن الأكبر لهذا الإمبراطور^(٦).

(١) الناصرى، الروم، ص ٢٣١. أسد رستم، الروم، ص ٢٦١.

(٢) Theophanes, Op. Cit., P. 491.

(٣) Ostrogorsky, Op. Cit., P.129.

(٤) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.406; Oman, Op. Cit., P. 172

(٥) المنبجى، مصدر سابق، ص ٧٤.

(٦) Ostrogorsky, Op. Cit., P.129; Brooks, Op. Cit., P. 49.

وسيكون لهذا الجانب أثره في مستقبل الإمبراطورية وفي رسوخ نظام الحكم فيها حيث ستتخلص من إحدى أهم الأزمات التي كانت تواجهها عادة عند انتقال الحكم، بل إن هذا العامل سيكون أحد أهم أسباب بقاء واستمرار الإمبراطورية فترة أطول من الزمن^(١).

ولا شك أن الإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور قنسطنطين الرابع - وبالتحديد في النصف الثاني منه - قد شهدت تحولات وتطورات كثيرة على مختلف الصعد، سواء في سياستها الداخلية وفي شؤونها العسكرية أو الدينية، خاصة وأن الإمبراطور قنسطنطين الرابع استطاع أن يضع حدًا للهزائم المتوالية التي كانت تتلقاها من جارتها الدول الإسلامية، وأن يحصل على معاهدة سلام مكنته من أن ينعم بفترة هدوء طويلة ساعدته على أن ينطلق بقوة لتحقيق إصلاحاته المختلفة داخل الإمبراطورية، وأن يعمل على رأب صدعها، والتصدي لأهم المشكلات التي كانت تعصف بها، وهي المشكلة الدينية والخلافات المذهبية داخل الإمبراطورية ومع الغرب الأوروبي، وأن يعمل على تدعيم عرشه والانفراد بالسلطة في الإمبراطورية، وأن يعيد الجهاز الإداري والعسكري.

لقد كان من أهم التحديات التي تصدى لها الإمبراطور قنسطنطين الرابع هو وقف الهجمات الإسلامية على الأراضي البيزنطية، وهي هجمات مريرة استطاعت في فترة حكم هرقل وقنسطانز أن تنتشر بسرعة كبيرة، وأن تحقق انتصارات واسعة أدت إلى ضياع ولايات عديدة، وأرض شاسعة من أراضي الإمبراطورية، بل وربما كانت أهم أراضي الإمبراطورية وأكثرها تحضرًا وإنتاجية، فخلال سنوات قليلة استطاعت الدولة الإسلامية أن تستحوذ على مصر وبلاد الشام وأجزاء من آسيا الصغرى، وشمال أفريقيا، مما ترك أثره البالغ على الإمبراطورية اقتصاديًا واجتماعيًا ودينيًا. وكان يمكن لتلك الهجمات أن تتسع وأن يتعاضم تأثيرها وخطرها، لولا تمكن الإمبراطور قنسطنطين الرابع من التصدي لها، وقفها،

(١) جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الإسلام والدولة البيزنطية (مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ١٩٨٤م) ص ٣٠.

والاستفادة من الاضطرابات التي سادت الدولة الإسلامية في تحقيق مكاسب لدولته وإمبراطوريته، كان أقلها تلك الفترة من الهدوء التي شهدتها الجبهة الحربية، واستغلال بيزنطة لها في فرض شروطها والحصول على مكاسب مادية منها.

لقد تصرف الإمبراطور قنسطنطين الرابع بحكمة ودهاء حين شعر باستحالة استعادة الأجزاء الضائعة من الإمبراطورية في مصر والشام وفلسطين، فأخذ يعمل على تدارك الأمر، والمحافظة على ما بقي تحت سلطته وإدارته من أراضٍ، يعيد رسم سياسته للمحافظة على الولايات الغربية، بعد أن أفلتت من يديه الولايات الشرقية، فنفض يده وبيد دولته من مشكلات تلك الولايات وتوجهاتها الدينية لكي يستطيع الاحتفاظ بولاء الولايات الغربية من الإمبراطورية، ويعمل على تحسين العلاقة معها. وهي سياسات أثبتت جدواها وفاعليتها في تلك المرحلة من تاريخ الإمبراطورية.

وبعد فترة حكم استمرت سبعة عشر عاماً^(١)، توفي الإمبراطور قنسطنطين الرابع وهو في الثالثة والثلاثين من عمره متأثراً بإصابته بمرض الزحار^(٢). وكانت وفاته في سبتمبر ٦٨٥م / صفر ٦٦ هـ^(٣).

والواقع أن وفاة الإمبراطور قنسطنطين في مرحلة مبكرة من حياته جاءت نتيجة للأمراض التي يعانى منها، وإذا كان توليه العرش جاء مبكراً، فإن وفاته أيضاً كانت مبكرة. وترك الإمبراطور قنسطنطين الإمبراطورية وهي في أوضاع شبه مستقرة سياسياً واجتماعياً وداخلياً، فبمجرد وفاته أعلن ابنه وولى عهده جستنيان - الذى أمن له العرش قبل وفاته - إمبراطوراً، وكان فى السادسة عشر من عمره وهي سن يقترب من السن الذى تولى فيها والده مقاليد الأمور فى القسطنطينية.

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 504.

(٢) أسد رستم، الروم ج ٢، ص ٢٦٤.

(٣) هناك خلاف حول الشهر الذى توفى فيه الإمبراطور قنسطنطين فبعضهم يذكر سبتمبر ويقول فى أوائل سبتمبر، وبعضهم يحدد اليوم الثالث منه، وهناك من يذكر أنه فى العاشر من يوليو، إلا معظم المصادر والمراجع تذكر التاريخ الذى سجل فى المتن.
انظر: Theophanes, P. 505, note.

الفصل الخامس

الإمبراطورية البيزنطية تحت حكم

جستنيان الثاني

(٦٨٥ - ٧١١ م / ٦٥ - ٩٣ هـ)

- تجديد المعاهدة مع المسلمين.
- السياسة الداخلية والخارجية للدولة في عهد جستنيان الثاني.
- الأوضاع الدينية في عهد جستنيان الثاني.
- العلاقات الاقتصادية بين الدولتين.
- الثورة على جستنيان الثاني ونفيه.
- الإمبراطورية البيزنطية في فترة مقتصبى العرش.
- عودة جستنيان الثاني إلى العرش البيزنطى.

تولى جستنيان - والذي سيعرف بالثاني - عرش الإمبراطورية دون أيه مشكلات أو اعتراضات، فقد وطد له والده قنسطنطين الرابع الأمر، منذ أن استبعد أخويه الصغيرين اللذين كانا معلنين كورثة للعرش، حتى أنه ظهر اسمهما إلى جانبه في أول عملة فضية سككت في عهد الإمبراطور قنسطنطين الرابع^(١)، حيث حسم الأمر لصالح ابنه، مما أوجد قاعدة أصبحت راسخة فيما بعد، لتصبح وراثته العرش من نصيب الابن الأكبر للإمبراطور.

اعتلى جستنيان الثاني العرش في سبتمبر ٦٨٥م / صفر ٦٥ هـ وهو لم يتجاوز السادسة عشر من عمره^(٢).

واختلفت وجهات نظر المؤرخين في الإمبراطور جستنيان الثاني، وفي تحليلهم لشخصيته وأبعاد هذه الشخصية، من واقع الأحداث التي شهدتها فترة حكمه والتي تجاوزت الخمسة عشر عامًا، وتمت على مرحلتين حيث حكم المرحلة الأولى من سنة ٦٨٥ - ٦٩٥م / ٦٦ - ٧٦ هـ، ثم عزل عن الحكم، وتعرض لجدع أنفه والسجن والنفى، ولكنه ما لبث أن عاد مرة أخرى ليحكم من سنة ٧٠٥ - ٧١١م / ٨٦ - ٩٣ هـ^(٣). والواقع أن أحكام هؤلاء المؤرخين على الإمبراطور جستنيان الثاني، جاءت من خلال تصرفاته، وتعامله مع الأحداث التي أحاطت بالعرش البيزنطي خلال تلك الفترة الهامة من خواتيم القرن السابع ومطلع القرن الثامن الميلاديين.

(١) Warren, The Byzantine state Finance, P. 103.

(٢) Theophanes. Op. Cit., P. 506.

(٣) Ostrogorosky, Op. Cit., P.125.

فيرى أحد المؤرخين أن جستينيان الثانى كان مجردًا مما يتصف به السياسى الماهر من سداد الرأى والرزانة^(١). بينما يرى مؤرخ آخر أنه كان كأبيه وجده نكياً شجاعاً نشيطاً، وكان طموحاً متشبعاً بحب العظمة والمجد، فأراد أن يحتذى مثال سميه جستينيان الكبير، ولكنه كسائر أفراد أسرته كان يشكو شيئاً من قلة الاتزان. فتطور سوء ظنه بالناس وحبّه للعنف إلى شراسة فى الخلق ورغبة فى سفك الدماء^(٢).

ويحدد مؤرخ آخر شخصيته بقوله: إنه كان إمبراطوراً ذا نموذج مختلف عن كل الأباطرة الذين حفلت بهم سجلات الإمبراطورية الشرقية (البيزنطية)، فقد كان طائشاً، متهوراً، مهملأً، قاسياً، أنانياً، وشاباً ذا عزم ثابت فى الإصرار على فريته، وكانت له طريقته الخاصة. باختصار كان مغروراً ومهملأً فيما يعمله، وعندما تولى الإمبراطورية وكان فى السادسة عشرة من عمره، سرعان ما أظهر أنه يريد أن يحكم الإمبراطورية طويلاً قبل أن يتعلم براعة الحكم^(٣).

وهناك من صوره بأنه كان يتوقد ذكاء وفطنة، ولكنه كان طاغية لا يؤمن جانبه، ميالاً للمؤامرات والقتل، عاطفياً سريع الانفعال ولا يملك القدرة على التعقل والتفكير، حريصاً على المجد والعظمة، وباسمهما ارتكب جرائم ومغامرات طائشة كبدت الدولة خسائر فادحة^(٤).

ويعيب ثيوفانيس على جستينيان الثانى أنه كان صغير السن وأحمقاً ومرتبكاً فى إدارته، وكان لا يستشير أحداً، مخالفاً التقاليد المعمول بها^(٥).

(١) الباز العرينى، مرجع سابق، ص ١٥٦.

(٢) أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٦٤.

(٣) Oman, The Byzantione Empire, Op. Cit., P. 173

(٤) الناصرى، الروم، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

(٥) Theophanes, Op. Cit., P. 507

ويحدد استروجورسكى، وهو المتعمق فى دراسة تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وأباطرتها، موقفه من شخصية الإمبراطور جستينيان الثانى، وما شاب فترة حكمه للإمبراطورية من أحداث وتطورات بقوله: لم يكن على شئ من الذكاء أو التوازن والحذر، والعدالة التى تميز رجل الدولة، فقد كان بطبيعته سريع الانفعال والغضب والانفعال، متأثراً بجده - قنسطانز الثانى - فى ميولة، مشبعاً بروح النيوقراطية والاستبداد، دون رحمة أو شفقة، وهى الروح التى ميزت الأسرة الهرقلية، فقد جرى وراء التشبه بجستينيان الكبير فى عظمته وتصرفاته^(١) بحثاً عن الشهرة، ولكن هذا جرّ عليه من المشكلات التى لطخت سمعته، وسمعة عهده، ورغم أنه كان شاباً غير ناضج، إلا أنه كان يشتعل طموحاً للمجد والعظمة^(٢).

وهناك من يعقد مقارنة بين جستينيان الثانى ووالده قنسطنطين الرابع فيذكر أن قنسطنطين تميز بالعدالة الرزينة وبعد النظر والعقل الثاقب، بينما كان جستينيان الثانى يفتقر إلى الحرص وبعد النظر والاستقرار، إذ كان ذا طبيعة مندفعة ورثها عن جده، وكان الإمبراطور الشاب يمتلك الجرأة المندفعة بغير حساب، والمقدرة بغير اتزان، وتعوزه التجربة والكفاح ليصقلا هذه الصفات يمكن توجيهها الوجهة السليمة^(٣).

وهناك من يسم جستينيان الثانى وعهده بالقساوة والوحشية، والطغيان المتزايد^(٤).

(١) بلغ من تعلقه بشخصية جستينيان الأول، أنه عندما تزوج ابنه خان الخزر أطلق عليها اسم ثيودورا، وهو اسم زوجة جستينيان الأول الشهيرة، وذلك كى تكتمل صورة التشابه بينهما، انظر صفحة (٢٤٧) من هذا الفصل.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P.129.

(٣) وسام فرج، العلاقات بين الإمبراطورية والدولة الأموية، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٤) ج. هسى، العالم البيزنطى، مرجع سابق، ص ١٢٩.

ولكن رغم كل هذه الصفات التي التصقت بالإمبراطور جستنيان الثاني، ووسم بها عهده، وشخصيته المثيرة للجدل، فإن المؤرخين لا يجدون مفرًا من الاعتراف بأن الإمبراطور هو خير ممثل للأسرة الهرقلية رغم اندفاعه واستبداده كان حاكمًا موهوبًا، تميز بالنشاط والشجاعة والمحاولات الدؤوبة، كان حريصًا على إدراك حاجات الدولة والعمل على تحقيقها، معتزًا بأسرته وتاريخها، حرصه على العرش والسيطرة^(١).

ومع أن جستنيان الثاني، الإمبراطور ذا العهدين كان محل خلاف واضح لدى المؤرخين المحدثين من خلال فترتي حكمه وتعامله خلالهما، إلا أن المتبقي من الموسوعات التاريخية التي سردت تاريخ حكمه مثل حوليات البطريرك نيكور يوس *Breviarium of Patrich Nikephoros*، وحولية ثيوفانيس تصور أنه بدون تمييز عن أي طاغية، قاس، محب للسلطة، وعديم الرأفة، فالدرسات الحديثة عن بيزنطة تنحو إلى إعادة تقييم الفترة الأولى لحكمه (٦٨٥ - ٦٩٥م) على اعتبار أنها فترة بناءة، ذات أهمية كبرى، أكثر مما تعترف به المصادر، إلا أن الغالبية من الطرفين يتفقون على أن فترة حكمه الثانية (٧٠٥ - ٧١١م) كانت فترة إرهاب حقيقي^(٢).

والواقع أن جستنيان الثاني يدين لوالده قنسطنطين الرابع، بأصابع الدولة المستقرة التي حققها والده، خاصة بعد انتصاراته الحاسمة، وتصدية للتوسعات الإسلامية. فقد استقرت العلاقة مع المسلمين على توقيع معاهدة يدفع بموجبها المسلمون إتاوة سنوية للدولة البيزنطية، ودخلت الدولة الإسلامية بعد توقيع هذه المعاهدة، وفي أعقاب معاوية/بن أبي سفيان في سلسلة من الأزمات والفتن الداخلية، التي أضعفت الحكم الأموي، وشغلته عن التعامل مع الدولة البيزنطية، بل إن الأمويين كانوا حريصين طوال هذه الفترة على المحافظة على المعاهدة التي وقعوها مع البيزنطيين، وعلى استمرار أداء التزاماتهم المالية التي ألزمتهم بها المعاهدة مع الدولة البيزنطية.

(١) Ostrogorsky, Op. Cit., P.129; Bury; Op. Cit., Vol. II, P. 331.

(٢) Constance, (Head); Towards a Reinterpretation of the second reign of Justinian II, Vol. 39; Bruxelles, 1970, P. 14.

ولعله من المفيد أن نلقى نظرة عاجلة على الأوضاع السياسية في الدولة الأموية آنذاك، بما يعطينا لمحة سريعة عن نواحي الضعف التي كانت تضر بها الدولة الأموية عندما تولى جستنيان الثاني عرش الإمبراطورية البيزنطية.

فقد أعقب فشل المسلمين في فتح القسطنطينية وتكبيدهم خسائر فاحشة و وفاة الخليفة معاوية بن أبي سفيان سنة ٦٠ هـ / ٦٧٩ م، تاركاً لابنه يزيد عرش الخلافة ينازعه عليه كثير من كبار رجال الدولة الإسلامية، وخاصة في الحجاز والعراق^(١).

وقضى يزيد شطراً كبيراً من حياته، مستفيداً من فترة السلام مع البيزنطيين، وهو يحاول التصدي للمعارضين لحكمه، في محاولة لانقاذ عرشه والصمود أمام المعارضات التي اشتعلت في أكثر من ناحية من الدولة الإسلامية، وكان أهم المعارضين الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وعبد الله بن الزبير^(٢).

وتوفي يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م^(٣) وبويع ابنه معاوية خليفة للمسلمين في الشام، فلم يمكث إلا أربعين يوماً حتى مات^(٤). وقبل وفاته خطب في الناس قائلاً: إني وليت أمركم وأنا ضعيف عنه، فإن أحببتم تركتها لرجل قوي كما تركها الصديق لعمر، وأن شئتم تركتها شورى في ستة منكم كما تركها عمر بن الخطاب. وقد تركت لكم أمركم فولوا عليكم من يصلح لكم. ثم نزل من على المنبر ودخل منزله فلم يخرج منه حتى مات^(٥).

(١) ابن الجوزي، المنتظم، مصدر سابق، ج ٥، ص ٣٢٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٢٨٦، ٣١٦.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨ ص ٢٣٦. وقيل أن وفاته كانت في القرن الرابع عشر من شهر ربيع الأول وهو ابن ثمان وثلاثين، وقيل تسع وثلاثين، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر وقيل ثمانية أشهر.

(٤) الطبري، مصدر سابق، ج ٥، ص ٥٠٣.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، ج ١ ص ٢٣٨. ويصفه ابن كثير بأنه كان رجلاً صالحاً ناسكاً ولم تطل مدته، وهناك خلاف على الأيام القليلة التي حكم فيها.

وكادت ولاية المسلمين أن تخرج من بنى أمية إلى عبد الله بن الزبير الذى تكاثر أنصاره ومؤيدوه حتى فى دمشق ذاتها^(١)، ثم ما لبث مروان بن الحكم أن تصدى للأمر وحصل على بيعة الناس فى دمشق ليكون خليفة يواصل مسيرة الحكم فى بنى أمية، وكان ذلك فى الثالث من ذى القعدة سنة ٦٤ هـ / يونيو ٦٨٣ م^(٢). ومما يذكر هناك أن الإمبراطور قنسطنطين الرابع استغل هذه الأوضاع التى أضحت عليها الدولة الإسلامية فى أعقاب وفاة معاوية والصراع السياسى الذى حل بالدولة الإسلامية، فأراد أن يؤكد انتصاراته ويحقق مزيداً من المكاسب، فزحف بجيوشه عبر الحدود الجنوبية ليدك حصون ملاطية ويجلى العرب عن مرعش وذلك سنة ٦٨٣ م / ٦٤ هـ^(٣) واستمرت جيوش البيزنطيين تحاول توسيع دائرة نفوذها وسيطرتها فى جنوب آسيا الصغرى وأرمينيا.

واستجاب الإمبراطور قنسطنطين الرابع للطلب الذى قدمه الخليفة الجديد عبد الملك بن مروان لعقد معاهدة سلام، وكان قد أعلن خليفة فى أعقاب وفاة والده مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ / ٦٨٥ م بعد أن أمضى فى الحكم تسعة أشهر^(٤)، وكان طاعناً فى السن ويحيط به الأعداء والمتربصون.

(١) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٢٦.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ج ٨، ص ٢٤١.

(٣) أسد رستم، الروم ج ١، ص ٢٦٤. وملاطية بلدة من بلاد الروم قديمة تتاخم الشام، واتخذها المسلمون مقراً للصوائف وزانوا من مساكنها (الحموى، ج ٥، ص ١٥٣). أما مرعش فهى مدينة فى الثغر بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخنق وأقام بها آخر خلفاء بنى أمية مروان بن محمد حصناً مسوراً يعرف بالمروانى (الحموى، ج ٥، ص ١٠٧).

(٤) يروى ابن كثير قصة وفاة مروان بن الحكم بقوله: إن وفاته كانت فى ثالث أيام رمضان سنة ٦٥ هـ، وكان سبب وفاته أنه تزوج بأمر خالد امرأة يزيد بن معاوية وأراد بتزوجه لها أن يصغر ابنها خالد فى أعين الناس، وذات مرة سمعه ما يكره عن أمه، ولما أخبر أمه بذلك قررت أن تنقم منه فوضعت الوسادة على وجهه وتساملت عليها هى وجواربها حتى مات. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٥٧.

وكذلك يشير الطبرى إلى هذه الرواية، ج ٥، ص ٦١٠، ٦١١ وكذلك ابن العبرى، ص ١١، وكذلك يروى اليعقوبى الرواية ذاتها، كما يذكر رواية أخرى بأنه مات مسموماً: اليعقوبى، ج ٢، ص ٢٥٧.

وتم توقيع معاهدة سلام بين البيزنطيين والمسلمين سنة ٦٨٥ م / ٥٦٥ هـ^(١)،
وما لبث الإمبراطور قنسطنطين الرابع أن توفى في ذلك العام نفسه ليخلفه في
الحكم ابنه جستنيان الثاني.

(١) إبراهيم خميس: معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين، مرجع سابق، ص ٢٨٣. والملاحظ أن هناك خلافاً كبيراً بين المصادر الإسلامية والبيزنطية حول المعاهدات التي عقدت بين الدولتين وتواريخها وعدد بنودها وظروفها، وقد قام الدكتور إبراهيم سلامة في بحثه هذا بدارستها والمقارنة بينها ومحاولة التقريب بين مجموعة المصادر الإسلامية ومجموعة المصادر البيزنطية، وقد استفدنا من محاولته في جدولة وترتيب تلك المعاهدات.

تجديد المعاهدة مع المسلمين:

أصبح على رأس الدولتين قيادتان جديدتان وشابتان، وكان لا بد أن تنشأ سياسة جديدة وعلاقات مختلفة تعززها الظروف والأوضاع التي كانت عليها الدولتان السياسى والعسكرى، ومدى الاستقرار فيهما.

كانت الظروف والأوضاع فى صالح الدولة البيزنطية، وضد الخلافة الأموية، فالأوضاع فى بيزنطة كانت مستقرة، بينما كانت فى الدولة الإسلامية على عكس ذلك، حيث كانت الخلافة الأموية تسيطر فقط على بلاد الشام ومصر، بينما كانت الحجاز وأجزاء من العراق تحت سيطرة عبد الله بن الزبير، والمعارضون للخلافة الأموية يتزايدون^(١)

وأراد جستينيان الثانى استغلال هذه الظروف المواتية فنقض معاهدة سنة ٦٨٥م^(٢) وحرك جيوشه لقتال المسلمين^(٣)، وفى الوقت نفسه حرك أعوانه من المردة فى بلاد الشام للثورة ضد الحكم الإسلامى والذين بدورهم لمسوا ضعف الخلافة وكثرة أعدائها المحيطين بها^(٤).

(١) ابن كثير، مصدر سابق ج ٨، ص ٢٦٠.

(٢) يذكر أرشيبالد لويس أن عبد الملك بن مروان هو الذى نقض المعاهدة إذ قطع الإتساءة المتفق على تسليمها للقسطنطينية لوقف العمليات الحربية، (القوى البحرية، ص ٩٩). بينما تذكر المراجع الأخرى أن جستينيان الثانى هو الذى نقض المعاهدة من واقع معرفته بأوضاع الدولة الإسلامية، وهذا ما نعتقده إذ لا يعقل أن يبادر عبد الملك بن مروان إلى نقض المعاهدة وهو يعلم حقيقة أوضاعه وظروف دولته. انظر: الباز العرينى، ص ١٥٧. أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٦٤. محمد مرسى الشيش، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٠٣. العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ٢٠٥ سديو: خلاصة تاريخ العرب، ص ٧٨.

(٣) أسد رستم، الروم ج ٨ ص ٢٦٤.

(٤) ابن كثير، مصدر سابق، ج ٨، ص ٣١٣.

ولكن عبد الملك بن مروان سارع للتصدي لهذا الأمر، فأرسل سفارة إلى الإمبراطور جستيان الثاني^(١)، تحمل مشروعًا لتجديد المعاهدة المعقودة بين الدولتين في أواخر أيام قنسطنطين الرابع، والتي عرفت بمعاهدة ٦٨٥م^(٢). ووصلت إلى القسطنطينية سفارة إسلامية على رأسها حميد بن حريث بن بحدل الكلبى وكريب بن أبرهة بن الصباح الحميرى، ومعها الهدايا والألطف^(٣).

واستطاعت السفارة أن تصل في القسطنطينية إلى اتفاقية جديدة عرفت باتفاقية سنة ٦٨٩م / ٧٠ هـ، وبدت بنودها ظاهرًا في صالح الإمبراطورية البيزنطية، حيث تقرر بموجبها أن تدفع الدولة الإسلامية لبيزنطة مبالغ كبيرة من المال تفوق تلك التي كان منصوصًا عليها في الاتفاقية السابقة، وثلاثمائة وستين عبدًا سنويًا، وثلاثمائة وستين جوادًا كريمًا^(٤)، وأن يقسم خراج ولايات أيبيريا وقبرص وأرمينيا مناصفة بين الدولتين، كما تضمنت الاتفاقية بندًا جديدًا وهامًا هو قيام الإمبراطورية البيزنطية بنقل المردة (الجراجمة) من داخل ومن تخوم الدولة الإسلامية إلى مناطق أخرى في أراضى الدولة البيزنطية، وأن تكون مدة الاتفاقية عشر سنوات^(٥).

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 506.

(٢) من المؤرخين من يرى أن جستيان لم يكن يريد بتحركاته وتحريك المردة إلغاء اتفاقية سنة ٦٨٥ م وإنما كان يريد إرهاب الدولة الإسلامية في فترات اضطرابها، وتحقيق مكاسب جديدة. انظر Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 332 وإبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ٢٠٦.

(٣) الطبرى، مصدر سابق، ج٦، ص ١٥٠. تاريخ يعقوبى، مصدر سابق ج ٢، ص ٢٦٩. منبجى، مصدر سابق، ص ٧٨، هامش رقم (٢).

(٤) وهناك خلاف بين المؤرخين حول المبالغ التي التزم عبد الملك بدفعها للإمبراطور البيزنطية، فيذكر البلاذرى (فتوح البلدان، ص ١٦٤) وابن كثير (ج ٢، ص ٣١٣) أنها كانت ألف دينار في كل جمعة، فيما يذكر المنبجى (ص ٧٨) أنها كانت كل يوم ألف دينار وقرس وغلانم، ويذكر ثيوفانيس (Theophanes, P.506) أنها كانت ألف قطعة ذهبية وجوادًا وعبداً يوميًا. بينما يذكر أرشيبالد (ص ٩٩) أنها كانت ٥٠٠ رطل من الذهب و ٣٦٥ أسيرًا و ٣٦٥ حصانًا. ويلاحظ أن المصادر الإسلامية جعلت المبلغ أسبوعيًا، في حين أن المصادر البيزنطية جعلته يوميًا فى محاولة لتبرير قيام الإمبراطورية بالموافقة على نقل المردة من بلاد الشام إلى خارج الأراضى الإسلامية.

(٥) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.406; Ostrogorosky, Op. Cit.. P.129، المنبجى، مصدر سابق، ص ٧٨.

والواقع أن هذه الاتفاقية قد شغلت جانباً كبيراً من نقاشات المؤرخين والمحللين وتباين وجهات نظرهم حيال بنودها ودرجة الذكاء والدهاء السياسي للموقعين عليها.

فالبعض نظر إليها كانتصار جديد للإمبراطور جستنيان الثاني الذي استطاع أن يحصل على زيادة جديدة في الإتاوة السنوية التي كان على الدولة الإسلامية تقديمها لدولته، أكثر من تلك الإتاوة التي كان يحصل عليها والده^(١)، حيث رأى الإمبراطور في الحصول على المبلغ الضخم من خزينة الدولة الإسلامية، رمزاً لعظمة الدولة البيزنطية وقوتها. والبعض الآخر نظر إليها على أنها انتصار لعبد الملك بن مروان الذي استطاع أن يشتري السلام بالمال في أشد الأوقات حاجة إليه لتدبير أمور دولته التي كانت تحيط بها الفتن والأعداء والثائرون المتربصون بها من الداخل^(٢) خاصة وأن هذا السلام يعطيه فرصة لترتيب أمور دولته، واستجماع قوته، ويحمي بلاد الشام من الوقوع في قبضة البيزنطيين^(٣).

واعتبرت هذه الاتفاقية بما حوته من بنود - وبالذات نقل المردة - دليلاً على حنكة عبد الملك السياسية وبعد نظره، وفي الوقت نفسه دليلاً على قصر نظر معاصره الإمبراطور البيزنطي أو قلة إدراكه^(٤). حيث أن الخليفة استطاع من خلال هذا البند التخلص من خطر دائم التهديد للأسطول الإسلامي وللأراضي الإسلامية، وكان عبئاً على المسلمين، وبؤرة من بؤر المشكلات والاضطرابات في الدولة، خاصة وأن الدولة الإسلامية لم تستطع أن تحكم سيطرتها على هؤلاء المردة^(٥).

(١) Ostrogorsky, Op. Cit., P.229، الباز العريني، مرجع سابق، ص ١٥٧.

(٢) أسد رستم، أنطاكية، ج ٢، ص ٦٥ ٦٥، Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 215.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣١٣.

محمد ضياء الدين الرئيس: عبد الملك بن مروان والدولة الأموية (الطبعة الثانية، مطابع سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٩م) ص ٢٠٨.

(٤) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 331.

(٥) العدوي، قوات البحرية العربية، مرجع سابق، ص ٦٨.

وشكلت قضية نقل المردة وتهجيرهم بهذا الشكل الجماعي، تحت إشراف وقوة الدولة البيزنطية واحدة من النقاط السلبية التي أخذها المؤرخون البيزنطيون والغربيون على الإمبراطور جستينيان الثاني، وصبوا عليه بسببها جام غضبهم، وسخرتهم من قلة إدراكه وقصر نظره. حتى أن ثيوفانيس وهو المؤرخ الرئيسي لهذه الفترة وصفه بالأحمق والفاشل في الأمور السياسية^(١)، وأنه بنقله للمردة قاست رومانيا (آسيا الصغرى) كل أنواع المقاساة على يد العرب حتى يومنا هذا^(٢). (يقصد أيامه أي حتى خواتيم القرن الثامن الميلادي) ويصف بيوري هذه العملية بقوله: "إن جستينيان قد بتر القوة الرومانية بإزالة الحائط النحاسي الأ وهو المردة"^(٣). ويصف فينلاي هذا التصرف بقوله: "لقد كان نقل المردة من الشام من أكبر الأخطاء التي ارتكبتها جستينيان الثاني، لقد قضى على بسالة أولئك المحاربين تمامًا"^(٤) ويذكر فاسيليف: "أن المردة كانوا حائطاً نحاسياً حمى آسيا الصغرى من هجمات العرب، وبإجبارهم على الانتقال إلى داخل الإمبراطورية وتفريقهم أدى إلى تقوية تحركات العرب في عمق آسيا الصغرى". ويضيف فاسيليف مستغرباً من هذا التصرف: "لا يوجد أي سبب كاف للنظر إلى هذا الحادث الخطير، وإعادته إلى أسباب دينية كما يرى المؤرخ الروسي كولاكوفكي Kulakoveke، والذي نظر إليه على أنه موقف أملاه احترام الإمبراطور لنصارى كانوا يحكمون من قبل أناس لهم عقيدة غريبة" ويؤكد فاسيليف أن هذا النزوح كان سياسياً بالدرجة الأولى، وأملته العقلية السياسية^(٥).

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 507.

(٢) Theophanes, Op. Cit., P. 506.

(٣) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 331.

(٤) Finlay, Op. Cit., Vol. I. P.387.

(٥) Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 215.

وهناك من يشير إلى الجانب الديني من ناحية أخرى، فيذكر أن من بين أسباب الموافقة على نقلهم أن المردة كانوا نصارى على المذهب المونوفيزتي المخالف لمذهب الدولة، ولذلك لم تنظر إليهم الدولة البيزنطية بارتياح نظراً لمذهبهم البغيض لدى الأباطرة البيزنطيين، خاصة في هذه الفترة التي كانت الدولة قد اتخذت قرارها بالتخلي عن تلك المذاهب، التي كانت سائدة في الشرق، ولم تعد في حاجة إلى مجاملة أولئك القوم الذين أصبحوا تحت حكم الدولة الإسلامية. انظر: قنسطنطين السابع، إدارة الإمبراطورية، مصدر سابق، ص ٨٥.

ويقول محرر موسوعة كمبريدج للعصور الوسطى: "إن جستنيان استفاد من اثني عشر ألفاً من المردة الذين فرقهم في أنحاء إمبراطوريته، وربما كانت تلك الخطوة قد زادت من قوته الحربية، ولكن ربما تكون تلك القوات ذات فائدة أكبر لو بقيت ضمن حدود الدولة الإسلامية"^(١) ويأسف ستراتوس على نقل المردة ويصفهم بأنهم "كانوا شوكة في لحم السلطة الإسلامية شمال سوريا ولبنان"^(٢).

وهناك من يدافع عن قرار الإمبراطور ويبحث عن مبررات له، فيقول ليندسي Lindasy متسائلاً: "هل فعل جستنيان الثاني ذلك لأنه لم يكن أمامه خيار سوى قبول شروط العرب؟ أم لأن سياسته العامة كانت ترمي إلى تجميع القوى القادرة على المقاومة حول بيزنطة، وعلى أساس أنه رأى أن يكون المحاربون الأشداء على مقربة منه؟! أم لأنه أدرك تهديد نظام ملكية الأرض الذي كان المردة يمثلونه، وأراد أن يقضى عليه بنقلهم من الشام، وإعادة توزيعهم في مناطق أخرى؟ ويحتمل أن يكون أحد هذه الأسباب أو كلها مجتمعة هو الدافع للإمبراطور على المردة، وتوطينهم في مناطق أخرى"^(٣).

ويرجع أستروجورسكي عملية نقل المردة إلى سياسة توطين الأجناس، ونقل السكان إلى الأماكن التي كانت تشهد فراغاً بشرياً، وهي سياسة أقدمت عليها الإمبراطورية في مراحل مختلفة من تاريخها^(٤).

على أية حال، وأياً كانت نظرة هؤلاء المؤرخين إلى موافقة الإمبراطور جستنيان الثاني على نقل المردة، فإن الإمبراطور قد سارع إلى تنفيذ هذا البند، حيث أرسل الاستراتيجوس ليونتيوس Leontios على رأس فرقة بيزنطية إلى أرمينيا لنقل المردة^(٥).

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.409.

(٢) Stratos, Op. Cit., Vol. 4, P.39.

(٣) Lindasy, Byzantium into Europe, London, 1929, P.129.

(٤) Ostrogorsky, Op. Cit., P.129.

(٥) Theophanes, Op. Cit., P. 507.

ويذكر الدكتور أسد رستم نقلًا عن تاريخ الطائفة المارونية لمؤلفه أسطفان الدويهي، أن الإمبراطور جستين الثاني بعث بقائده إلى أمير المردة يوحنا متظاهرًا بطلب النجدة منه ضد العرب، جاء القائد إلى قب إلياس حيث مسكن الأمير، فلقى ترحابًا وتكريمًا وجلس يحدث الأمير عن غزو العرب، ثم أشار إلى جنده - وكانوا على علم بمقصده - فوثبوا على الأمير فقتلوه، وفتكوا بكثيرين من بطانته، ثم أعتذر إلى الأمير سمعان - ابن أخت الأمير يوحنا - معيذًا الكلام عن رغبة الإمبراطور (الفسيلفس) في أن يتلقى نجدة المردة، وطفق يزين لهم أن يصحبوه إلى القسطنطينية، فأجابوه إلى ما طلب، وتجمهر اثنا عشر ألفًا منهم يتزعمهم الأمير سمعان، وساروا إلى الإمبراطور^(١). ويذكر ثيوفانيس أن الإمبراطور انتقل شخصيًا إلى أرمينيا ليشرف على عملية إيواء النازحين من المردة^(٢). ثم قام بعد ذلك بتوزيعهم في تراقيا وأرمينيا وكزيكوس وأنحاء أخرى من آسيا الصغرى^(٣).

وكانت النتيجة المباشرة لنقل المردة من بلاد الشام ومن حدودها الشمالية أن أصبحت حدود الدولتين متاخمة لبعضها البعض، وبلا جماعات حاجزة تعطل تقدم المسلمين في آسيا الصغرى، كما كان يفعل المردة الذين عرفوا بأنهم حائط آسيا الصغرى الفولاذي^(٤).

في المقابل ونظرًا للتأثيرات الكثيرة التي أحدثها هذا النقل للمردة إلى خارج الأراضي الإسلامية وبعيدًا عن حدودها، وتحت إشراف وضغط مباشر من الإدارة البيزنطية، فإن المؤرخين اعتبروا ذلك دليلًا ناصعًا على حنكة عبد الملك السياسية وبعد نظره، وعدّوه انتصارًا كبيرًا له، حيث استطاع أن يتخلص من بؤرة

(١) أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٦٥.

(٢) Theophanes, Op. Cit., P. 507.

(٣) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 331.

(٤) وسام فرج، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية، مرجع سابق، ص ٤٥.

المشكلات في دولته، فقد كان المردة يلعبون دورًا خطيرًا داخل الدولة الإسلامية ويعطلون نشاطها وتقدمها العسكري في آسيا الصغرى، وفي الوقت نفسه فقد اعتبروا ذلك قصر نظر من الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني، الذي عرض باستجابته لمطالب عبد الملك، الإمبراطورية لخطر جديد سرعان ما ظهرت آثاره، حيث أغراه المال الذي قدمه الخليفة لسرعة الاستجابة دون أن ينتبه لخطورة هذه الخطوة على دولته، وعلى حدودها التي أصبحت متاخمة مباشرة لحدود الدولة الإسلامية.

السياسة الداخلية والخارجية للدولة في عهد جستنيان الثاني:

وجد الإمبراطور جستنيان الثاني في معاهدة السلام التي عقدها مع المسلمين، والمبالغ المادية التي أصبحت ترد إليه منهم، فرصة للاهتمام بالشئون الداخلية للإمبراطورية، ويبدو أن شره الإمبراطور للأموال وانصرافه إلى المغامرات ورغبته في التشبه بجستنيان الأول في البناء والتشييد والإسراف فيهما، مما جعله يتقل على رعاياه بأعباء مالية ضخمة، وتحصيل هذه الأموال دون شفقة أو رحمة، والاعتماد في تحقيق ذلك على التشدد في جمع الضرائب، دفعه لأن يوكل تصريف السياسة الداخلية للدولة بشكل كبير إلى اثنين من الوزراء ممن اكتسبوا سمعة في التعامل مع المواطنين. الأول يسمى ثيودوتوس Theodotus، وكان راهباً ورئيساً لأحد الأديرة، وعينه الإمبراطور مسئولاً عن الشئون المالية، والثاني خصي فارسي داهية يدعى ستيفانوس Theophanes وكان يتولى تصريف أمور القصر الإمبراطوري، ومسئولاً عن الخزانة الخاصة للقصر^(١).

وقد تسلط هذان الوزيران على كل مقدرات الإمبراطورية، واستشرى الفساد والفوضى في الداخل. وكان نتيجة تصرفاتهما أن كثرت المصادرات والاستيلاء على الأموال باسم الإمبراطور، وكثرت جرائم التعذيب والموت لمن يعترضون على إجراءاتهما، وتسببت تلك الإجراءات في زيادة الكراهية لحكم جستنيان، وتلويت عهده، والنقمة عليه، ويذكر المؤرخون أنه نتيجة لهذه الإجراءات فقد تحولت القسطنطينية إلى سجن كبير^(٢).

(١) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 324.

(٢) Oman, Op. Cit., P. 174.

وفي الجانب السياسي كان من النتائج المباشرة لتوقيع معاهدة السلام مع المسلمين، أن انطلق الإمبراطور جستنيان في مغامرة جديدة لمهاجمة السلاف والبلغار، خاصة وأنه لم ينس تلك الهزيمة الفادحة التي تعرض لها والده في حربه مع البلغار، والمكانة التي أصبح عليها هؤلاء في أعقاب توقيعهم لمعاهدة سلام مع والده وحصولهم على إتاوة سنوية من الإمبراطورية، واستشعر جستنيان الثاني تنامي دولة البلغار وخطرها على الإمبراطورية.

جرد جستنيان الثاني حملة عسكرية عام ٦٨٩م / ٧٠ هـ، قادها بنفسه لمحاربة السلاف والبلغار^(١). واستطاعت هذه الحملة أن تحقق انتصاراً كبيراً، حيث توغل الإمبراطور عبر أقاليم استقرت فيها قبائل سلافية حتى وصل إلى بالونيكيا التي كانت تتاضل لعدم الوقوع تحت يد البلغار^(٢). وكانت منطقة البلقان تموج بأعداد ضخمة من السلاف الذين زادوا من ضغطهم بعد أن انضم إليهم البلغار.

وكان لنجاح هذه الحملة نتائج كبيرة، فقد أدت إلى توطيد مركز سالونيكيا كقاعدة هامة للإمبراطورية البيزنطية، وأصبحت مرتبطة بإقليم تراقيا، إلى جانب تأكيد السلطة المركزية الإمبراطورية على إقليم ستريمون Strymon الذي يقع شمال سالونيكيا^(٣).

وكذلك كان من نتائجها أن برزت سلطة الإمبراطورية في البلقان، حيث سمح الإمبراطور جستنيان الثاني - مثل سلفه قنسطانز الثاني - ببقاء المجتمعات السلافية داخل حدود الإمبراطورية بشرط خضوعها للسيادة البيزنطية، فقد تبلورت سياسة الدولة في هذه المنطقة بأن تقوم هذه العناصر بزراعة الأراضي التي هجرها أصحابها تحت وطأة الغزو الخارجي وأن تتقبل الحضارة البيزنطية، واللغة والمعتقد الديني، وتتخرط في جند الثيمات للدفاع عن الإمبراطورية، وصولاً إلى كسب دماء وعناصر جديدة منتجة^(٤).

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 498، ويذكر ثيوفانيس أن من بين أهدافه من هذه الحملة أيضاً

الحصول على أسرى من السلاف والبلغار لضمهم إلى جيوشه التي كانت تشهد نقصاً كبيراً

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P.130.

(٣) وسام فرج، السلاف في شبه جزيرة البلقان، مرجع سابق، ص ١٥٤.

(٤) Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 173; Oman, Op. Cit., P. 173.

على أن أهم نتيجتين تمخضت عنهما الحملة كانتا أولاً: توجيه رسالة واضحة إلى البلغار، والعمل على طردهم بعيداً عن تراقيا وإقليم سالونيكيا. ووضع حاجز بينهم وبين السلاف لعرقلة تكوين دولة قوية تهدد الإمبراطورية^(١).

وأما النتيجة الثانية الهامة، فهي قيام الإمبراطور جستينيان الثاني في أعقاب انتصاره على الصقالبة بتهجير عدد كبير منهم بلغوا أكثر من ثلاثين ألفاً، وقد كون منهم فرقة عسكرية نقلها إلى آسيا الصغرى ليعوضوا النقص الهائل في عدد سكانها، وليعملوا على حمايتها من الغزوات الإسلامية، وضمهم إلى ثيم الأوبسيسيق Opsikion. كما استفاد منهم إقليم بثينيا Bithynia الذي كان يشهد نقصاً حاداً في السكان.

وأراد الإمبراطور جستينيان الثاني أن يصبغ انتصاره هذا بصبغة دينية، وأن يوطد علاقته بالهيئات الدينية في سالونيكيا، ففي غمرة الاحتفالات بهذا النصر، أصدر مرسوماً منح فيه كنيسة القديس ديمتري في سالونيكيا عددًا من الامتيازات والهدايا والهبات، وأعفى الكنيسة من الضرائب، معترفًا بفضل قديسها في منحه هذا الانتصار^(٢).

وبهذا النقل والتهجير للسلاف إلى آسيا الصغرى، يكون جستينيان الثاني قد تابع ما فعله سلفه قنسطانز الثاني من توطين للسلاف في آسيا الصغرى، ولكن بشكل أوسع، وقامت هذه الجماعات السلافية بتقديم قوة عسكرية قوامها ثلاثون ألف رجل، سلحهم الإمبراطور وأسماهم بـ "الجيش المختار"، مما أدى إلى زيادة المقاتلين في الجيش البيزنطي، في الوقت الذي عمل هؤلاء السلاف على إنعاش الريف الذي كانت الهجمات المعادية قد استباحته، وأحدثت نقصاً هائلاً في سكانه وإنتاجيته^(٣).

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.406.

(٢) Theophanes, Op. Cit., P. 508. ويحدد ثيوفانيس موقع ثيم الأوبسيسيق بأنه يشغل المنطقة الشمالية

الغربية للأناضول، إلى الغرب من ثيم الأرميناك الذي يقع إلى الشمال من ثيم الأناضول

(٣) عائشة أبو الجدايل، مرجع سابق، ص ١٨٧.

ويبدو أن الظروف التي تولى فيها الإمبراطور جستنيان الثاني العرش قد شهدت نقصًا كبيرًا في سكان الإمبراطورية، لذلك فقد نشطت حركة النقل والتهجير في عهده، وكان من بين الذين هجروا المردة، ثم السلاف الذين تم تهجير بعضهم إلى آسيا الصغرى، وأُعترف للبعض الآخر بحق البقاء في البلقان لملء الفراغ الذي كانت تعانيه الإمبراطورية في تلك الأنحاء، وخاصة في شرق مقدونيا وتراقيا والإقليم المحيط بسالونيك، حيث كانت كثافة السكان البيزنطيين قليلة جدًا، وحتى يشكوا واقياً من التسلسل البلغاري.

وشمل النقل والتهجير أيضًا طائفة من القبارصة الذين تم نقلهم إلى جزيرة "كزيكوس" بعد استعادتها من المسلمين، وقد وصف ثيوفانيس هذه العملية بأنها كانت فاشلة، لأن عددًا كبيرًا منهم قد هلك غرقًا، والبعض الآخر مات بسبب الأمراض^(١)

وبطبيعة الحال فإن حركة النقل والتهجير هذه التي توسع فيها الإمبراطور جستنيان الثاني، لمواجهة إحدى أزمات الإمبراطورية في فترة حكمه وهي فراغ بعض المواقع الخطيرة والحساسة من السكان، قد كلف الخزينة أموالًا طائلة، وكلف الإدارة جهودًا مضمّنية^(٢)، إلا أن هناك من يرى أن ذلك كان مفيدًا للدولة البيزنطية لأنه غذى الإمبراطورية بدماء جديدة عن طريق نقل جماعات كبيرة من منطقة إلى أخرى^(٣)، وهناك من ينظر إليها على أنها سياسة عملية، إذ سدت حاجة جوهرية للدولة^(٤).

(١) Theophanes. Op. Cit., P. 509; Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 323.

وهناك من يرى أن من أهداف الإمبراطور في نقل طائفة من السكان من قبرص إلى أنحاء أخرى من الإمبراطورية هو الرغبة في الأضرار بمصالح الخلافة الإسلامية، حيث يقل نصيبها من الجزية المفروضة على قبرص، والتي كان يتم اقتسامها بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية، وكذلك لأن أولئك المنقولين أصبحوا على مقربة من المسلمين. انظر: الباز العريني، ص ١٥٩.

(٢) Foord, E; The Byzantine Empire, London, 1911, P.140.

(٣) هسي العالم البيزنطي، مرجع سابق، ص ١٢٦.

(٤) الباز العريني، مرجع سابق، ص ١٦٠.

على أن المستفيد الحقيقي من حركة النقل والتهجير خلال هذه الفترة هو نظام الثغور أو الثيمات، والذي شهد نقلة جديدة في هذه الفترة من تاريخ الإمبراطورية، ودفعة كبيرة نتيجة لزيادة أعداد الجنود، جعلته أحد الأجهزة الرئيسية في الإدارة البيزنطية، فقد شهد هذا النظام توسعاً كبيراً واستكمل مقوماته، وأصبح مستقراً وراسخاً، حتى أن قائده صاروا يحضرون جلسات المجلس الإمبراطوري ويشاركون في أعماله^(١).

ويبدو أن هذه القوة العسكرية التي توفرت للإمبراطورية البيزنطية قد أغرت الإمبراطور جستنيان الثاني، وجعلته يصم آذانه عن احتجاجات المسلمين عن تلك الخروقات التي كانت تقوم بها قواته للاتفاقية المعقودة بين الدولتين، فقد حدث أن قام القائد المسئول عن تيم الأناضول ليونتيوس بإخضاع كل من ألبانيا وإيبيريا، وإعادة إعادتهما إلى السلطة البيزنطية المباشرة، رغم النص عليهما في الاتفاقية على أن تكونا مناطق غير خاضعة لأي من السلطتين الإسلامية أو البيزنطية^(٢).

وكذلك احتج المسلمون على نقل أعداد من القبارصة إلى جزيرة كزيكوس، ولكن الإمبراطور لم يأبه لكل هذه الاحتجاجات^(٣) بل ذهب به الغرور بعيداً حتى أن ثيوفانيس يذكر أن الإمبراطور أرسل مهدداً عبد الملك بأنه لن يتقيد بالصلح المعقود بينه وبينهم^(٤).

والبواقع أن عبد الملك بن مروان كان مضطراً للاكتفاء بالاحتجاج، لأنه كان ما زال مشغولاً بتوطيد أركان حكمه والتصدي للثوار والخارجين عليه، وكان أهمهم في تلك الفترة عبد الله بن الزبير الذي كان يسيطر على الحجاز وأجزاء من العراق^(٥).

(١) Ostrogorsky, Op. Cit., P.133; Holdon, Op. Cit., P. 253.

(٢) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 231

(٣) الباز العريني، مرجع سابق، ص ١٥٩؛ 131، Ostrogorsky, Op. Cit.

(٤) Theophanes, Op. Cit., P. 509.

(٥) الطبري، مصدر سابق، ج ٦ ص ١٦٢، ١٧٤، ١٨٧، وهذه الصفحات تفاصيل استعادة عبد الملك

للكوفة واليصر بعد مقتل مصعب بن الزبير، والحجاز بعد مقتل عبد الله بن الزبير في مكة. وكذلك

ابن الجوزي، المنتظم، مصدر سابق، ج ٦، ص ١١٠، ١٢٤



الأوضاع الدينية في عهد جستنيان الثاني:

لقد كان التصدى للقضايا الدينية واحداً من الأمور الهامة التي ركز عليها أباطرة الأسرة الهرقلية، ومنهم الإمبراطور جستنيان الثاني، خاصة وأنه أظهر اهتماماً مبكراً بالمسائل الدينية وتركيزاً على التوجه الديني، حتى أنه كان أول إمبراطور يضع صورة للمسيح (عليه السلام) على العملة، وفي الوجه الآخر نقش عبارة عبد المسيح *Servus Christi* ^(١). وتأكيداً لهذا التوجه دعا الإمبراطور سنة ٦٩١م / ٥٧٢هـ إلى عقد مجمع ديني كبير، خصصت أعماله لمعالجة مشكلات الكنيسة من حيث الإدارة والضبط، حيث لوحظ أن المجمع السابقة - وبالذات الخامس والسادس - قد اهتمت بأمور العقيدة، وما سادها من خلافات حول المنوفيزتية والمونوثولستية وغيرها من المذاهب ^(٢).

وعرف هذا المجمع بعدة أسماء منها: المجمع الخامس والسادس، أو البنتيكيتي *Penthektos* ^(٣) ويسمى في آداب الكنيسة الغربية *Quinisextum* ^(٤)، وكذلك يعرف باسم مجمع ترولان *Trullan*، أي القبة نسبة إلى المكان الذي عقد فيه في القصر الإمبراطوري ^(٥). وهو في الواقع ملحق للمجمعين السابقين الخامس والسادس.

حيث عقد الأول سنة ٥٥٣م، وعقد الثاني سنة ٦٨١م.

(١) Ostrogorsky, Op. Cit., P.138.

(٢) أسد رستم، كنيسة أنطاكية، ج ٢، ص ٥١.

(٣) أسد رستم، الروم ج ١، ص ٢٦٨.

(٤) Ostrogorsky, Op. Cit., P.138.

(٥) Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 225.

واشترك في هذا المجمع مئتان وسبعة وعشرون أسقفاً، وقيل مئتان وأربعون، وكان أبرز المشاركين بولس بطريرك القسطنطينية، وبطرس بطريرك الإسكندرية، وجاورجيوس بطريرك أنطاكية، وأنسطاسيوس بطريرك المقدس، وأسقى غوزتيني (كريت) ورافنا نائبين عن بابا روما^(١).

وأصدر المجتمعون مائة واثنين قانوناً، كان أولها التمسك بالعقيدة الأرثوذكسية كما جاءت في أعمال المجامع الستة، وكرروا شجب الهرطقة وحرّم القائلين بها بما فيهم الباب أونوريوس، وثانيها تأييد القوانين التي سنّها سلفاؤهم أعضاء المجامع السابقة^(٢). ثم سنوا بعد ذلك مائة قانون تعلقت بأمور الكنيسة والأخلاق المتدهورة، وكان منهم: علاقات الشمامسة بالقساوسة، وزواجهم، والسن التي يجب أن يبلغها رجل الدين قبل سيامته، وتحريم الدين بالربا على رجال الدين، والرشوة للوصول إلى المناصب الكنائسية، وبحث الكتب المقدسة وكيفية استعمالها والمحافظة عليها والتعليم، وأمور الرهبنة والأديرة والجمعيات السرية، وعتق الرقيق، والتصاوير البديئة والسحر والكهانة وأمر اليهود^(٣) ومنع طلبة جامعة القسطنطينية من الاشتراك في الاستعراضات المسرحية، وإنكار صيام أيام السبت^(٤) وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالكنيسة، والأمور الأخلاقية. وما يحقق تأكيد سيادة الإمبراطور على الكنيسة^(٥)، ومكانة كنيسة القسطنطينية حيث تقرر أن لكنيستها التقم أسوة بكنيسة روما القديمة، وأن تعظم مثل كنيسة روما في الأمور الكنسية، وأن يحسب بعدهما كنيسة الإسكندرية، ثم كنيسة أنطاكية، ثم بيت المقدس^(٦).

(١) أسد رستم، كنيسة أنطاكية، ج ٢، ص ٥١

(٢) أسد رستم، والمرجع السابق، نفس الجزء ونفس الصفحة.

(٣) أسد رستم، الروم ج ١، ص ٢٦٨. وأيضاً: كنيسة أنطاكية، ج ٢ ص ٥٢.

(٤) Ostrogorsky, Op. Cit., p. 139.

(٥) د. وسام فرج، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية، مرجع سابق، ص ٤٨.

(٦) أسد رستم، نحن ورومة والفتيكان، مرجع سابق، ص ٢٥.

ودونت أعمال هذا المجمع في ست نسخ، واحد للإمبراطور، وخمس نسخ لكل واحد من البطارقة المشاركين، وأرسلت جميعها إلى روما ليعتمدها البابا سرجيوس الأول (Sergius) (٦٨٧ - ٧٠١ م / ٦٨ - ٥٨٢) ولكن البابا رفض التوقيع على قرارات المجلس بسبب وجود فقرات معينة تعترض عليها كنيسة روما، مثل: تحريم الصيام يوم السبت والسماح بزواج رجال الدين^(١)

واستشاط الإمبراطور جستينيان الثاني غضبًا لهذا الرفض، وقرر أن يكرر ما فعله جده قنسطانز الثاني حين أمر أرخون رافنا بإلقاء القبض على البابا مارتن الأول، وإرساله مخفورًا إلى القسطنطينية^(٢). وفعلاً أرسل مندوبًا إلى رافنا يحمل تعليمات للقبض على البابا، ولكن حامية رافنا وقفت إلى جانب البابا وساندته ضد النائب الإمبراطوري الذي كاد أن يقتل^(٣). وأثبتت هذه الحادثة أن الظروف في إيطاليا وفي الإمبراطورية قد تغيرت، إذ كانت مشاعر سكان إيطاليا إلى جانب البابا هذه المرة بشكل قوى. وكانت النتيجة المباشرة لهذا أن العداء عاد مرة أخرى بين بيزنطة وروما، وقضى على فترة السلام والهدوء القصيرة التي تحققت في فترة الإمبراطور قنسطنطين الرابع بين الطرفين.

وأقلت هذه الأزمة بظلالها على أوضاع الإمبراطورية الداخلية، خاصة أن الإمبراطور كان يسعى إلى تحقيق أي دور في المسألة الدينية، يقارن بتلك الأدوار التي لعبها الإمبراطور جستينيان الأول، وهو الذي كان حريصًا على التشبيه به، فقد شعر بهزيمة كبيرة أمام رفض البابا اعتماد قرارات هذا المجمع الذي دعا إليه ورعاه وخطط له، وعدم قدرته على المساس به أو معاقبته، وشعر بالمهانة أكثر، إذ كيف وهو الذي اشتهر بالنقوى يرفض الأخذ بقرارات مجمهه الديني. يضاف

(١) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I, p. 22; Ostrogorosky, Op. Cit., P.139; Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 327

(٢) سبق أن ناقشنا ذلك عند الحديث عن الأوضاع الدينية في عهد الإمبراطور قنسطانز الثاني ص (٩٨)
(٣) الناصري، الروم، ص ٢٣٥، Camb. Med. Hist. Vol. II, P.408 وكذلك: Vasiliev, Op. Cit., Vol. II, p. 225.

إلى ذلك أن الأوضاع الداخلية كانت متأزمة أصلاً نتيجة لتصرفات وطغيان وزيريه ستيفانوس وثيودوتوس، وتردى سياسته الداخلية، مما انعكس بالتالي على سياسته الخارجية، والتي بلغت أسوأ درجاتها في الهزيمة الفادحة التي تعرض لها في الحرب التي شنّها على المسلمين.

العلاقات الاقتصادية بين الدولتين:

ففي سنة ٦٩٢م / ٥٧٣ هـ أعلن جستنيان الثاني الحرب على المسلمين بسبب وصول الإتاوة السنوية التي كان يرسلها عبد الملك إليه، بموجب اتفاقية السلام، في شكل جديد، وصياغة إسلامية، مخالفة للمعهود، حيث كانت العملة التي تسلم بها الإتاوة في السابق هي العملة البيزنطية، التي تحمل صورة الإمبراطور ونقوشه، أما العملة الجديدة فهي في مسمى جديد، وعليها نقوش غريبة - على الإمبراطور - تحمل شعارًا إسلاميًا هو "لا إله إلا الله"^(١). مما مثل تحديًا جديدًا للدولة البيزنطية، لم يجد الإمبراطور ردًا له سوى إعلان الحرب على المسلمين.

والواقع أن قضية تعريب النقود، أو إيجاد عملة خاصة بالدولة واحدة من القضايا الهامة في تاريخ الدولة الإسلامية، وتاريخ العلاقات بين الدولتين الأموية والبيزنطية، خاصة وأنها كانت واحدة من قضايا الصراع بين الدولتين، وترتب عليها نتائج كبيرة وهامة في العلاقات السياسية والاقتصادية، وفي تجارة العصور الوسطى.

ويذكر المؤرخون أنه سبق التغيير في النقود أو إحداث عملة إسلامية، تغييرات في أوراق البردي والطرز التي كانت تصنع في الدول الإسلامية وتقبل الدولة البيزنطية على استيرادها والتعامل بها^(٢) وكانت عادة مصانع أوراق البردي

(١) هناك خلاف بين المؤرخين حول النص الذي حملته أول عملة ذهبية إسلامية، فبعضهم يذكر أنها كانت "أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله" أسد رستم: الروم ج ١، ص ٢٦٧. وهناك من يذكر أنها كانت "لا إله إلا الله" وسام فرج: العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية، ص ٤٩، وهناك من يذكر أنها كانت "لا إله إلا الله وحده لا شريك له" حسان خلاق، تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٨م، ص ٥١. وهناك من يشير أنها حملت شهادة التوحيد والرسالة المحمدية، د عبد الرحمن فهمي: النقود العربية ماضيها وحاضرها، الفيصلية للنشر، مكة المكرمة، ١٩٨٧م، ص ٨. وغير ذلك من الآراء.

(٢) د عبد الرحمن فهمي، النقود العربية، مرجع سابق، ص ٣١.

والطرز أى الأقمشة، التى كان يعمل بها الأقباط المصريون، أن يكتبوا اسم المسيح (عليه السلام) وعبارة التثليث فى أعلى الورقة، ولكن عبد الملك بن مروان رأى أن هذه الصيغة لا تتفق ومظهر الدولة الإسلامية، وأمر أن تستبدل بهذه الصيغة عبارة "قل هو الله أحد"^(١). ولما وصلت القراطيس التى تحمل العبارة الإسلامية إلى بلاد الروم، استشاط جستينيان الثانى غضبًا، ولكنه فضل معالجة الأمر دبلوماسيًا فأرسل كتابًا إلى عبد الملك بن مروان مقرونًا بهدية فاخرة يطلب منه العودة إلى طراز التثليث الذى كان سائدًا من قبل قائلًا: "فإن كان من تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت، وإن كنت قد أصبت فقد أخطأوا، فاختر من هاتين الخلتين أيتهما شئت وأحببت"^(٢).

ثم ما لبث أن أضاف مهددًا: "وإنكم أحدثتم فى قراطيسكم كتابًا نكرهه، فإن تركتموه وإلا أتاكم فى الدنانير من نكر نبيكم ما تكرهون"^(٣). وحاول جستينيان الثانى إغراء عبد الملك بقبول عرضه حينما زاد قيمة الهدية التى بعثها إليه ثلاث مرات على التوالى، ولكن المسألة عند عبد الملك كانت تتجاوز الهدية إلى تنفيذ سياسة عليا للدولة الإسلامية، كان قد أخذ نفسه بها^(٤).

وغضب عبد الملك لرسالة الإمبراطور وتهديده، وخشى اضطراب العملة بسبب هذا التهديد، وما قد يحدثه ذلك من أثر سيئ فى نفوس المسلمين، وبدأ يجمع مستشاريه الذين أشاروا عليه بالتمسك بما أحدثه على الورق، وأن يحرم دنانيرهم ويسك عملة خاصة بالدولة الإسلامية^(٥).

(١) أسد رستم الروم، ج ١، ص ٢٦٦.

(٢) حسان حلاق، تعريب النقود والدواوين، مرجع سابق، ص ٣٥، نقلًا عن البيهقى (المحاسن والمعاصي)

(٣) البلاذرى، مصدر سابق، ص ٢٤١.

(٤) المنتظم، مصدر سابق، ج ٦، ص ١٤٨.

(٥) تجمع معظم المصادر أن الذى أشار على الخليفة بذلك هو خالد بن يزيد بن معاوية، مثل البلاذرى (ص ٢٤١)، ابن الأثير (الكامل، ج ٤، ص ٥٣)، ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة، ج ١، ص ١٧٧)، ابن خلدون (ج ٣، ص ١٠٠) بينما يذكر حسان حلاق نقلًا عن البيهقى (المحاسن والمعاصي، ج ٢، ص ٢٣٥) أن الذى أشار بذلك رجل فاضل هو محمد بن على بن الحسين الباقى (تعريب النقود والدواوين، ص ٣٦)

والواقع أن إقدام عبد الملك على إصدار عملة خاصة بالدولة الإسلامية يشكل قضية هامة في الصراع بين الدولتين شغلت جانبًا كبيرًا من نقاشات الباحثين والمؤرخين، فقد اعتبر أحدهم أن الأمويين بإصدارهم لهذه العملة قد هدفوا إلى شن حرب اقتصادية على الدولة البيزنطية^(١) وتوجيه ضربة عنيفة لها، لأن استقلال الدولة العربية الاقتصادية، وامتلاكها لعملة خاصة يشكل خسارة كبيرة تضاف إلى خسائر بيزنطة العديدة في مواجهتها للمسلمين^(٢) كما أن ذلك كان بمثابة ثورة على الأوضاع النقدية، وبالتالي على الأوضاع الاقتصادية لعالم البحر المتوسط الذي سيطر عليه الصولد والنوميسما البيزنطيان^(٣).

وهناك من يؤكد على الدافع السياسي لهذا العمل، فقد كانت الدولة الأموية في عهد السفينانيين مشغولة بالسياسة الداخلية للدولة، فتركزت الأوضاع الاقتصادية على حالها، وحين انتقل الحكم إلى مروانيين، واستقرت أوضاع الدولة في عهد عبد الملك، بدأ يفكر في إجراء إصلاح اقتصادي، فما أن تغلب على الأخطار التي كانت تهدده حتى انتهج سياسة جديدة، إذ قرر أن يستفيد من الأساس الاقتصادي الذي نتج عن اتساع الدولة لتحقيق غرضين هامين هما: تقوية السلطة المركزية وإرضاء العناصر العربية المحافظة التي كان معظمها يؤيد أعداء أسرته^(٤).

لذلك فإن إصداره لعملة عربية، كان ضرورة لاستقلال الدولة، إلى جانب كونه رمزًا شائعًا ومحسوسًا يعبر عن جانب هام من اختصاص السلطة الحاكمة، ويعطيها الثقة الكاملة والضمان من التزييف، وهو مورد للدخل العام للدولة^(٥).

(١) أرشيبالد لويس، القوة البحرية، مرجع سابق، ص ١٣٤ .

(٢) فتحى عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٣٩.

(٣) وسام فرج العلاقات بين الدولة البيزنطية والدولة الأموية، مرجع سابق، ص ٣٠٣.

(٤) لوبيز: محمد وشارلمان: إعادة نظر، بحوث في التاريخ الاقتصادي، ترجمة توفيق اسكندر (دار المعارف، القاهرة ١٩٦١م)، ص ١١٧.

(٥) المرجع السابق، ص ١١٨.

ثم إن عبد الملك لم يأت بشئ جديد، فقد عرفت الدولة الإسلامية منذ عهد الخلفاء الراشدين، وبدايات الدولة الأموية، سك العملة، ولكنها كانت على الطراز البيزنطى، ولم تكن كثيرة الانتشار، وكان استعمالها يقتصر على الداخل فقط، ولذلك لم تثر تلك النقود أى معارضة من الدولة البيزنطية^(١)، ولكن الخطوة الجديدة لعبد الملك بما حملته من تغيرات وأهداف لإحلال عملة إسلامية جديدة محل تلك البيزنطية - التى كانت متداولة فى الدولة الإسلامية - هو الذى أثار الإمبراطورية البيزنطية وإمبراطورها، فعبد الملك بن مروان كان يهدف إلى تعريب دور السك وتعريب النقود التى تتداولها كافة الشعوب الإسلامية، والتوقف عن الدوران فى فلك العملة البيزنطية أو الارتباط بأسعارها وأوزانها^(٢).

كان الخليفة يهدف إلى تحقيق الاستقلال المالى للدولة وإزالة المفاصد الاقتصادية وسلامة العملة، وتوفير الشروط للنمو الاقتصادى وانتشار الرخاء^(٣).

وهناك من يرى أن تفكير عبد الملك فى تعريب النقود كان خطة مرسومة للتخلص من الإتاوة المفروضة عليه من قبل جستينان الثانى، فقد قدر أن الإمبراطور البيزنطى لن يقبل ولو شكلياً مثل هذه النقود ذات الطابع الإسلامى، وقد أقدم على هذه الخطوة بعد شعوره بالقدرة على مواجهة البيزنطيين بعد أن قضى على الخارجين على حكمه^(٤) فى الوقت الذى يرى فيه ثيوفانىس أن العرب لم يختاروا نقض الصلح ولكن خطيئة الإمبراطور وطيشه هما اللذان دفعا إلى الحرب^(٥).

وعلى أية حال، فأياً كانت الأسباب التى دفعت بالمسلمين إلى سك عملة إسلامية جديدة فإن الإمبراطور البيزنطى الذى كان مغروراً بقوة الجنود السلاف

(١) عبد الرحمن فهمى، مرجع سابق، ص ٢٣، حسان حلاق، مرجع سابق، ص ٢١.

(٢) حسان حلاق، مرجع سابق ص ٣٧.

(٣) محمد ضياء الدين الريس: عبد الملك بن مروان، مرجع سابق، ص ٢٢٢.

(٤) Gibbon, Op. Cit., Vol. III, P. 214.

(٥) Theophanes, Op. Cit., P. 510.

الذين استطاع ضمهم إلى قوته العسكرية رفض استلام الإتاوة بالعملية الجديدة، وقرر الزحف بجيشه المختار، وكل فرسان الثيمات، حيث أبحر من القسطنطينية إلى مدينة سباستبول (Sebastopolis)^(١)، والتي تقع في آسيا الصغرى على الحدود بين المسلمين والبيزنطيين.

واستجاب المسلمون لهذا التحدي العسكري سبق تقدم محمد بن مروان شقيق الخليفة وواليه على الجزيرة وأرمينية^(٢)، بالجيوش الإسلامية والنقى الجيشان، وكان يقود الجيش البيزنطي الإمبراطور جستينيان الثاني واستعاض المسلمون عن الأعلام بتعليق نسخة من المعاهدة بينهم وبين الروم على رمح، ويبدو أن ذلك أغرى الإمبراطور جستينيان، بأن العرب لا يستطيعون الحرب ولا يرغبون فيها، وجعله يرفض الاستماع إلى مطالبتهم بتحكيم المعاهدة، فقد كان مثلها إلى خوض الحرب^(٣)، وسرعان ما التحم الجيشان وكاد الإمبراطور جستينيان الثاني أن يحقق الانتصار ولكن سرعان ما انقلبت نتيجة المعركة لأن المسلمين استطاعوا الاتصال بالسلاف الذين كانوا عماد الجيش البيزنطي، وأغروا بعض قادتهم بالانضمام إليهم وترك الإمبراطور، ويبدو أن السلاف نتيجة للهزيمة القريبة التي تعرضوا لها أمام البيزنطيين، وسوء معاملة الإمبراطور لهم، ونقلهم من بلادهم إلى آسيا الصغرى، كانوا مهينين لخيانة مثل هذه^(٤)، حيث انحاز عشرون ألفاً منهم إلى جانب المسلمين

(١) تقع هذه بين سبسطية وسيواس في أرمينيا الثانية على الحدود بين الدولتين، وتعرف حالياً باسم "سولوسراي" Sulusaray وهي على مقربة من البحر الأسود: أسد رستم، الروم ج ١، ص ٢٦٧.

(٢) البلاذري، مصدر سابق، ص ٢٠٩. اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٨١. ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٤١. الطبري، ص ٢٠٢ المنتظم ج ٨، ص ١٤٩.

(٣) Theophanes, Op. Cit., P. 511.

(٤) تذكر الدكتورة عائشة أبو الجدايل (الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٨٨) باستغراب أن ثيوفانيس ذكر قولاً غريباً أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يقود جيش المسلمين، وأنه أغرى قائد السلاف بالمال، وبذل له الوعود؟! وبالعودة إلى ثيوفانيس (P.511) ونجد أنه فعلاً ذكر اسم محمد مجرداً من أي صفة، وهذا هو الواقع إذ أن قائد المسلمين كان محمد بن مروان، ولعل سبب خلطها، واعتبارها ذكر ثيوفانيس لاسم محمد أنه كان يعنى الرسول صلى الله عليه وسلم أنها لم تكن تعرف اسم قائد المسلمين في معركة سباستبول، وهو ما أشار إليه ثيوفانيس، وما أشارت إليه المصادر الإسلامية المذكورة في الهامش رقم (٢) من هذه الصفحة بشكل واضح.

وقاتلوا في صفوفهم، مما أدى إلى هزيمة سريعة للإمبراطور، وجعله يفر من أرض المعركة مدحوراً^(١).

لقد استطاع المسلمون أن ينفذوا إلى داخل المعسكر البيزنطي ويستغلوا حالة السخط والاستياء التي كان السلاف يعانون منها بسبب سياسة الإمبراطور جستينيان، وضغوطه عليهم، فاتصلوا بالقائد السلافي جيبولوس Gebulus، وأقنعوه بالانقلاب على الإمبراطور، حيث انحاز إليهم ومعه عشرون ألف مقاتل سلافي، مما قلب ميزان الحرب لصالح المسلمين، فحققوا انتصاراً كبيراً^(٢).

وكان لهذه المعركة الحاسمة، والتي وقعت سنة ٦٩٣ م / ٧٤٠ هـ نتائج هامة وكبيرة على المعسكرين والدولتين الإسلامية والبيزنطية، فقد تخلصت الدولة الإسلامية من الجزية التي كانت مفروضة عليها^(٣). وأدى هذا الانتصار إلى ارتفاع شأن المسلمين حيث أصبح الباب مفتوحاً أمامهم واندفعوا عبر جبال طوروس داخل آسيا الصغرى، وحققوا انتصارات أخرى كبيرة^(٤) وكان من نتيجة هذه الهزيمة كذلك أن ثار الزعيم الأرمني سيمباد Simbatius على البيزنطيين وانضم إلى المسلمين، وعادت أرمينيا التي كانت تابعة للدولة البيزنطية، مجدداً إلى الحماية الإسلامية^(٥). مما أضاع كل الانتصارات التي استطاع قنسطنطين الرابع تحقيقها في السابق^(٦).

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 511.

(٢) Finaly, Op. Cit., I. P.389.

(٣) أسد رستم، الروم، ج١، ص ٢٦٧. وسام، فرج، العلاقات البيزنطية الأموية، مرجع سابق، ص ١٠٠

(٤) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 332.

(٥) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.407.

(٦) Ostrogorsky, Op. Cit., p. 131 وكذلك Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 218.

وعلى الجانب الحضارى فإن من نتائج هذه المعركة أن أصبح الطريق ممهدًا أمام المسلمين للانطلاق فى جوانب أخرى من التعريب، حيث عربت الدواوين، وأسندت المناصب إلى المسلمين، وبدأت الدولة تستكمل مقوماتها^(١). أما بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية فإنها قد فقدت موردًا ماليًا كان يأتيها سنويًا عن طريق الإتاوة التى كانت تتسلمها من المسلمين، والأهم من ذلك هو المهانة الكبيرة التى لحقت بها وحالة الاكتئاب الشديد التى تعرض لها الإمبراطور جستنيان الثانى حتى وصل غضبه والرغبة فى الانتقام أنه أمر بقتل بقية السلاف الذين ظلوا على ولائهم له، عقابًا لهم بما ارتكب أبناء جلدتهم من خيائته، فعند وصوله فى انسحابه إلى منطقة ليوكاتا Leucata بالقرب من خليج نيقوميديا، أمر بإعدام بقايا السلاف وكذلك إعدام زوجات وأطفال أولئك الذين خذلوه وانضموا إلى المسلمين^(٢).

فى الوقت الذى أكرم فيه المسلمون أولئك السلاف الذين انضموا إليهم، واستفادوا منهم فى تحركاتهم القادمة فى آسيا الصغرى، حيث أثبتوا مهارة فى معرفتهم بـ "طوبغرافية" آسيا الصغرى، وقد أسكنوهم على الساحل السورى وفى جزيرة قبرص، فنجحوا وأثروا ثراءً كبيراً^(٣).

وعادت الصوائف والشوائب الإسلامية مرة أخرى بعد طول توقف، حيث واصل المسلمون هجماتهم فى جوف آسيا الصغرى، وسيرت من جديد صانفتان فى عامى ٧٥، ٧٦ هـ / ٦٩٤، ٦٩٥ م واقتصر رد بيزنطية على غزو فاشل لمرعش عام ٦٩٥ م / ٧٦ هـ مما عد دليلاً على الضعف الذى عاشته الإمبراطورية البيزنطية^(٤).

(١) عبد المنعم ماجد، مرجع سابق، ج٢، ص ١٦٩.

(٢) Theophanes, Op. Cit., P. 511.

(٣) أسد رستم، الروم، ج١، ص ١٦٧. إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيسون، ص ١٨٠، Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 323.

(٤) وديع فتحى عبد الله: العلاقات السياسية، مرجع سابق، ص ٧٤.

على الجانب الآخر فتح هذا النصر الباب أمام المسلمين للتوسع فى فتح أفريقيا حيث تراجعت الأساطيل والجنود البيزنطيون، واستطاع المسلمون استكمال فتح شمال أفريقيا^(١).

كما أن هذه الهزيمة كانت مؤشراً خطيراً على فشل سياسة الاستيطان التى أقدم عليها الإمبراطور جستينيان الثانى عندما أرغم المردة والصقالبة (السلاف) وغيرهم على هجر مواطنهم التى عاشوا بها وتربوا فيها والنزول فى أقاليم لم يألفوها^(٢)، وكبد خزانة الإمبراطورية وإدارتها مبالغ طائلة من الأموال، وجهداً كبيراً مقابل نقل هؤلاء واستقرارهم.

(١) د عبد المنعم ماجد: مرجع سابق، ج٢، ص ١٧٦.

(٢) حسنين ربيع، الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ٩٧

الثورة على جستنيان الثاني، ونفيه:

كان من أهم نتائج هزيمة جستنيان الثاني في موقعة سباسبول، ما انحدرت إليه الإمبراطورية من انهيار في أوضاعها الداخلية، فقد أصبح الإمبراطور يشك في كل من حوله، حتى المقربين إليه، لذلك فعندما ارتاب في قائده الكبير ليونتيوس Lenottius أمر بإلقائه في السجن، رغم أن هذا القائد خدمه بإخلاص^(١).

وأصبح الإمبراطور مكروهاً من جميع الطبقات، من الجيش ومن الأرستقراطية ومن العامة، وقد اكتسب عداوة الجيش من ملاحظة الجنود لانتقامه العنيف من السلاف، ومن القائد البيزنطي الذي خدم بإخلاص، كما اكتسب عداوة الطبقة الأرستقراطية بسبب السياسة الخاصة بجعل صغار الملاك العسكريين والفلاحين الأحرار هم العمود الفقري للإمبراطورية، كما أن سياسته تظاهرت بكونها ضد الأرستقراطية بوجه عام، فقد هدبت إجراءاته الاقتصادية الطبقة الأرستقراطية بالدمار الشامل، في الوقت الذي لم تحقق رضاء العامة، لذا فقد كان مكروهاً من جميع الطبقات^(٢).

ورغم الأزمة الداخلية التي عانت منها الإمبراطورية فإن جستنيان الثاني كان مهتماً بالتشييد والبناء للمرافق التي تخصه، فقد استكمل بناء القصر الإمبراطوري، وشيد قاعتين غاية في الاتساع والفخامة ليربط قاعة العرش Chrysotriclinium بقصر داخلي وحلبة سباق الخيل Hippodromos، وأطلق على إحدى القاعتين اسم Lausiaca وعلى الأخرى اسم Triclinium^(٣). وجاءت قمة الاستفزاز حين قرر الإمبراطور سنة ٦٩٤م / ٧٥ هـ هدم كنيسة في القسطنطينية

(١) Oman, Op. Cit., P. 175 ومن هذه الأدوار تحقيقه عدة انتصارات على المسلمين لمزيد من

التفاصيل انظر: Theophanes, Op. Cit., P. 501

(٢) Ostrogorsky, Op. Cit., p. 140

(٣) Finlay, Op. Cit., P. 391 وأيضاً: عائشة أبو الجدايل، مرجع سابق، ص ١٩٠.

ليقيم في مكانها قصرًا له، وكلف بطريرك القسطنطينية كالينكوس Kallinikos (٦٩٤ - ٧٠٥ م / ٧٥ - ٨٧ هـ) أن يصلى على الكنيسة قبل هدمها، فتردد البطريرك، ولكن الإمبراطور أجبره على ذلك، وبعد الصلاة تم الهدم ليشرع في بناء القصر^(١) ليكتسب الإمبراطور بذلك عدوًا جديدًا هو رجال الدين والكنيسة.

لقد تحولت القسطنطينية في عهد جستينان الثاني إلى سجن كبير، فإلى جانب تصرفاته الطائشة، واصل الوزيران السيئان، تيودوتوس، سستيفانوس، إرهابهما للمواطنين، وتفننا في ابتكار وسائل التعذيب والإرهاب، والتي كان منها أن يعلق الذين يمتنعون عن دفع الضرائب فوق دخان النار^(٢) وأحاطت بالإمبراطور الذي ملأ سجونته بالمعتقلين من المواطنين ومن رجال الجيش عوامل الشنط والكرامية، وتعالق نذر الثورة التي تتادى بالانعقاد من جيروته وتسلط وزيريه، وتطالب بإبعاده عن الحكم.

قام الإمبراطور جستينان الثاني سنة ٦٩٥ م / ٧٧ هـ بصورة مفاجئة بإطلاق سراح قائده لونتوس Leontios، بعد أن مضى ثلاث سنوات في السجن، وعينه قائداً لثيم هيلاس Hellas^(٣)

وكان ليونتوس في آخر ليلة من ليالي سجنه، وقبل أن يعلم بإطلاق سراحه قد تلقى نبوءة من أحد أصدقائه من المتصلين بالكنيسة والذي زاره في السجن، بأنه سيصبح إمبراطورًا، ولكنه رد بأنه يتوقع الموت في أي لحظة، لا أن يصبح

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 513.

(٢) Ibid.

(٣) Theophanes, Op. Cit., P. 514، وهناك من يعتبر أن إطلاق سراحه وتعيينه جاء نريعة لنقله من العاصمة لكي يقتل في مكان ناء نون محاكمة (Bury, Op. Cit, Vol. II, P. 328) وينكر الدكتور أسد رستم باسم لاونديوس (الروم، ج ١، ص ٢٧٠). وكذلك يسميه راسيمان، (الحضارة البيزنطية، ص ٤١)

إمبراطوراً^(١) وعندما أطلق سراحه، وكان يستعد للانتقال إلى نيم هيلاس، تلقى ليونتيوس نصيحة من راهب اسمه بولس، ليضرب ضربة جريئة وينقلب على الإمبراطور، خاصة وأن الشعب والجيش يسرون وراءه ويؤيدون أي تحرك يقوم به^(٢).

وكانت القسطنطينية مهينة فعلاً للعب دور مثل هذا، فسارع ليونتيوس لجمع أصدقائه وخدمهم، وهاجم بهم السجن الذي كان يعج بالمساجين وكان معظمهم من الجنود الذين قضى بعضهم ست أو ثمان سنوات في السجن، واستطاع أن يخلصهم ومدهم بالسلاح، حيث انطلقوا من هناك لمهاجمة قصر الإمبراطور وهم ينادون:

"كل النصارى إلى كنيسة أيا صوفيا" وأرسل مندوبين إلى المناطق الأخرى لينادوا بهذا النداء، وانضم إليهم العامة والساخطون، لينقض الجميع على القصر الإمبراطوري^(٣)، ويبدو أن الحرس قد أخذتهم الدهشة، أو لعلهم كانوا مشاركين في السخط، فلم تكن هناك مقاومة على الإطلاق^(٤)

وسرعان ما تم القبض على الإمبراطور جستنيان الثاني، وعلى وزيريه المكروهين، حيث تم اقتيادهم في صبيحة ذلك اليوم من أواخر عام ٦٩٥م / ٥٧٧هـ

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 514، قد لا تكون نبوءة، بل يبدو أن الكنيسة التي كانت حانقة على الإمبراطور كانت تخطط لشيء ما.

(٢) أسد رستم، الروم، ج١، ص ٢٧٠، هذا يؤكد ما ذهبنا إليه في الهامش السابق، بأن الكنيسة كانت تخطط لشيء ما، ففي المرة الأولى يتبأ أحد رجالها لليونتيوس، وفي المرة الثانية ينصحه راهب بالثورة على الإمبراطور، وسنرى بعد ذلك أنها تبادر إلى تعيينه إمبراطوراً!

(٣) Theophanes, Op. Cit., P. 515

(٤) Oman, Op. Cit., P. 175

إلى ساحة سباق الخيل، وفي حضور جماهيري كبير، تقرر عزل الإمبراطور -
بعد حكم استمر ١٠ سنوات - وجدع أنفه، ونفيه إلى مدينة خرسون Cherson^(١).

أما بالنسبة للوزيرين المكروهين فقد تم تسليمهما للعامة والساخطين حيث
قاموا بتعذيبهم في الشارع الرئيسي للعاصمة، ثم إشعال النار فيهما في منطقة تسمى
Bovis في العاصمة البيزنطية^(٢). ونادى المجتمعون هناك وبالذات رجال الدين بـ
"ليونتيوس" إمبراطورًا على الدولة البيزنطية^(٣).

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 515 ويبدو أن ليونتيوس قد أخذته الرأفة بالإمبراطور جستينيان فاكتفى
بجدع أنفه ونفيه، إكرامًا لوأله قنسطنطين الرابع، بسبب الفوائد التي نالها في عهده. ويبدو أن التشويه
الذي حدث لجستينيان لم يكن شديدًا فما حدث للسانه لم يحرمه من القدرة على الكلام. كما أن جدع
الأنف لا تعنى إزالتها بالكامل، وإنما كان الغرض منه إحداث عاهة تمنعه من العود لممارسة الحكم.
والمعروف أن عقوبة جدع الأنف وسمل العين من العقوبات التي كانت معروفة في بيزنطة. وبسبب
هذا التشويه أصبح جستينيان يعرف بالأشرم أو المجدوع الأنف، أو باليونانية رانيو تمتوس
Rhinothemus. وتذكر إحدى الدراسات التاريخية أن جستينيان الثاني عندما كان في السادسة
والعشرين من عمره أصيب بمرض في الأنف 'Rhino Kopia' وتعرض لآلام قاسية،
وكان شديد الحساسية من أنفه، وعاش خائفًا من تشويهه يصيبه في أنفه، ويدوم معه مدى الحياة، فهل
كانت هذه العقدة التي أصابته معروفة لدى الذين نفذوا فيه هذه العقوبة؟! عن مرض جستينيان انظر
Head, Op. Cit, P.32. أما مدينة خرسون التي نفى إليها الإمبراطور فتقع في شبه جزيرة القرم
على الشاطئ الشمالي للبحر الأسود، انظر: Camb. Med. Hist. Vol. II, PP. 409, 410.

Theophanes, P. 515. (٢)

Ibid (٣)

الإمبراطورية البيزنطية في فترة مغتصبى العرش:

لقد كان هناك عاملان حاسمان وراء النهاية التي انتهى إليها الإمبراطور جستيان الثانى، وأدت إلى الثورة عليه ثم جدع أنفه ونفيه إلى مكان ناء. كان العامل الأول هو تداعيات الهزيمة التي تعرض لها الإمبراطور أمام المسلمين فى معركة سبستبول الحاسمة والتي قادها بنفسه، وكيف أن هذه الهزيمة حولت الإمبراطور إلى شخص قلق متشكك فى كل من حوله ولم يعد يثق حتى فى أقرب المخلصين له. وكل ذلك انقلب إلى نزعة انتقامية شديدة اكتوى بناها كثير من الجنود والقادة وكبار الموظفين فى القسطنطينية، وسبق أن ذكرنا أن شخصية الإمبراطور تميل إلى سرعة الاستثارة والميل الشديد لاستخدام العنف وعدم التروى أو الاتزان، مما أثر فى قراراته وتصرفاته.

والعامل الثانى هو السياسات الداخلية التي اتبعها الإمبراطور، فقد كان لها مردود عكسى سيئ، فمن طبقة النبلاء والأرستقراطية والإضرار بمصالحهم، وزيادة الضرائب والتشدد فى تحصيلها، إلى التورط فى مشروعات كبرى أثقلت كاهل الخزينة الإمبراطورية، والعمل على تمويل هذه الخزينة الخاوية بفرض مزيد من الضرائب والتعسف فى جمعها وتحصيلها، لإرضاء شغف الإمبراطور بالبناء والتشييد حتى يضاهاى عهده عهد سميّه جستيان الأول، كل ذلك أدى إلى سحق المواطنين بمختلف طبقاتهم وفئاتهم، ولم يكن هناك أى طبقة سواء الجنود أو النبلاء أو رجال الدين أو العامة، تهتم ببقائه أو الولاء له. والواقع أن الإمبراطور جستيان الثانى قد أدخل الدولة فى أتون من الفوضى والاضطراب، وأسهم بشكل فعال فى حرمان الدولة من جميع المكاسب والانتصارات ومزايا الاتفاقيات التي حققها والده قنسطنطين الرابع خلال فترة حكمه، ولم يستطع المحافظة عليها أو استثمارها بما يعود بالنفع على دولته وعلى علاقاتها الخارجية أو سياستها الداخلية.

بل إن هذه الفوضى التي شهدتها فترة حكم جستينان الثاني ستستمر - كما سنرى - طوال السنوات العشر التي تلت نفيه إلى خرسون، ثم ستتواصل بعد عودته مرة أخرى وتمكنه من استعادة عرشه، وتستمر حتى تؤذن بالسقوط النهائي للأسرة الهرقلية التي حكمت الإمبراطورية قرابة القرن.

تسلم ليونتيوس العرش البيزنطي مدعوماً بتأييد الشعب والكنيسة ورجال الجيش^(١)، وبدأ محاولته لإعادة ترتيب الأمور وبث الاستقرار في أجهزة الدولة، ورغم أن التركة كانت ثقيلة جداً، إلا أن الإمبراطور الجديد نجح إلى حد معقول. ولكونه عسكرياً متمرساً فقد حفل سجله بالانتصارات، وبادر إلى تحسين الأسطول البيزنطي إحساساً منه، وتوقعاً لجولة جديدة من الصدام مع المسلمين^(٢)

والواقع أن السنتين الأوليين من حكم ليونتيوس مرت بسلام، ثم ما لبثت المشكلات أن توالى دفعة واحدة في السنة الثالثة والأخيرة من حكمه، لتقتله من العرش، وتتدخل الإمبراطورية في طور جديد من الفوضى.

ففي سنة ٦٩٧م / ٧٨ هـ ثار سرجيوس Sergius حاكم مقاطعة لازيقا Lazica الواقعة عند نهاية الحد الجنوبي الشرقي للبحر الأسود، وأخذ يتقرب من المسلمين، ويظهر خضوعه لهم^(٣).

وبدأ المسلمون يزحفون على آسيا الصغرى بجيش كبير غزاها يحيى بن الحكم في صائفة ذلك العام^(٤)، وحقق انتصارات كبيرة. وفي الوقت نفسه أرسل عبد الملك بن مروان جيشاً كبيراً إلى أفريقيا بقيادة حسان بن النعمان الذي استطاع

(١) يذكر أسد رستم أن البطريرك كاليينكوس عند مباركته لتعيين ليونتيوس قال: "هذا هو اليوم الذي صنعه الله" (الروم، ج ١، ص ٢٧٠). ومما يذكر ان الإجماع الشعبي كان كبيراً، وأن حزب الزرق هم الذين يادروا إلى مبايعة ليونتيوس إمبراطوراً، وكذلك فإن الجنود سرعان ما قاموا بتأييد هذه المبادرة مندفعين بحبهم وتقديرهم لقائدهم السابق، وسخطهم على تصرفات الإمبراطور.

(٢) وسام فرج، العلاقات بين الإمبراطورية والدولة الأموية، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٣) Theophanes, Op. Cit., P. 516.

(٤) الطبري، ج ٦، ص ٣٢١. ابن الجوزي، المنتظم، ج ٦ ص ٢٠٢.

أن يستعيد القيروان، وأن يستولى على قرطاجنة وأن يخربها، ولم يكن ذلك سهلاً على الإمبراطور البيزنطي خاصة وأنها كانت أهم المعاقل البيزنطية في شمال أفريقيا^(١)، ولذلك سارع الإمبراطور ليونتئوس إلى إعداد حملة بحرية كبيرة، وبذل جهداً كبيراً في إعدادها، واختار لقيادتها واحداً من أشهر قواد الإمبراطورية وأقدرهم هو بطريق صقلية يوحنا Patricius Jean^(٢). وكان المسلمون قد قاموا بإغلاق المدخل البحري إلى الميناء بسلسلة قوية، إلا أن يوحنا نجح في كسر هذه السلسلة ومهاجمة المدينة وطرد الحامية الإسلامية منها، بعد أن تعامل معها بقسوة كبيرة^(٣).

وارتكن يوحنا إلى السهولة التي استطاع بها استعادة المدينة، لذلك لم يقم بأي مجهود لمحاولة تحصينها وقضى بها فصل الشتاء وهو مطمئن إلى عدم عودة المسلمين إليها، وشعرت معه الإمبراطورية البيزنطية بأنها قد استعادت سيطرتها على شمال أفريقيا.

ولكن عبد الملك بن مروان الذي يحيط بأوضاع الإمبراطورية البيزنطية وتراجع إمكانياتها العسكرية، سرعان ما بعث بمدد عسكري بحري وبري إلى قائده حسان بن النعمان وذلك سنة ٥٧٩ / ٦٩٨ م، ولم تستطع السفن البيزنطية، التي وجدت نفسها مرغمة على الخروج من الميناء، المقاومة حيث دارت معركة بحرية كبيرة انتصر فيها المسلمون^(٤). واضطر البيزنطيون للانسحاب إلى جزيرة كريت في البحر المتوسط، حيث عادت قرطاجنة مرة أخرى إلى يد المسلمين، وتحطمت آمال البيزنطيين باستعادة شمال أفريقيا.

(١) د. حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مرجع سابق، ص ٢٥٤.

(٢) Theophanes, P. 516. أرشيبالد لويس، القوى البحرية، مرجع سابق، ص ١٠٠

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، مصدر سابق، ص ٢٠١.

(٤) أرشيبالد لويس، مرجع سابق، ص ١٠٠. وكذلك: Ostrogorosky, Op. Cit., P. 141.

وفي كريت حدثت حادثة أكدت على استمرار الفوضى في الإمبراطورية البيزنطية، وضعف سيطرتها حتى على قواتها العسكرية، فقد قام جنود الأسطول البيزنطي الذي انسحب إلى كريت - تحت وطأة الخوف من انتقام الإمبراطور لهزيمتهم، وعدم تمكنهم من تحقيق تطلعاته في استعادة الممتلكات البيزنطية في شمال أفريقيا - برفض العودة إلى العاصمة، ومن ثم إعلان التمرد والانقلاب على القائد يوحنا وقتله^(١)، ثم سارعوا إلى تنصيب واحد منهم قائداً عليهم، ليتطور الأمر إلى المناداة به إمبراطوراً على القسطنطينية^(٢).

كان أبسيمار Apsimar، القائد البحري (Droungarios) لثيم كبير هايوت^(٣)، هو الذي تم اختياره وإعلانه ليكون إمبراطوراً جديداً، والذي سارع إلى جمع الجنود والإبحار بهم إلى القسطنطينية وعند وصولهم إليها قاموا بمحاصرتها.

ويبدو أن الإمبراطور ليونتيوس استطاع أن ينظم مقاومة شعبية لتعطيل دخولهم إلى المدينة، والتصدي لهم لبعض الوقت، إلا أن القسطنطينية ما لبثت أن سقطت نتيجة لرشوة قدمت لبعض حراس الأبواب^(٤). وعند دخولهم إليها استباحها الجند، وقاموا بسلب السكان ونهب بضائعهم ومساكنهم، واستمرت الفوضى عارمة طوال أربعة أشهر، حتى استطاع أبسيمار السيطرة على العاصمة بفضل تأييد حزب الخضر له^(٥).

(١) Theophanes. Op. Cit., P. 517.

(٢) الباز العريني، مرجع سابق، ص ١٦٨.

(٣) Theophanes, Op. Cit., P. 517. ويذكر أسد رستم أنه نائب القائد العام للأسطول وليس قائد ثيم كبير هايوت (Kibyraiots) (الروم، ج١، ص ٢٧١)

(٤) Bury. Op. Cit., Vol. II, P. 354

(٥) Theophanes, Op. Cit., P. 517 ويلاحظ أن حزب الزرق هم الذين أيدوا الإمبراطور السابق ليونتيوس، وسارعوا إلى إعلانه إمبراطوراً، بينما سارع حزب الخضر إلى تأييد أبسيمار وإعلانه إمبراطوراً فهل معنى ذلك أن الأحزاب عادت مرة أخرى للتدخل في المسائل السياسية والصراع السياسي، أي استعادت الدور الذي كانت تقوم به قبل مجئ هرقل إلى الحكم، وقيامه بالقضاء على هذا الدور، وقصر على إحياء الحفلات والمشاركة في سباق العربات؟! يبدو أن ذلك ما حدث، وأنه كان نتيجة من نتائج الفوضى التي دخلتها الإمبراطورية في أواخر أيام أسرة هرقل، حيث عاد هؤلاء إلى التدخل في الأمور السياسية.

للتعرف على موقف الإمبراطور هرقل من هذه الأحزاب وضربه لأوارها، راجع لفصل الأول ص (٧).

وتمت المناداة به إمبراطورًا باسم تيبيريوس الثالث Tiberius^(١).

كان أول أعمال تيبيريوس الثالث أن قام بإلقاء القبض على الإمبراطور ليونتيوس، وكرر معه نفس المصير الذي تعرض له جستيان الثاني، إذ جدد أنفه، ونفاه إلى أحد الأديرة خارج القسطنطينية^(٢).

وإذا كانت العقوبة التي تعرض لها الإمبراطور جستيان عقوبة مبررة، إذا قارناها بتلك الأعمال التي ارتكبها ضد المواطنين ورجال الجيش، فإن العقوبة التي تعرض لها الإمبراطور ليونتيوس تبدو غير مبررة، ولم يكن لها هدف سوى إحداث عاهة مستديمة به تمنعه من العودة للمطالبة بالعرش أو التفكير فيه.

والملاحظة هنا أن عمليتي الاغتصاب التي تعرض لها العرش البيزنطي، أو أسرة هرقل قد جاءت في المرتين من قائدين من قواد الثيمات العسكرية، فالمغتصب الأول (ليونتيوس) كان قائدًا لثيم الأناضول، وبعد خروجه من السجن، عُين قائدًا لثيم هيلاس، والمغتصب الثاني كان قائدًا لثيم كبير هايوت، وذلك يحمل دلالات كثيرة لعل من أهمها أن الثيمات العسكرية التي كانت في الأساس من ابتكار الأسرة الهرقلية، ومحل عنايتها واهتمامها، أصبحت قوية وخطيرة لدرجة أن قائدها بدأوا يتطلعون لعرش الإمبراطورية ويصلون إليه. ودلالة أخرى أن طبقة رجال الجيش عادت للانغماس في السياسة مما أدى إلى مزيد من الفوضى في الإمبراطورية. لعل التساؤل المشروع هنا، والذي يشكل في الوقت نفسه دلالة أخرى وهو: أين هو دور مجلس السناتو في كل ذلك الذي كان يحدث في العاصمة البيزنطية؟ فمن الواضح أن المجلس لم يكن له أي دور فعال في مواجهة كل ذلك، وأنه قد أخذ في التراجع وبدأ يفقد أدواره المؤثرة، في أعقاب التحجيم الذي تعرض له على يد الإمبراطور قنسطانز الثاني، كما سبق وأوضحنا.

(١) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 354، ويرجع بيوري عدم استعماله لاسمه الصريح وتغييره إلى تيبيريوس بأنه اسم "أبسيما" قد يكون من أصل جرمانى، وأن وجوده على العرش البيزنطي يستدعى أن يغير اسمه إلى اسم روماني أو يوناني.

(٢) Oman, Op. Cit., P. 177.

على أية حال أمضى تيبيريوس الثالث في الحكم فترة أطول من تلك التي أمضاها ليونتيوس إذ حكم طيلة الفترة ٦٩٨ - ٧٠٥ م / ٧٩ - ٨٦ هـ، ويبدو أنه شعر بعدم قدرته على الصراع مع المسلمين في جبهتين، فترك شمال أفريقيا نهائيًا للمسلمين، حيث أخذوا يتوسعون فيها وأقاموا بها منشآت وموانئ جديدة، ودورًا لصناعة السفن، ليترسخ فيها حكمهم ويتطلعون منها إلى فتوحات جديدة^(١). في الوقت الذي ركز جهوده على جبهة آسيا الصغرى، واتخذ فيها من الخطوات والوسائل ما يساعده على التصدي للمسلمين.

كان من هذه الخطوات تعيين شقيقه هرقل Herakleios قائدًا عامًا ووحيدًا لكل جنود الثيمات خارج العاصمة، وحمله مسئولية الدفاع عن آسيا الصغرى وخاصة الممرات الهامة في إقليم قبادوقيا Cappadocia^(٢)

ويبدو أن التوفيق قد حالف تيبيريوس الثالث، وهو العسكري والجندي المتمرس في هذا التعيين، إذا استطاع هرقل أن يكون جبهة عسكرية قادرة على التصدي للمسلمين وتحقيق بعض الانتصارات عليهم^(٣).

والواقع أن النجاح الذي حالف الإمبراطورية البيزنطية ربما يكون عائدًا إلى تلك الأحداث التي أحاطت بالدولة الأموية في تلك الفترة، وجعل القوات البيزنطية تتقدم سنة ٧٠٠ م / ٨٠ هـ إلى شمال الشام وتصل في تقدمها إلى مدينة سميساط حيث ارتكبوا مجازر كبيرة ونهبًا وسلبًا يفوق الوصف^(٤).

(١) Ostrogorsky, Op. Cit., p. 141.

(٢) Theophanes, Op. Cit., p. 517.

(٣) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 355.

(٤) Theophanes, P. 518 وينكر ثيوفانيس على سبيل المبالغة أن عدد القتلى بلغوا ٢٠٠,٠٠٠ قتيل، وفي الوقت نفسه يشكك في هذا الرقم، وينكر مترجم كتاب ثيوفانيس إلى الإنجليزية أن ميخائيل السرياني يذكر أن القتلى بلغوا خمسة آلاف. أما مدينة سميساط فهي على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غرب الفرات ويسكنها الأرمن (الحموي، ج ٣، ص ٢٥٨).

وكانت الدولة الإسلامية قد تعرضت سنة ٥٧٩ / ٦٩٩ م إلى طاعون شديد ضرب بلاد الشام، وأثر فيها تأثيراً كبيراً وأدى إلى وفاة عدد كبير من السكان مما أثر على المجهود العسكري للدولة الأموية^(١). كما تعرضت دمشق إلى أزمة سياسية حيث اندلعت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث في خراسان ضد الحكم الأموي، وامتدت إلى العراق، واستدعت إرسال عدة جيوش، وعدة صدمات حتى تم القضاء عليها^(٢).

وعندما تخلص المسلمون من آثار هاتين الأزميتين استعادوا زمام المبادرة مرة أخرى حيث قاموا سنة ٨٤ هـ / ٧٠٣ م بقيادة عبد الله بن عبد الملك بغزوة استطاعوا فيها فتح المصيصة^(٣)، وأقاموا بها حامية إسلامية، وأعادوا تحصينها لأنها كانت مهجورة، وتتمثل أهميتها في أنها كانت خط الدفاع الأول عن أنطاكية التي كانت تتعرض للهجمات البيزنطية المستمرة^(٤).

-
- (١) الطبري، ج ٦، ص ٣٢٢. ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٧٣. ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦، ص ٢٠٣.
- (٢) كان عبد الرحمن بن محمد الأشعث أحد الجنود العاملين تحت قيادة الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق من قبل عبد الملك، وقد بعثه الحجاج، ثم حدث خلاف بينه وبين الحجاج أدى إلى ثورته عليه، ورجوعه إلى خراسان ومنها إلى البصرة حيث نخلها وأعلن خلع الحجاج وعبد الملك، وكثر مناصروه ومؤيدوه بعد أن قتل الحجاج في التصدي له، واستمرت ثورته ثلاث سنوات واستغرقت جهداً كبيراً من الخلافة الأموية حتى أمكن القضاء عليها. لمزيد من التفاصيل انظر: الطبري ج ٦ ص ٣٤٢، ٣٦٦. ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦ ص ٢٣١، ٣٤٤. ابن الأثير: الكامل، ج ٤، ص ٧٧ - ٩٠. ومن الجدير ذكره أن ثيوفانيس قد أشار إلى هذه الثورة ضد عبد الملك (Theophanes, P. 518)، واعترف بدورها في تراجع المسلمين العسكري، وتقدم البيزنطيين، وتحقيقهم بعض الانتصارات.
- (٣) الطبري، ج ٦، ص ٣٨٥.
- (٤) فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٧٣.

كما أدى سقوطها في يد المسلمين إلى سقوط إقليم أرمينيا الرابعة^(١). والواقع أن منطقة أرمينيا الحدودية بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية كانت منطقة تجانب وتأرجح بين القوتين، ويتغير ولاؤها إلى القوة الأعظم بين فترة وأخرى، وانطلاقاً من هذا التأرجح قام زعماء أرمينيا بالتمرد على الحكم الإسلامي، وأرسلوا إلى الإمبراطور البيزنطي تيبريوس الثالث يطالبونه بإرسال قوة بيزنطية لاستعادة أرمينيا^(٢)، حيث أرسل قوة عسكرية، ولكن الخليفة عبد الملك بن مروان والذي أزعجه هذا التمرد وما أعقبه من مذابح أرمنية ضد المسلمين، واستنصارهم بالبيزنطيين، سارع إلى بعث جيش بقيادة أخيه محمد بن مروان الذي استطاع إخماد التمرد بعنف وشدة، واستعاد السيطرة الإسلامية على أرمينيا^(٣).

(١) يقسم المؤرخون والجغرافيون المسلمون أرمينية إلى أربعة أقسام هي:

أ - أرمينية الأولى وتتكون من السيسجان، آران، تفليس، بردعة، البيلغان وشروان.

ب - أرمينية الثانية: جرزان، صغدبيل، باب فيروز، قباد، والكلز.

ج - أرمينية الثالثة: البسفرجان، دبيل، سراج طير، بغرند، والنشوى.

د - أرمينية الرابعة: شمشاط، خلاط، قاليقالا، أرجيش، وباجنيس.

البلاذري: فتوح البلدان، مصدر سابق، ص ١٩٧، وأيضاً: عبد الرحمن عبد الغنى، الحدود البيزنطية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٤.

وأرمينيا الرابعة هو الولاية التي كونها جستينيان الأول واشتملت على مدينة ميفارقين Martyropolis وقلعة كيفاريزون Kitfarizon.

وسام فرج: العلاقات البيزنطية الأموية، مرجع سابق، ص ٥٩.

ويذكر ثيوفانيس أن الذي سلم أرمينيا الرابعة للعرب هو حاكمها الأرمني بانيس Banes (Theophanes, P. 519)

Theophanes, P. 520(٢)

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٩٥. وأشار ثيوفانيس إلى هذه المعركة وذكر أن المسلمين انتقموا من زعماء الأرمن وأحرقوهم أحياء (Theophanes, P. 520)، وإن كنا نشك في هذا الانتقام. إلا أن أحد المصادر الإسلامية يذكر أن محمد بن مروان قد قتل منهم خلقاً كثيراً وحرق كنائسهم وضياعهم، وتسمى هذه السنة سنة الحريق، فالحرق كان للكنائس والضياع وليس للناس فهذا يخالف العقيدة الإسلامية. عن هذه المصادر انظر: العيني: عقد الجمان في تاريخ الزمان (مخطوط يدار الكتب المصرية) نقلاً عن وسام فرج، العلاقات البيزنطية الإسلامية، مرجع، ص ٦٠.

على جانب آخر استطاع هرقل شقيق الإمبراطور وقائد الجيوش البيزنطية في آسيا الصغرى تحقيق انتصار كبير على المسلمين في قليقية سنة ٨٥ هـ / ٧٠٤ م، وصد تقدمهم الذي كانوا يهدفون من ورائه إلى توسيع منطقة نفوذهم^(١).

نستنتج من كل ذلك أن الإمبراطور تيبريوس الثالث قد بذل جهودًا كبيرة في التصدي للمسلمين، واستطاع أن يوفر القوة العسكرية اللازمة لذلك، وأن يصرف اهتمام الجنود والقادة العسكريين إلى الأزمات الخارجية وجبهات الحروب، ليأمن شرم في الداخل، واستطاع في وقت من الأوقات أن يستعيد بعض الأراضي التي فرط فيها الإمبراطوران السابقان^(٢).

وانطلاقًا من خبرة الإمبراطور السابقة في الشؤون البحرية - حيث كان قائدًا لثيم كبير هايوت - فقد أعطى اهتمامًا كبيرًا للأسطول البحري الذي وفر حماية كبيرة لشواطئ القسطنطينية، كما أنه قام بإعادة تعمير جزيرة قبرص، وأسكن جماعة من المردة الخبيرين بشؤون البحر في سواحل بامفيليا، وأعطى اهتمامًا كبيرًا لثيمه السابق كبير هايوت^(٣). ولكن ورغم كل هذا الاهتمام بالأسطول البحري، إلا أن الإمبراطور يبدو وكأنه قد استسلم لضياح شمال أفريقيا من الإمبراطورية البيزنطية ولم يبذل أي محاولة لاستعادتها.

كان تيبريوس يعيش فترة قلق في الداخل، بل إن هناك من يفسر سر اهتمامه بالصراع الخارجي ليغطي فشله في الداخل، ولذلك نشط في بعث الجيوش إلى جبهات القتال حتى يصرف الجنود عن التفكير في الانقلاب عليه أو منافسته على العرش، وكان إحساسه بأنه إمبراطور غير شرعي مثار قلقه وهو اجسسه

(١) Theophanes, P. 520 ، وبيالغ ثيوفانيس في تصوير هزيمة المسلمين وينكر أن عدد قتلى المسلمين بلغ اثني عشر ألف قتيل.

(٢) Oman, Op. Cit., P. 177.

(٣) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.410.

الدائمة^(١). حتى إن ثيوفانيس يذكر أن تييريوس قام بنفى برادانس Bradanes ابن
البطريق نيقفور يوس Nikephoros Patrician إلى كفالونيا Kaphaloinia، لأنه حلم
بأنه سيكون إمبراطورًا^(٢)

ويبدو أن قلق تييريوس كان له ما يبرره، إذ أنه ما لبث أن فوجئ
بالإمبراطور الأسبق، والمنفى ومجدوع الأنف، جستيان الثاني يعود من منفاه
ويحاصر القسطنطينية على رأس جيش بلغاري يقوده ملكهم تريفل Terbel.

(١) Bury. Op. Cit., Vol. II, P. 357.

(٢) Theophanes, P. 519، ويبدو أن أحلامه قد تحققت فيما بعد حيث سيصبح إمبراطورًا في أعقاب
التمرد الثاني على جستيان الثاني، تحت اسم فيليبكوس Philippikos.

عودة جستنيان الثاني إلى العرش البيزنطي:

لم يكن جستنيان الثاني، بما عرف عنه من روح قلقة، وشجاعة مشوبة بالمغامرة، ليستسلم للمصير الذي تعرض له، ولا المنفى الذي أودع به، بل ظل يتطلع لاسترجاع عرشه ومُلك أسرته، الذي سلب منه، ولم يهدأ له قرار وأخذ يبحث عن الإمكانيات والأنصار والمؤيدين، ولكنه فشل في أن يجد ذلك في خرسون حيث كان منفيًا. ورغم بعده عن القسطنطينية إلا أنه كان شديد الحرص على متابعة كل ما يمر بها من أحداث، ولعل الثورة التي تعرض لها ليونتيوس وإبعاده عن العرش، فتح أمامه آمالاً جديدة بإمكانية عودته إذا توفرت له السبل المساعدة على ذلك، خاصة أنه لم يتعرض لأي حراسة عسكرية مشدودة، ويتمتع بحريته إلى حد ما^(١). ويبدو أن روحه القلقة وتحركاته لفتت انتباه حكام خرسون ومواطنيها بما يعتمل في داخله، وبأنه كان يتحضر للعودة إلى القسطنطينية، وقدروا خطورة ذلك، خافوا من انتقام الإمبراطور البيزنطي، أو أن تتحول مدينتهم إلى ساحة للقتال أو لتدبير المؤامرات ضد الإمبراطورية البيزنطية، وبدأوا يتحركون في الاتجاه المضاد، حتى أنهم فكروا في قتله أو تسليمه إلى الإمبراطور تيبريوس^(٢).

وعلم جستنيان بهذه النوايا عن طريق أصدقائه في خرسون فسارع بالفرار إلى دورا Dora الواقعة في الشمال الشرقي من كرميا Crimea، وهناك حاول الاتصال بخان الخزر Chazars، طالبا حمايته، وأحسن خان الخزر بوسيروس جليباروس Bouseros Gliabaros^(٣) استقباله والترحيب به، وتفهم قضيته، ووعده بالمساعدة، ويبدو أنه فكر في الاستفادة من هذه القضية خاصة وأنه كان لدولته أطماع سابقة في أملاك الإمبراطورية البيزنطية، وبالغ الخان في إكرام جستنيان

(١) Camb. Med. Hist, Vol. II, P.411.

(٢) Ostrogorosky , Op. Cit., P.141.

(٣) C. Head., Op. Cit., P. 16.

حتى إنه زوجه شقيقته، التي دخلت في النصرانية وأطلق عليها جستيان اسم ثيودورا Theodora، حتى تكتمل العظمة لديه، ويكتمل تطابقه بالإمبراطور جستيان الأول وزوجته الشهيرة ثيودورا^(١).

ولما علم الإمبراطور تيبيريوس الثالث بهذه التطورات التي أقدم عليها جستيان، وما يمكن أن تشكله من خطورة على عرشه، سارع ببعث سفارة إلى بلاط خان الخزر، تحمل الإغراء والتهديد في ذات الوقت، ووعد الإمبراطور الخان بالكثير من الهدايا والأموال إذا سلمه جستيان حياً أو ميتاً^(٢)، وتردد الخان طويلاً، ولكن يبدو أن الإغراء الإمبراطوري قد وافق هوى في نفسه، كما أنه لم يشأ أن يفسد العلاقات الطيبة التي كانت تربطه بالإمبراطورية البيزنطية في تلك الفترة، فقرر أن يستجيب لطلب الإمبراطور تيبيريوس الثالث^(٣). وأعد الخان خطة لتحقيق رغبة الإمبراطور، وفي الوقت ذاته تظاهر بأنه يعمل لمساعدة جستيان، وأرسل قواته إلى فاناجوريا Phanagoria، على الشاطئ الشرقي لبوغاز كيرتش Kertch، حيث استقر جستيان وأصدر إلى نائبه في تلك الجهة وإلى حاكم البوسفور، الأوامر لمنع جستيان من الهروب^(٤). ولكن جستيان تلقى الإنذار في الوقت المناسب، إذ أخبرته زوجته بخطة شقيقها لإلقاء القبض عليه، ورضوخه

(١) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 358، وثيودورا هي إحدى أشهر الشخصيات في الإمبراطورية البيزنطية، وكانت راقصة في المسارح الهزلية بالقسطنطينية قبل أن يتزوجها الإمبراطور جستيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥م)، وكان لها دورها الكبير في إنقاذ عرش زوجها حيث رفضت الهرب في أعقاب ثورة (نيقا) التي قامت في العاصمة ضد الإمبراطور جستيان، وكان لها دورها الكبير والمؤثر حيث شاركت في الحكم خلال فترة حكم زوجها، وتوفيت سنة ٥٤٨م نتيجة لإصابتها بسرطان الدم. لمزيد من التفاصيل انظر: الباز العريني، مرجع سابق، ص ٦٦.

(٢) Oman, Op. Cit., P. 178.

(٣) وسام فرج، مرجع سابق، ص ٦٧.

(٤) الباز العريني، مرجع سابق، ص ١٧١.

لطلبات الإمبراطور، فسارع بإرسال زوجته إلى أخيها^(١)، وعاد للهروب مرة أخرى حيث اتخذ طريقه إلى خرسون في قارب من قوارب صيد السمك، وهناك انحاز إليه عدد كبير من أصدقائه وأعوانه^(٢)، وبعد مغامرات عديدة استطاع أن يصل إلى الساحل الغربي للبحر الأسود، واتصل بملك البلغار تريفل.

ورغم مواقف جستينان السابقة والسيئة من البلغار، إلا أن تطلع زعيم البلغار لضرب الإمبراطورية، جعله يعقد اتفاقاً مع جستينان الثنائي لمهاجمة القسطنطينية^(٣).

ويتضح من توجه جستينان الثاني إلى ملك البلغار لمساعدته في استعادة العرش أنه كان مستعداً أن يفعل أى شئ وأن يتوجه حتى إلى ألد أعدائه في سبيل تحقيق طموحاته، ورغم علمه بمدى العداوة الذي يكنه البلغار لدولته، ومدى خطورتهم على الإمبراطورية البيزنطية، فإنه لم يجد مفرًا من ركوب الصعب، حتى أنه قدم وعودًا لملك البلغار بتزويجه من ابنته، ووعودًا بالعطايا والمنح^(٤). ولا شك أن ملك البلغار قد قابل كل هذه الوعود والمقترحات بالسرور، وأمضى جستينان شتاء عام ٧٠٤م / ٥٨٥ في مملكة البلغار يعد العدة لمهاجمة القسطنطينية^(٥).

(١) تذكر الدكتورة عائشة ابو الجدايل (الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٩٥) أن جستينان قد فر إلى ملك البلغار تصحبه زوجته شقيقة خان الخزر، وهذا غير صحيح، فإن تسلسل الأحداث بعد ذلك يؤكد أنه أرسلها إلى شقيقها.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P.142.

(٣) أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٧٢.

(٤) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 360 ويبدو أن الزواج لم يتم، إذ اكتفى البلغار بالهدايا والمنح والأموال والأراضي الجديدة التي حصلوا عليها.

(٥) وسام فرج، مرجع سابق، ص ٦٣.

وفي مطلع عام ٧٠٥م / ٥٨٦ استيقظت العاصمة البيزنطية على أسطول ضخم من البلغار والسلاف ومعهم جستنيان الثاني يحاصرون القسطنطينية، ووقف الجيش ثلاثة أيام متتالية عاجزاً عن اختراق أسوار القسطنطينية الحصينة، وزاد الأمر سوءاً بالنسبة لجستنيان أن ادعاءاته ومطالبته بالعرش قد قوبلت بالازدراء والسخرية^(١).

ولم يستطع الإمبراطور تيريريوس أن ينظم أمر الدفاع عن العاصمة، فقد زاده هذا الحصار ومشهد البلغار وهم يحاصرون المدينة قلقاً وخوفاً، ولم يستفد من الرفض الشعبي لعودة جستنيان الثاني^(٢) واستمات جستنيان الثاني في اختراق أسوار القسطنطينية، فاستطاع وهو الخبير بجغرافية عاصمته أن يعثر على ممر مائي ضيق تسال من خلاله، وتبعه بعض رجاله الشجعان، ليجد نفسه أمام القصر الإمبراطوري المعروف باسم بلاكرن Blacherne، والذي غادره الإمبراطور تيريريوس هارباً^(٣). وبسقوط القصر وهروب الإمبراطور سقطت العاصمة، وأصبحت نهباً للبلغار والسلاف الذين سرعان ما اندفعوا إلى العاصمة البيزنطية^(٤).

عاد الإمبراطور جستنيان الثاني إلى عرشه بعد عشر سنوات قضاها في المنفى، بعيداً عن عاصمته وعرشه وملك آبائه وأجداده، ويبدو إن حصيلة هذه السنوات العشر ستقلب إلى حقد ورغبة في الانتقام ملأت صدر جستنيان، وانقلبت وبالأعلى عليه وعلى الإمبراطورية البيزنطية.



(١) Ostrogorsky, Op. Cit., P.142.

(٢) Camb. Head., Op. Cit., P. 16.

(٣) Theophanes, P. 523.

(٤) الناصري، الروم، ص ٢٣٧.

كان أول أعمال جستينيان الثاني أن قام بمكافأة ملك البلغار على موقفه ومساعدته له، فأنعم عليه بلقب قيصر^(١)، ومنحه الكثير من الأموال والهدايا، وإعادة الإتاوة التي كانت قد التزمت الإمبراطورية البيزنطية بدفعها للبلغار منذ عهد الإمبراطور قسطنطين الرابع^(٢)، كما منحهم إقليم زاجوريا Zagoria الذي يرجح أنه يقع بين جبال البلقان وخليج بورجاس Gurgas^(٣).

ويرى أحد المؤرخين أن هذه المساعدة التي بذلها البلغار لتسهيل عودة الإمبراطور جستينيان الثاني إلى الحكم، والتي فرضتها المصالح المشتركة للطرفين، هي المرة الوحيدة التي كان فيها البلغار مفيدين للإمبراطورية البيزنطية، أو على علاقة حسنة معها^(٤) وشهدت العلاقات بين الطرفين تحسناً ملحوظاً، إلا أن هذا التحسن سرعان ما تبدل، لأن المطامع البلغارية كانت واضحة ودائمة البروز في العلاقة بين الطرفين، فما هي إلا سنوات قليلة حتى قام جستينيان الثاني سنة ٧٠٨م / ٥٩٠ هـ بخرق اتفاق السلام مع البلغار وجرّد حملة لمحاربتهم، ورغم فشل هذه الحملة، إلا أنها أكدت عودة الصراع والتربص بين الطرفين مجدداً^(٥).

(١) كان لقب قيصر يتلو في المكانة لقب إمبراطور، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يمنح فيها هذا اللقب لحاكم أجنبي. وهو لقب يعطى لصاحبه الحق بالمشاركة في التشريف الإمبراطورية، حيث أتاح هذا اللقب لملك البلغار الجلوس بجانب الإمبراطور وتقبل ولاء البيزنطيين ويقال أن الإمبراطور جستينيان من فرط امتنانه لموقف ملك البلغار، وضع التاج القيصري على رأسه والبسه الرداء الأرجواني الموشى بالذهب: Ostrogorosky, Op. Cit, P.143. وأيضاً: البلاز العريني، مرجع سابق، ص

١٧٢. وسام فرج، مرجع سابق، ص ٦٤

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.411.

(٣) وسام فرج، السلاف في شبه جزيرة البلقان، مرجع سابق ص ١٥٧.

(٤) المرجع السابق، ص ١٥٦، وقد تكون المرة الثانية حين قام البلغار بمهاجمة المسلمين، وخيانتهم بعد أن وعدوهم بالتحالف ضد الإمبراطورية البيزنطية. حينما كان المسلمون يحاصرون القسطنطينية في عهد الوليد بن عبد الملك في الحملة التي قادها مسلمة بن عبد الملك سنة ٧١٧م - ٥٩٩ هـ.

(٥) Theophanes, Op. Cit., 525.

وكان العمل الأخطر الذى قام به الإمبراطور جستنيان بعد أن استعاد العرش هو إلقاء القبض على الإمبراطورين السابقين ليونتيوس، الذى كان قابلاً فى إحدى الأديرة، وتيبريوس الذى استطاع الفرار من القسطنطينية إلى أبولونيا - وهى إحدى قرى آسيا الصغرى - ولكن هروبه لم يدم إذ تم إلقاء القبض عليه وإعادته إلى القسطنطينية.

وكذلك تم القبض على هرقل القائد العام للثيمات - شقيق تيبريوس - ولم تشفع له الخدمات التى أداها للإمبراطورية، وعلى غيره من القادة العسكريين وأتباعهم، حيث تقرر شنقهم جميعاً وتعليقهم على أسوار القسطنطينية^(١).

ولم يقف انتقام الإمبراطور عند هذا الحد، بل إنه قرر سمن عيني البطريك كالينكوس، الذى قام بتتويج الإمبراطورين السابقين، ليونتيوس، وتيبريوس الثالث، وطرده بعد ذلك إلى روما^(٢).

وقد بالغ المؤرخون البيزنطيون والغربيون فى الحديث عن انتقامات جستنيان الثانى وتفصيلها البشعة، ورموه بأنه رجل غير مسؤول ومحب للسلطة ومستبد، حتى ذهب البعض إلى المطالبة بإسقاط الفترة الثانية من حكمه باعتبار أنها سنوات لا قيمة لها أتى فيها الإمبراطور الأشرم أعمالاً لا تتسبب إلا لرجل مخبول^(٣). ورغم ذلك فهناك محاولة جادة لإعادة الاعتبار للفترة الثانية من عهد الإمبراطور جستنيان الثانى من خلال الدراسة التى أعدتها المؤرخة Constance Head^(٤). وتؤكد فيها أن تصوير الإمبراطور جستنيان الثانى كإمبراطور لا يهدأ له

(١) Theophanes, P. 523، ويذكر ثيوفانيس أن عقوبة الموت شملت عدداً آخر من كبار الموظفين، الذين كانوا فى الخدمة أو خارجها ممن تعاونوا مع الإمبراطورين السابقين، وأنه وضع بعضهم فى أكياس وقذف بهم إلى البحر.

(٢) Ibid, 523

(٣) Bury. Op. Cit, Vol. II, P. 330

(٤) هذه الدراسة بعنوان: Towards A Renterpretation of the Second Reign of Justinian II : 705 - 711

ونشرت هذه الدراسة فى مجلة Byzantion التى تصدر فى بروكسل العدد رقم (39)، عام ١٩٧٠ م، الصفحات (١٤ - ٣٢)

بال بعد قتل كل أعدائه أمر فيه إفراط في الخيال وتجن على الحقيقة^(١). ثم توضح ذلك بقولها: "إنه لجد مثير إيجاد بعض الأدلة المتفرقة من عدة مصادر، تلقى الضوء على العهد الثاني لجستيان، هذه الأدلة قد لا تعنى الكثير، ولكن لو جمعت مع بعضها نجدها تفتح الطريق إلى إعادة تقييم المفهوم التاريخي السابق عن جستيان، والذي جعلنا نعتقد بأنه غير مسؤول ومستبد ومحب للسلطة، أو حسبما شنع البعض عنه"^(٢) ثم تذكر بعض هذه الأدلة فتقول: "كل المؤرخين الذين وصفوا الإعدامات وتفصيلها البشعة، لم يذكروا أن الإمبراطور جستيان الثاني كان قد عفا عن ثيودسيوس Theodosius ابن الإمبراطور أبسيمار (تييريوس الثالث) الذي كان أخطر الناس على حكمه، لم يكن من السهل التعرف على هذه الحقيقة حتى صار ثيودسيوس ابن أبسيمار - الأسقف الراض للإيقونات - أسقفاً لمدينة أفسوس Ephesus ومستشار للإمبراطور ليو الثالث Leo III، وابنه قنسطنطين الخامس"^(٣).

ثم تتساءل: "لماذا عفا جستيان الثاني عن ابن الإمبراطور أبسيمار (تييريوس الثالث)؟! وتجييب: أمر غير معروف حتى الآن، إلا أنه أمر لا ينسجم مع كونه منشق ومنتم"^(٤).

ثم تذكر دلالة أخرى، فتقول: "ثمّة تناقض آخر غريب لقول مؤرخي الحوليات أن جستيان الثاني كان عازماً على الانتقام السريع من كل أعدائه، يتمثل في أنه أقام علاقة مع شخص كان يجدر به أن يحتقره ويكرهه، ألا وهو خان

(١) Contance Head., Op. Cit., P. 14.

(٢) Contance Head., Op. Cit., P. 15.

(٣) Contance Head., Op. Cit., P. 15. والإمبراطور ليو الثالث هو مؤسس الأسرة الإيسورية، وقد

حكم من سنة (٧١٧ - ٧٤٠ م / ٩٩ - ١٢٣ هـ)، وابنه قنسطنطين الخامس، قد حكم من سنة (٧٤٠ -

٧٧٥ م / ١٢٣ - ١٥٩ هـ)، وكان ليو الثالث قد أفضل الحصار الإسلامي الثالث للقسطنطينية الذي قاده

مسلمة بن عبد الملك، وكما أعلن الحرب على الأيقونات أو ما عرف بمحاربة الصور، وكذلك فعل ابنه

قنسطنطين الخامس بصورة أكبر وأشد.

Ibid (٤)

الخزر بل إنه أسرع بطلب زوجته بعد أن عاد إلى العرش، وتوجهها إمبراطورة معه^(١) وتضيف إلى هذه الحقيقة: "ومن مصدر غير معروف كاتبه، ومن زمن يسبق المصدرين (ثيوفانيس ونكفور يوس) علمنا أن خان الخزر كان قد زار القسطنطينية بنفسه في زيارة رسمية، وقد استقبل أحسن استقبال. وهذه الزيارة تدل على أن جستينان تغاضى عن ما يشعر به تجاه صهره بسبب خيانتة لكى يكسبه كحليف لفترة على الأقل"^(٢)

ثم تختم دفاعها أو إعادة تقييمها بقولها: "إن كل ما ذكر من أعمال انتقامية قد حصل فعلاً، ومحاولتى هذه ليست لدحض الاعتقاد بأن هنالك كثيراً من الإجراءات الانتقامية قد حدثت، نعم كل ذلك قد حدث، ولكن لم يكن بهذه الكثرة وبمثل ما ذكره نيكفور يوس وثيوفانيس، وإلا لما غاب عن ملاحظة المعاصرين الغربيين"^(٣).

على أية حال، وأياً كان الموقف من انتقامات جستينان الثانى، فإن الذى لا شك فيه أن الإمبراطورية البيزنطية فى فترتها الثانية قد دخلت طوراً جديداً من الفوضى لا يمكن تجاهله أو التقليل من آثاره فى أوضاع الدولة الداخلية، أو علاقاتها مع القوى المحيطة والمتربصة بها. وكان أهم هذه القوى الدولة الإسلامية، التى أحسنت استغلال الأوضاع التى أصبحت عليها الإمبراطورية فى التقدم بجيوشها فى أنحاء جديدة من آسيا الصغرى، ولم يستطع الجيش البيزنطى الذى فقد أحسن عناصره وقادته من جراء حملة التطهير التى قادها الإمبراطور فى صفوف

(١) C. Head., Op. Cit., P. 16. وقد أشار ثيوفانيس أن جستينان قد بعث بأسطول لإحضار زوجته من عند شقيقها خان الخزر، ولكن بعض سفن هذا الأسطول غرقت فى البحر، وعندما علم الخان بذلك بعث إليه برسالة يوبخه على أن بعث إليه بكل هذا الأسطول، ويخبره أنه كان يكفى أن يرسل إليه ليعتد إليه زوجته وابنه الذى ولدته أثناء غيابه، بدلاً من أن يتسبب بموت كل هؤلاء الناس. ثم كان أن أرسل إليه الإمبراطور بعثة لاستلام زوجته وابنه: Theophanes, P. 523. وكذلك يشير المنبجى إلى هذه الرواية بكل تفاصيلها وما انتهت إليه. المنبجى، مصدر سابق، ص ٧٨، ٧٩.

(٢) C. Head., Op. Cit., P. 16.

(٣) Ibid

القادة الذين كانوا مناوئين له أو متعاونين مع الإمبراطورين السابقين من التصدي لهم^(١).

على الجانب الإسلامي تولى الخلافة الأموية الوليد بن عبد الملك، بعد وفاة والده عبد الملك بن مروان سنة ٥٨٦ هـ / ٧٠٦ م^(٢). ولم تتوان أو تتوقف القيادة الإسلامية الجديدة عن شن غارات طوال الفترة الثانية لعهد جستنيان الثاني، وكان هدفهم وقف كل تهديد يأتيهم من ثيم الأناضول^(٣). وتذكر بعض المصادر أن جستنيان الثاني - رغبة منه في البحث عن حلفاء، ووقف الصراع مع المسلمين - قام عند عودته إلى القسطنطينية واستعادته للعرش البيزنطي، بإطلاق سراح ستة آلاف من الأسرى المسلمين، وجددهم في السجون البيزنطية من عهدى الإمبراطورين السابقين^(٤).

وبعد فترة حاول الإمبراطور جستنيان الثاني تطوير العلاقات التجارية بين بيزنطة والخلافة الأموية، وكذلك تطوير العلاقة مع الخليفة الوليد بن عبد الملك، إذ تذكر بعض المصادر الإسلامية أنه قام بإرسال العمال البيزنطيين وبعض المواد للمساعدة في بناء المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة، وأن الخليفة قد كتب إليه بذلك، فسارع إلى بعث مائة ألف متقال من الذهب، وبعث بمائة عامل، وحمل أربعين جملاً من الفسيفساء لتزيين المسجد^(٥).

(١) وسام فرج، العلاقات، مرجع سابق، ص ٦٥. وكذلك: Ostrogorosky, Op. Cit., P.143
(٢) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج ٤، ص ١٠٢ - الطبري، ج ٦، ص ٤١٨. وكانت وفاة عبد الملك بن مروان في منتصف شهر شوال، وكان يبلغ عند وفاته ستين عامًا، وقيل ثلاثة وستين عامًا.

(٣) د. عائشة أبو الجدايل، مرجع سابق، ص ١٩٦.

(٤) C. Head., Op. Cit., P. 16. وتستند هذه المعلومة على رواية ذكرها ميخائيل السرياني، وابن

العبري، ولا تشير إليها المصادر الإسلامية وانظر أيضًا: Camb. Med. Hist. Vol. II, P.411.
(٥) أشارت إلى ذلك عدة مصادر منها: الطبري، ج ٦، ص ٤٣٦. وابن الأثير، ج ٤، ص ١٠٩. ابن الجوزي، ج ٦، ص ٢٨٤. ابن خلدون، تاريخه، ج ٣، ص ١٣٢. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٧، ص ٤٣١.

والواقع أن هذه المساهمة وإمكانية حدوثها قد أثارت جدلاً بين المؤرخين، فهي لم ترد إليها أية إشارة عند المؤرخين البيزنطيين، لذلك اعتبرها عدد من المؤرخين الغربيين المحدثين ضرباً من الخيال^(١). كما اعتبرها أحد المؤرخين المسلمين المعاصرين فكرة أسطورية غير قابلة للتصديق^(٢). وقام المستشرق هاملتون جب (H. Gibb) بإلقاء الضوء على إمكانية أخذ ما كتبه الطبرى - وغيره من المصادر - باعتماد كلي، فإضافة إلى ما أورده الطبرى، قام جب بإيراد مقتطفات من ما كتبه مؤرخ آخر - يسبق الطبرى بمائة عام - هو ابن زبالة، والذي يقول إن الوليد بن عبد الملك أرسل يطلب من ملك الروم المساعدة فى بناء مسجد الرسول، ويقول إنه أرسل فسيفساء وما يفوق على العشرين عاملاً، وبعضهم يقول عشرة عمال وأن جستيان قال: "لقد أرسلت لك عشرة عمال ولكنهم يساوون المائة" ويضيف ابن زبالة - كما يذكر جب - أن الإمبراطور جستيان أرسل أحمالاً من الفسيفساء، وثمانين ألف دينار كإعانة مالية للعمال^(٣).

ويبدو الأمر محيراً فعلاً، فهل حدثت هذه المساهمة أو الاستجابة البيزنطية، أم لم تحدث؟! وإذا كانت حدثت فلماذا أغفلتها المصادر البيزنطية، وهى التى كانت تتعقب كل نقيصة يقدم عليها الإمبراطور جستيان الثانى، إذا اعتبرنا ذلك انتصاراً للمسلمين وانهازاً للبيزنطيين!؟

ثم كيف يمكن أن تحدث هذه الاستجابة، فيما الحروب مستمرة بين الدولتين، ولم يكن هناك اتفاقية سلام بينهما أو هدنة عسكرية؟! وعلى الرغم من إجماع معظم المصادر الإسلامية على حدوث تلك الاستجابة البيزنطية، إلا أن هناك مصدرين هامين - بل وهما الأقدم - لم يشيرا إلى قدوم العمال الروم من

(١) Head., Op. Cit., P. 17

(٢) د. عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية، ج ٢، ص ١٨٥.

(٣) هاملتون جب، دراسات فى حضارة الإسلام، ترجمة د. إحسان عباس وآخرون، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٦٨، ٦٩. ولم نستطع العثور على مؤلف ابن زبالة الذى أشار إليه جب، ولكن المصادر المذكورة فى الهامش السابق أشارت إلى حدوث مثل ذلك.

القسطنطينية تنفيذاً لتعليمات الإمبراطور، للمشاركة في إعادة بناء المسجد النبوي، أو حتى المسجد الأموي في دمشق، وهذان المصدران هما: البلاذري صاحب فتوح البلدان، والدينوري صاحب الأخبار الطوال^(١)!

أم أن الأمر لم يكن استجابة أو مساهمة بيزنطية، وإنما كان التزاماً، وقد التزمت به الإمبراطورية البيزنطية بسبب الهزائم العسكرية التي تعرضت لها، كما أشار ابن خلدون^(٢). أم أن هؤلاء العمال الذين ساهموا في البناء سواء للمسجد النبوي، أو الأموي في دمشق هم من الروم والسوريون والأقباط سكان البلاد التي كان يحكمها المسلمون سواء في سوريا أو في مصر، وأن الأمر قد اختلط على هؤلاء المؤرخين، فعتوهم من روم القسطنطينية الذين بعث بهم الإمبراطور البيزنطي؟! ثم هل الأمر كان يحتاج فعلاً إلى أن يبعث الإمبراطور البيزنطي بعشرة أو عشرين أو حتى مائة من العمال المهرة من القسطنطينية، حيث لم يكونوا متوفرين في البلاد الإسلامية، وبالذات من سكان البلاد الأصليين في سوريا أو مصر أو أرمينيا أو غيرها من البلاد التي أضحت تحت حكم الدولة الإسلامية؟! وإذا كان الأمر كذلك، فكيف نفسر شبه الإجماع لهذه المصادر الإسلامية؟! هل لأنها كانت تنقل عن بعضها دون تدقيق أو فحص للروايات؟!!

على أية حال إذا سلمنا أن الإمبراطور جستنيان قد قام فعلاً بإرسال أموال وعمال ومواد للبناء إلى الدولة الإسلامية، وكان هدفه من تلك المبادرة إقامة علاقات سلمية معقولة مع الخلافة، وإيقاف الهجمات الإسلامية على الأراضي البيزنطية، فإن هدفه لم يتحقق، فرغم أن العلاقات التجارية والدبلوماسية كانت قائمة بين الدولتين، إلا أن الحملات الإسلامية داخل الأراضي البيزنطية، كانت مستمرة، بل إنها بلغت ذروتها عند اقتراب نهاية عهد الإمبراطور جستنيان، حيث

(١) عبد المنعم ماجد، مرجع سابق، ص ١٨٥.

(٢) ابن خلدون، تاريخه، ج ٣ ص ١٣٢.

تكبدت قواته خسائر فادحة أمام المسلمين^(١). فقد تواصلت الهجمات الإسلامية حتى أنهم حاصروا طوانة Tyana التي تعتبر من أمنع الحصون بأطراف قبادوقيا، وتتحكم في ممرات جبال طوروس، وكانت تدعم حصن قليقيا، وقد قام بفتحها مسلمة بن عبد الملك شقيق الخليفة، وابن الخليفة العباس بن الوليد^(٢). وفي أواخر أيام الإمبراطور جستين الثاني اشتدت الغارات الإسلامية على قليقيا فاحتلوا مواقع عديدة، حتى أن قوة إسلامية توغلت في غاراتها حتى وصلت خريسبوليس Chrysopolis (سكودري الحالية) فألحقت بها خسائر فادحة^(٣).

ويبدو أن الانتصارات المتوالية للمسلمين في آسيا الصغرى وأرمينيا، قد جعلتهم يفكرون في إعادة حصار القسطنطينية ومحاولة إسقاطها، وهو الأمر الذي تم بعد عدة سنوات في عهد الأسرة التالية، الأسرة الأيسورية، إلا أنها فشلت كما فشلت سابقتها، لأسباب عديدة ليس هنا مجال الخوض فيها.

على الجانب الأوروبي كانت قضية رفض البابوية اعتماد مقررات المجمع البنيكتي الذي دعا إليه الإمبراطور جستين وأشرف على جلساته، واعتمد قراراته^(٤)، خلال فترة حكمه الأولى، مازالت شغله الشاغل، ومحل اهتمامه وحرصه. وعندما عاد جستين للحكم في بيزنطة كانت الأحوال قد تغيرت في روما فقد توفي البابا سرجيوس الأول الذي رفض اعتماد مقررات المجمع، وكان خلاف جستين مع هذا البابا قد وصل إلى قمته لدرجة أن جستين كان قد أمر باعتقاله، إلا أن هذه المحاولة فشلت لأن مدينة راقنا والإيطاليين تصدوا لها وأعلنوا دعمهم للبابا، وكان أن سقط جستين ونفى واستمر البابا سرجيوس على كرسي البابوية حتى وفاته سنة ٧٠١م / ٨٢ هـ^(٥).

(١) Head., Op. Cit., P. 18

(٢) ابن الأثير، ج ٤، ص ١٠٩، وكذلك يشير ثيوفانيس إلى فتح طوانة: Theophanes, P. 526

(٣) الطبري، ج ٦، ص ٤٦٩.

(٤) سبق أن ناقشنا هذا المجمع وقراراته، ورفض البابوية لها على الصفحات (٢٢٠ - ٢٢٣).

(٥) Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 225.

وعندما عاد جستنيان إلى الحكم كان من أول ما فعله هو الاتصال بالبابوية لإعادة المناقشة في قرارات المجمع البنثيكتي، أملاً في كسب التأييد وإيجاد حل للقرارات التي كانت موضع إشكالية واعتراض من البابوية.

كانت البابوية في ذلك الحين قد آلت إلى البابا يوحنا السابع John VII (٧٠٥ - ٧٠٧ م / ٨٦ - ٨٨٨ هـ) الذي عرف بعمق تعليمه، ولباقته ولكنه عرف بالحياء الشديد^(١). وأرسل الإمبراطور اثنين من الأساقفة البيزنطيين، يحملون معهم مجلدات تحمل نصوص وقرارات المجمع، ورسالة من الإمبراطور يرجو فيها من البابا أن يعقد مجلساً لمناقشة هذه المقرارات وأن يوافق على ما يرتضيه منها، ويرفض ما يتعارض مع معتقداته^(٢).

ولكن البابا يوحنا لم يستجب للإمبراطور، وأعاد المجلدات إليه. وقبل أن يستطيع الإمبراطور أن يمارس أي شيء من الضغوط، ما لبث البابا أن توفي، ودخلت روما في مشكلة إيجاد خلف له. وفي بداية سنة ٧٠٨ م / ٨٨٩ هـ تقلد البابا الجديد سيسينيوس Sisinnius منصبه، وهو عجوز ومريض وكان سوري الأصل، ولكنه ما لبث أن توفي أيضاً بعد عشرين يوماً من توليه المنصب البابوي^(٣).

تلاه سوري آخر على المنصب هو البابا قنسطنطين Constantine (٧٠٨ - ٧١٥ م / ٩٠ - ٩٧ هـ) وتصفه المدونة البابوية بأنه كان رجلاً معتدلاً^(٤). وبدأ الإمبراطور اتصاله بالبابا الجديد على أمل أن يقنعه باعتماد مقررات المجمع البنثيكتي.

وفي أكتوبر سنة ٧١٠ م / محرم ٩٢ هـ. وبعد عدة شهور من التردد وافق البابا على السفر إلى القسطنطينية، وزيارة البلاط الإمبراطوري، وعلى طول الطريق أمر جستنيان بأن يعامل موكب البابا على النهج ذاته الذي يعامل به موكب الإمبراطور نفسه، وبعد رحلة استغرقت عدة أشهر وصل البابا والوفد المرافق له إلى القسطنطينية، ولاقاه على بعد سبعة أميال من العاصمة ابن الإمبراطور وولى

(١) Head., Op. Cit., P. 19.

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.412.

(٣) Head., Op. Cit., P. 19.

(٤) Ibid

عده تيريوس Tiberius^(١)، وعدد من رجال الدين والدولة وشارك في استقباله بطريك القسطنطينية كيروس Cyrus (٧٠٥ - ٧١٢ م / ٨٦ - ٨٩٤هـ). وعندما وصل البابا إلى القسطنطينية كان الإمبراطور في نيقية Nicaea، ولما بلغه خبر وصول البابا إلى العاصمة فرح فرحًا عظيمًا، سارع للكتابة إليه يدعو لتنظيم لقاء بينهما في نيقوميديا Nicomedia^(٢)

كان لقاء نيقوميديا احتفاليًا أكثر مما هو لقاء لحل المشكلات العالقة، إذ انحنى الإمبراطور جستين الثاني في تواضع، وتوجه فوق رأسه ليقبل قدم البابا، وبعد ذلك احتضن كل منهما الآخر كالأخوان. وفي يوم الأحد تقبل الإمبراطور الغفران، وسأل البابا أن يصلى من أجله للغفران من ذنوبه. ورغم أن الحولية البابوية قد وصفت الاحتفال الكبير بكل تفاصيله إلا أنها لم تشر إلى القوانين المختلف عليها بين البابوية والإمبراطور^(٣).

ولكن يمكن القول إن البابا والوفد المرافق له، وقد عقدوا جلسة مناقشات مطولة مع الإمبراطور، ووصلوا إلى درجة من الاتفاق بخصوص تلك القوانين. ويعود أغلب النجاح في تلك المناقشات إلى الشماس جريجورى Gregory (الذى سيصبح فيما بعد بابا باسم جريجورى الثاني للفترة من ٧١٥ - ٧٣١م) الذى عمل على إزالة كل أسباب سوء الفهم، وعجل بالوصول إلى اتفاق^(٤).

(١) كان تيريوس هو ابن زوجته الخزرية شفيقة خان الخزر والتي سماها ثيودورا، ولذلك كان يعرف بالنصف خزرى وكان الإمبراطور قد أعلنه وليًا لعهد و عمره ما زال عامًا واحدًا، وكان عند استقباله للبابا يبلغ السادسة من عمره، ولعل تسميته باسم تيريوس لأن جستين الثاني أراد أن يحى اسم الإمبراطور السابق تيريوس من قائمة الأباطرة البيزنطيين، بعد أن أعده ليخلد اسم ابنه. والغريب أن أجابيوس المنبجى يذكر تيريوس ابن جستين الذى تشارك مع أبيه فى الجلوس على سرير الملك قد حكم لمدة سبع سنين، هذا غير صحيح إذ أن تيريوس ابن جستين ما لبث أن أعدم مع والده فى الثورة التى قامت عليه بعد قليل، وبالتحديد سنة ٧١١ م / ٩٣هـ، والذى حكم سبع سنين هو تيريوس الثالث الذى سبق عودة جستين الثاني إلى العرش. انظر المنبجى، مصدر سابق، ص ٧٩.

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.412; Head., Op. Cit., P. 20.

(٣) أسد رستم، كنيسة أنطاكية، ج ٢، ص ٥٣.

(٤) Head., Op. Cit., P. 20.

ويرى بعض المؤرخين أن الإمبراطور جستنيان الثاني ذا الإرادة القوية، والذي قلما يقبل برأى الآخرين، قد أذعن هذه المرة، بعد أن وصل إلى نتيجة مؤداها أن إجبار البابوية على قبول تلك القوانين، أمر فيه كثير من العنت والعبث، ولا جدوى منه، خاصة وأن التعديلات التي أدخلها الشماس جريجورى قد لاقت قبوله^(١).

وأكد الإمبراطور نواياه الحسنة تجاه البابوية بتجديد كل امتيازاتها، وعاد البابا إلى روما، حيث رحب به أهلها، وسادت فترة من السلام بين الإمبراطورية والبابوية^(٢).

Ibid (١)

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.412; Ostrogorosky, Op. Cit., p. 144; Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 226.

مقتل جستنيان الثاني ونهاية الأسرة الهرقلية:

كان التحرك الثاني للإمبراطور جستنيان الثاني في الغرب، هو مهاجمته لمدينة رافنا Ravenna، والتي كانت مقر الحاكم البيزنطي، أو الممثلة البيزنطية في إيطاليا. ويرجع كثير من المؤرخين سبب مهاجمة الإمبراطور لها، وتخریبها وقتل الكثير من أعيانها ورجالها، إلى ما أظهرته هذه المدينة من عداوة له خلال فترة حكمه الأولى^(١)، وهناك مصادر أخرى تعيد أسبابها إلى عوامل أخرى تكمن في السلام الذي ساد بين الإمبراطورية والبابوية.

فالمدونة التاريخية الغربية التي كتبها أجنلوس الراقيني Agnellus of Ravenna، في القرن التاسع الميلادي وكانت مصدرًا لأهم التهم جدية ضد الإمبراطور جستنيان، تصف هجوم جستنيان الثاني على مدينة رافنا بأنه فعل شخص ذي طبيعة شريرة انتقامية^(٢) والطريقة التي وصف بها أجنلوس الإمبراطور جستنيان كانت لا تختلف عن وصف نيكفور يوس وثيوفانيس، إلا أنهم جميعًا - كما ترى هيد - لم يحيطوا بالحقائق الواقعية، التي يعود إليها الهجوم على رافنا، فهذا الهجوم كان قد وثق من طرف محايد هو (المدونة التاريخية الرسمية للبابوية - The Liber Pontificalis of Rome)، فمن المؤكد أن جستنيان استعمل أساليب قاسية مع المدينة سيئة الحظ، ولكن السؤال هو لماذا؟! والإجابة ترد في هذه المدونة الرسمية للبابوية، والتي تحتوى على وقائع عن أسباب الإجراءات التي اتخذها جستنيان الثاني ضد هذه المدينة على عكس ما زعم أجنلوس، وغيره من المؤرخين من الأسباب التي دفعت جستنيان إلى الانتقام من هذه المدينة^(٣).

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., p. 144. وكذلك: الباز العريني، الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٧٣.

(٢) Head., Op. Cit., P. 21.

(٣) Head., Op. Cit., P. 22.

فقد دخل رئيس الأساقفة الجديد في مدينة رافنا وهو الأسقف فيليكس Felix في مشاجرات مع البابا قنسطنطين بعد فترة قليلة من تقليده منصبه.

والمعروف أن التنافس بين أسقف مدينة روما وأسقف مدينة رافنا قديم، وله تاريخ، وذلك التنافس والصراع ولد كثيرًا من العنف الذي تفجر عدة مرات في السنوات السابقة. ويبدو أن أساس هذه المشكلة هو مسألة الكبرياء الوطني لمدينة رافنا، التي كانت العاصمة الرسمية للممثلة البيزنطية في إيطاليا، وزاد على ذلك، الاستياء المتعاضم من أن رئيس أساقفة رافنا كان يجب عليه أن يبايع ويطيع البابا في روما. وعلى مدى حوالي ثلاثين عامًا قبل تقليد منصب البابوية لقنسطنطين كان التنافس بين روما ورافنا قد هدأ، وبات في سكون. ولكن بعد مجيء الأسقف فيليكس رئيسًا للأساقفة في رافنا تحرك العداء القديم بعنف^(١).

فقد رفض الأسقف فيليكس الإقرار بوثيقة بابوية تطلب منه أن يعد بعدم فعل شيء يمس وحدة الكنيسة، وسلامة الإمبراطورية، وحصل الأسقف فيليكس على تأييد قادة الحكومة المحلية لرافنا على رفضه، واعتبر ذلك التأييد فعلًا ثوريًا، وأصدر الأسقف فيليكس وثيقة تماثل تلك التي أرسلها البابا، وقام بإرسالها إلى روما، لكن البابا قنسطنطين لم يكن راضيًا عنها، وعندئذ دخل جستينيان في الصراع، حيث رأى أن أسقف رافنا قد تحداه وتحدى البابا أيضًا، لذلك بادر بإرسال أسطول بحري إلى رافنا ولقن سكانها درسًا بليغًا، وهذه الأحداث حدثت في وقت كانت العلاقة متقدمة وجيدة مع البابوية^(٢). واعتبرت البابوية أن العقاب الذي حل بسكان رافنا عقابًا عادلًا لمن لم يطيعوا البابا^(٣).

(١) Head., Op. Cit., P. 22.

(٢) Ibid

(٣) Head., Op. Cit., P. 23.

فما الذى حدث فى راقثا؟! يذكر أجنلوس فى مدونته تفاصيل ما حدث بقوله:

أرسل جستيان أسطولاً إلى راقثا بقيادة النبيل ثيودور Theodoor، وعند وصوله أعلن عن احتفال كبير فى الميدان العام، ودعا لهذا الاحتفال كبار المسؤولين فى راقثا، وأخذوا واحداً بعد الآخر إلى داخل المخيم، وهناك ربطوا وأرسلوا إلى السفن ومنها إلى القسطنطينية، وكان من ضمنهم رئيس الأساقفة فيلكس. وبعد ذلك دخل الجنود إلى المدينة وأحرقوها وسلبوا ونهبوا ما فيها. وبعد أن وصل المسجونون إلى القسطنطينية أخذوا إلى الإمبراطور، والذى كان يخطط لقتل الجميع، إلا أنه رأى رؤيا دعته إلى حقن دماء الأسقف فيلكس، فلم يقتله، وقتل الآخرين بطرق فيها الكثير من التعذيب^(١). أما الأسقف فقد حكم عليه بحكم مخفف رحمة به، واكتفى بسمل عينيه.

ويصور أجنلوس الراقثى الطريقة التى أعمى بها فيلكس بقوله: سخن طبق فضى حتى تأجج من الحرارة، ثم أضيف إليه الخل وأجبر الأسقف على التحديق مباشرة فى الطبق حتى انطفاً بصره، ثم نفى إلى بونتس Pontus^(٢)

ولكن راقثا رغم هول ضربات وتصرف الإمبراطور لم ترضخ نهائياً، وإنما استمرت دوافع الثورة كامنة بها، وقابلة للاشتعال فى أى وقت، وفى أواخر سنة ٧١٠م / ٩٢هـ قامت ثورة جديدة فيها، إلا أن الإمبراطور لم يحفل بها، لأنه كان مشغولاً بإخماد ثورة أخرى^(٣).

كانت المدينة الثانية التى ارتبط اسمها بتصرفات جستيان الثانى وانتقامه وتعذيبه هى مدينة خرسون Cherson، حيث أرسل إليها حملة عسكرية كبيرة، فى بداية عام ٧١٠م / ٩٢هـ، استخدم فى نقلها كل أنواع السفن المتوفرة فى العاصمة حتى سفن الصيد، وكان يرأس الحملة القائد ستيفن أسمكيتوس Stephen Asmiktos،

(١) Head., Op. Cit., P. 24.

(٢) Ibid

(٣) الياز العرينى، مرجع سابق، ص ١٧٤. وكذلك: Ostrogorsky, Op. Cit., P.144.

وقد تم تمويل الحملة من الضرائب التي حصل عليها الإمبراطور بعد أن زاد فيها من أعضاء مجلس الشيوخ ومن الحرفيين والناس العاديين، وكانت التعليمات أن يقتل جميع سكان خرسون، وأن يعين القائد إلياس Elias حاكمًا عليها^(١).

وتقدم المصادر البيزنطية تفاصيل مثيرة عن نشاطات الحملة عند وصولها إلى خرسون، فيذكر ثيوفانيس أن القوات الإمبراطورية أنجزت المهمة وسيطرت على المدينة وخضع السكان لها. وأن القائد ستيفن أعدم سبعة من زعماء المواطنين بشوائهم أحياء، وأغرق آخرين بوضعهم في أكياس ثم إلقائهم في البحر، وأرسل عددًا آخر، منهم تودونوس Toudounos حاكم المدينة من قبل خان الخزر وزويلوس Zoilos زعيم المواطنين وثلاثين آخرين مع أسرهم إلى القسطنطينية. ثم جمع عددًا كبيرًا من الشباب وأرسلوا إلى القسطنطينية ليعملوا كعبيد، ولكن السفن التي كانت تحملهم في طقس بارد تعرضت لعاصفة شديدة أتت على كل الأسطول، وبلغ عدد القتلى من الأسرى والجنود ٧٣,٠٠٠ قتيل^(٢). ويذكر ثيوفانيس أيضًا أن الإمبراطور عندما سمع هذه الأخبار، تلقاها بفرح وسرور^(٣).

والواقع أن كثيرًا من المؤرخين - وبالذات البيزنطيين - يعيدون أسباب هذه الحملة إلى أن الإمبراطور جستنيان أراد الانتقام من مدينة خرسون، بسبب موقفها منه عندما كان منفياً إليها في عهد الإمبراطورين المغتصبين للعرش (ليونتيوس وتيبريوس الثالث) ومحاولة حكومتها وسكانها خيانتته وتسليمه إلى تيبريوس الثالث، لولا فراره إلى ملك الخزر ومنها إلى ملك البلغار^(٤).

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II, وتسميه موسوعة كامبردج باسم: Theophanes, Op. Cit., P. 527, P.414, Elijah

(٢) Theophanes, P. 527

(٣) Ibid

(٤) Ostrogorosky, P.124; Theophanes, P. 527. والواقع أن معظم المراجع تشير إلى هذا المبرر بوضوح.

ولكن المؤرخة Contstance Head التي أخذت على عاتقها دراسة وإعادة تقييم الفترة الثانية من حكم جستينان تناقش هذا المبرر، وتذكر أسبابًا أخرى جديرة بالاهتمام لحملة جستينان الثاني على خرسون.

فهي ترى أن ثيوفانيس ونيكفور يوس واللذان تتشابه معلوماتهما ووصفهما للأحداث كثيرًا، وقد اعتمدا على مصدر بيزنطي مفقود يسمى (المدونة ٧١٣ - Chronici 713)، والتي كتبت في عهد الإمبراطور التالي فيليبكوس وتحت رعايته^(١).

وترى أن هناك أسبابًا أخرى دعت الإمبراطور جستينان الثاني لتجريد حملته غير الانتقام من خرسون، فهو لو كان يريد الانتقام لما انتظر أكثر من خمس سنوات حتى يقوم بذلك، ولكن السبب في رأيها، أن خان الخزر كان قد قام بالاستيلاء على خرسون، وأرسل حاكمًا لها، وهو ما يذكره المؤرخون البيزنطيون أنفسهم، ولكنهم لم يستطعوا فيه، وهذا ما دعاه لإرسال حملة لاستعادتها من صهره الذي كان لا يعتمد أو يوثق به^(٢).

ثم إن فيليبكوس الذي خلف جستينان لم يكن يريد أن يصور خان الخزر على أنه عدو للإمبراطورية البيزنطية، لأنه كان السبب في اعتلائه العرش، فأطماعه التوسعية هي العامل الذي جعل جستينان يقوم بإرسال حملته على مدينة خرسون، وأوصل فيليبكوس إلى العرش^(٣).

(١) Head., Op. Cit., P. 26.

(٢) Ibid. ويشير الدكتور الباز العريني، إلى أن خرسون والبوسفور كانت من أملاك الدولة البيزنطية، وبعد أن غادر جستينان منقاه، استولى الخزر على تلك الجهات، فأرسل جستينان تلك الحملة لاستعادة سلطان بيزنطة، ص ١٧٤ هامش رقم (٢). وذلك نقلًا عن: Dunlop: The history of the

Jewish Khazars

(٣) Head., Op. Cit., P. 27.

وهي ترى أن ما كتب عن فرح الإمبراطور وسروره عندما بلغته أخبار الأسطول العائد من خرسون بالجنود والأسرى، مدعاة للعجب، لأن هذا التقرير احتوى على الكثير من الأشياء غير المنطقية، فإن فرح الإمبراطور لغرق كل عسكره وسفنه، يدل على أن تلك الكتابة كانت بمثابة افتراءات مضادة للإمبراطور جستينيان الثاني. فبغض النظر عن مشاعر الإمبراطور تجاه سكان خرسون والخزر، فإن ضياع مراكبه وعسكره لا يمكن أن يكون مفرحًا بالنسبة له (١).

ثم هي تشكك في الرقم الذي ذكره ثيوفانيس - وغيره - عن عدد الذين ماتوا غرقًا بسبب العواصف، ترى أنه غير معقول ومشكوك فيه، وتضيف: لو سلمنا بذلك فإن عدد الأسرى والعسكر الذين غادروا إلى القسطنطينية لم يكن ليصل إلى ذلك العدد. وكذلك فإن عدد الأسرى لا يمكن أن يكون بذلك القدر لأن المدينة كما علمنا من الأحداث التي تلت كانت ما تزال تعج بالسكان (٢). ثم تضع فرضية لما حدث، فتري أن ما يمكن تخمينه أن الإمبراطور أمر بانسحاب الجزء الأكبر من الحملة أملًا بأن تلغى تلك الحملة كليًا (٣).

ويذكر ثيوفانيس أن الإمبراطور أراد مزيدًا من الانتقام من خرسون، إضافة إلى أن سكانها قد استجدوا بخان الخزر وطلبوا مساعدته، فبادر إلى إرسال كتائب عسكرية من الخزر للدفاع عنهم وعن المدينة (٤). ولذلك فمن الصعب تحديد أي من الجانبين كان يريد للحرب أن تستمر، وتدور رحاها. فقد نجح أهل خرسون في إقناع من تبقى من جيوش الإمبراطورية بقيادة "إلياس" بالانضمام إليهم، وتلقوا بتلك المساعدة العسكرية التي أرسلها خان الخزر، وعندما سمع الإمبراطور بذلك قرر تغيير سياسته سريعًا، فقام بإطلاق سرح زوليوس (زعيم المواطنين في خرسون) وتدونيوس (المنسوب الخزري في خرسون)، ويستنتج من ذلك أنهما لم

(١) Head., Op. Cit., P. 28.

(٢) Ibid

(٣) Head., Op. Cit., P. 29.

(٤) Theophanes, Op. Cit., P. 527.

يقتلا - كما سبق وذكر ثيوفانيس - وإنما وضعا في السجن، وأرسلهما على رأس قوة صغيرة مكونة من ٣٠٠ رجل إلى خرسون، واتفق معهما على أن يحاولا إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الحملة الأولى، وأن يعتقلا إلياس ويرسلا به إلى القسطنطينية^(١)

ويتضح من ذلك أن سياسة الإمبراطور بدأت في التخبط، إذ كيف تسند مهمة مثل تلك إلى رجلين كانا في السجن، وتلقيا من التعذيب الإمبراطوري الكثير، وأحدهما كان خزرياً من المعسكر المعادي؟ ثم هل تستطيع هذه القوة الصغيرة أن تحقق ذلك بعد أن تقوى أهل خرسون بالمدد العسكري الخزري؟!

ويبدو أن محاولة جستيان كانت متأخرة جداً، فقد رفض سكان خرسون التعامل مع سفراء الإمبراطور. ولكنهم أظهروا لهم الترحاب وحسن التعامل ودعوهم إلى دخول المدينة ثم قتلوهم، وألقوا القبض على المتبقي منهم، ثم أرسلوا إلى ملك الخزر مندوبه السابق تدونيوس مع زويلوس، وفي الطريق مات هذا المندوب، وكعادة الخزر الجارية تم إعدام ٣٠٠ من العسكر البيزنطيين ليرافقوه إلى العالم الآخر^(٢).

وكانت الخطوة التالية لمتردى خرسون هي إيجاد بديل منافس للإمبراطور، وقد اختير لذلك الامتياز الصعب قائداً أرمنيًا اسمه بارادانس Bardanes^(٣). وقام بتغيير اسمه الأرمني إلى فيليبكوس Philppikos الذي ناسب مقامه الإمبراطوري الجديد.

(١) Theophanes, P. 528.

(٢) Ibid.

(٣) كان بارادانس قد رافق إلياس في حملته على خرسون، وسبق أن ذكرنا أنه قد تعرض للنفي في عهد تيبريوس الثالث عندما حلم أنه سيصبح إمبراطوراً، ولكن عندما عاد الإمبراطور جستيان أعاده من منفاه في كفالونيا، ورفاه إلى رتبة عالية في الجيش الإمبراطوري، ويبدو أنه كان قائداً محبوباً، سهل التعامل وعرف باعتداله. انظر: Camb. Med. Hist. Vol. II, P.413; Theophanes. P. 498، والمنبجى، مصدر سابق، ص ٨١ ويسميه "ملعموس" و عدله المحقق إلى "فيليفيقوس".

وعندما علم الإمبراطور جستينيان بهذه التطورات في خرسون اتخذ إجراءات انتقامية من أسرة "إلياس" في القسطنطينية^(١)، كما قام بإرسال قوات عسكرية بقيادة البطريق ماوروس Mauros، وزوده بتعليمات لهدم أسوار خرسون، وأن لا يبقى فيها حيًّا. وعندما وصل ماوروس إلى خرسون بدأ في مهاجمتها فلجأ فيليبكوس إلى خان الخزر الذي زوده بجيش كبير وما لبثت قوات الإمبراطور أن غيرت ولاءها، وانضمت إلى فيليبكوس، خوفًا من العودة إلى الإمبراطور مهزومة^(٢).

وعندما سمع الإمبراطور بهذه الأخبار من خرسون، قام بخطأ ميداني خطير، فقد ترك القسطنطينية وتحرك بجيش كبير، ودعمت أطرافه قوات بلغارية أرسلها ملك البلغار ترفل وقدرت بثلاثة آلاف رجل^(٣)، إلى دامتريس Damotrys في آسيا الصغرى. في تلك الأثناء حدث أن قام المسلمون بتحريك التمرد ضد جستينيان في أرمينيا، وبما أن فيليبكوس كان أرمني الأصل، فقد ظن الإمبراطور أن هذا الشغب في أرمينيا له علاقة بما يحدث في خرسون وربما كان هذا تدبيرًا من فيليبكوس نفسه^(٤).

وعلم فيليبكوس بخروج الإمبراطور من عاصمته، فسارع ومعه الأسطول الروماني الذي استطاع تجميعه في خرسون إلى القسطنطينية، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى جستينيان الثاني دار باتجاه القسطنطينية وهو يزأر كالأسد. ولكن هذا حدث بعد أن فات الأوان لأن القسطنطينية كانت قد سقطت في يد فيليبكوس من

(١) يذكر ثيوفانيس أنه نبح أطفال إلياس وهم في حضن أمهم، وأجبر هذه الأم على الزواج من طباخه الخاص، وكان هنديًا Theophanes, P. 258 وهناك من يذكر أن ذلك أمر غير مؤكد:

Head, Op. Cit., P.30.

Theophanes, P. 528. (٢)

Camb. Med. Hist. Vol. II, P.413. (٣)

Head, Op. Cit., P30. (٤)

غير معركة^(١). وحاول جستيان العودة إلى معسكره في "دامتريس"، ولكن على بعد اثني عشر ميلاً من القسطنطينية، تصدى له إلياس الذي عاد في صحبة فيليبكوس ووصلته التعليمات من القسطنطينية بإخلاء سبيل كل من يتخلى عن جستيان، وسرعان ما تفرق عنه الجنود ولم يبق معه إلا القليل من المخلصين، وما لبث أن وقع في يد إلياس الذي احتفظ لنفسه بشرف القضاء على الإمبراطور جستيان الثاني، حيث ضربه ضربة واحدة فصلت رأسه عن جسده^(٢).

وقام إلياس بإرسال رأس جستيان الثاني إلى فيليبكوس الذي أصبح إمبراطوراً في القسطنطينية، ومن ثم أرسلت رأس جستيان أواخر عام ٧١١م / ٥٩٣ إلى روما، ومنها إلى رافنا ليعرض في الميادين العامة^(٣). وفرح سكان رافنا فرحاً كبيراً ولكن الحال اختلف في روما، إذ جاء في المدونة البابوية الرسمية أن الحزن قد عم، وأن جستيان كان الأكثر نصرانية وأرثوذكسية^(٤).

أما ابن الإمبراطور وولي عهده تيبيريوس فقد لقي مصرعه مبكراً، حيث أمر فيليبكوس بقطع رأسه منذ الساعات الأولى لدخوله القسطنطينية^(٥).

على هذا الشكل الدموي، الذي سبقه تخبط سياسي وعسكري للإمبراطور جستيان الثاني، وعنف ومقاومة وتبادل للولاء بين قادة الإمبراطورية ورجالها، وثورات هنا وهناك، وتململ في الداخل وتراجع في الخارج، سقطت الأسرة الهرقلية، سقوطها النهائي والأخير بالقضاء على جستيان وولي عهده الأمير تيبيريوس، بعد فترة حكم للأسرة استمرت قرناً وبعاماً واحداً، تخللتها عشر سنوات حكم فيها مغتصبون من خارج الأسرة الهرقلية.

Theophanes, P. 529. (١)

Theophanes, P. 529. (٢)

Ibid (٣)

Camb. Med. Hist. Vol. II, P.414; Head., Op. Cit., P. 31 (٤)

Theophanes, Op. cit., P. 529; Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 366. (٥)

ودخلت الإمبراطورية البيزنطية دورة جديدة من الفوضى والاضطراب، وجد فيها المسلمون فرصة مواتية لتحسين مواقعهم العسكرية، وتوسعهم على حساب الأراضي البيزنطية.

ومضت ست سنوات من الحكم البيزنطي، قاد فيها الإمبراطورية ثلاثة من الأباطرة المغتصبين، قبل أن تظهر أسرة حاكمة جديدة هي الأسرة الأيسورية، التي استطاع مؤسسها ليو الثالث الأيسوري أن يستولى على الحكم، ويضع حدًا للفوضى، وحقق أكبر إنجاز بيزنطي في التصدي للمسلمين وإجهاض المحاولة الإسلامية الثالثة والأكبر لإسقاط القسطنطينية العاصمة البيزنطية.. وذلك طور آخر من أطوار الصراع الإسلامي البيزنطي.

الخاتمة

301

حكمت الأسرة الهرقلية الإمبراطورية البيزنطية في فترة هامة وحرجة من تاريخها الطويل، والذي يمتد إلى أكثر من أحد عشر قرناً، فقد امتد حكم هذه الأسرة للإمبراطورية طوال القرن السابع الميلادي (الأول الهجري)، وهو قرن التحولات والتغيرات الكبيرة والكثيرة في العصور الوسطى.

ولا شك أن هذه التحولات والتغيرات قد ألفت بظلالها، وبشكل حاد على الإمبراطورية ومسيرتها وعلى الأحداث التي واجهتها والتطورات التي تعرضت لها، والحروب التي خاضتها، والعلاقات التي سادت بينها وبين جيرانها والمحيطين بها. لقد افتتح القرن السابع الميلادي أحداثه بجولة من جولات الصراع المرير بين الدولة البيزنطية ودولة الفرس، وهو صراع يرجع إلى سنوات بعيدة وموغلة في القدم تعود إلى قرون عديدة، حيث مثلت الدولتان القوتين الأعظم في العصور القديمة ومطالع الوسيطة، ولعل هذه الجولة من الصراع كانت أهم هذه الجولات وأكثرها تأثيراً وحسماً.

فقد استغلت دولة الفرس الظروف والأوضاع التي أضحت عليها الإمبراطورية البيزنطية في مطلع هذا القرن فقامت باجتياح أراضيها والتوسع فيها وسيطرت على أهم أملاكها في آسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين ومصر، ووصلت قواتها إلى حدود ليبيا. وتقلص نفوذ الإمبراطورية البيزنطية، ولم يعد تحت سيطرتها سوى العاصمة القسطنطينية وبعض ضواحيها، وشمال أفريقيا. وكادت الإمبراطورية البيزنطية أن تسقط وتختفي من الوجود مبكراً.

وفي هذه الظروف الصعبة بدأت الأسرة الهرقلية حكمها واستطاعت بفضل القيادة الجديدة والحاسمة التي مثلها مؤسس الأسرة الإمبراطور هرقل، قلب الهزيمة إلى انتصار، واستعادة كل الأراضي المفقودة، بل وهزيمة الفرس في عقر دارهم، بما مثل خاتمة لذلك الصراع المرير بين القوتين الكبيرتين والذي استمر عدة قرون، ليحسم في القرن السابع لصالح الإمبراطورية البيزنطية.

ولم تكد الإمبراطورية البيزنطية تسترد أنفاسها حتى فوجئت بمواجهة قوينة جديدة، أجهزت على انتصاراتها فقد ظهر المسلمون، والذين مثلت دولتهم الفتية قوة عظمى جديدة اصطدمت بالقوة البيزنطية، واحتلت مكان القوة الفارسية فى الصراع مع البيزنطيين، وأحالوا انتصاراتهم أمام الفرس إلى هزائم جديدة، وخاضوا معها صراعًا مريبًا استمر لقرون عديدة، وكانت ذروته فى القرن السابع الميلادى حين توسع المسلمون على حساب الإمبراطورية البيزنطية، واستخلصوا منها بلاد الشام وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا وأرمينيا وأجزاء من آسيا الصغرى، ووصلوا فى تهديدهم للإمبراطورية إلى عاصمتها الحصينة وتعددت مرات حصارهم لها خلال هذا القرن.

كما تعرضت الإمبراطورية لعدوان قوى أخرى تمثلت فى الصقالبة (الآفار والسلاف) والبلغار، وهى عداوات استنزفت جهدًا كبيرًا من أباطرتها، من جيوشها، ومن خزائنها، حيث إنها كانت مضطرة أحيانًا لشراء السلام مع هذه القوى بالمال.

كما أن الدولة البيزنطية خلال تصديها لهذه العداوات قامت بتطوير وسائلها العسكرية بما يتلاءم مع أوضاعها وظروفها، فأمام الفرس والمسلمين، ظهر نظام "الثيمات" العسكرى، الذى أوجده الإمبراطور هرقل، وخضع لمزيد من التطوير والإضافات فى عهد حلفائه من بعده، حتى غدا أهم المنجزات العسكرية البيزنطية التى طورتها الإمبراطورية فى هذا القرن، وأصبح هذا النظام بما قدمه من حلٍ لمعضلة إمداد الإمبراطورية بجيش وطنى يتحمل تبعات الدفاع عن أراضيها دون أن يمثل ضغطًا كبيرًا على خزائنها، عن طريق استيطان هؤلاء الجند لبعض الأراضى، وتولى إحيائها والدفاع عنها، هو الحل الأمثل للخروج من أزمة الجنود المرتزقة الذين أرهاقوا خزانة الدولة فى الماضى ولم يحسنوا الدفاع عن أراضيها عند الاحتياج إليهم.

كما أن البيزنطيين قاموا في هذا القرن وفي خضم هذه الأحداث بتطوير سلاح آخر عندما أطبق الحصار الإسلامي على عاصمتهم القسطنطينية، وذلك السلاح هو النار البحرية الذي لعب دوراً خطيراً في وقف الزحف الإسلامي الذي كان يهدف إلى إسقاط العاصمة الإمبراطورية، وهو سلاح فعال حافظ البيزنطيون على أسرارهم قرون عديدة، وكان سر الأسرار للدولة وأباطرتها.

كذلك فإن كثرة الهجمات التي كانت تتعرض لها حصونهم وقلاعهم، وأسوار عاصمتهم، دعتهم إلى ابتكار خاص للإنذار المبكر وتطويره.

وعمل الإمبراطور هرقل على أن يرسى نظاماً جديداً لورثة العرش، ورغم الهزة التي تعرض لها العرش البيزنطي في أعقاب وفاة الإمبراطور هرقل بسبب الوصية التي تركها الإمبراطور وحاول فيها أن يعطي الأمان لزوجته مارتينا التي كان الشعب ورجال الكنيسة كارهون لها وناقمون على زواج الإمبراطور منها، وهي ابنة أخته بما عد مخالفة صريحة للعرف والقانون والشرع، حيث نص في وصيته على مشاركتها في العرش، مما أحدث أزمة عنيفة، إلا أن نظام وراثته العرش الذي كان يهدف الإمبراطور هرقل إلى ترسيخه في أسرته، ما لبث أن أصبح له قاعدة ثابتة في عهد خلفائه من بعده، حيث ترسخت وراثته العرش في الابن الأكبر للإمبراطور، وأصبحت هي القاعدة التي تحتكم إليها الأسر التي توالى على حكم الإمبراطورية البيزنطية فيما بعد.

ورغم أن حداثة الأباطرة الذين توالوا على الحكم من أسرة هرقل كانت السمة البارزة لهذه الفترة، إلا أن هؤلاء الأباطرة - رغم صغر سنهم - قد نجحوا في حكم الإمبراطورية والسيطرة على مقاليدها، والحفاظ على عرشها فكان لبعضهم منجزات كبيرة مثل الإمبراطور قسطنطين الرابع الذي تصدى لأولى المحاولات الإسلامية لإسقاط القسطنطينية.

كما أن هؤلاء الأباطرة شاركوا - مثل والدهم الإمبراطور هرقل - في قيادة معظم الجيوش التي خاضت حروبًا على جبهات مختلفة دفاعًا عن الإمبراطورية، وكانت مشاركة الأباطرة قبلهم محدودة. أولاً تكاد تذكر وذلك بسبب الاحتياطات التي اتخذت للحفاظ على حياتهم.

وهناك سمة بارزة أخرى ظهرت بوضوح خلال فترة حكم الأسرة الهرقلية، هي التقلبات المذهبية التي سادت الإمبراطورية خلال هذه الفترة، فمن محاولات التوفيق التي أقدم عليها الإمبراطور هرقل إلى تأييد المونوفيزيتية، ثم الانقلاب عليها بتأييد المونوثولستية، إلى نفض الإمبراطور قنسطنطين الرابع يده من المذاهب الشرقية برمتها، إلى محاولات جستينان الثاني التقرب من البابوية ثم صراعه معها، ثم عودة الوفاق معها مرة أخرى في فترة حكمه الثانية.

لقد تعرضت العلاقة مع البابوية في روما خلال فترة حكم الأسرة الهرقلية إلى تجانب فريد من الاقتراب والابتعاد، وبلغت حدة هذا التجانب درجة قيام الإمبراطور قنسطانز الثاني بإلقاء القبض على البابا مارتن الأول، وتقييده بالسلاسل والحكم بنفيه حيث مات في منفاه متأثرًا بجوعه وأمراضه. وقيام الإمبراطور قنسطنطين الرابع بعقد مجمع ديني خضع فيه لتوجهات بابا روما ومعتقداته الدينية، ثم قيام الإمبراطور جستينان الثاني بعقد مجمع ديني بمشاركة بابوية، وعندما رفض البابا اعتماد قرارات هذا المجمع حاول جستينان الثاني أن يكرر معه ما فعله جده قنسطانز الثاني مع البابا مارتن الأول، ولكن محاولته فشلت وكان مضطرًا خلال عودته الثانية للحكم إلى مساندة البابوية وأخذ اعتراضاتها في الحسبان.

لقد شغل الصراع مع المسلمين جانبًا كبيرًا من فترة حكم الأسرة الهرقلية، ابتداءً من عهد هرقل مؤسس الأسرة، إلى خاتمة الأسرة في عهد آخر أباطرتها جستينان الثاني، ورغم أن الصراع شمل جولات كثيرة من المعارك العسكرية العنيفة، التي كان لها تأثيرها المباشر على مقدرات الإمبراطورية العسكرية وعلى

تتاقص الأراضي التي تقع تحت سيطرتها لصالح المسلمين، إلا أنه خلال الفترة عقد ثلاث معاهدات سلام بين الطرفين سعى إلى الأولى البيزنطيون، وسعى إلى الثانية والثالثة المسلمون بسبب ظروف وتغيرات داخل الدولة الإسلامية، وكان الوصول إلى اتفاقية سلام بين الدولتين له ثمنه، ومقابله، وتأثيراته على أوضاع ومخططات وتحركات كلتا الدولتين.

لقد كان الاقتصاد أحد الميادين التي دار عليها الصراع البيزنطي الإسلامي في القرن السابع الميلادي / الأول الهجري، وإذا كان المسلمون في بداية الفتح الإسلامية لم يحدثوا سوى تغييرات طفيفة في تجارة البحر المتوسط، الذي كان يسمى بحر الروم أو بحيرة رومانية، إما بسبب نقص خبراتهم أو لعدم استعجالهم السيطرة على مختلف جوانب الحياة الاقتصادية في الأراضي التي أصبحت تحت حكمهم، فقد استمروا يطبقون الأنظمة الإدارية البيزنطية، ويتداولون العملة البيزنطية، ويتعاملون في دواوينهم ومراكز صناعاتهم بالأنظمة البيزنطية، حتى ان اللغة اليونانية بقيت كما هي لغة الإدارة الحكومية، إلا أن كل ذلك ما لبث أن بدأ يتغير بالتدريج حين استكملت الدولة الإسلامية مقوماتها، وحققت انتشارها وسيطرتها على نواحي التجارة، وأهمها البحر المتوسط، فبدأت بتغيير الدواوين والعملة والأنظمة، فعربت الدواوين، وأوجدت عملتها الإسلامية الخاصة، وفرضت التعامل بها في أنحاء الدولة الإسلامية، وأحدثت تغييرات في دور الطراز وصناعة الورق، مما أغضب الدولة البيزنطية، وجعلها تشعر أن هذه التغييرات هي حرب اقتصادية يهدف المسلمون من خلالها إلى زعزعة الوجود البيزنطي اقتصاديًا بعد أن تم زعزعة على الأرض عسكريًا. ورغم الاعتراض البيزنطي، وإعلانهم الحرب على الدولة الإسلامية لهذا السبب إلا أن المسلمين لم يتراجعوا عن خطتهم وعن تصميمهم على استكمال بناء الدولة اقتصاديًا، بعد أن تحقق لها الوجود السياسي والعسكري على حساب الإمبراطورية البيزنطية.

إن العلاقات التي سادت بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية رغم مظهرها الحربى البارز، إلا أن ذلك لم يمنع من وجود تبادل اقتصادى وثقافى، وتأثيرات متبادلة بين الدولتين أو القوتين العظميين للعصور الوسطى. وكان تأثير هذه العلاقة كبيراً على الدولتين وعلى الحضارتين الإسلامية والبيزنطية.

ورغم كل الظروف المحيطة والأحداث المتوالية، إلا أننا لا نستطيع أن نخفل الدور الذى لعبته الأسرة الهرقلية فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، فهى بلا شك قد أخذت بيد هذه الدولة، وانتشلتها من كثير من أزماتها، وأمدت فى عمرها، وكان لها أدوارها التى جاء بعضها فى أصعب وأحرج الظروف والأزمات التى مرت بالإمبراطورية.

ورغم أن أباطرتها الأربعة الكبار كانوا يتمتعون بصلاية الرأى والاستبداد مع شئ من المزاج السوداوى، إلا أن كلا منهم قد أدى دوره بارزاً فى الإمبراطورية وفى تشكيل تاريخها، فإلى جانب عملية الإنعاش العسكرى وإعادة التنظيم التى قام بها هرقل، فإن الفضل يعود إليه فى إنقاذ القسطنطينية من الوقوع فى أيدي الفرس الذين وصلوا إلى مرمى رمح منها.

أما قنسطانز الثانى فقد احتل عنف هجمات المسلمين المتتالية وتعامل معها، إلى جانب التصدى للصقالبة فى البلقان، فى حين نجح قنسطنطين الرابع فى إنقاذ العاصمة البيزنطية من المسلمين، واستمرت المواجهة مع المسلمين والصقالبة والبلغار فى عهد جستينيان الثانى.

ولعل القرن السابع الميلادى، الذى حكمت خلاله الأسرة الهرقلية، كان من أهم القرون التى مرت بها الإمبراطورية وأخطرها بما اشتمل عليه من صراعات وتغيرات وتبدلات، وإذا كان لهذه الأحداث أثرها فى انحسار نفوذ الإمبراطورية وفقدانها لكثير من الأراضى التى كانت تحت حكمها وسيطرتها، بما شكل نتيجة سلبية على الإمبراطورية، إلا أن هذه السلبية قد رافقها فى الجانب الآخر جوانب

إيجابية، إذ ترافق معها إعادة تشكيل حدود الإمبراطورية والتجديد في أنظمة الحكم وأجهزة الإدارة، وتفعيل قواها العسكرية والاقتصادية وأعطائها فرصة للتركيز على ما تبقى تحت يد الدولة من أملاك، وأبرز تغيرات ثقافية وحضارية، كما أفرز قيادات فاعلة كان لها أثرها في إطالة عمر الدولة وانتشالها من أزماتها.

ولا شك أن الإمبراطورية البيزنطية تدين لهذا القرن بأحداثه وتطوراتها، ولهذه الأسرة بالأقوال التي لعبتها في إطالة عمرها وضح دماء جديدة في مسيرتها التي تواصلت إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي عندما حان سقوطها على يد المسلمين عام ١٤٥٣م / ٨٥٧ هـ فسقطت عاصمتها القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين، وذهب ريحها وتلاشى وجودها، لتختفي من جغرافية العالم، وتبقى في تأريخه وذاكرته ومسيرته الحضارية.

المصادر والمراجع

أولاً المصادر العربية

ابن الأثير [أبي الحسن علي بن عبد الواحد الشيباني] (١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) الكامل في التاريخ، بيروت: دار الفكر.

الأزدى، محمد بن عبد الله (١٩٧٠م) تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، القاهرة: مؤسسة سجل العرب.

ابن الأعمم [أبو محمد أحمد بن الأعمم الكوفي] (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) الفتوح، تحقيق: نعيم زرزور، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن إياس [أبو البركات محمد بن أحمد] (١٩٦٠م) بدائع الزهور في وقائع الدهور، سلسلة كتاب الشعب، القاهرة.

البلاذري [الإمام أبي الحسن أحمد بن يحيى] (١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) فتوح البلدان، مراجعة وتعليق: رضوان محمد رضوان، بيروت: دار ومكتبة الهلال.

ابن الجوزي [أبو الفرج عبد الرحمن بن علي] (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية.

الحموي، ياقوت [شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي] (١٩٩٥م) معجم البلدان، ط ٢، بيروت: دار صادر.

ابن حوقل [أبو القاسم محمد الموصلي] (١٩٧٩م) صورة الأرض، بيروت، مكتبة الحياة.

ابن خلدون، عبد الرحمن (١٩٧٧م) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من نوى السلطان الأكبر، بيروت: دار الكتب اللبنانى.

ابن خياط، خليفة (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) تاريخه، ط ٢، تحقيق: د. أكرم ضياء العمرى، الرياض: دار طيبة.

الدينورى، [أبو حنيفة أحمد بن داوود] (١٩٥٩م) كتاب الأخبار الطوال، بغداد: المطبعة الشرقية.

الذهبي، [شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان] (١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام "عهد معاوية بن أبى سفيان"، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمرى، بيروت: دار الكتاب العربى.

السيوطى، [جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر] (١٩٦٨م)، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

الطبرى، [أبو جعفر محمد بن جرير] (١٩٦٩م) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: (د. ن).

ابن عبد الحكم، [عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم] (١٩٦١م) فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، القسم التاريخى، القاهرة: لجنة البيان العربى.

ابن العبرى، [غريغوريوس الملقى] (١٩٥٨م) تاريخ مختصر الدول، تحقيق: أنطوان صالحانى، ط ٢، بيروت: المطبعة الكاثوليكية.

ابن الفراء، [أبو الحسين بن محمد] (١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م) رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق صلاح الدين المنجد القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

ابن كثير، [أبو الوفاء الحافظ بن كثير] (د. ت) البداية والنهاية، وبيروت: مكتبة المعارف.

الكندى، [أبو عمر محمد بن يوسف] (١٩٠٨م) كتاب الولاية والقضاة، بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين.

المسعودى، [أبو الحسن على بن الحسن بن على] (١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط ٢، تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد، القاهرة: (د. ن).

المقريزى، [تقى الدين أبو العباس أحمد بن على] (د. ت) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط ٢، القاهرة: مكتبة الثقافة العربية.

ابن المقفع، سايروس (١٩٧٨م) تاريخ بطاركة الإسكندرية، سلسلة التراث العربى المسيحى، القاهرة: دار العالم العربى.

المنبجى، [أغابىوس بن قسطنطين] (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) المنتخب من تاريخ المنبجى، أنتخبه وحققه: عمر عبد السلام التدمرى، طرابلس: دار المنصور.

ابن هشام، [أبو محمد عبد الملك] (١٩٧٤م) السيرة النبوية، تحقيق وتقديم: طه عبد الرؤوف، القاهرة، (د. ن).

اليقوبى، [أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح] (د. ت) تاريخ اليعقوبى، ج ٢، بيروت: دار صادر.

ثانيًا: المراجع العربية والمعربة

أحمد، عزيز (١٩٨٠م) تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة: د. أمين توفيق الطيبي، بيروت: الدار العربية للكتاب.

إسكندر، فايز نجيب (١٩٨٣م) الفتوحات الإسلامية لأرمينية "١١ - ٥٤٠هـ / ٦٣٢ - ٦٦١م" ج١، سلسلة مؤرخي الأرمن في العصور الوسطى، (جيفوند)، الإسكندرية: دار نشر الثقافة.

إسماعيل، ليلي عبد الجواد (١٩٨٥م) الدولة البيزنطية في عصر الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهرة: دار النهضة العربية.

أومان (١٩٥٣م) تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة: مصطفى طه بدر، القاهرة: الدار القومية.

باقر، طه، رشيد فوزي وهاشم، رضا جواد (١٩٧٢م) تاريخ إيران القديم، بغداد، مطبعة بغداد.

بتشر، ن (١٩٠١م) تاريخ الأمة القبطية، ترجمة تادرس، القاهرة، د.ت.

بتلر، ألفرد. ج (١٩٨٩م) فتح العرب لمصر، ترجمة: محمد فريد أبو حديد، الطبعة الثانية، القاهرة: المركز العربي للنشر والتوزيع.

برينيا، حسن (١٩٧٩م) تاريخ إيران القديم، ترجمة: محمد نور الدين والسباعي محمد، القاهرة: (د. ن).

بل، هـ. آيبرسن (١٩٧٣م) مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ط ٣، ترجمة: د. عبد اللطيف أحمد علي، بيروت: دار النهضة العربية.

بورفيرو جنتيوس، قنسطنطين السابع، (١٩٨٠م) إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة وتحليل: د. محمود سعيد عمران، بيروت: دار النهضة العربية.

بينز، نورمان (١٩٥٠م) الإمبراطورية البيزنطية، تعريب: حسين مؤنس ومحمود يوسف، القاهرة: الدار القومية.

تاوظروس، إسحاق عبيد (١٩٧٢م) الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، القاهرة: دار المعارف.

توفيق، عمر كمال (١٩٧٧م) تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

جب، هاملتون (١٩٧٤م) دراسات في حضارة الإسلام، ط٢، ترجمة: د. محمد يوسف نجم و د. محمود زايد، بيروت: دار العلم للملايين.

أبو الجدايل، عائشة سعيد شحاتة (١٤١٥هـ / ١٩٩٥م) الإمبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي "الأول الهجري" دراسة في التطورات والتغيرات، الرياض: المفرد للنشر والتوزيع والدراسات.

الجنزوري، عليّة عبد السميع (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

حتى، فيليب (١٩٦٥م) موجز تاريخ الشرق الأدنى، ترجمة: د. أنيس فريحة، بيروت: دار الثقافة.

حلاق، حسان علي (١٩٧٨م) تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، بيروت: دار الكتاب اللبناني.



حمزة، عادل عبد الحافظ (١٩٩٧م) الصرب بين البيزنطيين والبلغار، مجلة المؤرخ العربي، العدد (٥) المجلد الأول، (ص ٣٣٥ - ٣٦٣) القاهرة: اتحاد المؤرخين العرب.

حوراني، جورج فضلو (د. ت) العرب والملاحة في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى، ترجمة: د. السيد يعقوب بكر، مراجعة: د. يحيى الخشاب، القاهرة الأنجلو المصرية.

الحويري، محمود محمد (١٩٨٦م) المبارليون في التاريخ والحضارة، القاهرة: دار المعارف.

(١٩٩٦م) مصر في العصور الوسطى، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

خماش، نجدة (١٩٨٧م) الشام في صدر الإسلام، دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

داهموس، جوزيف (١٩٨٧م) سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ترجمة: د. محمد فتحي الشاعر، سلسلة الألف كتاب الثاني (٤١)، القاهرة الهيئة العامة المصرية للكتاب.

الدوري، تقي الدين عارف (١٩٨٠م) صقلية: علاقتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربي حتى الغزو النورمندي، سلسلة دراسات (٢٤٠)، بغداد: وزارة الثقافة والإعلام العراقية.

الرافعي، عبد الرحمن وعاشور، سعيد (١٩٧٠م) مصر في العصور الوسطى، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

رانسيان، ستيفن (١٩٦١م) الحضارة البيزنطية، سلسلة الألف كتاب (٣٧٩)، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة: زكى على، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

ربيع، حسنين محمد (١٩٩٠م) دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة: دار النهضة المصرية.

رستم، أسد (١٩٨٨م) الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، مج ١، ط ٢ بيروت: منشورات المكتبة البولسية.

(١٩٨٨م) كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، مج ٢، ط ٢، بيروت: المكتبة البولسية.

(١٩٩١م) نحن ورومة والفاثيكان، ط ٢ بيروت: منشورات المكتبة البولسية.

(١٩٩١م) حرب في الكنائس، ط ٢ بيروت، المكتبة البولسية.

الريس، محمد ضياء الدين (١٩٦٩م) عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، ط ٢، القاهرة: مطابع سجل العرب.

سالم، السيد عبد العزيز والعبادي، أحمد مختار (١٩٩٣م) تاريخ البحرية الإسلامية "في مصر والشام" ٢ مج، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

ساليقان، ريتشارد أ. (١٩٨٥م) ورثة الإمبراطورية الرومانية "الغرب الجرمانى - العالم الإسلامى - الدولة البيزنطية" ترجمة وتقديم: د. جوزيف نسيم يوسف، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

السمارائى، عبد الجبار (١٩٨١م) الرسائل التى بعث به النبى إلى ملوك الدول المجاورة، مجلة الفيصل (٥٥) الرياض: دار الفيصل.

السعدنى، محمود إبراهيم (١٩٩١م) تاريخ روما القديم، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق.

سلامة، إبراهيم خميس (١٩٩٤م) معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى، مجلة كلية الآداب "٤١" ص ٢٦٦ - ٢٦٧، الإسكندرية: جامعة الإسكندرية.

سينيو (١٤٠٠هـ) خلاصة تاريخ العرب، ط ٢، بيروت: دار الآثار.

الشاعر، محمد فتحى (١٩٨٩م) السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى القرن السادس "عصر جستنيان"، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الشناوى، أحمد وخورشيد، زكى ويونس: عبد الحميد (١٩٣٣م) دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة: دار الفكر.

الشيخ، حسين (١٩٩٦م) الرومان، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

الشيخ، محمد محمد مرسى (١٩٩٥م) تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية: دار المعارف الجامعية

(١٩٩٦م) تاريخ مصر البيزنطية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.

طرخان، إبراهيم على (١٩٦٦م) المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى، سلسلة الألف كتاب (٥٩٦)، القاهرة: مؤسسة سجل العرب.

عاشور، سعيد عبد الفتاح (١٩٦١م) أوروبا العصور الوسطى، ط ٢، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

عاقل، نبيه (١٩٦٩م) الإمبراطورية البيزنطية، دمشق: (د. ن).

(١٩٧٥م) خلافة بنى أمية، ط ٣، دمشق (د. ن).

عباس، إحسان (١٩٧٩م) العرب والمردة في تاريخ قنسطنطين المولود في الأرجوان، مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة الأولى، ع ٣، (ص / ٣ - ٩)، بيروت.

العبد الغنى، عبد الرحمن محمد (١٤١٠هـ / ١٩٨٩م) الحدود البيزنطية الإسلامية وتنظيماتها الثغرية (٤٠ - ٥٣٣٩هـ / ٦٦٠ - ٩٥٠م)، حوليات كلية الآداب، الحولية الحادية عشرة، الرسالة الحادية والسبعون، الكويت: مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت.

عبد الله، وديع فتحى (١٩٩٠م) العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامى، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

العدوى، إبراهيم أحمد (١٩٥١م) الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، القاهرة: (د. ن.).

(١٩٦٣م) الأمويون والبيزنطيون "البحر المتوسط بحيرة إسلامية" ط ٢، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر.

(١٩٦٣م) قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط، القاهرة: مكتبة نهضة مصر.

العرينى، الباز (١٩٥٦م) أجناد الروم، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

(١٩٥٧م) كتاب والى المدينة، مجلة كلية الآداب مج ١٩، القاهرة: جامعة القاهرة.

(١٩٨٢م) الدولة البيزنطية "٥٣٢٣هـ / ١٠٨٠م) بيروت: دار النهضة العربية.

عمران، محمود سعيد (١٩٨١م) معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، بيروت: دار النهضة العربية.

(١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) تحصينات مدينة القسطنطينية في مواجهة الغزوات الخارجية، "الحضارة الإسلامية وعالم البحار"، بحوث ودراسات، القاهرة: اتحاد المؤرخين العرب.

الغمر اوى، على (١٩٧٧م) مدخل إلى دراسة التاريخ الأوروبى الوسيط، ط٢، القاهرة: دار المعارف.

فاسيليف أ. أ (د. ت) العرب والروم، ترجمة: د. محمد عبد الهادى شعيرة، مراجعة: د. فؤاد حسن على، القاهرة: دار الفكر العربى.

فرج، وسام عبد العزيز (١٩٨٣م) دراسات فى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية "الإمبراطورية البيزنطية من ٣٢٤ - ١٠٢٥م"، الإسكندرية: مطبعة ومصنع إسكندرية للكراس.

(١٩٨٥م) دراسات فى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى فى العصور الوسطى، الإسكندرية، دار المعارف الجامعية.

(١٩٨٦م) العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى، الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب

(١٩٨٣م) السلاف فى شبه جزيرة البلقان وجهود الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد سيادتها، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثلاثون، (ص ١٤١ - ٢٠١) القاهرة.

فيشر، ه. (١٩٦٩م) تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ترجمة: محمد مصطفى

زيادة والسيد الباز العربى، ط٥، مج ١ القاهرة: دار المعارف.

كاشف: سيدة إسماعيل وسرور، جمال الدين وعاشور: سعيد عبد الفتاح
(١٩٩٣م) موسوعة تاريخ مصر عبر العصور "تاريخ مصر الإسلامية" سلسلة
تاريخ المصريين (٦٣) القاهرة: الهيئة العامة للكتاب.

كانتور، نورمان (١٩٩٣م) العصور الوسطى الباكرة، ترجمة وتعليق:
د.قاسم عبده قاسم، القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

كريستيس، آرثر (١٩٥٧م) إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى
الخشاب، بيروت، دار النهضة العربية.

لوريمر، جون (١٩٨٨م) تاريخ الكنيسة مج ٤، القاهرة: دار الثقافة.

لويس، أرشيبالد. ر. (١٩٦٠م) القوى البحرية والتجارية في حوض البحر
المتوسط "٥٠٠ - ١٠٠٠م"، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مراجع: محمد شفيق
غريال، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

ماجد، عبد المنعم (١٩٧١م) التاريخ السياسي للدولة العربية "عصر الخلفاء
الأمويين" ط ٤، مج ٢، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

ماهر، سعاد (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) البحرية في مصر الإسلامية وأثارها
الباقية، ط ٢، جدة: دار المجمع العلمي.

محمد، عبد الرحمن فهمي (١٩٨٧م) النقود العربية ماضيها وحاضرها، مكة
المكرمة: دار الفيصلية.

محمود، حسن أحمد (١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) الإسلام في حوض البحر
المتوسط، القاهرة: دار الفكر العربي.

موسى، هـ (١٩٦٧م) ميلاد العصور الوسطى، ترجمة: عبد العزيز توفيق
جاويد، سلسلة الألف كتاب (٦٢٣)، القاهرة: عالم الكتب.

مؤنس، حسين (د. ت) فتح العرب للمغرب، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

(١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) تاريخ المسلمين في البحر المتوسط "الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية"، ط٢، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

لوبيز، ج (١٩٦١م)، محمد وشارلمان: إعادة نظر، بحوث في التاريخ الاقتصادي، ترجمة توفيق اسكندر، دار المعارف، القاهرة.

الناصرى، سيد أحمد على (١٩٩٣م) الروم - تاريخهم وحضارتهم وعلاقاتهم بالشرق العربى، القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى.

هسى، ج. م. (١٩٨٤م) العالم البيزنطى، ط ٣، ترجمة وتعليق وتقديم: رأفت عبد الحميد، القاهرة: دار المعارف.

هلال، إبراهيم (١٩٧٨م) حديث هرقل، القاهرة، مؤسسة سجل العرب. وير، تيموثى (١٩٨٢م) الكنيسة الأرثوذكسية فى الماضى والحاضر، ترجمة: هاشم الحسينى، بيروت: دار النور.

يوسف، جوزيف نسيم (١٩٨٤م) تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

ثالثاً: المصادر والمراجع الأجنبية

Alexander, S.S. (1977) *Heraclius, Byzantium Imperial Edolgy*, Amsterdam, Inspeculm.

Baynes, N. H. (1974) *Byzantina Studies and Other Essays*, London: Greenwood Press.

Baynes, N, D. (1952) *The Byzantina Empire*, 2nd ed., U.S.A., A.M.S Press. Baynes, and Moss. (1948) *Byzantium*, London: Oxford.

Browning, R.(1980) *The Byzantine Empire*, New York: Charles Scribner's Sons.

Brooks, E.W. (1915) *The Brother of Emperor Constantine 4*, London: 30 Historical Review.

Bury, J. B. (1989) *The History of The Later Roman Empire, From Arcadius to Iren*, London: n.p

Bowle, J. (1979) *History of Europe*, London, Secker and Warburg.

Cameron, A. (1995) *The Byzantine and early Islamic Near East*, U.S.A: parwin press.

Dieal, Ch. (1969) *History of the Byzantine Empire*, trans by: George. B.I., New York: A.M.S. Press.

Ensslin, W. (1967) *the Government and Administration of Byzantine Empire*, 2nd ed., Vol. 4. Camb, med, hist.

Fahmy, A.M. (1966) *Muslim, Sea-Power in The Eastern Mediterranean from the Seventh to Tenth Century A.D.* Cairo: National Publication Printing House.

Finlay, G. (1977) *History of Greece*, Vol.1, London: Oxford.

Foord, E. (1911) *the Byzantine Empire*, London: Methuen and co. ltd.

Fretnklin, S. and Shepard, J. (1992) *Byzantine diplomacy*, London: ashgare publishing company.

Gibb, A.R (1958) *Arab - Byzantine Relation Under the Umayyed caliphate*, in *Dumbarton Oaks papers* xii.

Gibbon, E. (n.d.) *The Decline and fall of the Roman Empire*, 3 Vol. New York: Modern Library.

Gwatkin, H.M. and Whitney, J.P. (1967) *Cambridge Medieval History*, Vol.2, Cambridge: University Press.

Haldon, J.F. (1997) *Byzantium in the seventh century*, Revised Edition, Cambridge: University Press.

Kaegi, W.E. (1981) *Byzantine Military (471- 843)*, U.S.A: Coronet Book.

Kremer, R. (1958) *Oriente under the caliphs*, London; Cambridge: University Press.

- Lindsay, J. (1909) *Byzantium into Europe*, London: n.p.
- Oman, Ch. (1954) *Art of War in the Middle Ages*, 2nd.ed., New York: Henry Holt Books.
- (1962) *The Dark Ages*, London: Weiden Feld and Nicolson.
- Oman, C.W. (1892) *the Byzantine Empire*, London: T. Fisher Unwin.
- Ostrogorosky, G. (1968) *History of Byzantine State*, Second edition, London: Basil Blackwell.
- Pattenden, P. (1983) *The Byzantine Early Warning System*, Bruxelles: Byzantion Tom, LIII.
- Pirenne, H. (1961) *Economic and Social History of Medieval Europe*, English Trans. London: Longman.
- (1965) *Mohamed and Charlemagne*, 4th. ed., translated by Bernard Mial, London: George Allen and Unwin Ltd.
- Sear, D. (1994) *Byzantine Coins and their values*, London: Batsford (B.T.).
- Stephenson, C. (1943) *Mediaeval History*, New York: Barnes and Noble Books.
- Stratos, A.N. (1968) *Byzantium in the sevnth Century, (602- 634)*. Vol. 1, Trans by: Marco Ogilvie grant, Amsterdam, T.J. Press.

Theophanes (1997) the chronicle of Theophanes Confessor, Byzantine and Near Eastern History (AD 248-913), Edited by: Cyril Mango and Roger Scott, Oxford.

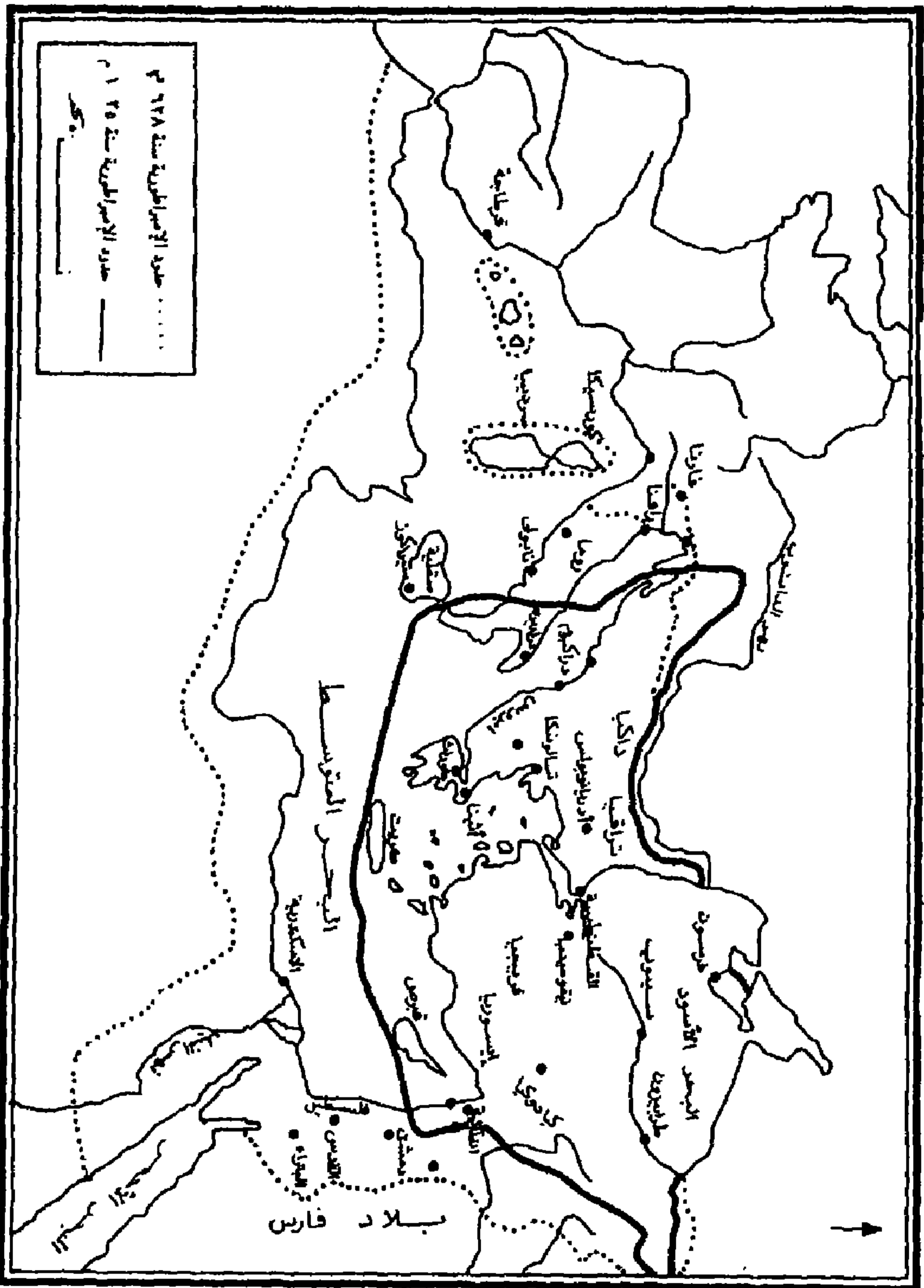
Vasiliev, A.A. (1957) History of the Byzantine Empire, Vol. 1, U.S.A: the University of Wisconsin Press.

Warren, T. and Tready, G (1982) The Byzantine State Finances in the Eighth & Ninth centuries, London: Over Look Press.

Whitby, M. (1958) The Long Walls of Constantinople, Byzantion, Tom LV, Bruxelles.

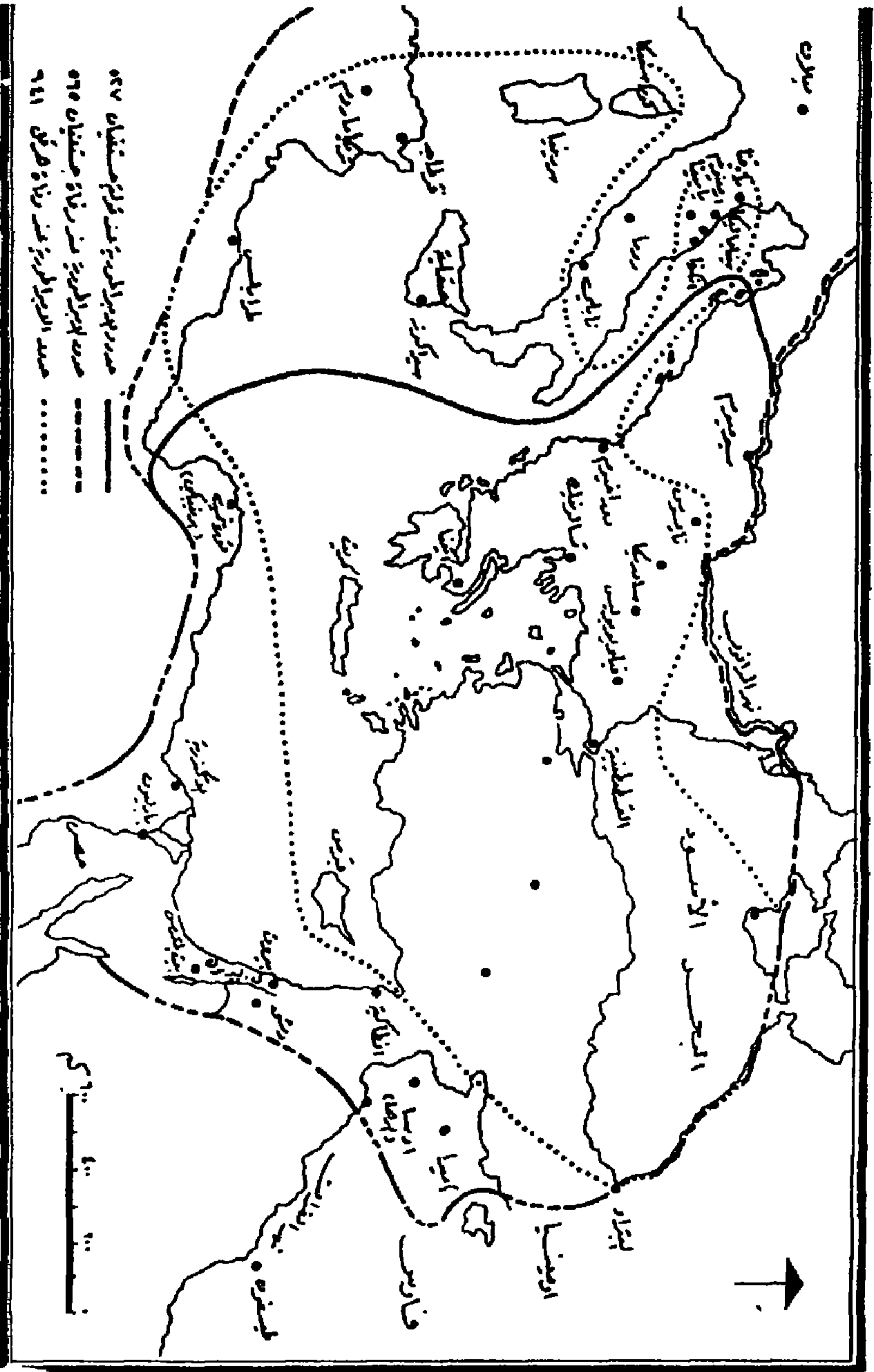
الخرائط

حدود الإمبراطورية البيزنطية من عام ٢٢٨/٢٥١م



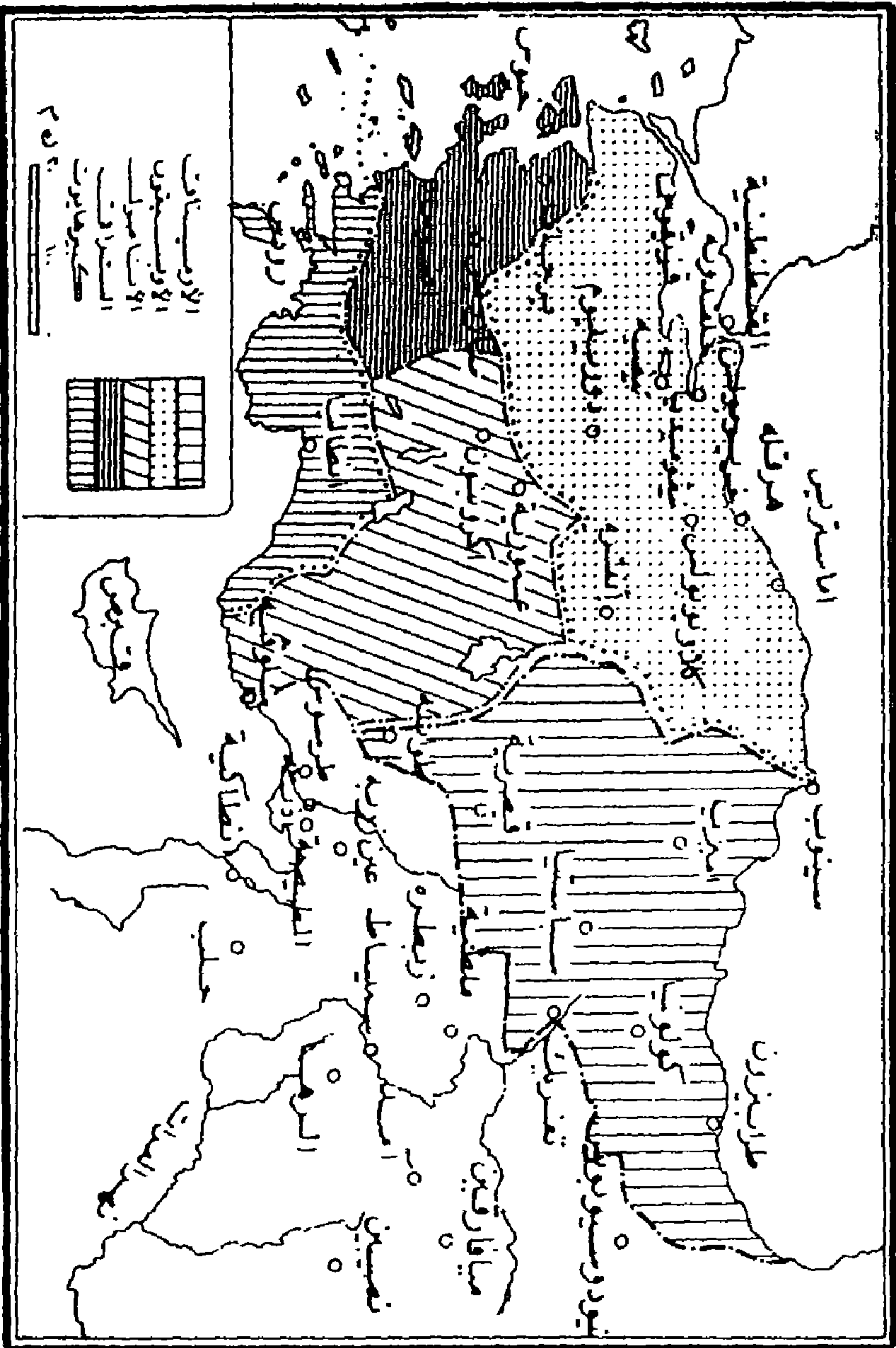
نقلا عن: John Bowle, A history of Europ, p. 180.

حدود الإمبراطورية البيزنطية من عام ٥٢٧/٦٤١



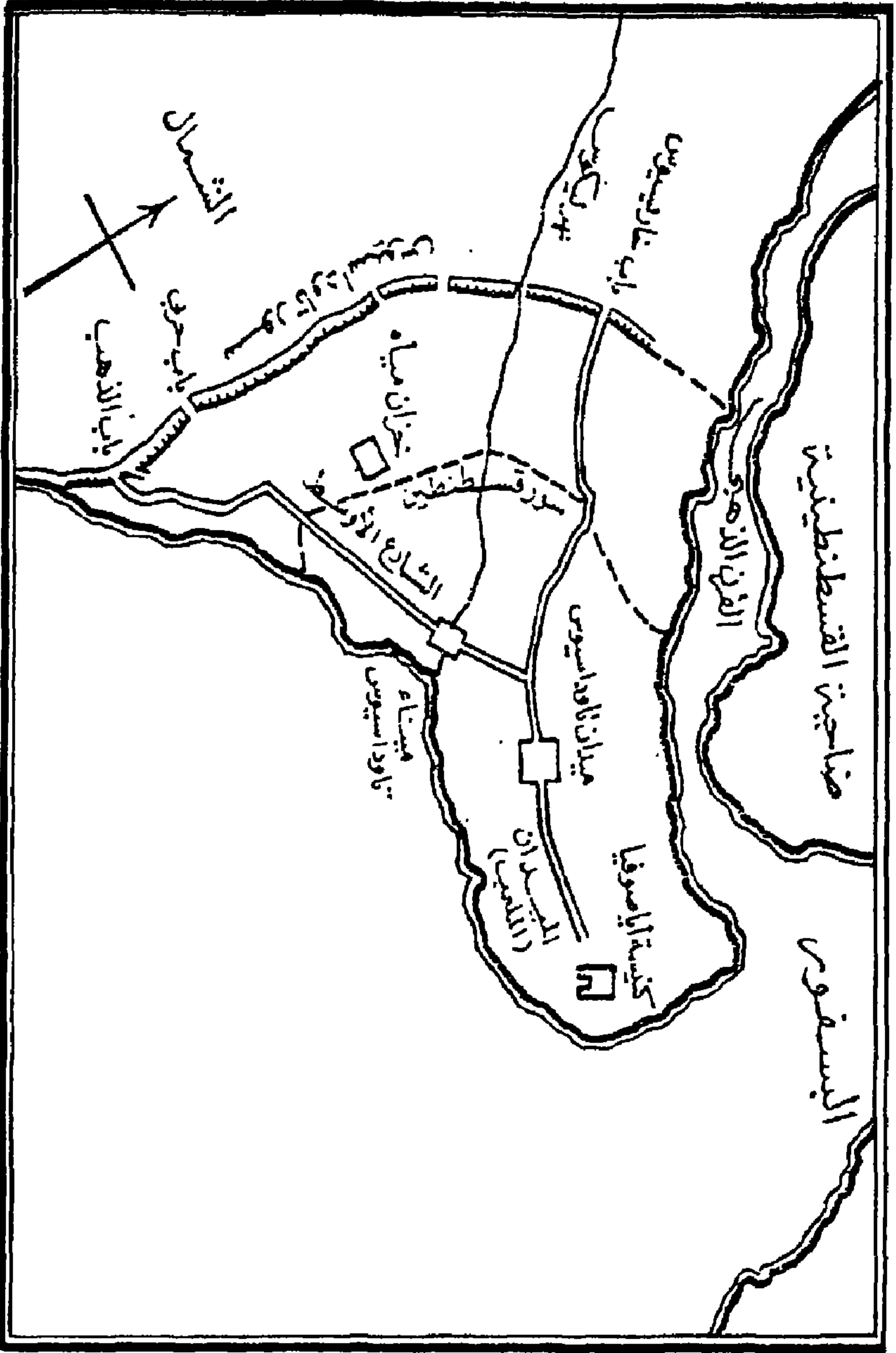
نقلا عن: Browning The Byzantine Europ. p. 16

التييمات البيزنطية من القرن السابع الى القرن التاسع



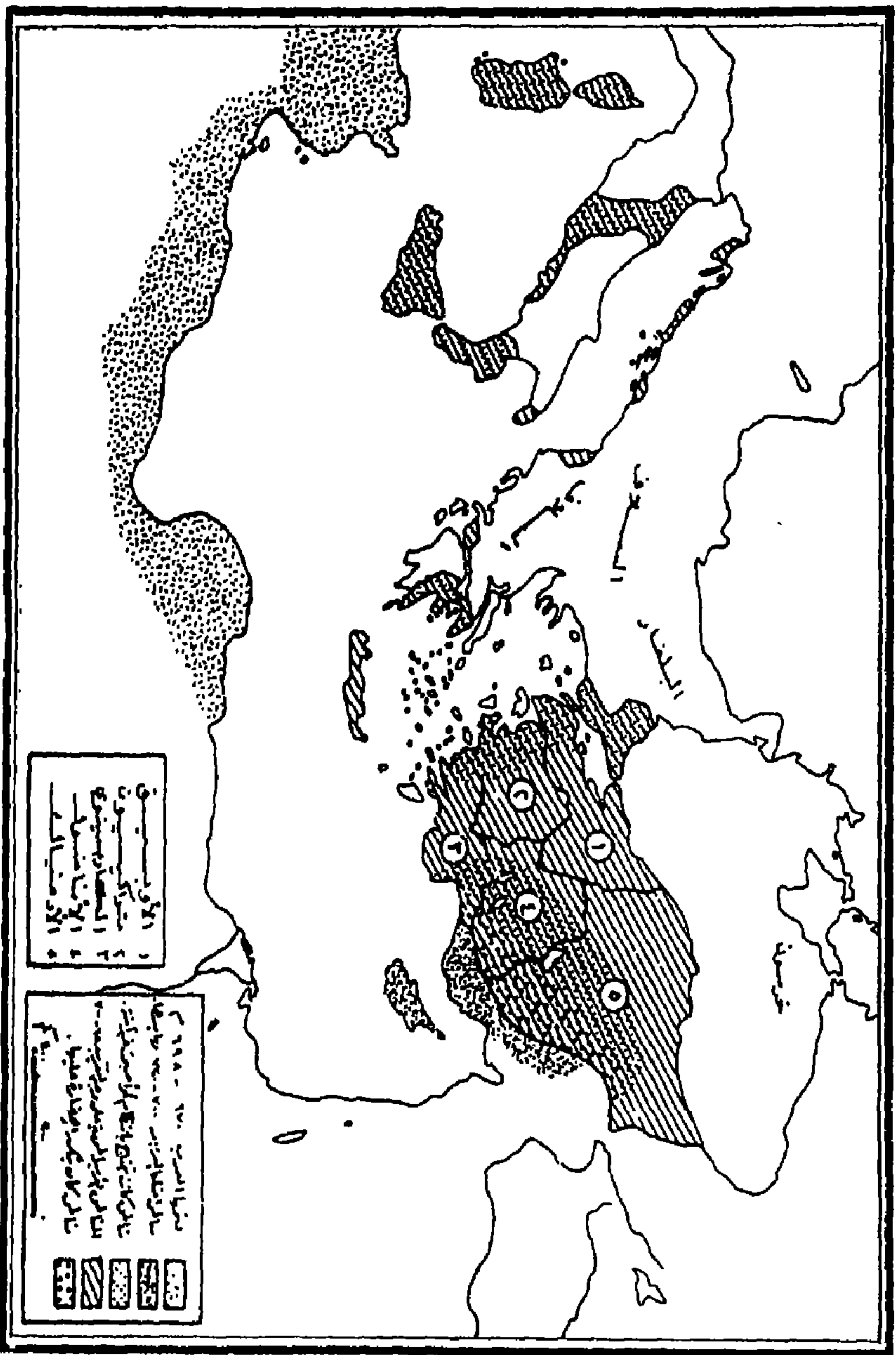
نقلا عن: Camb, med, hist, IV, p. 76

القسطنطينية تحت حصار الأسطول الإسلامي في عهد قسطنطين الرابع



نقلا عن: إيراهيم المدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص ١٤٩

الإمبراطورية البيزنطية في أواخر أيام الإمبراطور جستنيان الثاني



نقلا عن: Haldon, Byzantium in the seventh century, P. 65



فهرس المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
3	مقدمة البحث
15	تمهيد: أوضاع الإمبراطورية البيزنطية فى مطلع القرن السابع الميلادى
	الفصل الأول : التطورات التى طرأت على الإمبراطورية البيزنطية فى أواخر عهد الإمبراطور هرقل:
21	● التطورات السياسية والاقتصادية
31	● تطورات الصراع مع الفرس
49	● محاولة إصلاح الأوضاع الدينية
51	● نشأة الصراع مع المسلمين
	الفصل الثانى : وراثة العرش فى أعقاب وفاة الإمبراطور هرقل:
81	● نظام وراثة العرش فى الإمبراطورية البيزنطية
91	● التغييرات التى أحدثها الإمبراطور هرقل
101	● مارتينا ومشاركتها فى الحكم وأثر ذلك
103	● الثورة ضد مارتينا وابنها هرقليوناس
107	● انفراد قنسطانز الثانى بالعرش البيزنطى
	الفصل الثالث : الإمبراطورية البيزنطية تحت حكم الإمبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١ - ٦٦٨ م / ٢٠ - ٥٤٨ هـ):
113	● دور السناتو فى وصول قنسطانز الثانى إلى العرش

رقم الصفحة	الموضوع
119	● سياسة قنسطانز الثاني الدينية
127	● الصراع مع المسلمين في عهد الإمبراطور قنسطانز الثاني
153	● تحركات الإمبراطور قنسطانز الثاني في الغرب لاستعادة النفوذ البيزنطي
159	● استقرار الإمبراطور قنسطانز في الغرب وتفكيره في نقل العاصمة
175	● اغتيال الإمبراطور في سيراكوز بصقلية
الفصل الرابع : الإمبراطورية البيزنطية تحت حكم قنسطنطين الرابع (المتحى) (٦٦٨- ٦٨٥ م / ٤٨ - ٦٥هـ):	
181	● إخماد الثورة التي نشبت بعد مقتل والده
185	● الصراع مع المسلمين ، وحصار القسطنطينية وأسباب فشله
205	● الصراع البيزنطي / البلغاري
211	● الإصلاحات الداخلية والدينية
221	● مشكلة ولاية العهد ونهاية حكم قنسطنطين الرابع ..
الفصل الخامس : الإمبراطورية البيزنطية تحت حكم جستنيان الثاني (٦٨٥- ٧١١ م / ٦٥ - ٩٣هـ)	
235	● تجديد المعاهدة مع المسلمين
243	● السياسة الداخلية والخارجية للدولة في عهد جستنيان الثاني
253	● الأوضاع الدينية في عهد جستنيان الثاني

رقم الصفحة	الموضوع
253	● العلاقات الاقتصادية بين الدولتين
261	● الثورة على جستنيان الثاني ، ونفيه
265	● الإمبراطورية في فترة مغتصبى العرش
275	● عودة جستنيان الثاني إلى العرش
291	● مقتل جستنيان الثاني ونهاية الأسرة الهرقلية
301 الخاتمة
قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية	
313	● أولاً : المصادر العربية
317	● ثانياً : المراجع العربية والمعربة
327	● ثالثاً : المصادر والمراجع الأجنبية
المخرائط	
333	١- حدود الإمبراطورية البيزنطية سنة ٦٢٨م بعد الانتصار على الفرس
334	٢- حدود الإمبراطورية البيزنطية سنة ٦٤١م عند وفاة الإمبراطور هرقل
335	٣- الثيمات البيزنطية من القرن السابع إلى نهاية القرن التاسع الميلادى
336	٤- القسطنطينية تحت الحصار الإسلامى فى عهد الإمبراطور قسطنطين الرابع
337	٥- الإمبراطورية البيزنطية فى أواخر أيام الإمبراطور جستنيان الثانى

المؤلف فى سطور

المؤلف في سطور:

عمر يحيى محمد

رئيس قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، جدة.

من مواليد جدة.

رُفِيَ إلى درجة أستاذ مشارك بتاريخ ١٤٢٩/٢/٦ هـ.

ثم رئيس لقسم التاريخ بتاريخ ١٤٢٥/٨/١٢ هـ.

حصل على دكتوراه الفلسفة في التاريخ من جامعة الملك عبد العزيز بتقدير امتياز.

حصل على درجة الماجستير في التاريخ من جامعة الملك عبد العزيز بتقدير امتياز.

عمل قبل التحاقه بالجامعة في الصحافة المحلية، وتدرج فيها في عدة مناصب منها:

محرراً ثم سكرتيراً للتحريير في مجلة "أقرأ" لمدة خمس سنوات.

رئيس تحرير مكلف لمجلة "أقرأ" لمدة عام ونصف.

رشح ليكون رئيساً لتحرير مجلة "أقرأ" ولكنه قدم استقالته ليتفرغ للتحضير للماجستير والدكتوراه.

عمل مديراً للتحريير للتطوير بجريدة المدينة السعودية لمدة ستة أشهر.

عمل مديرًا للشؤون الصحفية بمكتب جريدة الندوة الإقليمي في جدة لمدة عام.

كتب في العديد من الصحف والمجلات السعودية والخليجية، وكان له عمود أسبوعي في جريدة "سعودي جازيت" الصادرة باللغة الإنجليزية عن مؤسسة عكاظ لمدة عامين وعمود في جريدة الندوة وجريدة البلاد.

أعد عددًا من البرامج الإذاعية لإذاعة جدة وشارك في العديد من اللقاءات والحوارات الإذاعية والتلفزيونية.

يشارك بفاعلية في الكثير من المنتديات والفعاليات الثقافية في مدينة جدة.

عضو اللجنة الإعلامية العليا بجامعة الملك عبد العزيز.

عضو الهيئة الاستشارية لجريدة أخبار الجامعة الصادرة عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبد العزيز.

عضو اتحاد المؤرخين العرب القاهرة، والجمعية التاريخية السعودية، وجمعية التاريخ والآثار لدول مجلس التعاون الخليجي.

لديه عدة أبحاث منشورة أو مقبولة للنشر في العديد من المجلات العلمية.

عمل مستشارًا غير متفرغ لمعالى وزير الحج للفترة من ١٥/٦/١٤٢٦هـ إلى

١٥/٦/١٤٢٧هـ.

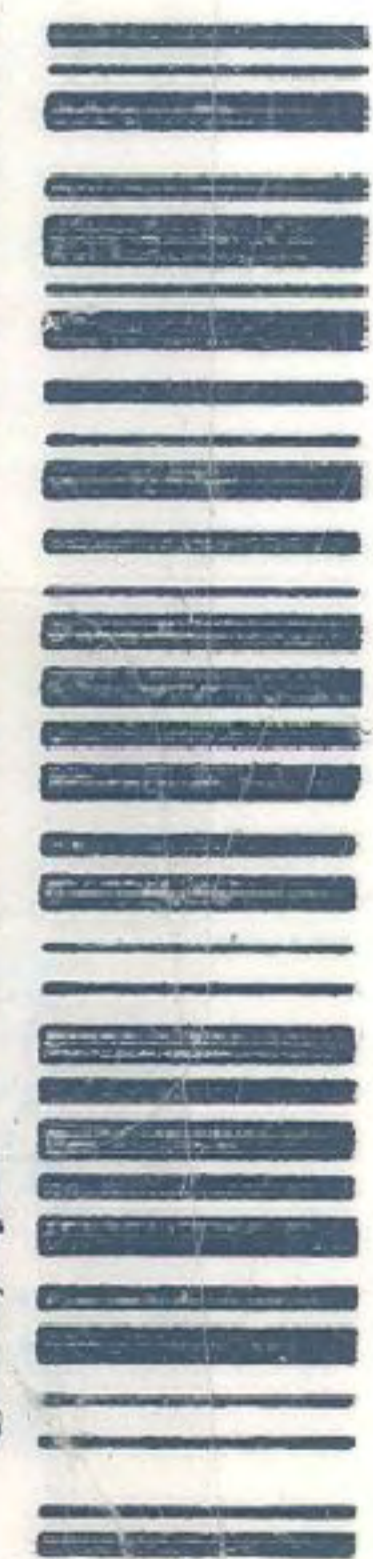
له عدد من الأبحاث المنشورة.

صدر قرار ترقينه إلى درجة أستاذ مشارك بتاريخ ١٥/١/١٤٢٩هـ.

التصحيح اللغوى: سوزان عبد العال

الإشراف الفنى: أنجى جورج

يقوم هذا الكتاب بدراسة الأوضاع التي كانت عليها الإمبراطورية البيزنطية خلال فترة حكم الإمبراطور هرقل، وما تطورت إليه الأوضاع بعد وفاته سنة ٦٤١م/٢٠هـ حتى نهاية حكم خلفائه من أسرته سنة ٧١١م/٩٣هـ، فقد شهدت الإمبراطورية خلال هذه الفترة تطورات سياسية واقتصادية وعسكرية، تركت آثارها -فيما بعد- على الأوضاع الداخلية للإمبراطورية وعلى علاقتها بالمسلمين وبالقوى الأخرى من لاتين وبلغار وخرز، وكل ذلك تمّ تناوله بالتفصيل في إطاره التاريخي.



BookNumber: 214692
Subjects: [المبراطورية البيزنطية--تاريخ] **al-balek**
Contributor: Bibliotheca Alexandrina
ISBN: 9789774790669 (pbk.) :
PublicationDate: 2009.
Project: Million Book Project
CallNumber: 949.502M9521
Language: Arabic
Authors: محمد، عمر يحيى
Publishers: المجلس الأعلى للثقافة
Keywords: [المبراطورية البيزنطية تاريخ] **al-balek**
Title: البيزنطيون و العرب، (641-711م) (20-93 هـ)
NumberOfPages: 348
WidthOfPages: 2144